أفراح ليلة القدر

- روايـــــــــة -

–

عبد الكريم ناصيف

أفراح ليلة القدر

- روايــــــــة -

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
1999

الحقوق كافة
محــفــوظــة
لاتــحــاد الـكـتّـاب الــعـرب

البريد الالكتروني:

Enternet : aru@net.sy
**Email : ** unecriv@net.sy

□□

"*.. وما أدراك ما ليلة القدر؟ ليلة القدر خير من ألف شهر*".. كان أبو ديبو يرتل في سره وهو يحمل معوله ويمضي إلى حاكورته التي تتكئ على نهر تورا جنوباً وشارع المالكي شرقاً.

"***تنزّل الملائكة والروح فيها بأمر ربهم من كل أمر. سلام هي حتى مطلع الفجر***" تابع وهو لا يدري لم أفاق وكل ما في ذهنه سورة ليلة القدر.. وما كانوا يروونه، وهو طفل، عن ابن حارتهم الذي طلعت له ليلة القدر فتمنى على الله "عزاً يدوم ومالاً يعوم ونسلاً إلى يوم القيامة يقوم "وصار بعد ذلك في أعلى المراتب، أمواله لا تأكلها النيران... ذريته في كل مكان..

أهو حلم رآه لكنه لا يستطيع تذكره؟ هو لا يدري. كل ما يدريه أنه أفاق على صلاة الفجر وكل شيء من حوله سلام.. عناء الأمس، عذابات اليوم، هموم الغد كلها بدت وكأنها تلاشت دفعة واحدة.. صفاء في ذهنه، سلام في نفسه.. سلام من حوله.. هكذا أفاق وكأنما تنفتح أمامه صفحة جديدة من الحياة، صفحة بيضاء لا لطخة فيها ولا شائبة.. توضأ، صلى الفجر.. أم ديبو ما زالت نائمة، لم يوقظها... ولماذا يعكر ذلك السلام؟ ثم خرج يتنسم أنسام الفجر وقد جاءت عليلة.. تحمل شيئاً من رطوبة الندى، إنعاش الغوطة وبرودة البادية..

"آه، لو تطلع لي ليلة القدر "تمتم متنهداً وهو يضرب بمعوله التربة، وحيداً خالي البال لم يفكر بعد بعذابات اليوم ولا هموم الغد.. ثم لم يرفع رأسه إلا وقد وقع على عينه أول شعاع للشمس. نظر إلى الشرق فإذا به مثلما تنبجس من فوهة البركان حممها الأولى حمراء لاهبة، كانت الشمس تنبجس من الأفق حمراء لاهبة أيضاً..

بتوجس وخوف نظر أبو ديبو إلى القرص المتوهج وهو يعلم كم يحمل من قيظ وحر وكم عليه أن يتحمل من ذلك القيظ والحر ليوفر القوت لمن في بيته من أفواه جائعة. "لكن ما لهم الأولاد لا يفيقون؟ "شرع يتساءل وهو يرفع رأسه عن الأرض متوقفاً عن الحفر ناظراً إلى البيت ذي الغرف الطينية الثلاث. أم ديبو تخرج من غرفة المؤونة يهيب بها أن أيقظي الأولاد فتسرع إلى الداخل بعد أن ترمق الشمس بنظرة فاحصة. – ديبو!! فهد!! شاهة!! أميرة! راحت تنادي وهي تطل برأسها فاتحة هذا الباب ثم ذاك.. هيا.. انهضوا.. الشمس الضحى وأنتم نيام.. هيا.. أبوكم يناديكم.. لحظة من لحظات السعادة تعيشها أم

ديبو وهي توقظهم كل صباح ثم لا تتركهم إلا وهم ينسلون إلى الحاكورة واحداً إثر الآخر، فاركين أعينهم، متمتمين بكلمات الاحتجاج والتذمر. "جيل عجيب حقاً! "تمتمت أم ديبو وهي تتجه إلى الحظيرة هازة رأسها، ساخرة. "يريد أن يأكل دون أن يعمل!! العطالة منى نفسه والبطالة قرة عينه أطعمه لا يشبع، كلمه لا يقنع.. لكأنه من نسل البغال "لكن أم ديبو أسرعت تكتم ضحكة "كيف ذاك والبغال لا تتناسل؟ هي وحدها من حيوانات الأرض كلها عقيمة، لا تحمل ولا تلد؟"

أم ديبو ناقمة على أولادها قليلاً، آسفة على حظها كثيراً، فهي مذ تزوجت ابن النايفة، سيف الدين، الذي كان الناس جميعاً يدعونه سيفو، والفقر لها بالمرصاد. والده كان غنياً يملك الحواكير والبساتين وحين تقدم لخطبتها لابنه حسدتها الكثيرات، لكن ما ان صار على فراش الموت حتى تبين أنه لم يعد غنياً ولم يعد يملك الحواكير والبساتين. أقوال كثيرة رددها الناس عن سبب ذلك، لكن ما الفائدة والفأس وقعت في الراس؟ ماضي أبي سيفو، مكانته الاجتماعية، اريحيته، كل ذلك كان قد اخفى حقيقة ما وصل إليه. بل إن أم ديبو لم تعلم أنها تزوجت رجلاً فقيراً إلا بعد أن جاءها ابنها البكر. بعدئذ بدأت الولادات تترى: صبي، بنت، بنت، صبي إلى أن سجلت الرقم الذي تنغلق به الدائرة، اثني عشر بطناً خلال خمسة وعشرين عاماً. لكن الموت كان يقف بالمرصاد. منجله يحصد ما تلد بطريقة فظة. واحد يعيش، اثنان يموتان. وهكذا لم يعش من الاثني عشر إلا أربعة مخلفاً ذلك في الصدر قلباً مجرحاً ليس فيه مكان لحراب أو نبال، ورحماً مستنزفة في البطن لم يبق فيها مكان لبنات أو صبيان. لكن حتى الأربعة الذين ظلوا لم يشف واحد منهم غلها. ديبو لم يصل إلى الصف السادس إلا بشق النفس ثم شق عصا الطاعة وأبى أن يتابع مؤثراً البطالة والتسكع على تعب الدروس ووجع القلب. فهد وصل إلى الصف الثامن لكن المراهقة جاءته مبكرة فعافت نفسه القلم والكتاب، العلوم والآداب ليلاحق البنات ويخلب لبه عشق الحسناوات. شاهة خلقت قصيرة القامة، داكنة البشرة، جهمة الوجه، أنفها أقرب لانتفاخة الحوجلة، عيناها صغيرتان كحبات الخرز، شعرها أجعد كأنها من نسل حام، وأبى والدها منذ البدء أن يرسلها إلى المدرسة. ثم ها هي في الثالثة والعشرين ولم يطلب يدها أحد.. بل حتى أميرة التي جاءت جميلة بعض الشيء، واعدة بعض الشيء، خيبت أملها أيضاً. هي في السادسة عشرة، وصلت إلى الصف الحادي عشر، طويلة، هيفاء، قوية البنية، كاملة العقل، حنطتها مشربة بتلك الحمرة التي تلفت نظر الرجال، لكنها ترفض الرجال. "ماذا؟ تقول إنها تريد متابعة الدراسة.." أم ديبو تود لو ترضى أميرة بنصيبها وتتزوج..

أكثر من خمسة خطاب أتوا إليها..

بعضهم في حال تغري الفتاة، لكن أميرة لا تخضع لإغراء. مائة مرةٍ حاولت أم ديبو إقناعها.. "يابنتي... البنات خلقن للزواج"، "يا بنتي، الفتاة أولاً وأخيراً للبيت.. للأولاد.."، "أميرة.. تزوجي قبل أن تكبري.. أمك تزوجت وهي في الثالثة عشرة".. "غدا تعنسين كأختك فلماذا عنادك؟" لكن أميرة، ككل أبناء جيلها لا تقنع.. ولا تشفق على أمها التي يلاحقها الفقر وسوء الحظ.

سوء الحظ لاحقها حتى في بقرتها العطراء التي كثيراً ما ترد عنهم غائلة الجوع.. قبل ثلاثة أسابيع بدت عليها علائم المرض، راحت تهزل، تضعف، حتى كادت تنفق.. أم ديبو قطعت منها الأمل.. فالجارات حولها كن يتناقلن أن هناك طاعوناً يجتاح البقر كله من شمالي البلاد إلى جنوبيها ومن شرقيها إلى غربيها.." أللبقر طاعون؟ حقاً إنه زمن العجائب.. يسمع فيه المرء ما لم يسمع به أبوه وجده". لكن ربما بقية من حظ وقرطها الذهبي أنعشا البقرة قليلاً فقد جاؤوها بطبيب حقنها حقنة وأمر لها بأدوية وعقاقير بدت بعدها وكأنها تتماثل للشفاء..

–ويلاه!! ويلي!! صاحت أم ديبو صيحة كأنها من فم السكين وهي تخرج من الحظيرة بعد أن رأت بقرتها جثة هامدة.. العطراء ماتت.. بقرتنا ماتت.. تابعت صياحها وهي تجري بجرمها الثقيل نحو الزوج الذي خيل إليه حين أفاق أنه كان في ليلة القدر التي هي سلام حتى مطلع الفجر..

واسعاً انداح الصوت، مع الانديـاح حصل اضطراب وجلبة.. جري إلى الحظيرة، سؤال من هنا، تعجب من هناك، ثم انكسار وحزن.. بكاء ودموع والرجل وولداه يجرون بقرتهم بعيداً، ثم يدفنونها فيأمنون رائحتها ومكروباتها..

"يا لليلة القدر!!" راح أبو ديبو يتمتم في سره وهو يعود من جنازة عطرائه متهدل الكتفين، متهدل الذراعين، متهدل الأذنين، جندياً يجرجر أذيال الهزيمة. "تتفاءل بالخير فتلقى الشر "لكنه لم ينبس بحرف، وما جدوى الكلام؟

امرأته، ولداه، بنته، كلهم ينتظرون أن يقول شيئاً، لكن ما عساه يقول؟ الصمت أبلغ الكلام.. فليصمت وليعاود العمل.. ليعاودوا جميعاً العمل.. والعطراء لا يجديها بكاء ولا عويل...

بإشارة من يده.. عاد أفراد الأسرة إلى العمل من جديد يعزقون ويحفرون.. فيما عادت أم ديبو إلى غرفة المؤونة تعد الإفطار. دامعة العينين.. محترقة القلب.. غلت الحليب على النار حزينة كسيرة.. أعدت الشنكليش، قطع الجبن.. فكل شيء يذكرها بالعطراء، الرفيقة الصديقة التي كانت تحمل عنها هم العائلة

وإطعام العائلة.. "لكن.. لا.. أسرعي لا تتأخري".. راحت تخاطب نفسها وهي تعلم أن تأخرها يعني الجوع والجوع يعني أن يرغي زوجها ويزبد.. وهي تعرفه.. أبو ديبو لا يتحمل الجوع.. إن عضه صرخ في الحال ووقع صراخه على رأسها هي. على عجل وضعت صحون الطعام على طبق القش، حملته على رأسها ثم مضت إلى الحاكورة. الأب، الولدان، وشاهة يعزقون التربة. وحدها أميرة غائبة.. هي تذهب مع طلوع الشمس إلى مركز التدريب.. "ماذا؟ قال فتوة قال.. فتيات يتدربن على الأعمال العسكرية لكأن البلاد خلت من الرجال؟" تمتمت لنفسها وهي تلوح برأسها ذات اليمين وذات الشمال، "لو سمع أبو زيد الهلالي بذلك لفقع ضحكاً.."

أبصر الزوج زوجته حاملة صينية الطعام فانفرجت أسارير وجهه أو كادت.ألقى بالمعزقة جانباً ومسح بكمه عرقه ثم نفض الغبار عن قميصه المتسخ كالح اللون وسرواله المثقّب المرقع ومضى إلى ظل شجرة الجوز وقد سمقت عالياً وامتدت واسعاً هنا وهناك ضاربة جذورها في أعماق تورا تعب منه الماء عبا.

حول الصينية جلسوا. أسعد اللحظات لدى أم ديبو تلك التي تجتمع فيها العائلة، يمازح الأولاد بعضهم بعضاً، يروي أحدهم طرفة، يعلق هذا على ذاك ويضحكون.. صحيح أنهم فقراء لا يملكون الكثير، لكنهم سعداء، يعملون معاً، يأكلون معاً، يضحكون معاً ويشاطر كل منهم الآخر فرحه، ترحه، همه، سعادته. هذا الصباح فقط يأكلون صامتين. الحزن يضرب أطنابه عليهم وقد دفنوا لتوهم عطراءهم الغالية. ماذا يقول واحدهم للآخر؟ بم يتحدثون؟ وجه الأب عابس قمطرير.. كتفاه متهدلتان، أذناه متهدلتان وهو يشعر بيأس العالم كله يحل محل ذلك السلام الذي ظل حتى مطلع الفجر.. موت البقرة كان قد هيج عليه المواجع، ذكره بهمه الأكبر..

قبل يومين فقط كانوا قد بدأوا بإعداد الأرض للزراعة الشتوية: ملفوف، زهرة، فجل، جزر، وكان عليهم أن يزرعوها في الحال. لكن حتى اللحظة لم يستطع سيف الدين النايفة تأمين البذار.. ثمنه بات غالياً.. لم يعد أحد يرضى بزراعة البذار المحلي.. البذار المستورد أفضل نوعية وأوفر غلة لكنه غال: علبة البذار بمئات الليرات وليس لديه ليرة منها.. "ماذا تفعل يا أبا ديبو؟ ماذا تفعل؟" راح يتساءل وهو يمضغ لقمته على مهل ثم لا يجد نفسه إلا وهو يطلق تنهيدة طويلة عميقة.

–يعوض الله يا رجل!! قالت امرأته وكل ما في ذهنها أنه يتنهد على مصابه. تجاهل الرجل تعليقها رافعاً صحن الحليب إلى فمه شارباً ما فيه بصوت عالٍ أنساه حتى ذلك التعليق، لكن فهداً لم ينسَ فعلق من جديد.

–هذا الطاعون وباء مخادع فتاك.. يقال انه قضى على قطعان كاملة من الأبقار بهذه الطريقة.

–مخادع وحسب؟ حسبت أنها تحسنت على المعالجة، لكن ها هي ذي تموت بعد أن استنزفت آخر قرش لدينا، قال الأب محتجاً زافراً أيضاً: طبيب، أدوية، عقاقير، لولا ما أنفقناه عليها لكان باستطاعتنا الآن شراء البذار.

–كل سنة هكذا، نعجز عن شراء البذار، عاد فهد يعلق بشيء من سخرية مكتومة.

–وكل سنة سيكون هناك سبب يجعلنا نعجز عن شراء البذار، تابع ديبو بغير سخرية.

–إذن لماذا نحفر ونعزق؟ تساءلت شاهة أخيراً وكأنها وجدت الحجة المفحمة التي تكفل لها الهروب من العمل. هزت الأم رأسها وهي تنقل ناظريها بين أولادها، متحسرة. هوذا ما يزعجها في أولادها: كره العمل.. حب البطالة وكأنهم لا يصلحون لشيء.

–حقاً، لماذا نشتغل إذا لم يكن لدينا بذار؟ أعاد فهد سؤال أخته مؤكداً على عدم الجدوى من كل ما بذلوه أو يبذلونه من جهد.

–يفرجها الله يا بني.. بدأت الأم بنبرة من لوم.

–كيف يفرجها، قاطع الولد أمه بمزيج من السخرية والجد، والأبواب كلها مسدودة؟.. صدقيني يا أمي.. مذ وعيت الدنيا لم أر باباً أمامنا إلا مسدوداً.. لقد كتب علينا الفقر نرسف في أغلاله إلى الأبد.

–فال الله ولا فالك.. ردت الأم ببقية التفاؤل في نبرتها. البذار سيأتي. أبوك دائماً يدبر رأسه..

–لكنه هذه المرة لن يستطيع، تدخلت شاهة وكلها أمل ألا يستطيع.. أنت تعلمين أنه طرق الكثير من الأبواب لكن لا أحد لأحد.

–بل هناك.. ردت الأم بحزم وعتب، ثم التفتت إلى زوجها حاثة إياه، قل شيئاً.. تكلم يا رجل؟

–ماذا أقول وأنا لا أملك قرشاً وليس في يدي حيلة؟

–اذهب إلى أخيك .

–مصباح!! رد دون أن يرفع رأسه..

–أجل.. اذهب إليه.. اطلب منه وما أحسبه يخجلك..

اكتفى الزوج بالتنهد دون أن يرد، علامة الحيرة والتردد.

"آه لو كنت كأخيك!! لو تعلمت مثله فقط "راحت الزوجة تفكر وهي تستعرض في سرها البون الشاسع بين الأخوين: الثريا والثرى. كيف ذلك يا رب؟ "مائة مرة تساءلت، لماذا خلقهما الله هكذا مختلفين؟ ولماذا كان نصيبها الأسوأ؟ مصباح يصغره بخمسة عشر شهراً مع ذلك يبدو الآن وكأنه يصغره بخمسة عشر عاماً. أهي الثياب الجيدة؟ الأناقة؟ الهيبة والمكانة؟ أم ديبو لا تعلم، كل ما تعلمه أن مصباح يبدو وكأن الزمن لا يمر عليه وإن مر فلكي يزيده رونقاً وجمالاً. شعره الكث ما يزال أسود ليس فيه شائبة من بياض. أسنانه قوية تطحن الصخر، قوامه ممشوق، ملؤه الصحة والعافية.. أهو العلم يفعل ذلك؟ النجاح؟ أم ديبو واثقة أن أخاه سيفو لو تعلم مثله وأصبح موظفاً معتبراً، راتبه يكفيه ويفيض لما حل به ما حل: أسنانه كانت ستظل دون أن يضطر لقلع نصفها تاركاً فمه نصف مغارة. شعره لم يكن ليشيب، فالكل يقول إن الشيب رفيق الهم... والهموم هي وحدها التي أشعلت الشيب في رأس سيفو، كذلك كان قوامه سيظل منتصباً، وهامته مرتفعة، بالتأكيد ما كان سيضطر لاحنائهما لولا الفقر والكد.

طوال النهار وتحت الشمس الحارقة أو البرد القارس يعمل زوجها ولا يكسب ما يقيم الأود، بينما يذهب مصباح بضع ساعات إلى جامعته، منظفاً مقطفاً، كما يقولون، يأمر وينهى، وفي آخر الشهر يعدون له أوراقاً خضراء كبيرة من أمهات المئات "هنيئاً لك يا أم مأمون، عشت مدللة مستتة، لا ينقصك شيء".

وأطلقت أم ديبو آهة فيها من الحرارة ما يكفي لإذابة جبل من الجليد.

كانت قد عادت إلى المطبخ تجلي وتغسل، تاركة الأسرة تعمل في الحقل.. جسمها، هي الأخرى، لم يعد صالحاً للعمل في الزراعة. فهي، التي كانت رشيقة كعود البان أيام زمان، راحت تمتلئ بطناً بعد بطن، تتكدس تحت جلدها الشحوم طبقة فوق طبقة حتى بات يصعب عليها أن تحفر أو تعزق" حسبك شغل البيت" قال لها أبو ديبو ذات يوم وهو يسمعها تلهث منقطعة الأنفاس. بعضهم قال لها "اشتغلي تذب شحومك". بعضهم الآخر نصحها بماذا؟ "شيء يسمونه الر.. الروجـــ.. يم" أجابت نفسها وهي تعصر دماغها عصراً قبل أن تتذكر الكلمة "قال.. عليك أن تأكلي وفق نظام معين.. وبكميات معينة لا تزيد غراماً ولا تنقص" راحت تفكر هازة رأسها عجباً.." لكن كيف للمرء أن يأكل كذلك؟ كيف له أن يتحكم بطعامه وشرابه..؟ الصحة أعطية من الله.. الشهية هبة أخرى منه.. فكيف يرد المرء أعطية الله وهبته؟" وراحت أم ديبو تستعرض صديقاتها النحيفات الناحلات كعيدان الحطب، مؤكدة في سرها أنهن يأكلن أكثر منها

لكنهن لا يسمن أما هي فتسمن.. لو اكتفت بالماء والهواء لسمنت.. هي ذي الهبة الإلهية فكيف يريدونها أن تتنكر لها وتمتنع عن أكل القشدة والزبدة، الأرز والبرغل؟

سلفتها أم مأمون، تلك المعروقة الناحلة، ما زالت معروقة ناحلة مذ تزوجت.. هي.. حاولت، بالتأكيد، أن تسمن لكنها لم تستطع". ظلت عوجا وأم كراع والسمن فيها ضاع" رددت أم ديبو لنفسها بنوع من الشماتة وهي تتصور سلفتها المعروقة الناحلة، بعدئذ تابعت تمتمتها وكأنها تخاطب أبا مأمون أمامها "يا زوجها لا تفرح، ترى عصوصها تجرح ورجليها للطبل تصلح" لكنها هذه المرة لم تستطع منع نفسها من التبسم.

فجأة نظرت حولها متفحصة فانكتمت ابتسامتها ليحل محلها التجهم. مطبخها العتيق متقشر الجدران، كالح السقف ذكرها بمطبخ أم مأمون.. البون شاسع بينهما مثلما هو شاسع بين صاحبيهما!! لكأن المطبخ تجسيد لصاحبه، "آه.. فقط لو تعلّم أبو ديبو، إذن لكان كأبي مأمون وكان لي مطبخ زوجته!! "قالت لنفسها متنهدة من جديد وهي تستعرض ما جره عليها كسل سيفو في صغره وهروبه من المدرسة ولحاقه برفاق السوء. "رغم أنني كنت أصغر منه "قال لها مصباح ذات مرة" إلا أنني بذلت المستحيل لكي نظل معاً، نجد وندرس.. كان بودي أن ننجح معاً ونصعد معاً، لكنه كان يكره الدرس بل حتى القراءة والكتابة لم يتقنهما إلا بالويل" ولم يملك أبو ديبو إذ ذاك رداً على أخيه.

"هي ذي النتيجة إذن يا سيفو!! الفقر، المهانة، التعب، الشقاء وفوق هذا وذاك لا تجد ثمن البذار لارضك!! الفشل يجر الفشل كما يجر القمل الصئبان.. أخفقت أنت فأخفق أولادك.. نجح هو فنجح أولاده أيضاً!! مأمون مهندس، أمين في بلاد "برا" يدرس مالا يعلم إلا الله والآن يقبض الأموال الطائلة كل شهر.. نور تدرس الطب.. وحدهم أولادي خائبون ضائعون لم يطلع منهم شيء"..

وصلت أميرة مسرعة لاهثة، العرق يتصبب منها فحدجتها الأم بنظرة فيها الكثير من الحسرة.

–أميرة!! ابنتي!! قالت وهي تقترب منها بسيما الرجاء، ستتابعين دراستك حتى النهاية، أليس كذلك؟

–أتابع دراستي؟ أتريدين ذلك؟ أعادت أميرة السؤال وهي في أشد حالات الاستغراب.

–أجل.. أريده..

–لكن.. كنت تريدينني أن أتزوج؟

-الآن أريدك أن تتخذي عدتك للحياة..تكافحي الفقر فلا تعيشي بائسة مثل أمك..

-هذا ما كنت أقوله لك.. في كل مرة يأتيني خاطب كنت أضطر لخوض معركة معك.. فما الذي جرى؟ كيف تغيرت؟

-الحياة تغير يا بنتي.. هذه المصائب المتتالية.. ثم انك ذكية نشيطة واعية، لا تقلين بشيء عن أولاد عمك، فلماذا لا تكونين مثلهم؟

-الحمد لله أنك اقتنعت.. قالت أميرة شبه هاتفة وهي تسرع فرحة إلى غرفتها تخلع اللباس العسكري الذي كان ملطخاً ببقع الدهان. لقد أرغمتها المدربة على الإمساك طوال ساعات التدريب بالفرشاة وعلبة الدهان كي تدهن حجارة الأرصفة. هي لا تعلم لماذا يرغمونها على دهن الحجارة وكنس الطرق ولملمة الأوساخ من هنا وهناك، بل لا تعلم لماذا يعاملونهم تلك المعاملة المهينة، لكأنهم يتعمدون تشريبهم الذل، تمريغهم بالوحل. مع ذلك لم تكن تستطيع الشكوى والاحتجاج، فأمها ستستغل ذلك على الفور.

"لكن ما لها اليوم أمي؟" تساءلت أميرة وهي تغسل يديها ووجهها علها تطفئ شيئاً من حر آب اللهاب. "لا تقلين بشيء عن أولاد عمك، فلماذا لا تكونين مثلهم؟ "رددت كلام أمها متفكرة مستغربة، فذلك السؤال هو نفسه الذي كان يحفزها دائماً لأن تجد وتدرس، لكن كيف فكرت به أمها أخيراً؟ في المطبخ، وهما تعدان طعام الغداء، تكلمت الأم لابنتها طويلاً عن المعاناة التي تكابدها مع والدها وقد ساءت بهما الحال وقل المال.. بينما يعيش عمها خير عيش:

-هو في الذروة وأبوك في الحضيض، قالت لها أخيراً، والسبب العلم.. إذن العلم ليس نوراً وحسب بل هو عيش رغيد أيضاً..

ولم تملك أميرة إلا أن تندفع إلى أمها مقبلة متعلقة بعنقها، فرحاً وامتناناً. مذ عرفت الدنيا كان عمها مصباح مثلها الأعلى. لم يكن أحب على قلبها من أن تذهب إلى بيته تقضي النهار مع أسرته. هناك تشعر أنها في الوسط الذي يمكنها أن تنمو وتترعرع. العم ذكي هادئ، رقيق طيب، يخيل إليها أنه يعرف كل شيء، حتى لتعجب في سرها، من أين أتى بكل تلك المعرفة، فيما يفتقر أبوها إلى الحد الأدنى منها. أميرة تحمل إليه كل ما يعترضها في الحياة، وهو يجيب، يستمع إليها، يحاورها وبكل حنو يرعى الغرسة الصغيرة التي تحتاج للكثير من الماء والغذاء. "ماذا تريدين أن تكوني؟ "سألها وهي صغيرة ربما لم تتجاوز

العاشرة من العمر. "أستاذة مثلك" أجابته "لكن الكيمياء خطرة يا عمي.. فيها تفاعلات وانفجارات.." لكن فيها خلق.. صنع الحياة من جديد.. ألم تقل لي أنت ذلك؟" ورد عليها العم الفرح بابنة أخيه النبيهة التي تحفظ كل ما يقول: "صحيح.. هي خلق وصنع.. لكنك بنت.. أخشى عليها خشونة الكيمياء وخطورتها".

"لكنك دائماً تقول البنت كالصبي.. لا فرق إلا في الدأب والمثابرة.. ألم تقل لي إن مدام كوري هي التي اكتشفت الذرة، سابقة زوجها لأنها كانت أكثر منه دأباً ومثابرة؟"، "أجل.. قلت ذلك". تابع معها الحوار وهو أشد فرحاً" والآن أكرره أيضاً، البنت كالصبي سواء بسواء لهما الحقوق ذاتها وعليهما الواجبات ذاتها.. مع ذلك.. أود لو أراك طبيبة تساعدين المرضى وتسهمين في الحفاظ على الحياة". منذئذ بات الطب هدفها، راحت أحلامها كلها تتركز على تلك الصورة" مريلة بيضاء وسماعة تتدلى من الأذنين"، فنفرت الأم أكثر وثقل الهم على الأب أكثر.." من أين آتي لك بالمال والطب بحاجة إلى كثير من الفتّ؟" كان الأب يحتج، أما الأم فقد كانت تحتج، لكن لسبب آخر..." ذلك يعني سنين طويلة من الدراسة ثم العنوسة والبوار.. فمن يتزوج ابنة خمس وعشرين؟" لكن أبناء عمها كانوا يشجعونها كأبيهم. مأمون لا ينفك يزين لهاذلك الحلم، يلمح من حين إلى حين، يلقي بنكتة يشد بها من أزر طبيبة المستقبل وتطلعاتها الطموحة. ابنة عمها نور التي تحبها أكثر من أختها شاهة تدفع بها حافزة محمسة: "إذا غامرت في شرف مروم.. فلا ترض بما دون النجوم".

بل حتى أمين أرسل لها من فرنسا أكثر من رسالة يؤكد فيها على أن تجد وتدرس.. أولاد عمها أقرب إلى قلبها من أخوتها أنفسهم، لهذا لا تقضي عطلة إلا بينهم، ولا فرصة متاحة إلا وتستغلها للذهاب إليهم.. الفرصة المتاحة تستغلها أميرة في الحال. فعلى الغداء أعادت الأم طرح المسألة:

-اسمع مني.. اذهب إلى أخيك، سيعطيك ثمن البذار.. وللتو ثنى دياب وفهد كلاهما على الاقتراح، فيما اندفعت أميرة بحماسة تشدد الضغط:

-أجل، أبي.. الحل عند عمي.. اذهب إليه وأنا أذهب معك.. أميرة تشعر أن ثمة شيئاً خفياً في نفس والدها يجعله ينأى عن أخيه.. أهي الغيرة؟ أهو الحسد؟ هي لا تدري، لكنها تراه في عينيه، تلمسه في نبرة صوته، في بعض تلميحاته، تصريحاته، ألا يقولون: كل ذي نعمة محسود؟ عمها ذو نعمة، إذن لم لا يشعر أخوه تجاهه بالغيرة والحسد؟

ربما كان العم نفسه يرى ذلك في عيني أخيه، لكنه يتجاهله، يغض الطرف دائماً ويسعى لمرضاة أخيه، بل لا يعمل إلا ما هو في مصلحته...

حين أراد مصباح أن يتزوج، مضى إلى المهاجرين، اشترى قطعة أرض، بنى عليها بيتاً ثم غادر بيت العائلة دون أن يأخذ ملعقة من إرث أبيه. الحاكورة ذات الدونمات الخمسة قدمها لأخيه "هي حلال زلال لك، وكل ما تحتاجه من مال.. أنا بخدمتك.. فقط أريدك أن تقف على رجليك". "وأنت؟" تدخل بعض الناس "حقك ينبغي أن تأخذه. ارث أبيك يجب ألا تتنازل عنه". "لا، حقي أخذته علماً وشهادات، وإرث أبي ما حصلت عليه من وظيفة ومكانة"، قال لهم ثم حسم الأمر فمضى إلى السجل العقاري يتنازل لأخيه عن كل ما تركه والدهما.

رغم هذا، كان ثمة ذلك الشيء الذي يقلق أميرة، تلك النظرة في عيني أبيها. ترى أو يكره والدها أن يكون بحاجة لأخيه؟ أو يزعجه أن يجد نفسه مضطراً لأن يسأله الرأي ؟ أو يضايقه ما يوجهه له من ملاحظات، هو الأكثر فهماً وعلماً؟ أميرة لا تدري.. كل ما تدريه أن أباها كثيراً ما وجد نفسه بحاجة إلى عمها، مثلما هي حاله اليوم. إنه الخيار الوحيد أمامه أو ظلت الأرض بلا بذار.

صعوداً قطع الأب وابنته الطريق، فقاسيون الذي يشمخ عالياً، يبدأ من سرير بردى ليرتفع بأناة.. سفحه منبسط، متدرج.. حيث يزيد وتورا يسقيان البساتين التي تكسوه ثياباً خضراء زاهية، والحواكير التي تزود أهل دمشق بخضرواتهم وفواكههم. من الحواكير إلى المهاجرين الطريق مستقيم والمسافة قصيرة، تقطعها أميرة وأبوها على مهل، تسأله ويجيب، وفي ذهنها أن تسبر حقيقة النفور الخفي الأبدي الذي يسم العلاقة بين الأخوين، لكن الكبار يكتمون.. يكبسون الملح على جروحهم غالباً ويكتمون. ماذا؟ أيقول لها إنه لا يشعر تجاه أخيه الصغير إلا بالخوف والتهيب؟ أيبوح لها برغبته في أن يمارس دور الكبير المرشد، الآمر الناهي، لكن الظروف لم تتح له ذلك فقلبت الأمور رأساً على عقب جاعلة الصغير كبيراً والكبير صغيراً؟.

في فيه ماء، هو يعلم ذلك ويعلم أنه عاجز عن البوح بما في نفسه من كل موجع. الطبيعة وهبت أخاه الذكاء، فصرفه معرفة وعلماً ثم مالاً ونجاحاً.. وليس عليه، هو الذي حرمته الطبيعة من تلك الهبة إلا أن يغبطه.. لو لم يكن مصباح أخاه لحسده، لكن، والحال كذلك، عليه أن يغبطه، أن يفرح له، ضارباً عرض الحائط بكل ما يعتمل في داخله من مشاعر وأحاسيس.

مصباح هو المتعلم المستنير ذو الرأي السديد دائماً وعليه هو سيف الدين الذي يكبره بخمسة عشر شهراً أن يذهب إليه، يرجوه نصيحته، يطلب رأيه، إذ ما من مرة اختلفا في الرأي إلا وتبين أن مصباحاً على حق وهو على باطل. سيفو يعرف ذلك. عرفه يوم اختلفا بشأن ديبو.. قال له مصباح "ديبو غير صالح

للدراسة، علمه مهنة من المهن" لكن أبا ديبو غض النظر مهملاً كلام أخيه إلى أن سيق ديبو إلى الخدمة الالزامية دون أن يدرس أو يكسب مهنة.. مع أخيه فهد عادت الكرة ثانية..." الولد شديد المراهقة بحاجة إلى ضبط وربط.. اضبطه يا أخي أوضاع". لكن أبا ديبو لا يكره كالضبط والربط.. هو غارق في هموم الحياة، مشاكل العيش فأنّى له أن يضبط ويربط؟ ومن جديد ضاع ولد آخر، فكيف لا يشعر مصباح بالقهر من أخيه ولا يشعر سيفو بالذنب؟ كيف لا يشعران بالبعاد وهما عاجزان عن الاتفاق على شيء.

مع ذلك، كان كلا الأخوين حريصاً على إبقاء شعرة معاوية بينهما، إن شدها الأول أرخاها الآخر وإن شدها الآخر أرخاها الأول. مصباح يشفق على سيف الدين وهو يعلم أنه لا يعرف غير ذلك، وما من تصرف إلا حسب المعرفة، فيما لا يملك سيف الدين إلا أن يعترف بنبل أخيه، سخائه وكرمه، سعة معرفته وسداد رأيه

–أهلاً.. أهلاً.. هتف مصباح، وهو يرحب بأخيه آخذاً إياه بالأحضان لاثماً أميرة على وجنتيها، سائراً بها إلى غرفة الضيوف وذراعه على كتفها. لقد كان على يقين أنها هي التي جاءت بأبيها، وأن ثمة حاجة ملحة أرغمته على المجيء.. الأسرة كلها تحلقت حول الضيفين، تبودلت الأحاديث، قدمت الحلويات والقهوة قبل أن تمضي نور بأميرة إلى غرفتها، ثم يخرج مأمون إلى عمل عاجل وتنصرف الأم إلى المطبخ فيتاح لمصباح أن يسأل أخاه:

–خير.. أبا دياب، بدأ مصباح، الحريص دائماً على أن يبدي لأخيه كل احترام، كأني أرى في فمك كلاماً..

–آه!! بدأ سيف الدين متنهداً ثم تعثر لكأنه خجل من أن يطلب.

–قل.. أخي أبا دياب! ما حاجتك؟ حثه الأخ الأصغر وهو يعلم حرج أخيه الكبير في أن يجد نفسه دائماً بحاجة إليه..

–اللعنة على الحاجة!! "اللعنة على الفقر، ماذا أفعل وسوء الحظ لا يفارقني لكأنه التوأم الذي ولد معي؟ ثم روى لأخيه قصته مع طاعون البقر، النفقات، الأدوية ومصابه فوق كل ذلك بأغلى ما يملك.

–لا عليك، أبا دياب.. مر ونحن نلبي.. قال مصباح بعد أن أبدى كل تعاطف وأسف على مصابه.

–أريد.. ثمن البذار.. أجاب بقدر غير قليل من عي وتلعثم، ثم نظر إلى عيني أخيه. رأى فيهما تساؤلاً فتابع: خمسمائة ليرة..

–تكرم عينك، أجاب الأخ مبتسماً مربتاً كتف أخيه. فقط خمسمائة ليرة..

بسيطة يا رجل!! غداً أقبض راتبي وغداً يكون المبلغ عندك.

-كـــ.. كـــ.. كم.. أشكرك أبا مأمون!! إنك تزيح هماً كبيراً عن قلبي..

-ولو يا رجل.. نحن أخوة.. والأخوة لبعضهم.. ألم يعلمنا هكذا المرحوم؟ بهزة من رأسه أجاب أبو دياب مطلقاً تنهيدة حرى تحمل أكثر من معنى ثم قال وهو يهم بالنهوض:

-الآن.. مصباح.. تسمح لي!!

-لا والله لا تذهب، رد الأخ وهو يضع يده على كتف أخيه، مثبتاً إياه، من زمن طويل لم نرك.. هي فرصة.. نتعشى.. نسهر..

كان الأخوان نادراً ما يلتقيان: عيد، مناسبة عائلية، موت.. ذلك وحده ما كان يجمعهما.

-لا.. لا بد من ذهابنا.. وشكراً على كرمك، قال الأخ الكبير وهو يشير إلى صحون الحلويات والقهوة.

-أميرة.. أميرة.. نادى ابنته بصوت عال وهو يقف..

-أميرة تبقى عندي الليلة، قالت نور وهي تسرع مع ابنة عمها إلى حيث الوالدان.

-لا، نور، تدخلت أميرة قبل أن يتسنى لأبيها الإجابة، لدي معسكر وعلي أن أكون الساعة السابعة هناك.

-لماذا؟ لكي تكنسي الشوارع؟ سألت نور ضاحكة، وقد تذكرت ما كانوا يفعلونه بهم في مثل تلك المعسكرات.

-بل أدهن الأرصفة، ردت الفتاة هازة رأسها هزة الاحتجاج.

-وماذا في ذلك؟ تدخل العم، دهن الأرصفة، كنس الشوارع، تنظيف الغابات.. كلها أهداف نبيلة تخدم المجتمع وتفيد الوطن.

-أبي.. ماذا تقول؟ ردت نور بنبرة امتعاض.

-أقول.. هذا كله يجعل المدينة أجمل.. البيئة أنظف.. صدقوني.. نحن شعب يعاني من التلوث.. القذارة.. كل شيء هنا قذر، مدننا، قرانا.. لو ذهب واحدكم إلى أوروبا ورأى مدنها سيعلم ما أقصد.. هناك الشوارع نظيفة، الأرصفة كالمرايا، الحدائق كالبيوت، لا ورقة، لا نفاية، فلماذا لا نكون نظيفين؟ لماذا لا نكون ضد القذارة؟

-صحيح، قالت أميرة وقد تحمست فجأة، عمي على حق.. النظافة حاجة أساسية من حاجات المجتمع.. قبل أيام أخذونا إلى غابة صنوبر ملأى بالأوساخ

والحشائش اليابسة.. قشة كبريت تشعلها كلها.. لا تتصوروا كم شعرت بالفرح حين نظفناها، فأصبحت لا تشوهها أوساخ ولا تهددها قشة كبريت.. حينذاك علمت كم هي مفيدة تلك المعسكرات!!.

–صحيح.. صحيح.. قالت نور.. هي مفيدة ولا شك.. أهدافها نبيلة ولا شك... لكنهم غالباً ما يحرفونها عن غاياتها وأهدافها..

–الانحراف!! تدخل والدها شبه مقاطع، هي ذي المسألة دائماً، الانحراف عن الأهداف!! يضع المفكرون النظريات ويسن المشرعون القوانين ثم يأتي من يطبق فيكون الانحراف وتكون الكارثة..

–هذا فقط ما أردت قوله أبي.. هناك انحراف.. تناقض بين الغاية من المعسكر والممارسات التي تطبق فيه..

–إيه.. رد الأب مقاطعاً، هو ذا سبب بلاء الإنسان.. التناقض بين النظرية والتطبيق.. الاختلاف بين الفكر والممارسة.. إنها المشكلة الدائمة عبر التاريخ.. فكل شيء فكر فيه الإنسان ووضع نظريات له إنما كان لخير الإنسان وفائدة المجتمع، لكن يأتي من ينفذ فيقلب كل شيء على عقب.. خذوا الدولة مثلاً.. حين فكر الإنسان بإيجاد الدولة كانت غايته إقامة المؤسسة التي تحمي الإنسان، توفر له الأمن والسلام، تحافظ على كرامته، حريته، حقوقه، لكن ماذا كانت النتيجة؟ الدولة باتت أداة قهر للإنسان، قمع لحرياته، نهب لحقوقه، تسلط على مقدراته..

خذوا مثالاً آخر: الدين..

–لا.. لا.. مصباح.. قاطعه الأخ الأكبر بنبرة احتجاج تلبس لبوس المزاح، لا تنسَ اننا واقفون، وإن بدأت الكلام عن الدين أبقيتنا حتى منتصف الليل.. وأنا تـــ .. عـــ.. عــــ... تعبان... مصباح.. كل النهار وأنا أعمل، اسمح لي..

سمح له مصباح على مضض، فقد كان يسره كثيراً أن يكمل حديثه، علَّ ابنة أخيه تجد بعض الأجوبة على أسئلة كثيرة باتت تشغلها، هي البرعم الذي بدأ يتفتح للحياة فتصدمه كالعادة الحياة.

عند الباب دس العم ورقة مالية في يد ابنة أخيه، عادة اعتادها مذ كانت أميرة طفلة، فيشد بها أواصر المحبة والود بينهما. رأى والدها ذلك فغض النظر.

"في البيت ساستدينها منها، "قال في سره وهو يضع يده في جيبه الخاوية..

–آه.. ليتنا مكثنا أكثر قليلاً. كم هو شيق حديث عمي!! كم أحب أن أسمعه!! قالت أميرة فرد والدها بامتعاض..

–اسمعي ما شئت.. لكن لا تدعيه يحدثك عن الدين.. أتسمعين أميرة؟ أنا لا أحب تفلسفه عن الدين.

–لكنه لا يتفسلف أبي، إنه..

–بل هو و.. و.. متفلسف.. قاطعها الأب على عجل.. وكل متفلسف زنديق.. وكل زنديق في النار..

صرامة نبرته وحسم أحكامه جعلا أميرة تتكتم وكثيراً ما كانت تؤثر معه الانكتام. هو لا يغريها بالحوار، عكس عمها ذاك الذي تتمنى أن تحادثه ساعات. مع أبيها تجد الهامش ضيقاً للحركة، الأبواب مغلقة، آراؤه فجة، بل حتى طريقة نطقه لا تعجبها.. "ماذا يدعونها، تلك العاهة التي يعاني منها!؟ العي!؟ أجل! إنه العي، "تسأل أميرة نفسها ثم تجيبها راخية العنان لقدميها وهما ينزلان سفح قاسيون المنحدر إثر الأب المطرق إلى الأرض، المسرع نزولاً وقد تحرر جسده من ثقل الجاذبية وعناء الطلوع..

لعل تلك العاهة هي التي دفعت الأخ الأكبر لقطع حديث الأخ الأصغر، كما هي عادته دائماً، فمصباح طلق اللسان، عذب الحديث، أما سيف الدين فيقف أحياناً في منتصف الكلمة كبارودة استعصت رصاصتها، لا تتقدم ولا تتأخر.. هذا العي هو الذي جعله يترك المدرسة مبكراً، كما شرح لها عمها ذات مرة، فالتلاميذ كانوا يقلدونه كلما أراد أن يتكلم. وفي كل مناسبة يسخرون منه.مما جعله لا يجرؤ على الكلام. هو لا يدري كيف يقف الحرف في فمه لكأنه يلتصق بسقف حلقه أو يعلق بحبل من حباله الصوتية. يفتح فمه طلباً للحرف لكن الحرف يخذله.. يتعثر هناك بين حنجرته وشفتيه، واقعاً أرضاً منقلباً بطناً لظهر ثم لا يخرج من الشفتين إلا وهو منقطع الأنفاس.

عقدة حقيقية كان ذلك العي.. عقدة تعتمل في داخله من كل طلق اللسان، فصيح الكلام.. ومصباح أشد الناس فصاحة وطلاقة. أميرة تعرف ذلك، وتتمنى لو كان والدها كأخيه.. "إذن كم كان سيوفر علي إزعاجات ومضايقات!!" فهي لا تنسى أبداً كم كان والدها يكره أن تتفاصح. كم كان ينهرها كلما قالت خطبة أو ألقت شعراً!! بل هو يكره أن.. تذهب إلى المدرسة، يريدها أن تتزوج تماماً كما كانت أمها تريد ذلك!! حين جاءها أول خاطب، وكانت ما تزال في الصف الثامن، كاد أن يعطيه قولاً بل ويقرأ فاتحتها، لكنها شبت كالفرس الجموح، جارية إلى بيت المهاجرين حيث أطلقت نفير الحرب، زاجة آل عمها جميعاً في المعركة وحققت بذلك النصر..

عند ساحة المالكي دارا مع الرصيف، وتمثال الرجل، الذي اغتيل في

ملعب للرياضة، يطل من علٍ واقفاً مطرقاً يتفكر. حدقت أميرة إليه طويلاً وهي تدور مع الساحة نحو الغرب." كم في وقفته من عزم وتصميم، كبر وعنفوان!! إنها عظمة الخلود، عزة الرجولة!!" وتمنت أميرة لو تلحق يوماً بركب العظماء الخالدين. بعد الساحة، كان عليهما أن يتجها إلى قلب الحواكير، عبر الطريق الترابي الذي لم يعرف اسفلتاً ولا أرصفة. هو هكذا مذ وجدت الخليقة، تراب موحل في الشتاء ومغبر في الصيف، على كلا جانبيه شجيرات الصبار، وقد أينعت ثمارها مصفرة، شائكة تهدد كل من يمد لها يداً...

حواكير الخضار، بساتين الأشجار كلها تغطي الأمداء الواسعة غربي المالكي، فيما ينحدر ذلك الشارع العريض من الأعلى إلى الأسفل نهراً صخاباً، مياهه شلالات من السيارات تشكل حداً فاصلاً بين ما صنعه الإنسان وما أبدعه الله!! بين الشرق حيث الأبنية والكتل الاسمنتية، وبين الغرب حيث الطبيعة أشجاراً وبساتين.

–أبا ديبو تأخرت كثيراً. لماذا حتى الآن؟ تلقته أم ديبو عند الباب سائلة مستغربة.

–اسألي ابنتك، رد الأب مشيراً إلى أميرة التي قفزت سريعاً إلى غرفتها، ربما لكي تخفف ما تحمله من أخبار ترويها لأختها هناك. اتركيها مع عمها تتحدث ليل نهار لا تشبع.. لكن خير، ماذا هناك؟

–أف.. أبو عمرو.. صاحب المكتب العقاري جاء وسأل عنك، أجابت أم ديبو بكثير من التبرم والضيق..

–أبو عمرو يمر دائماً ويسأل دائماً، فلماذا هذه المرة تتأففين؟

–هذه المرة لم يمر وحسب.. بل تربص.. انتظر ساعة.. يريد أن يراك... بأي شكل يريد أن يراك..

–غداً أراه.. قال الرجل وهو يدخل إلى الغرفة الترابية ذات السقف الخشبي، ملقياً بنفسه على أقرب حشية.

–لكنه قال: يريدك اليوم لأمر عاجل، وفور وصولك يجب أن تذهب إليه.

–أذهب إليه!؟ لأمر عاجل؟ لا.. لا.. اليوم غابت الشمس، قال وهو يخلع حذاءه وينظر إلى الغرب، حيث كانت الشمس تغطس شيئاً فشيئاً في خضم المغيب.

–لكنه ملح.. يريدك أن تذهب إليه حتى ولو كان منتصف الليل. عادت المرأة لتؤكد بنبرة صوتها وحركات يديها، ما حاول أبو عمرو فعله أكثر من مرة قبل أن يغادر البيت. يا له من ثقيل الظل!! تابعت الزوجة مفسرة.. ساعة

وهو جالس وديبو يكاد ينفجر غيظاً، ثم قهوة، شاي، زهورات.. لكأن كرشه لا يطيق القعود عاطلاً عن العمل..

–وأين ديبو الآن؟ سأل الأب وهو يتلفت عبر الباب يمنة وشمالا..

–لم يصدق أن الدلال غادر حتى لحق به..

–وذاك الدلال، ألم يقل ماذا يريد؟ ألم تفهمي منه شيئاً؟

–وهل يفهم أحد منه شيئاً، هذا السري المتآمر..؟ لكن لا بد أن وراءه شيئاً فهو متلهف قلق.. متشوق لرؤيتك.. على استعداد لأن ينتظرك حتى آخر الليل.. بل لم نتخلص منه إلا بعد أن وعدناه وعداً قاطعاً، بأن تذهب أنت إليه.

–أذهب إليه.. أذهب إليه، لكن دعيني أرتح قليلاً.. قال بكثير من الامتعاض فالنزول من المهاجرين إلى بيته كان متعباً لكن الصعود مرة ثانية سيكون متعباً أكثر.

لحظات تمدد أبو ديبو وهو يتساءل ما عساه يريد سمسار العقارات ذاك؟ هو ابن حارته وصاحبه لكنه لم يكن يثق به كثيراً، بل هو لا يثق بأي سمسار.. ألا يبيع أولئك السماسرة أمهاتهم من أجل حفنة من الليرات؟ ألم يحاول صاحبه وابن حارته أكثر من مرة أن يدفعه لبيع حاكورته بأبخس الأثمان!؟ هم أناس لا أمان لهم.. يريدون من الآخرين أن يبيعوا ويشتروا فقط كي يربحوا هم.. عملية البيع والشراء وحدها هي التي تهمهم ليكونوا كالمنشار، ينشر في الذهاب وينشر في الإياب..

على أفكاره تلك غفا الرجل، رأته امرأته فلوحت برأسها "ربما لن يفيق حتى الصباح!! هذا الرجل لا يحب كالنوم!! دعه ينم عشر ساعات متصلات لا ينقلب عن جنبه.. "فكرت المرأة وهي تغادر إلى الحظيرة. لكن خلافاً لتوقعاتها، لم ينطلق أذان العشاء حتى فتح الرجل عينيه، وكأنما هو إنذار خاص موجه إليه. تمطى قليلاً ثم تلفت حوله بكثير من الحيرة.. ثمة ما ينبغي أن يفعله لكن ما هو يا ترى؟ كان النوم قد أنساه.

–هه.. لم تقل لي.. كيف كانت رحلتك إلى أخيك؟ حنطة أم شعير؟ سألته امرأته وهي تدخل الغرفة بكثير من الانزعاج والضيق، فقد أنستها زيارة السمسار الزيارة الأخرى.

–حنطة على شعير.. قال متثائباً وشيء ما يغريه بأن يعاود النوم.

–لم أفهم.. كيف؟ أعطاك أم لم يعطك؟

–وعدني بأن يعطيني غدا.

-إذن حنطة، ردت وهي تتنفس الصعداء.. ثم تابعت بنبرة الاطمئنان: مصباح إذا وعد وفى.

-أرجو ذلك.. قال وكأنما يعني العكس.. لكن.. الآن.. أنا جائع.. هاتي لنا العشاء..

-لا.. لا.. ردت بمزيج من الأمر والرجاء، اذهب أولاً إلى الرجل.. اعرف ما يريده منك على الأقل.. حينذاك، تذكر ما كان قد أنساه النوم. حدق إليها قليلاً فرآها أكثر إصراراً من أن تقبل مناقشة. مد يده إلى حذائه، لبسه ثم سوى سرواله الأسود وقميصه ومضى دون أن ينبس ببنت شفة.

في المكتب كان شوكة الداهوك بانتظاره.. صلعته تلمع عرقاً، كرشه يفيض على ذراعي الكرسي من اليمين والشمال وعيناه تلمعان دهاء ومكرا. رآه فهب ملء طوله، آخذاً إياه بالأحضان:

-أين أنت يا رجل؟ بادره لائماً مقرعاً. كدت أعود إليك مرة ثانية..

-خير أبا عمرو، قل لي ماذا هناك؟ سأله القادم الجديد وقد راوده إحساس بأن هناك أمراً خارقاً للعادة.

-اجلس.. اجلس أولاً، قال شوكة الداهوك الذي كان قد أضواه الانتظار، وحين جلس الرجل على الديوان الجلدي الأسود جلس إلى جانبه، كتفه إلى كتفه وذراعه بذراعه.. صداقة حميمة لم تعرف الحميمية مثيلاً لها. أنت تعلم، تابع السمسار الداهية الذي لا يعرف لسانه العي ولا دماغه الكسل. أنت رفيقي وابن حارتي ومصلحتك مصلحتي.

-ط. ط. بعاً أعـــ عرف.. بدأ أبو ديبو الذي داهمه العي مباشرة فتوقف عند الطاء والعين كلتيهما، لكن ماذا هناك؟

-صفقة.. صفقة العمر أبا دياب، رد السمسار معظماً صاحبه، فلم يقل له أبا ديبو.. كما هي عادته..

-لا. لا تقل لي أن هـــ.. هناك واحداً يريد أن يشتري حاكورتي؟

رد محتجاً نافراً وهو يتذكر المرات العديدة التي حاول فيها ذلك السمسار أن يقنعه بالتخلي عن ملكيته، مورد رزقه الوحيد.

-لكن هذه المرة صفقة لم تكن تحلم بها..

-هه.. كم يدفع بها؟ عشرة آلاف؟ سأل بمزيج من النفور والاستهزاء كأنما ينتقم بذلك من عروض السمسار السابقة، حين كان ثمن الدونم الواحد لايزيد عن

ألفي ليرة..

-بل أكثر.. أكثر بكثير، رد السمسار بما يشبه الهمس، غامزاً، ضاحكاً، وكأن السر الذي يحمله أعظم من أن يفشى..

-أكثر بكثير!؟ كم..؟ قل. عاد الرجل يسأل وقد بات على ثقة من أن العرض مغرٍ كثيراً..

-مائة ألف، رد السمسار وهو يتلفت حوله تلفت الماكر الذي يحاذر أن تسمعه حتى الجدران.

-يعني الدونم بعشرين ألفاً؟ سأل الفلاح المتعب وقد أثير فضوله فجأة..

-لا.. لا.. أبا دياب، رد السمسار وكله أمل في أن يبهر الرجل تماماً. بعدئذ رفع سبابته بإشارة الواحد، ثم تابع بنبرة التوكيد: الدونم بمائة ألف.. المائة ألف للدونم الواحد.. منبهتا، فتح الرجل فمه وعينيه. فالرقم أكبر بـــ كثير مما كان يحلم به.

-أجل.. هي صفقة العمر يا صاحبي. خمسمائة ألف ليرة للحاكورة.. والرجل جاهز الآن لتوقيع العقد والدفع.. فماذا قلت؟

-مـــ.. مـــ.. ماذا قلت؟ أفلح أبو ديبو أخيراً في النطق رغم العي الذي أوقفه عند الميم، ذاك الحرف الذي يكرهه كثيراً.

-أجل.. ماذا قلت؟ موافق؟ حسن.. سأتصل به في الحال.. ودون أن ينتظر جواباً من صاحبه، أسرع السمسار الحاذق إلى الهاتف، دق رقماً ثم همس جملة وحيدة "تفضلوا سيدي، نحن جاهزون". ثم أغلق الهاتف وعاد إلى ابن حارته ماداً يده مهنئاً:

-مبروك أبا دياب.. ألف مبروك!

لكن فرحة السمسار، إلحاحه، سرعته في الاتصال والتهنئة، كل ذلك دق جرس انذار ما في رأس الرجل العيي الذي كانت الحياة، الفقر، الحاجة قد علمته الحذر والتروي... انكمش الرجل على نفسه وقد لمعت في رأسه فكرة.

-لكن قل لي أبا عمرو.. هل سيشتريها.. أرضاً زراعية أم عقارية؟ نطق أخيراً وهو لا يدري كيف لمعت الفكرة في رأسه..

وأسقط في يد السمسار.. سؤال لم يتوقعه قط.." إذن في رأس هذا الرجل دماغ يعمل.. لا تبن فقط، فماذا أقول له؟"

لحظات ظل محتاراً متردداً لا يدري أيكذب على صاحبه أم يصدقه؟ تلك اللحظات استغلها أبو ديبو في مراقبة صاحبه وكانت كافية لأن تجعله يدرك

الحقيقة.

-إذن، صدر القرار بتنظيم المنطقة العقاري، تابع الرجل سؤاله هو الذي كان يعلم أن ذلك كان قيد البحث وأنه وحده ما يجعل لتلك الحاكورة مثل ذلك الثمن..

-أجل.. اليوم صدر.. رد السمسار أخيراً وقد تذكر المثل القائل: "إن كان الكذب ينجي فالصدق أنجى.." ولا أخفيك.. الشاري متعهد بناء كبير، سيحول حاكورتك إلى كتلة من الأبنية..

-إذن، ما الذي تقوله أبا عمرو؟ كيف تحكي بمائة وخمسمائة ألف؟ سأل الرجل وصدره يجيش فرحاً..

فالقرار الذي كان ينتظره بفارغ الصبر قد صدر.. والأمل كبير بأن يجعلها صفقة العمر حقاً.

-سأقنعه بأن يدفع لك مليونا.. رد السمسار مائلاً عليه شبه هامس، شبه غامز، ليثبت لابن حارته أن عواطفه معه وأنه لا يريد إلا مصلحته.

هذه القفزة جعلت قلب الرجل يقفز.. "إذن، هناك مجال واسع للمداورة والمناورة، "قال في سره وقد استيقظت في داخله روح التاجر الدمشقي التي لم تستيقظ من قبل. تلك الروح هي التي قادته في متاهة المساومة الطويلة ذات المسالك الوعرة المعقدة، فقد بدا له أن المتعهد قارون آخر يملك كنوز الذهب والفضة كلها وأنه والسمسار يريدان انتزاع الأرض منه بأبخس ثمن وأسرع وقت، مما زاده حرصاً على أرضه وتمسكاً بها. ذلك الحرص جعله يتبع تكتيكاً فريداً من نوعه. لم يطلب أبو دياب سعراً لأرضه ولم يحدد ثمناً، بل ترك للمتعهد ذلك.

-قل، كم تدفع؟ وكلما دفع مبلغاً قال أبو ديبو:

-لا.. قليل.. الأرض غالية يا رجل.. هي على كتف شارع المالكي.. وهي تساوي أكثر من ذلك، أخيراً قال المتعهد وقد نفد صبره:

-المتر بألف ليرة، ولا ليرة زيادة..

-يعني الدونم بمليون ليرة، وثب شوكة الداهوك بحماسة لا نظير لها ثم انكب عليه يكاد وجهه يلامس وجهه.. بع يا رجل.. هذه فرصة لا تعود مرة ثانية.. سعر خيالي لا يحلم به أحد..

فجأة أحس أبو ديبو بشيء يدفعه للوقوف.. البسمة تشق فمه حتى الاذنين ويده تمتد إلى يد المتعهد ولسانه ينطق:

-قد بعت.. مبروك عليك..

بعد ذاك كتبت أوراق ووقع عقد وتبودلت عناقات وقبلات. وحين عاد أبو ديبو إلى البيت كان يحمل بيده حقيبة أنيقة سوداء من ذلك النوع الذي يدعونه سمسو نايت جعلت امرأته تشهق:

-ما هذه؟ هتفت مشيرة إلى الحقيبة الأنيقة السوداء.

-حظينا بليلة القدر طلعت لنا ليلة القدر، انفجر الرجل فجأة وهو يصيح حاضناً الحقيبة بين ذراعيه ضاماً إياها إلى صدره.. دائراً حول نفسه كالدولاب..

-ما الذي تقوله يا رجل؟ أية ليلة قدر هذه؟

-خمسة ملايين.. أم ديبو.. صار لدينا خمسة ملايين.

-كيف؟ من أين؟ سألته فاغرة الفم، هو يدور وهي تحاول الإمساك به..

-الحاكورة!! بعت الحاكورة!! بخمسة ملايين!! خمسة ملايين!! هتف أخيراً وهو يفتح الحقيبة كاشفاً عن رزم من أوراق مالية راح يقذف بها فتتناثر هنا وهناك متطايرة إلى السقف، ساقطة على السرير، البساط، الكراسي، الأرض.. فيما المرأة تتلمس طرف السرير متداعية مسحورة.. وعبارة واحدة على شفتيها:

-أجل.. ليلة القدر!! هذه ليلة القدر!!

-2-

حين أفاقت أميرة كان يتملكها شعور حاد بأنها تأخرت عن معسكرها.. غسلت وجهها على عجل ثم أسرعت ترتدي ثيابها: تلك الثياب الخاكية اللون التي توحد بين الذكور والإناث لتصنع الجنس الواحد" أليس هو عصر الجنس الواحد؟ ذكور كالإناث وإناث كالذكور؟ "تساءلت وهي تبحث عن لقمة سريعة تأكلها قبل أن تغادر، لكن لشد ما لفت نظرها هدوء البيت وسكينته. لا بد إذن أن أباها وأمها غادرا إلى الحقل مبكرين.

لكن، كادت أميرة تهتف ملء فمها وهي تفتح الباب لتراهما يغطان في نوم عميق. بحلقت بعينين جاحظتين في الغرفة، وهي لا تكاد تصدق عينيها.. الشمس قامتان أو ثلاث فوق الأفق وأبواها ما يزالان في السرير. كيف ذلك؟ لعلهما مريضان قالت لنفسها وهي تهم بدخول الغرفة، لكن صوت الشخير الذي علا بترجيع كترجيع طبل من أبيها ليرد عليه ترجيع طبل من أمها، جعلها تتراجع.." هذا الشخير يدل على السبات العميق، والسبات العميق يعني العافية، وعلى عجل أغلقت الباب محاذرة إصدار أي صوت. أخواها في غرفتهما نائمان أيضاً لم يوقظهما أحد.. شاهة هي الأخرى تنعم بنوم عميق.. "ما للبيت اليوم؟" تساءلت وهي تنطلق على الطريق الترابي، مسرعة الخطا، خشية أن تتأخر.

ذلك السؤال ارتد مسرعاً، وصل إلى الأم ففتحت أجفانها. النعاس الشديد ما يزال مهيمناً. تهم بإطباقها من جديد لكن الضياء الباهر يجعلها تجفل. "الشمس.. الضحى!! يا إلهي!! كيف سرقك النوم يا حفيظة؟ الدجاجات!! العنزات؟ "
وكادت تتابع تمتمتها لولا أن وقعت عيناها على زوجها المستغرق إلى جانبها في النوم.

سيفو!! سيفو!! أنت نائم حتى الآن؟ صاحت به وهي تهزه ذات اليمين وذات الشمال.

فتح سيفو عينيه فهب مجفلاً للتو:

-عجيب!! الدنيا نهار وأنا لم أصلِّ الفجر!! كيف؟ لماذا لم توقظيني؟

-أنا نفسي لم أستيقظ!! ردت وهي تنزل عن السرير مسرعة.

-والأولاد؟! لم يوقظهم أحد؟ أف!! اللعنة على إبليس الرجيم!! جعلني أغرق في نومي فأنسى صلاتي.. هيا.. هيا.. اذهبي أيقظي الأولاد!! يجب أن

نشتغل.. ومد يده إلى جانب المخدة يأخذ طاقيته وكوفيته، لتتوقف في اللحظة نفسها وهو يرى عيني زوجته تحملقان جاحظتين متسمرتين على ما تحت الفراش.

–تشتغل؟ سألته وقد عادت إليها ذاكرتها. ما تشتغل ولديك خمسة ملايين؟

ثم أشارت بكلتا يديها إلى الفراش الذي بدا مرتفعاً قليلاً عن السرير.

–صحيح!؟ الصفقة!! المال!! الملايين!! صاح فرحاً وكأنه اكتشف كنزه للتو، ثم أسرع إلى الأرض، قلب الفراش فبدت رزم النقود فراشاً آخر على السرير. وكأنما يراها للمرة الأولى،راح يمسك بها، يضمها إلى صدره كدسة تلو الأخرى، يتشممها، ثم يعيدها إلى السرير، يأخذ غيرها ويهتف بفرح غامر:

–حفيظة.. هذا المال كله لنا.. قبرنا الفقر حفيظة.. صرنا أغنياء حفيظة!

ولم تستطع حفيظة أن تمنع نفسها من تلمس رزم المال، من ضمها إلى صدرها، وكأنها تضم ابنة غالية. ثم تتشممها كما كان يتشممها زوجها. صحيح أن لها رائحة واخزة تجعلها تبعدها عن أنفها لكن زوجها يستنشق رائحتها وكأنها عطر الياسمين. عطر الياسمين ذاك جعله ينتشي، فبدأ يرقص فرحاً دائراً حول السرير، آخذاً الرزم بكلتا يديه ضاماً إياها إلى صدره، وزوجته ترقبه، ملء عينيها التعجب وملء نفسها الحيرة.." ها هو سيفو يتحول إلى طفل صغير يلهو".. وبماذا يلهو؟ برزم المال!! المال أكداس على صدره يضمها إليه ضم العاشقين وصوته في كل مكان في البيت.. خشيت المرأة أن يفيق الأولاد فيروا أباهم على تلك الحالة.

–سيفو.. أسرعت إليه راجية.. سيفيق الأولاد على صوتك.. حسبك.. حسبك.. هدأ الرجل وقد تذكر الرزانة التي ينبغي أن يتحلى بها أمام أبنائه، فتابعت محذرة بسبابتها. ولا تنسَ منذ هذه اللحظة: درهم مال بحاجة إلى قنطار عقل!! فلا تدع المال يضيع لك عقلك..

قالت ذلك وهي تنكب على السرير، تجمع رزم المال المرصوفة هناك ثم تعيدها إلى الحقيبة التي جاء بها زوجها أمس ملأى حتى الحافتين. كانا قد أمضيا الليل كله وهما يتلمسان المال، يقلبان الرزم غير مصدقين ما يريان، وكان الزوج لا يفتأ من حين إلى حين يعود لعد الرزم، يصل إلى نصف الشوط أو أكثر بكثير ثم ينكفئ مقلعاً عما بدأ. كان الأمر كله كأنه حلم من الأحلام.. حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة هما بطلاها.. لفظ الرجل عبارة "افتح يا سمسم" فانفتح باب كنز لا يستطيعان عد ذهبه وفضته. الذهول في أعينهما، في أسماعهما، في أيديهما. حفيظة تذكر كل لحظة من لحظات الأمس.. الأولاد

نائمون وهي تنتظر على أحر من الجمر. لماذا تأخر؟ ما الذي يريده ذلك الدلال؟ ولم تستطع عيناها الرقاد حتى جاء رجلها: بحقيبته، بفرحه، بذهوله.. أجل.. لولا الذهول لكان عقل سيف الدين قد طار.. هي رأت بعينها ذلك. تلك الأموال كلها بين يديه، هو الذي كان يحلم بالعشرة والمائة!! سبحانك يا رب!! تغير ولا تتغير!!

حتى صياح الديكة ظلا يقلبان الأموال ويقلبان الأفكار والأسئلة يريدان أن يصيحا فرحاً ولا يستطيعان خشية أن يستيقظ الأولاد.. مع صياح الديكة فقط أغفيا.. كيف؟ لا تذكر أم ديبو، لكن سهر الليل جعلها تنام ناسية عادتها التي لم تخرقها يوماً واحداً، ناسية مع عادتها عنزاتها، دجاجاتها، أولادها.. فماذا تفعل؟

–صحيح؟ قالت وهي ما تزال ترصف الرزم في الحقيبة؟ ماذا تفعل الآن بهذا المال؟ أين تخبئه؟ كانا في الليل قد اتفقا على أن يخبئاه تحت الفراش، لكن وقد طلع النهار وانتشر الضياء، بدا لهما فجأة أن الفراش مخبأ غير مأمون.. في الليل أيضاً، كانا قد اتفقا على أن يخفيا الأمر كله عن الأولاد، لكن، وقد أفاقا ونظرا إلى تلك الرزم كلها، بدا لهما أن ذلك الاتفاق غير معقول. فالدنانير تأبى إلا أن تظهر برؤوسها.. بهذا الشكل أو ذاك ترفض الاختباء.. هي بطبيعتها تحب الظهور، وها هي أمامهما.. أكداس ترفض الاختفاء.. "لو ظهر أي ولد الآن لرأى كل شيء"..

قالت المرأة في سرها وهي ما تزال تنتظر الجواب من الزوج الذي منعته الحيرة والذهول من أن يخرج بجواب. صوت باب يفتح، ووقع خطا يقترب جعلا الرجل يسرع إلى لم الرزم مع زوجته حاثا إياها:

–أسرعي.. أسرعي.. يجب أن نخفي النقود:

لكن فتح الباب وإطلالة شاهة، وهي ما تزال في ثياب نومها، أثبتا بما لا يقبل الشك أن المحاولة عبث، فقد تسمرت الفتاة في مكانها في الحال، عيناها نبقتا إلى الخارج وشفتاها انفتحتا على مصراعيهما.

–ما هذا؟ أمي.. أبي.. أفلحت أخيراً في النطق ، فخرج سؤالها أشبه بصرخة أفاق عليهادياب، فهد، ثم اجتمع الكل في الغرفة التي بدت على وشك الانفجار ذهولاً وحيرة ثم غبطة وفرحاً والأب يروي لأولاده القصة.

ذلك النهار كان استثنائياً في كل شيء. شمس آب لم تبد بطيئة حارقة تجلد بسياطها الظهور كعادتها، بل راحت تتسلق السماء بخطا سريعة لطيفة، دافعة عبر الأغصان نسيمات عليلة لم تعرف الأم سبباً لظهورها، وفي آب نادراً ما يتحرك النسيم. المعازق رقدت ساكنة على الأرض وقد جفتها الأيدي الخشنة

على غير توقع وبلا انذار. أوراق الأشجار بدأت ترسل حفيفاً مموسقاً كأنغام ناي شجي، وكل من في البيت بدا خفيفاً ظريفاً يكاد يطير في الهواء.. هل يجعل الفرح الإنسان يفقد وزنه؟ أيجعله يتحرر من قانون الجاذبية؟ شاهة، دياب، فهد، بل حتى الأم الثخينة البدينة بدت على وشك التحرر من قانون الجاذبية.

–أمي ماذا ستغدينا اليوم؟ سألها ديبو الذي يعتبر الطعام ألذ أطايب الدنيا.

–مجدرة..

–ماذا؟ مجدرة؟ قاطعها الأولاد الثلاثة معاً، وبكل الازدراء.

–اذبحي لهم فروجاً .. اقترح الأب الذي لم يكن قد فكر بالأمر البتة.

–فروج؟ صاح فهد محتجاً:

بل قل.. فراريج.. لحوم، مأدبة فاخرة، هتف وهو يشتعل حماسة لفكرة المأدبة.

–فراريج.. لحوم؟ صاح الأب بمزيج من الاستهجان والتعجب. وكأنما نسي ملايينه الخمسة

–بل كبة، أوزة، أفخر المأكولات أيضاً، قال ديبو وشاهة بصوت واحد..

–ودون أن تمدي يدك لطعام أو تتعبي في طبخ أو نفخ.. تابعت شاهة مخاطبة أمها.. نريد طعاماً جاهزاً يمده الندل على الطاولة ويخدمنا الخدم.. ونحن سادة نأكل فقط.. نأمر والآخرون يلبون..

–صحيح؟ هتف ديبو بحماسة أشد مخاطباً أباه.. لماذا لا نذهب إلى مطعم؟.. نتغدى هناك.. كالسادة الأغنياء، وحولنا الندل يخدموننا؟

–مطاعم!؟ لا.. لا تجنوا.. رد الأب الذي لم يخطر بباله يوماً أن يذهب إلى مطعم، ولم يكن على استعداد لأن يفكر بذلك. لكن الأم أعجبت بالفكرة: أن ترتاح.. هي مذ تزوجت لم تعرف الراحة.. كل يوم عليها أن تطبخ وتنفخ.. فالأفواه الجائعة لا ترحم، والكل يريد أن يأكل وهي وحدها من ينبغي عليه أن يقدم الطعام.. لكن اليوم يمكنها أن ترتاح.. صحيح!! ثمة مطاعم!! مهمتها أن تقدم الطعام جاهزاً فلم لا يأكلون هناك؟

النقاش حاد، أربعة ضد واحد، لكن الأب بعشرة وهو غير مستعد نفسياً، غير مستعد جسدياً، بل كلهم مثله فكيف يذهبون هكذا دون استعداد وعلى ذلك النحو المفاجئ؟ الوسط هو الحل المعقول للخلافات. وهكذا، ذهب ديبو وفهد إلى أفخم مطعم حاملين معهما بضع مئات من الليرات تخلى عنها الأب بشق النفس، ثم عادا بكل ما يشتهيان من لحم مشوي، فراريج، أوزة، كبة.. تحت شجرة

الجوز مد غطاء من نايلون امتلأ بعد لحظات بأطيب المأكولات تلك، حتى أن أميرة لم تملك إلا أن تشهق وهي ترى مائدتهم الفاخرة، ثم تفتح فمها كباب مغارة وهم يروون لها السبب.

على المائدة غدا ديبو أشره من عشرة ذئاب. فهد تحول إلى فهد كاسر لم يصطد فريسة منذ أيام.. شاهة غدت نمرة مفترسة، أما الأب فحدث ولا حرج.. جوع قديم كان قد حوله هو الآخر إلى أنياب ومخالب يهشم الفروج هشماً ويلتهم الأوزة بلقمة واحدة.

-ايه يا أيام الجوع!! يوم لم يكن هناك سوى المجدرة والبصل!! صاحت شاهة وهي تستعد لالتهام فخذ دجاجة...

-تباً لأيام المجدرة والبصل!! هتف دياب وهو يبطش بآخر أوزة، ثم بدت المائدة، وقد انفضوا عنها، أشبه بفريسة أتت عليها ضباع، من قال إن الإنسان يختلف كثيراً عن الوحش؟

مثل ذلك السؤال خطر ببال مصباح وهو ينظر إلى أخيه متمدداً متخماً، ثم إلى المأدبة التي أصبحت خراباً يبابا.

-حماتك لا تحبك!! هتف به الأخ المتخم إلى درجة لم يستطع معها إلا أن يظل متمدداً. لو جئت قبل قليل فقط لكنت شاركتنا.. توقف مشيراً إلى بقايا المائدة المعفرة وعظامها المعثرة. لحظة من الزمن، ظل فيها مصباح يقلب نظره بين أخيه وبين البقايا. بعدئذ استأنف: مائدة فاخرة فيها من كل ما لذ وطاب، أليس كذلك؟ لكن لا عليك إن شئت أرسلت من يأتي لك بمثلها من المطعم.

-أوه!! هتف مصباح وقد اتسعت عيناه جحوظاً!! بالأمس طلبت مني نقوداً ثمن البذار الذي لا تستطيع شراءه واليوم تأتي بالطعام من المطعم؟ ما الأمر؟ ماذا حدث؟

-أوه!! حدث الكثير!! رد الأخ متضاحكاً شائلاً برأسه، اجلس!! اجلس!! تابع وهو يشير إلى حشية الاسفنج.

-الكثير؟! أي كثير!! احك سيفو! تكلم.. قال وهو يجلس، لا يكاد يصدق ما يرى وما يسمع.

-سأتكلم.. فقط دعني آخذ نفساً.. صدقني مصباح!! لقد أكلت حتى لم يبق في صدري مكان لنفس. قال وهو يمسد بطنه الذي بدا وكأنه اندفع شبراً إلى الأمام. كان الجمع قد انفض، كل إلى شأنه، وكانت أميرة نفسها على وشك أن تستلقي على سريرها حين سمعت صوت عمها ينادي عند الباب. أسرعت،

استقبلته بالقبل والترحاب، ثم قادته إلى أبيها الذي لم يكن قد استطاع الحراك بعد.. حية بلعت فريسة كبيرة الحجم فأقعدتها عن الحركة.

–أميرة، أبوك مقطوع الأنفاس لا يستطيع الكلام.. تكلمي أنت.. ماذا حدث؟

–ليلة القدر!! تدخل الأب حائلاً بين أميرة وبين الكلام.. بالأمس طلعت لنا ليلة القدر!!

–لكن نحن في شهر محرم ولسنا في شهر رمضان حتى تطلع ليلة القدر..

–في محرم، في صفر، المهم تحقق الحلم مصباح!! نلت كل ما أتمناه.

–نزلت لك قفة ذهب من السماء أم انفتحت لك مغارة علاء الدين في الأرض؟

–بل قل أكثر، أكثر..

–يعني لم تعد بحاجة لثمن البذار؟ قال وهو يخرج مبلغاً من المال كان قد طواه بعناية في جيبه..

–أي ثمن بذار؟ بل أي بذار؟ رد متضاحكاً، مشيراً بقرف إلى مال أخيه.

–ماذا يا رجل؟ تكلم.. أهلكتني!! قال وهو يعيد المال إلى جيبه..

–لا بذار بعد اليوم، بل لا فلاحة ولا زراعة.. قد بعت الأرض!!

–بعت الأرض لتأكل بثمنها دجاجاً وشواء؟

–بل بعتها لأقبر الفقر!!

–تقبر الفقر شهرين ثلاثة ثم تجد نفسك بلا مال ولا أرض.. مائة مرة قلت لك: الأرض رصيدك الوحيد.. لا تتخلّ عن الأرض.. لا تتخل عن رصيدك الوحيد. قال مصباح بنبرة العتاب واللوم إضافة إلى مسحة واضحة من الحزن.

–لا مصباح، هذه المرة الرصيد كبير.. لا تنفقه بشهور ولا سنين..

–كم!؟ عشرون ألفاً.؟ خمسون ألفاً!؟

–بل خمسة ملايين!!

–خمسة ملايين!؟ بدأ بشيء من دهشة ثم استدرك للتو،

معنى ذلك أنها أصبحت أرضاً عقارية.. نظمت للبناء!؟

–بالطبع. أرض عقارية.. وأخرج من جيبه الداخلية صك البيع ثم قدمه لأخيه وكأنه وسام انتصاره.

–أراك وقعت العقد وانتهى كل شيء. قال بعد أن قرأ الورقة على عجل .

-أجل.. انتهى كل شيء.

-إذن تعجلت؟ لم لم تأخذ رأيي قبل أن تبيع؟!

-في ليلة القدر لا يستشير أحد أحداً

-لكنك.. بعتها بثمن بخس!! رد وهو يعيد له العقد.. ألف ليرة للمتر الواحد؟ هذه الحواكير.. سوف تكون أرقى الأحياء في دمشق.. يتوقعون أن يصل المتر الواحد هنا إلى العشرة والخمسة عشرة ألفاً..

-لا يهمني!! أنا بعت الدونم بمليون.. وهو مبلغ أكبر بكثير مما كنت أحلم أو تحلم به أنت نفسك!!

-حسن.. أنت مسرور إذن!؟

-بل قل أطير فرحاً.. لا فقر بعد اليوم، لا حاجة، لا جوع، لا دين.. الآن أملك المال وبالمال أدخل الجنة!!

-بعضهم يدخلون به جهنم.. فاحذر أبا دياب..

-لا.. لا.. بالمال نصنع السعادة.. والسعادة هي الجنة..

-أحياناً، رد مصباح بعد لحظة تفكير، لكن في أحيان أخرى يكون المال مطية إبليس لا يقودك إلا إلى جهنم..

-وكيف يقودني المال إلى جهنم؟ رد الأخ الكبير بشيء من عصبية؟

-هو ذا السؤال الذي لا يرد عليه إلا الزمن.

-لا، مصباح، هذه المرة أنت مخطئ، رد سيف الدين وهو يضحك مقهقهاً.. مخطئ كثيراً، المال هو كل شيء في هذه الدنيا.. مفتاح كل سعادة، وقد صار في قبضة يدي ذلك المفتاح.

-إذن، لم تعد بحاجة إلى مساعدتي؟ قال مصباح وهو ينهض.

-بحاجتك؟ أجاب مقهقهاً من جديد، من اليوم فصاعداً أنت الذي ستكون بحاجتي.

لم يجب مصباح للتو، بل تفرس في أخيه: تلك القهقهة، نبرة الصوت، كلمة مخطئ التي يخاطبه بها لأول مرة، كلها كانت قد دقت جرس انذار: ثمة تغير خطير، لكنه اكتفى بهزة رأس ثم:

-عن إذنك...

ومضى قبل أن يستطيع سيف الدين اكمال قهقهته.

-عمي، لا تذهب، أرجوك، قالت أميرة وهي تهم باللحاق بعمها، لكن يد

أبيها امتدت تمنعها وصوته ارتفع يزجرها:

-دعيه، ربما يحطم هذا شيئاً من غروره.. ولم تستطع أميرة أن تفعل شيئاً سوى أن ترقب عمها وهو يغادر، في فمها مرارة العلقم وفي حلقها غصة القهر..

غصة أخرى أحست بها الأم وهي تسمع شوكة الداهوك يعاتب زوجها:

-ماذا؟ النهار بطوله لم تفعل شيئاً؟ لا.. لا.. عليك أن تتحرك.. غداً يجب أن ننهي إجراءات البيع القانونية وخلال ثلاثة أيام يجب أن تخلوا.. "ثلاثة أيام فقط "تساءلت الأم في سرها وكل ما في فمها غصة وعلقم "معقول؟ نخلي بهذه السرعة؟ نتخلى عن كل شيء في ثلاثة أيام؟" وكانت الأم ما تزال تتساءل حين خرج شوكة، السمسار البارع الذي يخرج الحية من وكرها. في الحال دوى النفير طالباً لم الشمل..

-الآليات ستأتي بعد غد، بدأ الأب الذي بدا مشبعاً بكلام السمسار الحاذق، سميعاً مطيعاً لأوامره، وعلينا أن نرحل خلال يومين..

-نرحل غداً، وما الذي يمنعنا؟ رد ديبو وهو يكاد يطير فرحاً..

-كيف؟ وأثاثنا؟ رزقنا؟ أغراضنا؟ عقبت الأم بكثير من المرارة والأسى.

-بسيطة، بدأ فهد وهو في قمة سروره، هناك طريقة سريعة للتخلص من كل شيء،

-ما هي؟ سألت شاهة فتابع:

-نلقي بهذا الأثاث العتيق في القمامة، العنزات، السخال، الدجاج نوزعها كلها على الجيران، فنثبت لهم أننا صرنا فعلاً فوق الريح.

-لكن هذه منفخة!!

-هذا تبذير!!

-هذا جنون!!

راحت التعليقات تترى من أفراد الأسرة، الذين يعلمون من قبل مدى غرور فهد وحبه للتبجح .

-ماذا نفعل إذن؟ عاد يسأل خائباً، ثم جرى نقاش، أخذ ورد، قر بعده قرار الأسرة على بيع الأثاث في سوق العتيق والدواجن في سوق الدجاج، والمعزى والعجلة في بازار حرستا..

-لكن بهذه السرعة نتخلى عن ماضينا؟ ننسلخ؟

بدأت الأم متلعثمة بعد أن بحثت طويلاً عن الكلمة، لكن فهداً لم يدعها

تتابع.

-ننسلخ.. أجل.. قاطعها على عجل، تلك هي الكلمة.. ننسلخ عن ذلك الماضي كله.. نفعل كما تفعل الأفعى.. ترمي الجلد القديم الوسخ لتلبس الجديد الزاهي..

لكن الأم تشعر أنها ليست أفعى تسلخ جلدها بسهولة وتلقي به أرضاً.. هي بشر.. جذورها في الأرض مثلما أغصانها في السماء.. هي ماض مثلما هي حاضر ومستقبل.. سيؤلمها كثيراً أن تقتلع من جذورها كما يؤلم الشجرة الغضة الخضراء ويذبل أوراقها، لكن ماذا تفعل ولا مجال للتردد؟ العقد أبرم، المهلة محددة. وليس عليهم سوى التنفيذ.

صامتة راحت تسمع والآخرون يخططون للغد، يناقشون الإجراءات ويوزعون الأدوار. بسرعة بدأ التنفيذ في الصباح، وعلىعجل انطلق كل إلى عمله، وضع الدجاج في الأقفاص والأم تراقب، شحنت العنزات وسخالها بشاحنة صغيرة مضت بها بسرعة والأم تنظر، لكن حين جاء دور العجلة لم تستطع إلا أن تقترب منها، تتلمس جلدها، تمسد جبينها ثم تذرف دمعة فقد تذكرت أمها العطراء.

-آه!! ما أقسى قلوبكم أيها الرجال!! قالت لزوجها وقد انتهى من تحميل العجلة وربطها بالحبال.

-ماذا؟ تريدينني أن أبكي كالنساء؟

-النساء خير منكم.. هن أعظم وفاء وأخلص وداً.. قالت وهي ما تزال تذرف الدمع.

-ليس وقتك يا حرمة.. هيا.. اذهبي.. ساعدي الأولاد. لدينا عمل كثير..

أجل .هي تعلم أن لديهم عملاً كثيراً، لكن هل باستطاعتها أن تعمل شيئاً؟ ركبتاها واهنتان تشعر أنهما قد تتفككان في أية لحظة.. ذراعاها ضعيفتان تحس أنها أعجز عن تحريكهما في رزم غرض من أغراضها. قلبها يبدو متثاقلاً متباطئاً وكأنما تمنعه الحسرة من الخفقان.

-مالك أماه؟ سألتها أميرة وقد عادت لتوها من المعسكر.

-لا أدري.. أشعر وكأنني مصابة بدوار.. لا أعرف ما يجري حولي.. أميرة نفسها أحست بنوع من الدوار كذلك الذي كانت تشعر به حين تركب الدواخة أيام الأعياد ويحركونها بسرعة كبيرة. السرعة.. أجل.. في الفيزياء درسوا قوانين السرعة والتسارع وتأثيرهما على الإنسان. هي تعلم أن كل زيادة في السرعة تعني تجاوزاً للنمط الذي بني عليه توازن الإنسان وبالتالي اختلالاً

لذلك التوازن.

توازن البيت اختل وقد بدأ كل شيء يجري بسرعة، حزم الأمتعة، النقل، البيع، الشراء، فالدلال حريص على استلام البيت في الموعد المحدد، والمتعهد دائم التجهم، دائم الحملقة حريص أن يشرف بنفسه على وصول الآليات التي تهدم وتدمر بطرفة عين. الأم نفسها باتت حريصة أن تغادر بأسرع ما تستطيع إذ ما ان رأت تلك الآليات العملاقة تقترب هادرة حتى أصابها ما يشبه الهلع.. لا.. لن تقطعوا شيئاً قبل أن نغادر!! قالت ثم تحول ذلك الهلع إلى كوابيس مخيفة آخر ليلة وهي ترى وحوشاً هائلة الحجم تفتح فكاكها وتهجم عليها تريد تمزيقها بأنيابها الحادة.

مع ذلك لم تستطع أم ديبو أن تغادر إلا بشق النفس. قلبها يتفتت وهي تقلب النظر في الغرف الخاوية.. من غرفة إلى غرفة راحت تتلمس الجدران.. تتمسح بالنوافذ.. تقبل الأبواب.. عمراً طويل كانت قد قضت في ذلك البيت، فرحها، ترحها، سعادتها، شقاؤها، كلها كانت قد عاشتها في ذلك البيت، دخلته وهي ابنة ثلاثة عشر.. وها هي ذي الآن في الأربعينات فكيف لا تأسى عليه؟ الدموع نفسها تأبى إلا أن تسيل وفاء لعشرة عمر..

–ماذا؟ أتبكين بيت الفقر والحرمان؟ سألها ديبو وهو يضحك ساخراً ملوحاً برأسه.. لو كنت مكانك لخرجت وأنا أرقص وأزغرد.. لكنها لم تخرج إلا وهي تذرف الدموع، ثم ذرفت دموعاً أكثر حين مرت بأشجار الجوز والمشمش التي كانت تنظر إلى الآلات العملاقة وهي ترتجف خوفاً لكأنها تعرف المصير الذي ينتظرها. وحدها أميرة كانت تشارك أمها أساها، وهي تودع مسقط الرأس والحاكورة الجميلة التي طالما سرحت فيها ولعبت طفلة وصبية.

بما خف وغلا فقط رحلت العائلة، ففي الشقة الجديدة كل ما تشتهي أم ديبو: خمس غرف واسعة: ثلاث للنوم، واثنتان للمعيشة والضيوف.. المطبخ واسع حتى ليطارد فيه الخيال، يحوي البراد، الغسالة الأوتوماتيك، الثلاجة، الجلاية.. أواني "التيفال" التي لا تلصق أبداً، الطناجر البخارية، الكؤوس البلورية، صحون القيشاني.. فماذا تريد أم ديبو أكثر من ذلك؟ في غرفة المعيشة راديو ستريو، مسجلة، تلفزيون ملون، فيديو.. كل شيء على أحسن طراز، لكأن صاحب الشقة فكر بكل شيء عنهم، جهز كل شيء كما يرغب أصحاب الأحلام. الجدران صقيلة الورق، جميلة الرسوم، زاهية الألوان، بل حتى السقوف مزخرفة بالجص، مذهبة الحواشي، تنظر إليها شاهة فتنبهر، ينظر ديبو وفهد فينبهران..

–ليتها ملكنا يا أبي!! هتفت شاهة وهي تكاد ترقص فرحاً، خسارة أنها مؤقتة.

–هذا هو الشرط: يقدم لنا شقة ريثما تقوم شقتنا في حاكورتنا القديمة. شقة واسعة، مساحتها ثلاثمائة متر ستكون لنا هناك، فلماذا نهتم بهذه؟

–لكنها رائعة.. ليتك تشتريها لنا يا أبي!! قال فهد هذه المرة وهو يطمع في أن تظل له إذا عاد أهله إلى غربي المالكي..

لكن الأب لم يرد.. أمور كثيرة كانت تشغل ذهنه وهم يرتبون حاجاتهم هنا وهناك..

–انظري، هتفت شاهة بأختها وهي تكاد تطير فرحاً بغرفتها الجديدة. ما أجمل هذا الورق!! هذه الرسوم!! تابعت هتافها وهي تتلمس الجدران، الستائر.. وهذا السرير!! انظري كم هو مريح، قالت أخيراً وهي تقذف بنفسها عليه فيرفعها عالياً وقد تقلصت نوابضه ثم انبسطت. أميرة نفسها لا تملك إلا أن تعجب بالفرش، الستائر، ورق الجدران، لكن أكثر ما أعجبها شرفتها الواسعة.

–يا لها من شرفة رائعة!! هتفت وهي تخرج إلى الشرفة التي تطل على ساحة المالكي.

–بل قولي: كل شيء هنا رائع!! ردت شاهة وهي تتقلب على السرير الوثير يمنة ويسرة، فرحة سعيدة.. إنها ضربة حظ.. ليلة قدر حقاً فتحت لنا أبواب الجنة..

وللتو، شردت أميرة شاعرة بشيء من انقباض. هي تستعيد بذهنها ما قاله عمها لأبيها "في كثير من الأحيان يكون المال مطية إبليس، وإبليس لا يقودك إلا إلى جهنم.. "

لكم صدم حين سمع ببيع الأرض!؟ فلماذا؟ ألم يعجبه الثمن؟ أهي المفاجأة؟ أكان يرغب بأن يستشيره أخوه؟ ربما لتلك الأسباب كلها. لكن كم تود أن يبقى عمها إلى جانب أبيها.. هي تشعر أنهم يدخلون مرحلة خطيرة.. ينتقلون من عالم إلى عالم، فهل يستطيعون التكيف مع هذا العالم، أم يتصدعون وينشرخون، بلورة باردة وضعت في ماء حار؟ لو يظل إلى جانب أبيها، يقدم له الرأي والمشورة.. لكن كيف؟ وقررت أميرة أن تكون صلة الوصل.

الشقة الجديدة جعلت المهمة أسهل. بيت عمها، مدرستها، بل كل شيء بات أقرب وأسهل.

باستطاعتها أن تذهب إلى عمها كل يوم، لكن ذلك مستحيل.. الدراسة تستهلك جل وقتها فلا تجد إلا القليل من الفراغ.

–لماذا تتعبين نفسك بالدرس وقد أصبحنا أغنياء؟ شاهة تسخر منها، فترد أميرة بنبرة الحكماء: لا يغني المال عن العلم. كلاهما ثروة، وحبذا لو تجتمع

الثروتان.

-تريدين بطيختين بيد واحدة؟ لماذا؟ بطيخة واحدة تكفي.

لكن أميرة كانت قد وضعت نصب عينيها هدفاً فهل يحرفها عنه المال؟ أميرة لا تشعر بالحاجة لأن تغير شيئاً: في المدرسة تلبس بذلة الخاكي، خارج المدرسة تدرس. فساتينها القديمة عزيزة عليها، لا تفرط بواحد منها.. صحيح أنها اشترت بضعة ملابس جديدة لكنها أبقت القديمة.. بل لشد ما يسعدها أن تخرج بفستان من تلك الفساتين فتبدو وكأن شيئاً لم يحدث.. ذات يوم، وكان الشتاء قد حل بقرسه ورياحه، ذهبت إلى بيت عمها بمعطف جديد لفت نظرهم في الحال:

-إي هكذا!! أرينا النعم الجديدة، أميرة!! قالت امرأة عمها، وهي تتلمس المعطف البني الأنيق .

-أميرة تتعمد أن تأتينا بثيابها القديمة كيلا تشعرنا بغناها الجديد، علقت ابنة عمها نور، وهي تتفحص المعطف معجبة بياقة الفرو الكبيرة في أعلاه.

-بل هي وفية مخلصة، أنا أعرفها، لا تتخلى عن قديمها من أجل جديدها.. علق مأمون وهو فرح ضاحك..

-فهيم!! كل عمرك فهيم.. أنا أعرفك أيضاً، ردت أميرة مبتسمة سعيدة، وهي تغرس نفسها وسط من تحب. لم يكن عمها في المنزل، لكن كل من في بيته يحل محله.. علاقتها بهم راسخة وقد ترسخت أكثر بعد التغير الجديد. كل مناسبة تنتهزها للمجيء إليهم، ابنة عمها نور تأتي إليهم أيضاً في شقتهم الجديدة، وقد سرها انتقالهم السريع ذاك. في الماضي، كانت نور تشفق على أميرة من الفقر، وكانت لا تدع فرصة تستطيع مد يد المساعدة فيها لابنة عمها إلا وتفعل ذلك. روابط كثيرة تجمع بينهما، ولم يكن مأمون بأقل منها روابط. هي نفسها تشعر بقربها الشديد منه..

هو رحب الصدر، ذكي، عطوف.. نسخة أخرى عن أبيه ولم يكن يسعد أميرة كأن تلتقي به.

-اسمعي.. أميرة.. تدخلت امرأة العم من جديد، القرآن الكريم يقول "وأما بنعمة ربك فحدث".. لهذا اسمعي مني.. البسي.. انفقي.. استمتعي، فالمال لم يخلق إلا للانفاق، والحياة لم تخلق إلا للاستمتاع..

-أماه!! ما هذا الذي تقولين؟ اعترض مأمون عابساً قليلاً، البنت ما تزال طالبة، أي في مرحلة الجد والبناء.. وليس اللهو والاستمتاع..

-أنا فقط أشفق عليها.. ألم تر أختها شاهة كيف تلبس؟ كم تضع في يدها

من حلي وأساور؟

-لا.. أمي.. هي شيء وشاهة شيء آخر، تدخلت نور هذه المرة، شاهة تعيش فراغاً قاتلاً.. همها الوحيد أن تجد العريس.. أما هي فوقتها مليء، ولديها الف هم وهم..

-صحيح.. امرأة عمي.. قالت أميرة بنبرة التوكيد: أنا أرغب بالعلم.. ومن ترغب بالعلم لا ترغب بالملابس والذهب..

-إيه!! عقبت الأم متنهدة، لو كان لدى عمك نظر فقط!!

-أماه!! ما هذا الكلام؟ احتج مأمون من جديد وهو يرى ابنة عمه تتحول إلى كتلة من انتباه..

-ما.. ماذا تقصدين امرأة عمي؟. سألت الفتاة ذات المعطف البني الجديد وقد فاجأتها اللهجة الغريبة لامرأة عمها.

-أقصد أيام زمان، حين توفي جدك تنازل عمك عن كل ما تركه المرحوم لأبيك: بيت، أثاث، أرض.. بحجة أنه يريد أن يوفر له حياة كريمة.. لكن ها هو ذا أبوك يبيع الأرض بالملايين، ألا يفترض أن يكون قد ذكر أخاه بشيء؟ ألا ينبغي أن يتذكر أن لأخيه الحق في تلك الأرض مثله؟

ذلك السؤال والحرقة التي طرح بها جعلا أميرة تتكمش. ثم تفكر بالسؤال المرة تلو المرة.. صحيح، عمي وأبي ورثا الأرض بالسواسية فكيف يستفيد منها واحد دون الآخر؟

-لكن عمك تنازل لأبيك فهل تراجع الآن؟ هل ندم على تنازله؟ سألت شاهة بدورها وقد بلغها السؤال الذي حملته أميرة بارداًساخناً إلى الشقة الجديدة.

-هو لم يقل شيئاً.. بل لم أره البتة.. لكنه سؤال جدير بالبحث، لماذا لم يفكر فيه أبي؟ لماذا لم يفكر فيه أحد منا؟

وعلى مدى أيام، ظل ذلك السؤال شغل البيت الشاغل.. أميرة والأم مقتنعتان أنه يستحسن بالأب أن يكون لديه نظر فعلاً وأن يقدم لأخيه جزءاً ولو يسيراً من ذلك المبلغ عرفاناً وامتناناً.. أما الآخرون فقد أبدوا كل امتعاض:

-كيف يثيرون مشكلة كهذه؟ قال ديبو .

-الأرض ملكنا.. لا يشاركنا فيها أحد، أكد فهد..

-هذه الثرثارة!! كان تعليق الأب، أبي صرف الآلاف على تعليمه حتى صار أستاذ كيمياء وفيزياء ثم موظفاً معتبراً.. وخرجت أنا صفر اليدين.. لا علم ولا شهادات.. هو قدر ذلك وتنازل لي عن الأرض فهل تستكثرها امرأته

علي الآن؟ تريده أن يلحس بصاقه؟

تلك الهجمة المباشرة قطعت الطريق على أميرة في طرح المسألة من جديد، لكنها ظلت تشغلها.. أتراها هي السبب في صدمة عمي الأولى؟ هل ندم على كرمه القديم؟ أيريد فعلاً أن يأخذ حصته من ثمن الأرض؟" ولم يكن ليهنأ لها عيش قبل أن تعرف الأجوبة.. نور أكدت أن أباها لم يفكر في الأمر قط، وان كلام أمها من عندها فقط.. مع ذلك أرادت أن تعرف الحقيقة من المنبع ذاته. فالعلاقة بين أبيها وعمها كانت تشهد فتوراً متزايداً. مرتين أوثلاثاً كان العم قد زارهم في شقتهم الجديدة، وعلى فترات متباعدة.

-عمي، مالك لا تزورنا هذه الأيام؟ سألته ذات مرة وقد التقيا في الشارع مصادفة.

-أميرة!! قال وهو يحضن كتفها بذراعه، سائراً بها إلى الرصيف الآخر، أنت تعلمين أنني لا أستطيع إلا أن أزوركم، إن لم يكن من أجل أبيك فمن أجلك أنت..

-أنت زعلان من أبي، أليس كذلك؟

-زعلان!؟ لماذا؟

-ربما قصّر في حقك.. امرأة عمي قالت.. كان عليه أن يكون صاحب نظر ويعطيك بعض حقك..

-لا.. لا. امرأة عمك على خطأ.. الأرض لأبيك، حقه ومستحقه.. لا يشاركه فيها أحد..

-يعني.. أنت غير نادم..!؟ لا تشعر أنك غبنت؟..

-نادم! غبنت؟ ما هذا الذي تقولين؟ لقد تنازلت له بمحض إرادتي ذات يوم، وليس عمك من يندم على ما فعل!! ليس عمك من يشعر بالغبن إن استفاد أبوك من أرضه.

-إذن، لم علاقتكما هكذا؟ فاترة.. بغيضة ؟

-أميرة.. لا تسألي كثيراً.. أبوك أخي وأنا أحب أخي ولا أتنازل عن أخوته أو أبيعها بمال الأرض.. فقط أنا خائف، أميرة.. أخي يدخل عالم المال.. وهو عالم خطر كله منزلقات وهاويات وما الذي يضمن لي ألا ينزلق أخي أو يهوي؟ أ.. آ...؟ من يضمن ذلك؟

-هو رجل كبير.. سنه، خبرته، تجاربه،، ألا يمكن أن تكون ضمانة، عمي؟

–يقولون: الحب بحاجة إلى الأدب، القرابة بحاجة إلي المودة، المعرفة بحاجة إلى التجرد، أما المال فبحاجة إلى العقل والمال كثيراً ما يذهب بالعقل، فمن يضمن العكس أميرة؟

–لهذا السبب يجب أن تبقى قريباً منه..صدقني..بعدك عنه يزيد الطين بلة..

–بالتأكيد.. لكن كيف إن كان هو نفسه يريد تركي؟ إن كان هو نفسه يرغب بالابتعاد عني؟

–لكن لماذا؟ أرجوك.. قل لي.. أريد أن أفهم..

–سأقول لك. رد العم وهو يزفر حرقة ولوعة، مذ نشأنا كان والدك يشعر أنه أقل مني بكثير.. أنا الأنجح وهو الأفشل، أنا الأغنى وهو الأفقر.. مما ترك في نفسه شعوراً بالدونية.. أنا فوق وهو تحت وكان ذلك يحز في نفسه.. يترك شيئاً من حقد كنت أشعر فيه من حين إلى آخر..

الآن.. صار لديه المال، بات يشعر أنه لم يعد بحاجة إلي، بل هو قادر على الاستغناء عني.. فلماذا لا يستغني؟ يمكن أن يفتح صفحة جديدة ينقلب فيها الوضع فيصبح فوق ومصباح تحت.. إذن لماذا لا يفعلها؟ الفرصة سانحة لأن يعيد تسوية الأمر: هو الأخ الأكبر وأنا الأصغر فلماذا لا يستغل هذه الفرصة..؟

–أيعقل أن يفكر هكذا؟

–بل هو وحده الذي يعقل.. ألم تريه كيف بات يعاملني من عل كلما التقينا؟ ألم تسمعيه كيف يكلمني؟ كيف يسخر من آرائي ونصائحي؟ أبوك، أميرة.. تغير كثيراً..

أميرة تعلم ذلك.. التغير يرتسم واضحاً على أبيها: لباسه لم يعد ذلك القميص المقلم العتيق والسروال الأسود الفضفاض، بل شيئاً فشيئاً بات يذهب إلى السوق، يشتري بذلات من الجوخ الانكليزي، قمصاناً حريرية، ساعات ذهبية، ربطات عنق، هو الفلاح الذي لم يفكر يوماً بباريس أو روما، جاء بربطات عنق من باريس وروما.. حتى أحذيته اشتراها من الجلد الإيطالي.. أميرة تتعجب، من يزرع في رأسه أن يبذخ هذا البذخ؟ الحذاء بألف ليرة، هو الذي لم ينفق على الأحذية ألف ليرة طوال عمره. شعره يقصه لدى أحسن الحلاقين، يسرحه بتأن ورعاية، بل يضع الكريم والمثبت.. فأي تغير يحدثه المال؟

–أنا معك.. أبي تغير.. قالت الفتاة وهي تصعد زفرة، ليس من جهتك فقط.. بل في كل شيء.

–هه.. أنت نفسك تقولين ذلك، فما عساي أقول؟

أجل.. هي تقول ذلك.. وكيف تخفي عن عمها شيئاً؟ عمها الذي تثق به أكثر من أي كائن في الوجود، تحبه أكثر من كل من في الوجود.. ليس أبوها وحده من تغير بل البيت كله.. أمها باتت تكره أن تطبخ. هي تجلس طوال النهار، كسولا لا تحرك ساكناً وإذا أرادوا أن يأكلوا، فالمطاعم أقرب وطعامها أطيب. حسب شاهة أن ترفع السماعة وتتصل بمطعم الساحة والفارس لتأتي بعد ذلك المشاوي والكبة، الشرحات والفيليه.. وكأنهم لم يكونوا في يوم من الأيام يعيشون على الشوربة والمجدّرة..

-عمي.. هذا التغير هو الذي يخيفني.. تابعت تفكيرها بصوت عالٍ، فأمسك العم بالخيط..

-معك حق.. التغير يخيف.. وسرعة التغير الأكبر هي التي تخيف أكثر.. تصوري نمراً أرقط تنقلينه من الغابة الاستوائية مباشرة إلى ثلوج القطب، دبا أبيض تنقلينه من صقيع القطب إلى لهب الربع الخالي، ماذا يحدث له؟

-هذا ما أخشاه يا عم.. وهذا ما يدفعني للتوسل إليك أن لا تدع أبي وشأنه.. أحطه برعايتك.. ظل إلى جانبه.. أرجوك يا عماه!!

-لا حاجة لأن ترجيني.. أميرة.. أنت تعلمين كم أحب أباك.. كم ضحيت من أجله وكم أريد له الخير.. لكن ماذا أفعل إن بات يكره قربي؟ يرفض حتى سماع رأيي،.. تصوري لو استشارني قبل أن يبيع.. كم كان سيربح يا ترى؟

-كم؟ سألته وقد فتحت عينيها دهشة..

-خمسة، بل ربما عشرة ملايين أخرى.

-عماه، ماذا تقول؟ هتفت دون أن تعير انتباهاً لمارة أو مسترقي سمع، فالمفاجأة شديدة الوقع.

-ما تسمعين. لقد استغلوا بساطته، استغلوا عدم معرفته.. عرضوا عليه ذلك المبلغ وهم يعلمون أنه سيجن فرحاً ويوقع في الحال. كان قرار التنظيم قد صدر لتوه، وكان أصحاب الأرض لا يعرفون قيمة أرضهم بعد، باعوا المتر بألف ليرة أما اليوم، وبعد تسعة أشهر فقط أتعلمين كم صار سعر المتر الواحد؟

-لا..

-ألفين وثلاثة آلاف.. أي كل دونم الآن بدونمين وثلاثة مما باعه يومذاك فهل تدركين مقدار ما خسر؟

-أجل.. أجل.. أدرك قالت وهي تهز رأسها أسى وحسرة..

–ومن ربحها؟ السماسرة والمتعهدون.. كما هو شأنهم دائماً.. لهم كل شيء وللآخرين الفتات.. أرأيت لماذا صدمت يوم أخبرني بالبيع؟ ولماذا أنا خائف عليه اليوم؟

–الآن أزداد تشبثاً بك.. فلا تبتعد عنا.. ظل معنا.. ولم تترك أميرة ذراعه حتى وصلا إلى البيت. ثم لم تسمح له أمها بالذهاب حتى تغدى.. صحيح أنها لم تكن قد طبخت، لكن شاهة كانت قد طلبت الطعام، ولم يجد العم بداً من البقاء.. لكن دون أن يرى أخاه، فالأب لم يعد ذلك اليوم إلى البيت.. كان شوكة الداهوك قد دعاه إلى الغداء وكان كثيراً ما يدعوه.. فالفلاح الذي كانت آفاقه محددة ببضع مئات من الأمتار باتت الآن واسعة، بل مع شوكة الداهوك باتت بلا حدود.

شوكة... علاقاته واسعة، صلاته كثيرة بالتجار، بالأغنياء، بكل من يمكن أن يفيد.هو، مذ كان تلميذاً في المدرسة، شاطر.. بل يذكر سيف الدين جيداً أنهم كانوا يلقبونه بالشاطر حسن، ولم يكن الشاطر حسن يخيب أملهم.. فقد كان يقرص هذا، يلدغ ذاك، يسرق قلم هذا، حقيبة ذاك وكان بإمكانه أن يخفيها بطرفة عين ولا يكشفها أحد. هو مثل سيف الدين لم يكمل تعليمه.. وصل إلى السابع ثم هجر الدراسة. اشتغل صبي متجر، ثم صبي محام، فأجير سمسار.. في السمسرة وجد ذاته، فبدأ يصعد إلى أن بات صاحب مكتب كبير في أرقى أحياء دمشق.

بسيارته الأمريكية يمضي مع صاحبه الجديد إلى الغوطة، الزبداني، بلودان، يرتادان المقاهي، المطاعم.. المال كثير وشوكة الداهوك ينفق، بل سيف الدين النايفة نفسه بات ينفق.. في الأيام الأولى كان يكتفي بأن يكون ضيفاً.. تمد الطاولات أمامه، يأكل، يشرب، بل يشهد الرقص والراقصات ولا يدفع شيئاً. يده لم تكن قد اعتادت الدفع. والسنون الطويلة التي عاشها خاوي الوفاض عودت يده ألا تمتد، والعادة طبع ثان. لكن شيئاً فشيئاً بدأت يده تعتاد.. نقود كثيرة في جيبه.. يشعر بها في المحفظة المنتفخة." عيب أبا دياب!! معك نقود، فلماذا لا تدفع؟ "كان يخاطب نفسه من حين إلى آخر، ومن حين إلى آخر يجد من الشجاعة والحماسة ما يجعله يدفع.

في البداية حاول أن يقتر، لكن شيئاً فشيئاً بدا له أن من الغبن أن يحاول التقتير، أن يمتنع عن إعطاء أولاده ما يحتاجون.. الثياب، الحلي، فواتير الهاتف، الكهرباء.. كلها عودته أن يدفع.. وذات يوم وجد نفسه يدفع مائة ألف ثمن سيارة.. ولماذا لا يشتري سيارة؟ هل شوكة الداهوك خير منه؟ الأولاد فرحوا كثيراً، بل كاد ديبو أن يطلق الرصاص فرحاً، هو المغرم بالسيارات.

-اشتر لي واحدة أبي!! اقترح عليه بعد حين، وقد وجد أنه تعود بسط اليد.

-لا، يكفينا سيارة واحدة الآن!!

-ولماذا لا تكون لكل منا سيارته يتفسح بها ويتنزه؟ تشجع فهد فأدلى بدلوه، وهو يعلم أن السيارة أقرب الطرق إلى قلوب الفتيات. يكفي أن يذهب إلى أقرب مدرسة للبنات، يحوم هناك بعض الوقت، يذهب بسيارته ويجيء ثم يلقي بصنارته فيصطاد الفتاة التي يشاء.

-لا، لا، أنا أريد السيارة للعمل.. تدخل ديبو شبه عابس، وقد بدا له أن اقتراح أخيه سيفوت عليه الفرصة.

-للعمل؟ سأل الأب بكثير من التعجب، أي عمل؟

-سيارة عمومية، أشتغل عليها وأكسب المال.. تابع بدافع من حلم كان كثيراً ما يراوده أيام زمان.

-أنت أيها الكسول، يا من ينام حتى الظهيرة، تشتغل سائق سيارة عمومية؟ تدخلت الأم ساخرة من ابنها الذي بات ولا هم له سوى أن يأكل، يتسكع في الطرقات، يتفرج على التلفزيون وينام.

-أجل، أنا أحب السيارات وأريد واحدة أشتغل عليها.

-تشتغل!؟ قاطعه الأب وهو ينهض، هازاً رأسه ساخراً، ثم خرج وكل ظنه أنه قد أعطى الجواب. لكن البطالة التي كانت تعيشها الأسرة جعلت الأم تفكر كثيراً بالأمر.. وذات ليلة اقترحت على الأب:

-لو تجد عملاً لديبو.. أي عمل.. هذه البطالة مخيفة، ليس بالنسبة إليه فقط بل بالنسبة إليكم جميعاً..

-الناس تعمل لكي تكسب المال، ونحن لدينا المال فلماذا نعمل؟ رد الزوج الذي استطاع خلال تلك الفترة أن يملأ فكيه بأسنان جميلة بدلاً من أسنانه التي سقطت من قبل، أن يصبغ شعره الأشيب ليعود كشعر الشباب، أن ينصب ظهره من جديد وكأنه لم ينحن من قبل، بل بات بارعاً حتى في ستر عاهته، ذلك العي الذي كان كثيراً ما يحرجه، إذ صار يقف عند كل حرف يمكن أن يستعصي عليه أو يتمهل، يدور ويلف حتى لا يظهر عيه.

-لكن الفراغ مفسدة يا رجل فكيف إذا كان معه المال والشباب؟ لو تشغلهم بأي شيء، أليس خيراً من السهر حتى مطلع الفجر والنوم حتى الظهر؟ تساءلت وهي تعنيه أكثر مما تعني ولديه.

-ليشتغلوا ما يشاؤون.. أنا لا أشغل أحداً.

–لكنك أب.. والأب رب للبيت ومسؤول عمن فيه.. قالت ذلك وهي تتذكر البيت الذي كان سلفها مصباح يردده دائماً!! "إذا كان رب البيت بالطبل ضارباً"، وهي وإن كانت لا تعرف تكملته إلا أنّها تعرف معناه جيداً.

–لا تنقي كالضفدع على رأسي.. اذهبي إليهم.. نقي كما تشائين، لكن أنا.. دعيني وشأني.. أريد أن أعيش.. بالطول والعرض أريد أن أعيش.. سعيداً.. مسروراً لا يعكر صفوي شيء.

–لكن، كل ما ليس من نبع ينضب، تابعت نقاشها غير وجلة من العبوس الذي بدأ يرتسم على جبينه، وأموالك هذه ليست من نبع.

–لا.. لا تخافي.. أموالي في بنك وفوائدها تكفيني. فلماذا أتعب نفسي في كسب المال؟ حسبي إنفاقه.

منطق عجيب جعل الزوجة تفغر فاها لحظة دون أن تدري ما تقول. كانت تعلم أن الرجل بدأ رحلة التغير بخطا واسعة لكنها لم تكن تظن أنه قطع ذلك الشوط. هو يخرج كل صباح ليعود وقت الغداء حيناً وعلى العشاء أحياناً ومع الفجر أكثر الأحيان. أين يذهب؟ ماذا يفعل؟ أكثر من مرة سألته، لكنه أكثر من مرة صدها: في مكتب شوكة، مع شوكة. لكن شوكت يبيع عقارات، يتوسط، يسمسر، أما هو فماذا يفعل؟

–اسمع.. أبا دياب.. أنت قاعد عن العمل. لديك مال فلماذا لا تستثمره في البيع والشراء؟ سأله صديقه الدلال وكأنما يرد على تساؤلات زوجته.

–أنا أستثمر؟ أشتغل في البيع والشراء؟ وما أدراني بذلك أبا عمرو؟ أعاد الصديق الكرة إلى مرمى السمسار، لكن هذا سرعان ما صدها كأبرع حارس مرمى.

–لا تدري.. صحيح.. لكن يمكنك أن تتعلم.. وأنا معك.. نعمل شريكين..

–لا.. إن كنت معي نعمل شريكين، الأمر مختلف، لكن كيف؟ رد أبو دياب ببعض التعثر والعي فقد بدا له الاقتراح داعية من دواعي العي..

–اسمع.. الحواكير حارتك.. اهلك وأصحابك.. تعرفهم واحداً واحداً، فلماذا لا تسعى؟ تشتري دونماً هنا، دونما هناك.. أعني نشتري معاً.. فالبناء يمتد نحو الغرب والأرض ترتفع أسعارها يوماً بعد يوم؟

–أجل!! قال أبو دياب متنهداً، هو الذي أدرك مدى الخسارة التي لحقت به حين باع حاكورته في ذلك الوقت المبكر.. المتر الآن بثلاثة آلاف.

–أرأيت؟ لكن إن ابتعدنا نحو الغرب قليلاً أخذنا بسعر أرخص، لقطنا لقطات أربح. هه.. ماذا قلت؟

-فكرة..قلت.. هي فكرة.. لكن دعني مرتاحاً الآن.. على الأقل إلى أن أستلم البيت.

-البيت.. لن تستلمه قبل شهرين على الأقل.

-وماذا في ذلك؟ ننتظر شهرين.

لكن عينه لم تعرف الرقاد تلك الليلة إلا بعد أن قام بجولة على الأرض، تلك التي كانت ذات يوم حاكورته ثم بدأت ترتفع فيها كتل من الاسمنت سيكون له في أولاها بيت واسع شاسع يحلم بأن يسكنه قريباً.

شاهة لا تحلم بذلك.. فالشقة الجديدة فتحت لها آفاقاً جديدة. شرفتها تطل على أبنية مقابلة ومن شباكها ترى شباناً يثيرون الاهتمام.

-مسكينة، ماذا سيحل بك حين نرحل إلى بيتنا الجديد؟ سألت أميرة ضاحكة وهي تشير من الشباك إلى شاب بات يظهر كثيراً في النافذة المقابلة.

-لـــ .. لـــ.. لن يحل بي شيء.. ردت متعثرة وقد فاجأتها أختها بدخولها الغرفة..

-أعلى هامان يا فرعون؟ لكنه صدقيني شاهة، أنت في غاية الذوق، الشاب جميل ويستحق أن يحب..

-صحيح.. أميرة؟! قالت بلهفة واضحة وقد شجعها كلام الأخت..

-صحيح بالتأكيد.. وصحيح أيضاً.. أن تبحثي عن رجل تحبينه وتتزوجينه قبل أن يفوتك القطار..

-القطار.. القطار.. راحت تردد بنبرة ارتعاش.. صحيح.. أميرة.. أنا لم أعد صغيرة وكل ما أخشاه هو أن أبور..

-تبورين؟! ربما كان ذلك أيام الفقر.. لكن الآن أنت غنية.. وهل رأيت غنية تبور؟ لوحي للرجال بالمال يجروا وراءك جرياً.

-صحيح.. أميرة؟! عادت تكرر كالببغاء وهي تكاد لا تصدق.. لكنني خائفة.. لا أدري ما أفعل. .

-تحركي.. دبري رأسك.. خاصة إن كان ذلك الفتى يعجبك..

-يعجبني؟! تساءلت شاهة هازة رأسها، ثم مضت إلى الشباك تغرس عينيها في عيني جار لم تكن تعرف عنه إلا أنه شاب ممتلئ الجسم، وسيم الوجه، أنيق الملابس، يبتسم ويلوح لها من حين إلى حين لكن دون أن تجرؤ على رد ابتسامته أو تلويحة يده.. كثيراً.. أميرة.. يعجبني كثيراً..

-حسناً قولي انه يعجبك.. ردت بين الممازحة والجادة فهي ترى ما تعانيه أختها، ترى خوفها وحيرتها فلماذا لا تشجعها قليلاً؟ أعطيه الضوء الأخضر.. من يدري؟ فقد لا يمضي الشهر إلا وهو خطيبك..

-بيدك حق.. أجل.. الضوء الأخضر.. سأعطيه الضوء الأخضر..

وهكذا، بدأت شاهة إطلاق الأشعة الخضراء.. وبدا الشاب الوسيم ذو الجسم الممتلئ والملابس الأنيقة يتلقى، ثم يرسل. نظرة فابتسامة، فسلام فكلام فموعد فلقاء.. ثم اتفاق على أن يأتي بأمه وأخته.. لكن، ما ان همت الأم والأخت بالمجئ لتحديد موعد الخطبة حتى بدا أن عليهم جميعاً أن ينتظروا، فقد كانت العائلة منهمكة بالرحيل إلى البيت الجديد.

-3-

"طالما للحياة وجهان، يمكن أن تكون الكلمة جناحاً للصمت والنار دثاراً للبرد" تقرأ أميرة في كتاب بين يديها فتنتصب إشارات استفهام وتعجب بين عينيها." كيف تكون النار دثاراً للبرد والكلمة جناحاً للصمت؟ "ثم شيئاً فشيئاً تتلاشى إشارات الاستفهام والتعجب وهي ترى بأم عينها أن للحياة وجهين فعلاً: سعادة وشقاء، جمالاً وقبحاً، ولادة وموتا، تماماً مثلما للطبيعة نهار وليل، صيف وشتاء، ربيع وخريف، فيشكل الشيء ونقيضه وحدة متكاملة.

الفكرة تثيرها كثيراً فتتابع متسائلة: ألا يمكن لرجل يلبس لبوس الصداقة والود أن يكون أعدى الأعداء؟ ألا يمكن لضارة أن تكون نافعة؟ شيء تكرهه يعود عليك بالخير وشيء تحبه يعود عليك بالضير؟ ثم بدا لأميرة، وهي تتابع سلسلة تداعياتها، أن الحياة جملة من المفارقات العجيبة وأعجب ما فيها أن على الإنسان أن يقبلها كما هي، بل أن يتكيف معها أوضاع في متاهة أشبه بمتاهة ثورندايك، يدخلها الجرذ فلا يستطيع الخروج. إحدى تلك المفارقات أن البيت الجديد الذي ظنت أميرة أنه سيكون الجنة حين ينتقلون إليه لم يكن كذلك. كان كل شيء يوحي بأن عودتهم إلى الحواكير ستكون أحمد، كما يقال، لكن ها هي ذي تتبدى أسوأ.. كيف؟ أميرة لا تجد جواباً على الإطلاق.

كان البيت واسعاً مطلاً على كل ما دونه من سفح قاسيون المنحدر حتى ساحة الأمويين. وكان قد غدا لأميرة غرفة خاصة بها.. لم تعد بحاجة لأن تنام مع شاهة في سرير واحد كما كانت الحال أيام الحواكير القديمة ولا في غرفة واحدة كما كانت الحال في شقة المالكي، بل بات لها سريرها العريض الوثير وغرفتها الجديدة الجميلة، تسرح فيها وتمرح كما تشاء، لكن ما لها السعادة وكأنها ينبوع غاض؟ بل هي مذ رأت ما حل بحاكورتهم الجميلة تلك، أحست أن شيئاً في قلبها تفتت. لم تكن تفارق خيالها أشجار الحور الباسقة وهي تشرئب بأعناقها عالياً فوق النهر رشيقة هيفاء كحوريات الجنة. لم تكن تنظر من شرفتها المطلة على نهر تورا إلا وتتذكر المرج الأخضر الذي كثيراً ما كانت تفترشه تحت شجرة الجوز العتيقة الضخمة كمظلة إلهية الفيء والأنسام. تنظر أميرة من الشرفة فتتذكر كل صغيرة وكبيرة. هنا لعبت الاستغماية مع رفيقاتها، هناك جرت مع أختها تختفيان بين رؤوس الملفوف، هنالك جلست مع ابنة عمها نور تشويان الذرة.. لكن ذلك كله ذهب، كانت خمسة مبان كبيرة قد قامت: كل مبنى

عدة مداخل وكل مدخل عدة شقق يتراكب بعضها فوق بعض عشر طبقات.. فأية متاهة استطاعت التكنولوجيا أن تصنع من تلك الحاكورة الجميلة البسيطة ذات البيت المبني باللبن بغرفه العتيقة وسقفه الخشبي؟

أدمغة كثيرة وزنود كثيرة عملت ولا شك.. معماريون، نجارون، حدادون، كلهم شارك بشكل أو بآخر في صنع المتاهة، في مسح كل ما له علاقة بالماضي حتى تحولت الأرض كلها إلى ميدان من الاسمنت انقسم مباني للناس ومرائب للسيارات، فالسيارات كأصحابها، بحاجة لمأوى يقيها حر الصيف وقر الشتاء.

"لو تركوا أشجار الدراق الثلاث فقط، "كانت أميرة تردد لنفسها كلما نظرت إلى الطرف الشمالي من الحاكورة حيث كانت أشجار الدراق تنتصب". حين يأتي الربيع سأفتقد أزهارها الجميلة". ذلك أن أميرة كانت تحب أكثر ما تحب أزهار الدراق وهي تكسو أشجارها بحلة زاهية الألوان كلما جاء نيسان..

أميرة تحب الأزهار كلها، أزهار الأجاص البيضاء المطرزة بأنواع الدانتيل كأثواب العرائس، أزهار الجلنار، وهي تنبثق من حلل الرمان الخضراء، لوحة فنان يعشق الأحمر والأخضر، بل تحب حتى أزهار الزيزفون ذات الأصفر والأبيض التي تملأ الأجواء كلها بعبق رائع.. ذلك كله كانت تفتقده أميرة كلما خرجت أو دخلت المبنى الجديد الذي لم تكن الأشغال فيه قد انتهت.. فالطوابق العالية فيه ما تزال قيد الانجاز.. السلالم كلها حجارة واسمنت.. الأرض المحيطة بالمبنى كلها قضبان حديد، أكياس اسمنت، أوساخ، أتربة.. لكن كان لا بد لهم من الانتقال، فشقتهم في المالكي بالإيجار والبيت الذي وعدهم به المتعهد الهمام قد أنجز.

كان العالم القديم قد زال ليحل محله عالم جديد بكل ما فيه من شواش واضطراب، غموض وقتامة، وكان ذلك ما جعل أميرة تقلق منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها البيت. مع القلق راودها الخوف من المستقبل، ذلك الغامض المجهول الذي ينتظرها، ومع الخوف بدت لها السعادة ينبوعاً يغيض وبدا لها البيت الواسع الرائع خالياً موحشاً، كروض هجرته عناد له ليغدو مقبرة للوحشة والصمت.

لا، الحقيقة، لم يكن هنالك صمت، فالورش العاملة والآلات الهادرة كانت ما تزال تصدر ضجيجها العالي ليل نهار. الروافع والسيارات الغادية الآتية كانت كلها تفتت الصمت، تحيله حطاماً وكان ذلك يزيد من شعور أميرة بالخوف، بالقلق، بل والوحشة.. أليست الحياة كلها مفارقات!؟ هي ذي واحدة أخرى.. الضجيج دثار الصمت، والزحام رداء الوحشة. حين دخلت الأم البيت

عاشت مفارقة أخرى تماماً كابنتها.. بادئ ذي بدء بهرتها الغرف الواسعة، التنظيم الجميل، المطبخ الحديث، سيراميكه الإيطالي.. بهرها كل شيء.. لكن شيئاً فشيئاً بدأت تتنابها مشاعر القلق والخوف شجرة مقتلعة الجذور غرست في غير تربتها، فكيف تمد جذورها من جديد؟ في بيتها القديم كان كل شيء بسيطاً مريحاً حفظته عن ظهر قلب، لكن ما تراها تفعل في بيتها هذا وكل ما فيه جديد بل أكثره معقد تخشى الاقتراب منه ولا تعرف شيئاً عنه؟ الجرس أوكرديون ما ان تكبس زره حتى يبدأ العزف ولا يتوقف حتى تنتهي أسطوانته. الغسالة أوتوماتيك، الثلاجة، الجلاية، المكيف في غرفة النوم ذاك الذي لا يفتأ يئز ويئز، محيلاً الصيف إلى شتاء والشتاء إلى صيف. هذه الآلات مخيفة.. مذ رأتها في شقة المالكي نفرت منها وابتعدت عنها.. شاهة، أميرة أغنتاها عنها، لكن، وقد انتقلت إلى بيتها الجديد، كيف تنفر منها؟ هي صنعت لخدمتها، جيء بها من أجل راحتها، فكيف تبتعد عنها؟

أم ديبو تقرفص بجانب الغسالة الأتوماتيك، هنيهات طويلة ترقب كيف تدور من اليمين إلى الشمال ثم من الشمال إلى اليمين، كيف تشرق الماء، تأخذ المسحوق، تدور برهة ثم تتوقف برهة وكرة ثانية تدور ثم تتوقف، وعلى حين غرة تبدأ عدواً سريعاً يخيل معه لأم ديبو أنها ستطير من مكانها. "فقط. املئيها ملابس ثم اكبسي زراً "قالت لها أميرة وهي تعلمها العمل بها، وكادت تفغر فاها عجباً "بل يمكنك أن تنامي أو تذهبي زيارة وحين تعودين ستجدين الملابس قد غسلت ونشفت..." كيف؟"

"لقد تقدم العلم إلى درجة بات بإمكان الآلة أن تستغني عن الإنسان "ازدادت الخشية في قلب الأم.. الثلاجة نفسها مصدر خوف.. احفظي فيها الفول، البازلاء، الملوخية.. كل شيء يمكنك أن تحفظيه هنا شهراً.. شهرين.. ستة أشهر.. ثم تخرجيه وتطبخيه وكأنه قطاف الأمس." هكذا قالوا لها فلم تملك إلا أن تتساءل: "معقول؟ ألن يسود الفول ويهترئ؟ ألن تيبس البازلاء وتجف؟ والملوخية الن تخيس وتعطن؟" وكان ديبو أكثر من ضحك وقهقهه. "أم ديبو ضد التطور.. القديم يشدها إليه إلى درجة تخشى معه الجديد." أما فهد فقد وجدها مناسبة لكي يلقي على أمه محاضرة عن ضرورة نسيان الماضي، التمسك بالحاضر والتطلع إلى المستقبل فقط.." لكن كيف؟ سألته الأم "أيستطيع المرء أن ينسى الماضي وهو نفسه من صنع ذلك الماضي؟" .. نحن أولاد اليوم "أكد عليها" ما فات مات والماضي فات، أي صار ميتاً مدفوناً في قبره ويحسن بنا ألا ننبشه كيلا تصدمنا روائحه الكريهة." أجل، فهد على حق" ثنت شاهة على كلام أخيها.. "خير ما نفعل ألا نتكلم عن ذلك الماضي.. نفتح صفحة جديدة نحن فيها

الأغنياء، الموسرون، ولا خوف فيها من الفقر والحرمان". "لكن، من ليس له قديم ليس له جديد يا ابنتي" ردت الأم حزينة متألمة، تألم شجرة تشعر بالمعول وهو يقطع جذورها الواحد تلو الآخر.. "هذا كلام قديم أكل الدهر عليه وشرب. "تنطع فهد هذه المرة للتقطيع من جديد بمعوله ذي الحد المسنون." علينا أن نلغي علاقاتنا القديمة كلها، أم تراك ستظلين صديقة لأم قاعود وأم برو"؟ "حتى صديقاتي تريدونني أن أنساهن؟" "أجل.. بعد اليوم لا دجاج ولا ماعز، لا بقر ولا حليب، فما الذي يربطك بمثل هؤلاء النسوة؟ ما الذي يأخذك إلى كفرسوسة وكيوان؟ لا.. لا.. يجب أن تقيمي علاقات وصداقات تتناسب مع عالمنا الجديد.."

ذلك الحديث أخافها أكثر مما أخافتها الغسالة والجلاية، الثلاجة والفديو. في أعماقها كانت تشعر بشيء من فرحٍ فالثروة الجديدة يمكن أن توفر لها الراحة، فلا تشقى بالغسيل والجلي.. برعايةً البقرة والماعز.. بشغل الداخل والخارج، لكن أن تحرمها من ماضيها وصاحباتها أمر يقتل كل فرح. أميرة اعترضت على ذلك كله إلا أن أخوتها تمادوا أكثر، مصرين على ضرورة القاء الماضي كله في المزبلة "كما قال فهد ساخراً مقهقهاً" وعلى ضرورة تخفيف العلاقة حتى مع بيت عمي مصباح" معقول؟" ردت أميرة هذه المرة بقدر كبير من الحنق" بيت عمي نخفف العلاقة معهم؟" "بل نقطعها"، أكد ديبو ثم تابع الشرح بلغة الرصين الذي يعرف عظمة مقداره وقد أصبح ذا نعمة.." من اليوم فصاعداً، ستكون الفوارق بيننا كبيرة.. نحن الأثرياء وهم الفقراء فلماذا نحافظ على علاقتنا بهم؟" لم ترد أميرة على كلام أخيها، بل رمته بنظرة شزراء وخرجت. لكن ذلك المساء، وحين انفردت بأمها، همست لها بأن لا ترد على أولادها الحمقى الذين لا يفهمون شيئاً في الدنيا فلا خير فيمن يتنكر لأهله وماضيه، ولا خير فيمن يسلخ جلده.

مع ذلك لم ترتح الأم.. كلام أولادها زاد من خوفها وبلبالها.. هم يريدون أن تقيم علاقات جديدة.. غداً ينبغي عليها أن تتعرف على زوجة التاجر الكبير، الصناعي الخطير، زوجة الطبيب والمهندس أولئك الذي سيسكنون البناية وقد بدأ بعضهم بالانتقال إلى مسكنه الجديد.. لكن كيف؟ ما الذي يربطها بامرأة التاجر أو الصناعي؟ الطبيب أو المهندس؟ عمّ تحدثهم؟ بأية لغة تخاطبهم؟ هي أمية لا تقرأ ولا تكتب وهن سيكنّ متعلمات مثقفات ولا شك.. لباسها طويل واسع محتشم ولباسهن قصير ضيق وفق أحدث الأزياء فكيف ينسجمن؟ وكيف تقيم معهن الصداقات؟.

تلك الأسئلة راحت تشغل بالها وقد دخلت العالم الجديد من أوسع أبوابه..

مع انشغال البال بدأ التوجس والخوف يعششان في الزوايا المعتمة من نفسها.. مشوشين ذهنها، معكرين صفو السعادة التي ينبغي أن تعيشها وقد ظهرت لها ليلة القدر.. كل ما كانت تحلم به راح يتحقق. حتى ابنتها شاهة، تلك التي كانت قد يئست من إيجاد عريس لها جاءها العريس: شاب كفلقة القمر طويل، أبيض، أخضر العينين مسترسل الشعر، عريض المنكبين، ابن أرقى العائلات الدمشقية، يرتمي عند قدميها، فأي عجب!؟

والحقيقة، حين حدثتها أميرة بذلك أول مرة، تبسمت بمرارة." معقول؟ شاب بمثل تلك المواصفات، سليل مثل تلك العائلة يتقدم لخطبة شاهة؟ أنا لا أصدق" لكن ليالي القدر تأتي دائماً بما لا يصدق إذ لم تكد العائلة تستقر في بيتها الجديد حتى قامت أمه وأخته بالزيارة التي تعقد فيها النساء اتفاقات الزواج عادة ولا يبقى على الرجال إلا أن يبصموا. أمر واحد نغص على أم ديبو تلك الزيارة. "شاهة!! أليست متكبرة كثيراً هذه المرأة؟" سألت ابنتها ما ان غادرت المرأة الخمسينية الطويلة الرشيقة الرافلة بأفخر الملابس منزلهم، لكن الابنة لم تكن قد رأت الأم ولا الأخت، متكبرتين كانتا أم غير متكبرتين. كل ما رأته هو ذاك الشاب الأبيض الطويل ذو العينين الخضراوين والمنكبين العريضين الذي كان يرصدها من نافذته حين كانت في شقة المالكي ثم بات يحوم على طريق الحواكير حين انتقلت إلى بيتها الجديد. هو حلم جميل بالنسبة إلى أي فتاة فكيف لا يكون كذلك بالنسبة إلى شاهة وقد قطعت كل أمل بالزواج؟.. عشر سنوات كانت قد مرت عليها مذ بلغت مبلغ النساء دون أن يطرق بابها أحد. حتى مأمون ابن عمها لم يكن قد نظر إليها مرة واحدة نظرة تبعث الأمل. كان قصر قامتها وميلها إلى السمنة قد جعلا الكل يلقبونها منذ الصغر "بالدعبولة" وكان اصفرار وجهها، صغر عينيها، كبر فمها، ضخامة أنفها، كل ذلك يجعل الدعبولة تخشى التقرب إلى أحد. أليست الدمامة أرهب حراس المرأة وأشدهم إخافة للرجال؟ ذلك الحارس جعلها تسير على طريق العنوسة شوطاً زرع اليأس عميقاً في نفسها، لكن ما أن ظهرت ليلة القدر وانفتحت أبواب السماء تمطرهم ذهباً وفضة، حتى ظهر سمير بطوله وعرضه، حسبه ونسبه يغازلها من الشباك ثم يطلب اللقاء بها، يبوح لها بحبه ويعبر عن غرامه، ثم يبعث في طلب يدها أمه وأخته. الود ودها أن يوافق أهلها على أن يكون عرسها الاثنين لا الخميس فمن يعلم؟ قد تفيق غداً فتجد أنه مجرد حلم لا علاقة له بالواقع. لكن الزواج ليس شوربة تطبخ بل هو مسألة معقدة لا بد لحلها من تمعن وتفكير، ضرب وطرح، جمع وتقسيم. أبو ديبو ملهوف مثل ابنته للخلاص من ابنته لكنه، كبقية أفراد العائلة، مستغرب، متعجب. "كيف يطلب مثل ذلك الشاب، سليل تلك

العائلة، شاهة للزواج؟" أخته قالت في زيارتها التمهيدية إنه الحب.. فأخوها سمير الذي لم يكن يعجبه العجب ولا الصيام في رجب، أعجب منذ النظرة الأولى بشاهة، بل وقع صريع الحب ومن يستطيع الوقوف في وجه الحب خاصة إذا ما بلغ مرتبة الهوى وصار من ذلك النوع الذي يجتاح القلوب اجتياح الأعاصير؟

رغم فصاحة الأخت، ظل أبو ديبو في حالة استغراب، ولكي يخرج منها ويؤدي واجبه الأبوي، صمم على أن يسأل عن الخاطب، أصله وفصله، وكان صديقه الداهوك خير عون. الداهوك ابن الحي، يعرف كل شاردة وواردة فيه. "الشاب، لا غبار عليه "أجاب الرجل عن ابن حيه الشاب." سمعته كالعطر، أصله تعرفه، فصله ممتاز، كل شيء حوله مشجع.. فقط هو مدلل بعض الشيء وحيد أبويه.." "مدلل، لا يهم!! مسألة شخصية لا تقدم ولا تؤخر "كان رد الأب المتلهف للخلاص من ابنته" نقطة ثانية أيضاً" وضعه المادي مزعزع بعض الشيء."" لكن المعروف أنهم سلالة اقطاع.. أراض وعقارات.. أرصدة وأملاك." صحيح.. كل هذا كان صحيحاً، فقد كان لأبيه قرى في الجولان.. بساتين في الغوطة، أراض بين الشيخ محي الدين وركن الدين.. عقارات في الجبة.." إي وأين ذهب هذا كله؟" سأل الأب وقد جحظت عيناه استغراباً.. "ذهب به القمار.. تلك الآفة التي كان الأب مبتلى بها.. من أجلها يذهب إلى كازينوهات لبنان.. ايطاليا.. فرنسا.. يلعب ويخسر.. حتى لم يبق لديه شيء..".

وأحس الأب بنوع من الصدمة جعلته ينكمش، يتخوف، بل يفكر جدياً برفض الابن الذي لا يملك شيئاً..."أنا هارب من الفقر أأعود إليه؟.. "قال لامرأته وابنته، لكن الابنة لا تسمع.." سمير يطلب يدي وأرفضه؟ هذا جنون بل إن حدث سأصاب بالجنون." تصرح دون خوف أو مواربة، فعقلها الذي كانت الضربات المفاجئة تترى عليه لم يكن يتحمل ضربة أخرى.. هي عائلة هابطة وضعها المادي في الحضيض وأخشى أن يكون داخلاً على طمع. لكن حجج الدنيا كلها لا تجدي نفعاً.. فالفتاة صماء بكماء متشبثة حتى الموت بفارس الأحلام.

ساند الفتاة أمها وأخوتها، فوافق الأب أخيراً، بل وعد أن يقيم لها عرساً يليق بابنة السلطان، فهم، بعد كل شيء، سيناسبون عائلة كبيرة شهيرة. لكن سوء الحظ كان بالمرصاد كالعادة وكان هذه المرة على شكل رخام إيطالي. كانت الاستعدادات للزفاف قد اتخذت والعرس قد حدد حين دخلت أم ديبو الحمام وفي نيتها أن تستمتع بدفء الماء وعطر الصابون. ملأت الحوض بالماء الساخن ثم غطست فيه.. جرمها الكبير جعل الماء يفيض من أعلى، ومع الماء

رغوة الصابون التي تشكلت طبقات طبقات.. ثم ما ان خرجت من الحوض حتى تحولت تلك الرغوة إلى مزلقة سقطت فيها المرأة الناعمة بدفء الماء الهانئة بعطر الصابون. مع السقوط انطلقت صرخة بدا، فيما بعد، أن لا علاقة لها بالنعيم والهناءة، اسرعت العائلة تنقل الأم المتوجعة إلى المستشفى.. ثم تبين أنها لن تستطيع تحريك ساقها قبل ستين يوماً فكيف تحضر عرساً إذن؟

وهكذا، ألغي حفل الزفاف، لكن لم يلغ الزفاف نفسه، فقد اكتفى العروسان المتلهفان بحفل بسيط في المنزل مضيا بعده لقضاء شهر العسل في بيروت.

غياب شاهة زاد الطين بلة، فالبيت الخالي بات أكثر خلواً والموحش صار أكثر وحشة: الأب يذهب منذ الصباح ولا يعود إلا آخر الليل، دياب يخرج ويدخل، لكن دون أن يشعر أحد بدخوله وخروجه. فهد يغيب اليوم واليومين معاً.. ولا يعرف أحد أين يغيب. وأميرة تمضي إلى مدرستها.. هناك تجد الصحبة والتسلية، لكن إذا ما عادت إلى البيت راودها ذلك الإحساس بالوحدة والوحشة كما كان يراود أمها وهي في سريرها لا تستطيع الحراك..

–من يخدمني؟ من يخدم البيت؟ قالت للزوج وقد اضطرت أختها أن تعود إلى بيتها بعد أيام.

–أميرة.. رد الزوج الذي لم يكن خروجه الدائم يسمح له بالتفكير بها أو ببيتها..

–أنا!؟ كيف؟ ومدرستي؟ صاحت الفتاة متعجبة..

–مدرستك؟ رد بشيء من استهزاء.. اتركيها.. واقعدي في البيت..

–أقعد في البيت بعد أن تعبت ووصلت إلى الشهادة الثانوية؟

–الشهادة الثانوية؟! وهل شهادتك هذه ستخرج لك الزير من البير؟ اسمعي مني أميرة، استريحي في بيتك.. اخدمي أمك.. وغداً يأتيك عريس أحسن من عريس أختك، فلماذا التعب والمرارة؟

–وأنت فقير درستني، فهل تحرمني من ذلك وقد صرت غنياً؟

–درستك؟ لا لا، أنا طول عمري لا أحب الدرس ولا الدراسة.. رد مشيحاً بوجهه جانباً.. بنت ودراسة؟ بصراحة هذا لا يدخل في رأسي. الشاب إن درس.. يعني.. فيها وما فيها.. لكن البنت تدرس؟ لماذا؟ هي بالمحصلة ستتزوج ثم تحبل وتلد.. هذه وظيفتها الرئيسية في الحياة. أليس كذلك أم ديبو؟

أم ديبو حائرة.. هي تكره أن تجرح إحساس ابنتها كما تكره أن تخالف زوجها. تريد لابنتها أن تتعلم كما تريد من يظل إلى جانبها، يخدمها، ينظف البيت، يطبخ، ينفخ.. وليس هناك غير أميرة فماذا تقول؟

-صحيح.. البنت خلقت للزواج والانجاب.. لكن أميرة حرام تترك المدرسة.. ردت الأم أخيراً بكثير من التردد والتلعثم..

-حرام!؟ عقب الأب وهو ينهض فقد تأخر عن موعد خروجه! إذن ظلي وحدك.. ولا تسأليني عمن يخدمك أو يخدم بيتك؟

-ولماذا لا تأتي لها بخادمة؟ تدخلت أميرة بهجوم مفاجئ باغت كلاً من الأب والأم.

-خادمة؟ ردد باستغراب أوقف عينيه في محجريهما.

-أجل يقولون هناك خادمات فلبينيات، سيريلنكيات.. والواحدة بخمسين دولاراً في الشهر..

-خمسين دولاراً؟ ماذا؟ تريدين أن أدفع خمسين دولار من أجل خادمة؟ لا.. لا.. هذا بطر.. بطر.. راح يردد وهو يتوجه نحو الباب ملوحاً برأسه استنكاراً.. عند الباب توقف لحظة ملتفتاً إلى الوراء ثم استأنف بنبرة فيها قدر أكبر من الحزم!.. اتركي المدرسة، أنا لم أعد بحاجة إلى شهاداتك وعلمك.. بل بحاجة إلى أن تخدمي أمك.

-هه.. أعجبك هذا؟ هاجمت البنت أمها حال خروج أبيها من عتبة الباب، من أجل خدمتك أخرج من المدرسة!؟

-لا.. لا.. لم أعد أريد من يخدمني.. لم أعد بحاجة لأحد.. لكن أميرة ظلت في حال من القلق والخوف دفعها لأن تبحث عن الراحة والطمأنينة.. وأين تجدهما.. إن لم تجدهما عند العم مصباح؟

الساعة الواحدة انتهى دوامها المدرسي، الواحدة والنصف كانت تدخل مكتب عمها، وهي تدعو ربها أن تجد لديه لحظة فراغ. فهو كأمين لإدارة الجامعة، نادراً ما يجد تلك اللحظة. هي تعلم ذلك، إذ كثيراً ما تأتي لتجد المكتب مليئاً بالمراجعين الغادين الآتين، هذا يريد وثيقة، ذاك يريد شهادة، تلك تواجهها مشكلة، والكل يريد من أبي مأمون الحل، لكأنهم جميعاً يعلمون جبلّة أبي مأمون فيؤمنونه كما يؤم القطا الغدير.

فتحت أميرة الباب فكادت تشهق:

-أنت وحدك!؟ هتفت وهي تسرع إليه فرحة. هب العم من كرسيه يستقبل ابنة أخيه.

-أميرة!! كم أنا مشتاق إليك!؟ أخذها بالأحضان، ثم بدأت الأسئلة عن الصحة والأهل، لكن دون أن يستطيعا الإكمال، فقد بدأ دفق الناس للتو لكانما كانت هي الفاتحة. فرادى وجماعات صاروا يدخلون إلى العم، يستفسرون منه،

يقدمون له أوراقاً، يطلبون مشورته وأميرة ترقبه صامتة متفكرة: "جميل أن تجد الناس بحاجة إليك.. لكن الأجمل أن تجد نفسك قادراً على قضاء حاجتهم!!"

بصبر شديد وحلم كبير كان عمها يعامل الناس.. هي تحسده على ذلك الصبر، تغبطه على ذلك الحلم.. فالموظفون غالباً ما يكونون نزقين، غلاظ القلوب.

ذات مرة رأت أحدهم يفك حزامه ويهوي ضرباً على حشد تجمع أمام بابه.. صابا على رؤوسهم أفظع الشتائم وأقذع السباب.. يومذاك أحست بالقهر والغضب، "تباً" له!! يضرب المواطنين!؟ يسب الناس ويشتمهم؟" قالت لعمها وهي تنقل له الصورة" للأسف!! ذلك يحدث كثيراً.. بل يحدث ما هو أسوأ منه!! "لماذا؟ سألت عمها فأجاب بمزيج من التعجب والألم "لأننا متخلفون.. جهلة.. لا المواطن منا يعرف حقه فيدافع عنه ولا الموظف يعرف واجبه فيؤديه بل ربما يظن الكثير من الموظفين، أنهم مندوبو سلطة لا علاقة لها بالشعب، تماماً كما هي الحال أيام الاستعمار، مهمتهم اذلال الناس وتعذيبهم، فيمارسون عليهم عقد التكبر والتجبر كلها".. كانت أميرة ماتزال تفكر مستعيدة كلمات عمها تلك حين دخلت ابنة عمها نور.. تبادلتا القبل ثم انتحتا جانباً فيما كان الأب ينهي آخر معاملات مراجعيه..

-أية مصادفة سعيدة!؟ أية بهجة أن أجدك هنا؟ قالت نور لابنة عمها وهما تنتظران أمين السر الذي كان عليه أن يلملم أوراقه ويحشر بعضها في حقيبته عله يتابع انجازها في البيت.

-أنا السعيدة المبتهجة بك!! ردت أميرة وهي تنظر بإعجاب إلى طالبة الطب المجدة النشطة التي كانت دائماً مثلها الأعلى والقدوة التي تريد أن تحذو حذوها. الحقيقة لم أتوقع رؤيتك.. كنت أريد أن أرى عمي بضع دقائق أسأله شيئاً.. وأعود.. لكن كما تعلمين.. هو مشغول.. لم أستطع أن أكلمه..

-تكلمينه في البيت.. فلم العجلة؟ قالت وهي تمسك بيدها سائرة بتمهل عبر الرواق الطويل ذي السقف العالي وكأنه رواق أحد المعابد القديمة.

-أمي، كما تعلمين، لا تستطيع الحركة ولا أحد لديها في البيت..

-مسكينة!! من أين جاءتها هذه البلوى؟ سألت طالبة الطب التي كانت صور الكسور والعظام والجماجم تملأ رأسها قبل قليل في مشرحة الكلية، لكن أميرة لم تجب فقد وصل العم مسرعاً دافعاً بهما إلى اللحاق بسيارة الجامعة.

وهكذا، لم تجد أميرة نفسها إلا وهي في بيت عمها، حيث كل شيء يسير وفق نظام دقيق لا يخالفه أحد، أياً كانت الأشغال. أفراد العائلة كلهم يجتمعون

على الغداء، يجلس الأب على رأس الطاولة، الأم على يمينه، مأمون إلى شماله ونور إلى جانب مأمون. تحضر أميرة فتأخذ مكان مأمون. وينتقل مأمون إلى يمين أمه. جو من التفاهم والحب تشعر به أميرة يغلف تلك العائلة، روابط حقيقية من الإيثار والمحبة تربط بين أولئك الأفراد. على الغداء يناقشون مشكلات البيت، يتبادلون الأخبار، يروي كل منهم ما سمع من قصص ونوادر. طعامهم صنف واحد تطبخه امرأة العم بإتقان.. الفواكه، الشاي.. كل في حينه، مذ كانت أميرة طفلة صغيرة تزور بيت عمها، كان ذلك النظام قائماً وهو ما يزال قائماً ولا تملك أميرة إلا أن تتحسر على بيت أهلها الذي لا يعرف إلا الفوضى والوحشة.. الخالي من كل تفاهم وحب. بعد الغداء فقط تحدثت أميرة عن همها الكبير الجديد.

رد الفعل الأول كان الضحك والاستهزاء.

-أيعقل هذا؟ الآن وأنت على وشك نيل الشهادة يخرجك من المدرسة؟ هتف العم.. ولماذا؟ فقط لكي تخدمي أمك؟

لكن أميرة رجت عمها أن لا يستهين بالأمر.. فوالدها الذي كان قد تغير كثيراً مذ دخل عالم المال والتجارة، قد يصر على موقفه، وقد يخرجها من المدرسة فعلاً، هو الذي لا يقيم أي وزن للعلم.

-لا تخافي.. أنت خلقت للعلم والدراسة ولسوف تكملين ما خلقت له.. إنهما ضمانتك الوحيدة للمستقبل فلا تفرطي بهذه الضمانة!!

-هو يقول "لم أعد بحاجة لعلمك وشهاداتك، قالت الفتاة مصعدة زفرة ملؤها الحسرة..

-لا.. اطمئني. نحن معك.. كلنا معك، قال، وهو يشير إلى بقية أفراد العائلة..

-صحيح.. إن كان يحتج بأمك.. أنا أذهب إليها كل يوم أظل إلى جانبها.. أخدمها. قالت امرأة العم بمبادرة أدهشت أميرة.. فالسلفة التي لم تكن قادرة على التفاهم مع سلفتها مستعدة الآن للتضحية بكل شيء كيلا يتحطم مستقبل الفتاة..

شكرتها أميرة كثيراً علي تلك المبادرة ثم مضت تشكو بكثير من الحرقة حالتهم، وقد غدا البيت مسكناً للوحشة والصمت.. شاهة ذهبت، الأم مكسورة الساق لا تستطيع الحراك.. أبوها وأخواها كل في واد، متعطلون متبطلون لا يعرفون مايفعلون.

-هو ذا المال أميرة، استلم العم زمام الحديث، إنه كإبليس لم يدخل عائلة إلا فرقها، ولا قلباً إلا جرده من العاطفة ولا رأساً إلا ملأه جشعاً، ألم يقل

الانجيل: لا يدخل غني جنتي حتى يدخل الجمل خرم الإبرة؟

-صدقت.. عمي..فأنا لا أنظر إلى بيتنا إلا وأتمنى لو عدنا كما كنا أيام الحاكورة.. على الأقل.. كان الفقر يجمعنا حينذاك.. كان يجعل واحدنا يعطف على الآخر، أما اليوم فكل منا يفكر في نفسه فقط.. يبتعد عن الآخر حتى لأخشى أن يأتي يوم لا نعرف بعضنا بعضاً..

-لا، هذا ينبغي ألا يحدث.. وهذه هي مسؤوليتك.. رد هذه المرة مأمون الذي كان يحب الإصغاء أكثر مما يحب الكلام..

حملقت أميرة وكأنها فوجئت بتدخله.. ثم راحت تتأمله بفرح.. هو دائماً يفاجئها، ذلك المهندس المدني الذي يحسن إقامة الجسور وشق الطرق، تخطيط المنشآت وتصميم المشاريع كما لا يحسنها أحد.. بودها دائماً لو تعلم من أين يأتي فجأة بأفكاره العجيبة، هو الذي غالباً ما يؤثر الصمت ودائماً يكره التنظير..

-مسؤوليتي؟ كيف؟ ماذا تقول مأمون؟

-دائماً الوعي هو المسؤول، والأكثر وعياً هو الأكثر مسؤولية وفهمك كفاية!! ختم كلامه شبه ضاحك فثنت نور ضاحكة.

-مأمون على حق.. فليس باستطاعتك أن تلومي الجاهل إذا لم يعرف طريق الصواب ولا أن تعتبي على من ينقصه الوعي إن أخطأ.

-صحيح، رد الأب وقد تحمس فجأة، لكن شريطة أن يكون الواعي في موقع المسؤولية.. لا العكس كما هي حالتنا..

-ماذا تقصد أبي؟ سألت نور غامزة وكأنما شعرت بما يعتلج في صدره..

-أقصد أن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب لا كما نجد على أرض الواقع: المسؤولية بيد الأمي الجاهل، المال بتصرف اللص الجشع، والقرار بيد السمسار المخادع.

-لا، أبي.. لا تعمم.. أرجوك، عاد مأمون للحديث.. نحن إزاء حالة خاصة فلنعالجها بمنطقها الخاص.. أميرة هي الواعية في بيت عمي إذن هي المسؤولية عن تصحيح كل خطأ، الوقوف في وجه كل انحراف. وعليها أن تثبت جدارتها في تحمل تلك المسؤولية.

ولم تستطع أميرة إلا أن تشرد "إيه مأمون، يابن العم الرائع!! "حديث مأمون يسحرها دائماً.. ألأنه نادر؟ ألأنه في مكانه دائماً؟ هي لا تعلم.. لكنها تعلم أنه ما من شيء يشنف أذنيها كحديثه. أميرة تحبه بقدر ما تحب عمها، تشعر بقربها منه حتى لتود ألا تنفصل عنه!! لكنه كبير.. عشر سنوات ونيف

بينهما، بل هو يشعر أنه أكبر منها بكثير.. "كنت أحملك على ذراعي وأنت صغيرة".. كان يقول لها دائماً "كم لاعبتك وأنت طفلة بل كم هززت لك سريرك!!" حتى الثالثة أو الرابعة عشرة ظل مأمون يعاملها معاملة الطفلة الصغيرة، يأتي لها باللعب، يركض وراءها في الحاكورة، يلاعبها ملاعبة الأطفال، وكانت لا تنفك تنشد إليه أكثر وتتعلق به أكثر. مرة جديدة عادت إليه من شرودها وقد طرقت مسامعها كلمة تشرين. فأكثر ما كان يغريه بالحديث ذكرياته عن حرب تشرين تلك التي كاد أن يقتل فيها.

–في حرب تشرين تعرضنا لموقف خطر، كان مأمون يقول، فصيل الهندسة الذي كنت أعمل فيه حوصر من العدو الذي بات في مواجهتنا، وطائرات الهليوكبتر انزلت مفارز خاصة خلفنا.. فماذا نفعل؟ قائد الفصيل كان يرتعد خوفاً، ضباط الصف اختلفوا في الرأي، نسلم أنفسنا؟ نقاتل؟ نحاول الهرب افرادياً؟ نحاول الهرب جماعياً؟ كل برأي.. في تلك اللحظة شعرت بالمسؤولية فاقترحت: نصمد ونطلب النجدة؟ أجهزة اللاسلكي ما تزال تعمل؟ وبإمكاننا الاتصال بقواتنا الخلفية بل بإمكاننا أن ندلها على موقع الانزال الجديد وتحديد إحداثياته لهم، فلماذا لا نفعل ذلك؟ اتصلت ووصلتنا النجدة، ثم تبين أنه كان اقتراحاً ناجحاً فقد تم القضاء على قوة الانزال.

–هذا ليس لأنك واع يقظ، تدخلت الأم وهي تحيط كتفه بذراعها، مائلة بفمها على خده، لاثمة.. بل لأنك شجاع.. بطل.. قالت ذلك ثم توجهت بناظريها إلى أميرة، وملء عينيها الفخار والكبرياء، مردفة.. ابني بطل..

–أجل.. مأمون بطل..وأنا فخورة به ردت أميرة وهي تتذكر كيف كان يأتيهم من الجبهة بوجه معفر، شعر أشعث، ثياب لم تغسل ولم تبدل منذ زمن. كان يأخذها دائماً بين أحضانه هاتفاً "صغيرتي، أميرتي الجميلة، برنسيستي، "وكانت هي تجد بين أحضانه الأمان والدفء كما لا تجدهما مع ديبو وفهد." آه!! لو توقف الزمان ولم نكبر!" راحت تحدث نفسها، وهي تعود إلى الوراء أميرة صغيرة مدللة.

–وأميرة شجاعة أيضاً.. بل بطلة.. قاطعها مأمون من جديد مربتاً كتفها، وعليها أن تصمد، أن تدافع عن حقها في العلم.

–أجل، ثنى العم هازاً رأسه، يجب أن تتابعي دراستك أن تحققي حلمك.

–لهذا جئت إليكم.. أنا بحاجة إلى الدعم..

–ونحن ندعمك.. هيا أم مأمون.. هيا نذهب معها، قال العم وهو ينهض متحمساً حاثاً زوجته.

-نذهب.. ولم لا نذهب؟ ردت الزوجة وهي لا تقل حماسة عن زوجها، فما اقترحته قبل قليل لم يكن مجرد كلام.

"مركب الضرائر يمشي ومركب السلائف لا يمشي." هكذا يقول المثل الذي لم يأت من فراغ. لكن لماذا يا ترى؟ كيف تتفق الضرائر وتتعاون وتختلف السلائف وتتنازع؟ ألأن في مركب الضرائر قبطاناً واحداً فيسير، وفي الآخر قباطنة شتى فيقف؟ أم ديبو وأم مأمون سلفتان ككل سلائف الأرض، لكن حسن الحظ وحده جعل كلاً منهما تدرك أن عليها أن تبقي شعرة معاوية مع الأخرى، فمن يدري؟ الذهب يحتاج إلى النخالة والأخ لا يستغني عن أخيه.

سرت الأم كثيراً لمجيء سلفها وسلفتها.. بل نسيت حتى قلقها وخوفها على أميرة وقد غابت عنها أكثر من ثلاث ساعات. وجه مصباح المشرق، قبلات أم مأمون الحارة، احتضان أميرة لها، كل ذلك أنساها حتى أن تعاتبها أو تلومها. وللتو شغلتها أم مأمون بالأسئلة.. وهي تنتقل من واحد إلى آخر إلى أن وصلت إلى شاهة:

-هل تكلمكم من بيروت؟

-بالطبع.. كل يوم تتكلم.. وهي سعيدة.. تكاد تطير فرحاً..

-وكيف لا تطير وهي في شهر العسل؟ تساءلت السلفة لكن الزوج كان حريصاً على الدخول مباشرة في المسألة.

-وأخي؟ أين هو؟

-أخوك في مكتبه.. يشتري ويبيع.

-معقول؟ هل صار سمسار عقارات هو الآخر؟

-ماذا؟ ألم تخبركم أميرة؟ سألت وهي تنظر إلى ابنتها.

-إي أبي.. صحيح.. شارك شوكت في المكتب وصار يعمل معه.. يشتري ويبيع.. ونادراً ما يأتي قبل آخر الليل..

-حسناً فعل أبو دياب.. قالت السلفة وهي ترى في الأمر تطوراً هاماً.. خير من أن يقعد بلا عمل.

-ولماذا يريد إخراجها من المدرسة؟ سأل الأم وهو يشير إلى الابنة.

-الحق علي.. صدقوني.. هو لم يفكر بذلك.. بدأت الأم ثم شرحت لهم بالتفصيل كيف جرت القصة.

-إذن أنت التي جنيت عليها؟ سألت السلفة بمزيج من العتاب والضحك.

-وأنا سأخلصها، قالت بنبرة الوعد.. أجل.. سأدبر رأسي.. بمساعدة

أخواتي.. جاراتي.. بأي شكل سأدبر رأسي.. وتبقى أميرة في المدرسة.. هذا وعد..

–تقصدين أن لا حاجة لتدخلي.. سأل السلف من جديد.

–لا.. لا.. ردت أم دِيبو وهي تعلم مدى تحسس أخيه منه.. ومن يعلم..؟ بتدخله قد يزيد الأمر سوءاً..

–حسن، الآن يطمئن قلبي، قال مصباح وهو يعلم أن لامرأة أخيه بعض الدالة على أخيه وربما بعض السطوة، أميرةٍ نفسها أحست بالطمأنينة والراحة. وعد أمها يعني شيئاً.. وكلامها ليس جزافاً.. فهي التي شبكتها وهي وحدها القادرة على تخليصها.

فواكه، كاتو.. شاي.. قهوة.. أميرة حاتم الطائي بودها أن تحمل ضيافات الدنيا كلها لعمها وامرأته.. هما اللذان تحبهما أكثر ما تحب في العالم، فكيف وقد هبا لنجدتها؟

–لا، هذا كثير أميرة.. احتج عمها أخيراً، وهي تقدم لهم الشوكولا مع البوظة..

–ليس عليك كثير يا عم.. ردت أميرة وهي تنحني عليه مطوقة إياه بذراعيها.

كان التلفزيون الجديد الملون يعمل، وكان يشد أيما شد ناظري امرأة العم التي لم تكن قد جاءت بمثله بعد.. أبيض وأسود ما زال عندها وكان في قلبها حرقة.

–مصباح!! انظر!! اسمع!!

فجأة هتف بصوت ملؤه التعجب والاستغراب.

تطلع مصباح إلى حيث أشارت امرأته فاندفعت عيناه إلى الخارج، كأنهما تريدان مغادرة محجريهما:

–ماذا؟ السادات في إسرائيل؟ هتف أخيراً ملء صوته..

تسمرت الأعين على التلفزيون وانشدت الآذان فيما كان السادات يهبط على سلم الطائرة في مطار بن غوريون، بشعره الأجعد وبشرته الداكنة ونظارتيه السوداوين.. ثم مد يده يصافح مناحيم بيغن، اسحق شامير، غولدا مائير..

–أصحيح هذا؟ أأصدق عيني أبا مأمون؟ غمغمت الزوجة وهي تطرف بأجفانها كأن ما تراه مجرد وهم.. صور من خيال لا علاقة لها بالواقع. لكن أبا مأمون لم يكن قادراً على إجابتها.. كانت الدهشة قد وصلت به حد الذهول وكان

عاجزاً عن أن يجد الكلمة المناسبة.. المفاجأة صاعقة والصاعقة تدع كل ما تصيبه حطاماً.. مصباح يتابع الصور، السادات يقف وقفة الاستعداد تحية للعلم الأزرق والأبيض ذي النجمة السداسية، بل يرفع يده بالتحية لنجمة داوود كأنما نسي كل ما تحمله له من حقد وعداء. نسي كل ما سببته لأمته من مواجع وكوارث، نسي آلام الحروب، كل شيء.. كل شيء..

لكن.. كيف تراه ينسى؟ بالأمس فقط كانت حرب تشرين.. بل هو نفسه الذي قادها.. عبور القناة.. خط بارليف.. حصون شارون.. ثم العودة: ثغرة الدفرسوار.. حصار السويس.. مجاعة الجيش الثالث.. أذهب ذلك كله هباء؟! ماتت ذاكرته موت الفجاءة؟ مصباح يتساءل وهو يتابع صورة الرجل الذي كان على مدى خمس وعشرين سنة في سدة الحكم.. أحد رجالات ثورة يوليو.. ثم ضابطاً بارزاً في قيادتها، فوزيراً مسؤولاً، ثم نائباً للرئيس فرئيسا للجمهورية.. هزيمة حزيران نفسها كان يتحمل جزءاً من مسؤوليتها فكيف يلقي بذلك الماضي كله؟ كيف يتخلص من تلك المسؤولية؟

–تباً لك أبا رغال!! إنك لتقود الأحباش إلى قلب الكعبة!! وجد الرجل نفسه يتمتم أخيراً، وهو يستعيد في ذاكرته اسم ذلك الخائن العتيق عتق الدهر الذي ما يزال قبره يرجم بالحجارة حتى اليوم.

–قل لي كيف يحدث ذلك. كيف يزور السادات إسرائيل؟

–ومن يملك التفسير يا عم؟ وحدها الصهيونية والمخابرات الأمريكية تملك ذلك.

–لكن هكذا فجأة!؟ دون مقدمات!؟

–لا، ليس فجأة دون مقدمات، غمغم العم وهو يصعِّد زفرة.. مستعيداً في ذهنه فتات الأنباء التي كانت تتسرب بين الحين والحين عن لقاء حكام عرب بالصهاينة.. اتصالات سرية بين مسؤولين عرب ومسؤولين إسرائيليين..

–كيف إذن؟ قل لي عماه!!

–أميرة، رد العم أخيراً وهو يتنهد من جديد، معظم الساسة يؤمنون بمبدأ الظاهر والباطن..

–ظاهر وباطن، ماذا تعني؟

–أعني أنهم يضمرون شيئاً ويظهرونشيئاً آخر، يفعلون في الباطن غير الذي يفعلونه في الظاهر.. يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر..

–ألا كبُرَ عند الله مقتاً أن تقولوا مالا تفعلون!! تدخلت أم مأمون، معلمة الدين التي تحفظ الكثير من الآيات القرآنية..

-لكن ما معنى هذا؟ سألت هذه المرة أم دياب، التي ظلت طوال الفترة صامتة ترقب التلفزيون، صورة حقيقية للحيرة والتعجب.

-معناه الصلح مع إسرائيل.. رد السلف الذي لا يقل عنها حيرة وتعجباً.

-لكن أين لاءاته الثلاث: لاصلح، لا اعترف، لا مفاوضات مباشرة..؟ سألت هذه المرة أميرة.

-ألم أقل لك يا بنتي..؟ يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر. اللهم قد بلغنا أرذل العمر!! اللهم قد بلغنا أرذل العمر!!

وفجأة نهض، كأنه لم يعد يحتمل المشهد، ثم مضى حزيناً كسيراً لا يلوي على شيء.

آخر الليل جاء أخوه أبو دياب. كانت ضحكته تشق فمه حتى الأذنين وكانت السعادة والفرح يصنعان له جناحين يكاد يحلق بهما في الجو.. تعجبت أميرة وهي تراه على تلك الحال فلم تملك إلا أن تسأله، وقد عادت إلى ذهنها صورة العم الكسير الحزين الذي خرج يجر قدميه جراً.

-أبي.. ألم تسمع بزيارة السادات إلى إسرائيل؟

-وما شأني أنا بهما؟ ليذهب هو وإسرائيل إلى الجحيم.. أنا مسرور فرح..

-ولماذا أنت مسرور فرح؟ تدخلت الأم وفي نبرتها أشد الاستغراب..

-صفقة!! أكبر صفقة عقدتها اليوم!! صفقة سأربح منها الملايين.. ثم شرع يدور على نفسه ضاحكاً مقهقهاً إلى أن سقط على الأريكة مقطوع الأنفاس..

-4-

الطبيعة تعمل، الأرض تدور، الأجرام تسير. كل بنظام محدد.. نظام وجد بذاته ولذاته. ليس من خارج ولا ناظم، بل من داخل ووفق قوانين، وكل بهدف محدد..

هدف نابع من طبيعة الأشياء الحاكمة وعلاقات الأشياء الناظمة...

علاقات الأشياء الناظمة في عالم رأس المال تقول "من معه يعطي ويزاد ومن ليس معه يؤخذ منه. "إذن باستطاعة أبي دياب أن يستفيد من علاقات الأشياء الناظمة وقوانينها... بتوجيه عرابه الجديد شوكة الداهوك الذي يعرف، بالحاسة السادسة وحواس رأس المال الخفية والظاهرة كلها، كيف يجعل الأموال تتكاثر تكاثر خلايا السرطان.

إنه التكاثر الانشطاري: الخلية تصبح اثنتين والاثنتان أربعاً والأربع ثماني فست عشرة...

وهكذا تسير المتوالية الهندسية إلى أن تصبح أرقاماً خيالية. أليس هذا ما طلبه مخترع الشطرنج؟ "حبة قمح واحدة في مربع الشطرنج الأول تتزايد وفق متوالية هندسية، مكافأة بسيطة طلبها من ملك الهند.

ذلك الملك ضحك في البداية من مخترع الشطرنج البسيط الساذج الذي لم يطلب ذهباً ولا فضة بل قمحاً.. ثم اكتشف في النهاية أنه هو البسيط الساذج، فغلال بلاده كلها من القمح لا تكفي مكافأة لذلك المخترع.

أبو عمرو طرح الفكرة في البداية "شريكين في المكتب، أنت تدبر البائع من أصحابك، فلاحي الحواكير وأنا أدبر الشاري من المتعهدين" الفكرة أعجبته لكنه تريث هو بحاجة للتفكير فراح شريكه يحثه. "اسمع أبا دياب، الغنى يجر الغنى كما يجر الفقر الفقر، فاستفد من هذه الفرصة قبل أن تضيع أم تريد العودة إلى الفقر".

"لا.. لا.. لا أريد أن أعود إلى الفقر، لا أريد أن أعود إلى الحرمان".. "إذن.. استثمر أموالك... بالاستثمار وحده يكثر المال.. بل أقول لك: إن أحسنت استثمار ملايينك هذه لم تبق مليونيراً وحسب بل أصبحت مليارديراً".

حينذاك لم يكن أبو ديبو الذي بات الكل يناديه بلقب التبجيل " أبي دياب" يعلم معنى كلمة ملياردير... "ألف مليون" شرحها له عرابه الجديد، لكن دماغه

لم يكن على استعداد لاستيعاب مثل ذلك المبلغ.. ملايينه الخمسة نفسها لم يكن قد استوعبها دماغه بعد، فكيف بالألف مليون؟ لكن شوكة قال له "إذا هبت رياحك فاغتنمها.. وها هي رياحك قد هبت.. معك ملايين وأنا معي الخبرة والمعرفة والعلاقات... يضع أحدنا يده بيد الآخر نحقق المعجزات."

لكن أبا دياب فلاح قاسى طويلاً الجوع والفقر، عانى الحاجة والحرمان، ولا يريد البتة أن يعود إليها فكيف يلقي بنفسه هكذا بين يدي شوكة؟ بحذر راح يدرس العرض، حذر الفلاح الذي غدرت به الطبيعة مرات ومرات وقضت على مواسمه مرات ومرات. كانوا قد قالوا له "المصرف مضمون.. تضع أموالك فيه فتجدها كما هي.. بل تزيد أن أخذت فوائدها، " فوضع أمواله في المصرف، في البداية رفض أن يأخذ الفائدة، الإسلام حرم الربا، وفائدة المصارف ربا.. إذن كيف يحلل ما حرم الله ويأخذ الفائدة؟ "لا.. لا.. الله يغنيني عن هذه الفائدة" قالها بطريقته العبية يومذاك لشوكة الداهوك. لكن لم تمض أشهر ثلاثة حتى عاد شوكة الذي يريد أن يزرع في رأس صديقه فكرة الاستثمار فبيَّن له بحساب بسيط أنه أخطأ خطأً فادحاً وأنه خسر خلال تلك الأشهر مبالغ طائلة. "في لبنان مصارف تدفع فائدة (14) بالمائة. يعني لو وضعت ملايينك الخمسة هناك لأخذت عليها ثلاثة أرباع المليون كل سنة، فلماذا تضحي بثلاثة أرباع المليون؟ إن كان من أجل الحلال والحرام.. صدقني.. هذا حلال زلال لا حرام فيه ولا ما يحزنون... لسبب وحيد: المصرف يشغل هذه الأموال، أي يستثمرها.. وإن كان يعطيك فائدتها.. فما هي إلا جزء بسيط من أرباحه"..

"صحيح!؟ هو يربح من أموالي؟" وبدا لأبي دياب أنه على خطأ فعلاً وأن شوكة على صواب.. "فمن يربح من أموالك يجب أن تشاركه أرباحه" ومضى في اليوم التالي مع شوكة الداهوك إلى بيروت يضع أمواله في أعلى مصارفها فائدة. لكن الأموال في المصارف تتزايد حسب متوالية حسابية بسيطة، وشوكة يريدها أن تتزايد حسب متوالية هندسية، كمتوالية الشطرنج... ثم إذا ظلت في مصارف بيروت ماذا سيستفيد هو ومكتبه العقاري؟ وعاد لإعمال حجته وشحذ لسانه بغية إقناع أبي دياب في استثمار أمواله بطريقة أخرى... " نشتري عقارات ونبيع.. شريكين كاملين في السراء والضراء" لكن أبا دياب كان مسروراً بحسابه في المصرف... فقد اكتشف، بحسبته البسيطة نفسها، أنه دون إن يحرك ساكناً ودون أن يتعب ويشقى، يمكنه أن يعيش من فائدة أمواله عيش الملوك". خمسمائة ألف، ستمائة ألف كل عام.. ماذا أفعل بها؟"

قال ذات مرة لأم دياب وقد سألته أن يعمل شيئاً بدلاً من قعوده عاطلاً

باطلاً "انفقي ما يحلو لك... اصرفي ما تشائين... فائدة أموالي تكفي وتزيد.." والحقيقة لم تكن أم دياب بحاجة للكثير، هي الفلاحة التي عاشت طويلاً على مبدأ الاكتفاء الذاتي، وحاكورتها عماد اكتفائها الذاتي، هي التي لم تكن تعرف موضة أزياء ولاحلاق شعر ولا سهراً في كازينو. لكن أم دياب كانت مشغولة البال على زوجها تكره أن تراه فارغ الأشغال... الطبيعة علمتها أن لاخطر كالفراغ فهو سرعان ما يبحث عما يسده.. ناقشت أبا دياب في ذاك أكثر من مرة.. لكنه كل مرة كان يضحك "الفقراء وحدهم يتعبون أنفسهم... يكدحون ويكدحون، يشهقون ولا يلحقون.. لكن الأغنياء مثلنا، ما حاجتهم للعمل؟ أموالهم هي التي تعمل... لتعود عليهم بالأرباح". في تلك المرحلة شدد شوكة ضغطه على أبي دياب. في المكتب، في المطعم، في السيارة، شوكة يلح عليه أن يشتريا أراضي الحواكير، أن يستثمرا الأموال معاً لتتكاثر معاً، والإلحاح مطية الظافرين.. لكن أبا دياب لم يسلم بظفر صاحبه السمسار العتيق الماكر إلا بعد أن أخذ ضمانة." في عالم المال لا ضمان ولا أمان.. وحدها الوثائق هي الضمان والأمان.." وأصبحا بموجب وثيقة نظامية شريكين في المكتب.. شريكين في رأس المال وفي الأرباح.. النصف بالنصف..

بعدئذ، بدأت المتوالية الهندسية بالعمل.. محضر هنا، محضر هناك، ثلاثة محاضر هنالك.. بيع وشراء.. إلى أن جاءت الصفقة ودخل أبو دياب بيته فرحاً وهو يهتف "أكبر صفقة عقدتها اليوم.. صفقة سأربح منها الملايين".

قبل فترة، كان شوكة قد همس في أذنه أن قراراً بتنظيم البساتين المحاذية لنهر يزيد سيصدر قريباً..." ألا تعرف أحداً من أصحاب تلك البساتين هناك؟". سأله بهمس أشد وكأنه يخشى أن يسمعه أحد." كيف؟ لي أكثر من صاحب"، "اذهب إليهم إذن، نشتري حواكيرهم". وذهب أبو دياب في اليوم التالي إلى صاحبه الأقرب "أبي قاعود" وقد تعمد أن يلبس أبسط ثيابه وأرخصها، علَّ أبا قاعود يشعر معه بالطمأنينة...

وحدث ما توقع السمسار الجديد... لقيه صاحبه بالترحاب، بل هش وبش.. عرض عليه أن يشتري منه حاكورته، فقد كره القعود بلا عمل... حن للعمل في الزراعة... وسرعان ما استجاب الرجل وقد وجد العرض مغرياً لم يحلم به من قبل. لكن قبل أن يتم أبو دياب الصفقة، كان يريد الاطمئنان.. "إن لم يصدر قرار التنظيم خرب بيتنا"، "قلت لك القرار جاهز ندفع الساعة السادسة يوقع في السادسة والربع... ألا تصدقني؟" احتج شوكة الداهوك. "بل أريد أن يطمئن قلبي." رد الشريك الذي بات يداري عيه كثيراً فلا ينطق الكلمة إلا بعد أن يتأكد من قدرته على إخراج حروفها دون تلكؤ.

ولكي يطمئن قلبه، ذهب مع شريكه إلى أمانة العاصمة حيث عرفه هناك على رئيس الدائرة التنظيمية نفسه.... كهل خمسيني وخط الشيب فوديه وشاربيه وانطفأ شبابه لكن لم يشب حبه للمال ولم ينطفئ جشعه للرشوة. "متى يصدر القرار؟ " سأله شوكة غامزاً، مشيراً إلى ورقة قرب يده اليمنى لم يستطع أبو دياب أن يعرف فحواها. "متى شئتم" أجابه الكهل رئيس الدائرة التنظيمية التي تتولى تحويل الأراضي الزراعية إلى أراض عقارية وتنظيم الأحياء الجديدة إلى مبان، شوارع، مرافق وحدائق..

على طاولة الغداء في كازينو طويل عريض، فاخر باذخ، يربض على مشارف الربوة، عرف أبو دياب ما الذي كان يقصده الكهل الخمسيني من تلك الميم، علامة جمع الذكور في جوابه ذاك.. فقد تحدث الرجل الضيف عن ضرورة الإسراع بالدفع.. بغية الإسراع بإصدار القرار.. وكل تأخير يحمل الخطر في انكشاف الأمر... كما تبين لأبي دياب أن شوكة لن يكون الدافع الوحيد، فهناك أكثر من عشرة سماسرة ومقاولين متكافلين متضامنين سيقتسمون منطقة التنظيم الجديدة. "لكنه مبلغ كبير؟ خمسة عشر مليوناً؟ "احتج شوكة الداهوك احتجاج الممازح للكهل الضيف.. "احمدوا ربكم.. لم نطلب ثلاثين.. المنطقة واسعة والأرباح ستكون كبيرة للغاية.."

-لا تكن طماعاً كثيراً.. تابع شوكة احتجاجه الممازح.. لكن سرعان ما قاطعه الكهل رئيس الدائرة.

-وهل تحسبني وحدي؟لا.. لا.. أنت تعلم.. هناك من هو أعلى مني.. ومن هو أعلى وأعلى.. وإذا رضينا نحن بحصة الثعلب والذئب، ما الذي يرضي الأعلى؟ سأل مرفقاً سؤاله بضحكة وغمزة لم يكن من الصعب على أبي دياب أن يفهم مغزاها.

طوال الغداء دامت المساومة، فالصفقة كبيرة وزلة واحدة قد تؤدي إلى خسارة الملايين... لكن شوكة الداهوك يتقن فن المساومة اتقاناً أذهل شريكه الجديد. كذلك، بدا الكهل وكأنه لا يقل براعة عن خصمه.. كلاهما على حلبة صراع يداور ويناور، يريد الإمساك بالآخر وإسقاطه الإسقاطة القاضية... أخيراً أفلح السمسار الداهية في إيقاع الخصم أرضاً، إذ قبل بتخفيض الرقم إلى اثني عشر مليوناً... ولكم كانت فرحته شديدة في المكتب وهو يدفع المبلغ للكهل، فقد وفر لنفسه ثلاثة ملايين.

"عجيب" قال الشريك الجديد وهو لايستطيع إخفاء دهشته: "رئيس دائرة يساوم علناً ودون استحياء أو خجل؟" "كلهم كذلك"، رد شوكة تساؤله "مامنهم إلا من يرتشي ويساوم.. ولسوف أجعلك ترى بعينك". ولكي يريه شوكة بعينه..

بات يأخذه معه إلى هذه الدائرة أو تلك شريكاً يريد أن يطلع على أسرار المهنة. بأم عينه رأى أبو دياب الواقع المر: كان بعضهم يريد الرشوة نقداً، بعضهم يريدها حساباً في مصرف خارج البلد.. بعضهم الثالث يرضى بها: ذهباً وحلياً.. ثياباً وأثاثاً. لكن المفاجأة التي أذهلت أبا دياب أن أحدهم طلب امرأة... ثم كانت المفاجأة أشد حين لبى شوكة الطلب ودون أن يرمش له جفن.

"سوسو، أنا بحاجة إليك... فرّغي نفسك الليلة"، خاطب عبر الهاتف امرأة كان أبو دياب يسمع باسمها لأول مرة. "داهية هذا الشوكة، خبيث ماكر!!" قال في سره وهو يتأمل شريكه الذي كان يتفق مع المرأة على تفاصيل السهرة والمهمة والأجر. "إذن لا مانع لديه أن يكون قواداً!!" وحين أطلع شريكه على مادار في رأسه أثناء المكالمة الهاتفية، قهقه شوكة ضاحكاً: "الغاية تبرر الوسيلة يا صاحبي.. وكل وسيلة مشروعة، إن كانت توصلك إلى غايتك"، قال بنبرة المعلم الذي يريد لتلميذه أن يتعلم بسرعة وبلا مناقشة. في الواقع، لم يكن التلميذ يناقش كثيراً، هو في كل صفقة يحضر المساومة من البداية إلى النهاية، يصيخ السمع جيداً.. المعلم بارع في اللف والدوران، ذلق اللسان، حاضر البديهة، وخير لأبي دياب أن يراقب ما يجري، يصغي لما يدور دون أن يتدخل، ذلك أن العي غالباً ما يقف له بالمرصاد ليربكه أحياناً ويحرجه أكثر الأحيان... هو مقتنع "التدريب ثم العمل.. التعلم ثم الممارسة." هكذا قال لنفسه منذ البداية وظل على قناعته يشارك صامتاً، حتى سهراته الحمراء التي بات شوكة الداهوك حريصاً أن يأخذه إليها، كان أبو دياب يشارك فيها صامتاً.

أرض أبي قاعود بيعت بكاملها، ثم اشتريت أرض أخرى وبيعت.. سيف الدين النايفة يعرف صاحب الأرض.. بهذا الأسلوب أو ذاك يمهد الطريق ثم يأتي شوكة الداهوك فيعقد الصفقة. بعدئذ تباع الأرض من جديد لمتعهدين يريدون أن يزرعوا كتل الإسمنت في صدر قاسيون المنحدر من المهاجرين إلى شارع بيروت. مع البيع والشراء، بدا لأبي دياب أن المتوالية الهندسية تجري سريعاً وحبة القمح لا تقف عند المربع الثاني أو الثالث من الشطرنج بل تنتقل سريعاً إلى السادس، الثامن، والعاشر...

–لكن ما تراه يحدث حين تصبح في المربع الرابع والستين؟ سأل ذات مرة صاحبه شوكة فقهقه:

–من يحسب يغلب.. اسمع مني لا تحسب أبداً".

–كيف لا أحسب؟ لا. لا. الحذر ضروري يا رجل.. فالأموال التي تأتي اليوم تذهب غداً.. قال أبو دياب وهو يتمسك بآخر ثمالة من حذر الفلاح القديم.

-الأموال تأتي بغزارة أكبر من أن يذهب بها شيء.. حسبك أن تظل تبيع وتشتري.. ومع البيع والشراء الربح طبعاً، فلماذا الخوف؟ ولماذا الحساب كله؟ عش حياتك.. استمتع بأموالك يا رجل.

بعد تلك النصيحة صار أبو دياب يستمتع بالإنفاق والبذخ، فقد بدت الأموال أكثر من أن يذهب بها شيء، كما قال صاحبه، وهكذا، بدأ حذره القديم يتلاشى، خوفه من المستقبل يذوب شيئاً فشيئاً حتى بدا وكأنه قطع رحلة التغير حتى النهاية. فأم دياب التي رفض وضع خادمة لها، وهي مكسورة الساق لا تستطيع الحراك، جاء يوم رأت فيه أبا دياب، ودون أن تطلب منه، يدخل بفتاة قصيرة القامة سلوقية الجسم، صفراء الوجه، مائلة العينين، بارزة الوجنتين ليقدمها لها على أنها الخادمة الجديدة، اسمها ريتا وموطنها تايلاند... وعلى الرغم من أن ريتا لم تكن تفهم كلمة عربية واحدة ولم تكن أم دياب تفهم كلمة تايلاندية واحدة، إلا أنه كان عليهما أن تتفاهما... بماذا؟ وكيف؟ لم يكن أحد يدري.

التغير تناول جوانب سلوكه الأخرى: خروفاً كاملاً بات يرسل إلى البيت، الفواكه بالصناديق، الأرز، السكر، البطاطا.. كلها بالأكياس، ولماذا يعذب نفسه بالكيلو والكيلوين؟ هكذا أفضل.... الخضري، البقال، اللحام... كلهم بخدمتك.. فقط ادفع لهم.. وأبو دياب يدفع.. يده لم تعد مغلولة إلى عنقه كما كانت في البداية بل هي مبسوطة كل البسط.. ولم لا تنبسط إذا كانت يد القدر قد انبسطت له على يد شوكة الداهوك لتدفق عليه المال دفقاً؟

في المطاعم لم يعد شوكة يدفع، ولماذا؟ اليد العليا خير من اليد السفلى، إذن ليدفع أبو دياب... شارباه صارا ينفتلان أكثر... وجهه لم يعد مكمداً ناحلاً... بل راح يستدير ويتسع.. بشرته نفسها راحت تبيض... تجاعيده تمَّسح... لكأن هناك يداً تغسل البشرة بمبيض سري، تمسح التجاعيد بمسحة خفية... بل حتى عوده الناحل بدأ يمتلئ.. عظامه بدأت تثخن... وكرشه يبرز قليلاً قليلاً قليلاً، حتى خيل إليه ذات مرة، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة، أنه بات أكثر طولاً وعرضاً، أحلى هيئة وأضخم قامة... لكن ما دفعه إلى الضحك جهاراً سؤال الراقصة الغجرية ذات ليلة وقد جلست إلى طاولته في المقهى.

-كم يكبرك شوكة في السن؟ عشر سنوات؟ ثم دهشت كل الاندهاش حين أجابها شوكة:

-بل هو يكبرني بعامين، بعدئذ لكزه شوكة حانقاً:

-أرأيت؟ بت تبدو أكثر مني شباباً وأصغر سناً!!

"إنه المال، يجعل القبيح جميلاً والصغير كبيراً، البغيض حبيباً، والبعيد

قريباً".

راح أبو دياب يفكر وكله استغراب، ترى كيف يفعل المال ذلك؟ هو ينظر إلى المرآة ولا يصدق.." أحقاً تغيرت كل هذا التغير؟ "لكن نظرات أم دياب، ملاحظات أولاده، كلام النساء اللواتي بات يتردد عليهن هنا وهناك.. كل ذلك بات يؤكد أن أبا دياب الغني غير أبي دياب الفقير.. شكله، لباسه، نظراته، حركاته كلها تغيرت.. لقد ولد سيف دين جديد.

لكن، ما إن ظهرت نتائج الثانوية حتى عاد أبا دياب القديم بسرواله وكوفيته، ذاك الفلاح الذي لا تتجاوز دائرة تفكيره دائرة حاكورته.

أميرة نجحت لكن ليس بالمعدل الذي يخولها أن تدرس الطب، حلمها القديم، فجاءت حلاوة النجاح ممزوجة بمرارة الخيبة.

-لاعليك، أبوك يرسلك إلى الخارج، تدخلت الأم وقد آلمها أن ترى ابنتها حزينة ساعة ينبغي أن تفرح. هو غني وباستطاعته أن يرسلك حيث تشائين لتدرسي ما تشائين..

-حقاً، أماه!! تساءلت الفتاة باندهاش وكأن الفكرة لم تخطر لها ببال، آه!! لو يفعل ذلك يا أماه فأحقق حلمي!!

لم تكن أميرة تتخيل نفسها إلا طبيبة.... كانت تحلم بذلك وتعمل من أجله... نتائجها ظلت على الدوام تبشر بالخير... فقط، خلال الصف الحادي عشر، ومع التغيرات التي جاء بها ليلة القدر، بدأ نوع من التراجع... في الثاني عشر عادت أميرة تبذل أقصى ما لديها من طاقة، لكن كان ثمة ما يشغلها دائماً، يلهيها عن الدرس، وجاءت النتيجة أدنى مما كانت ترجو.

-اطمئني... أنا سأكلمه. ختمت أمها الحديث وهي تشدها إليها بحنان الأم التي ترى نفسها في ابنتها: نجاحاً أو فشلاً، فرحاً أو ترحاً.. لكن لشد ما شعرت بالخيبة حين رد عليها الزوج بعصبية وحنق:

-ماذا؟ تريدينها أن تضيع؟ تلقينها بيدك إلى الذئاب؟

-أضيع؟ ذئاب؟ ردت الفتاة من التعجب، أنا ذاهبة أدرس الطب...

-بلا طب، بلا صيدلة، قاطع الرجل ابنته، في أوروبا الفلتان، الإباحية، وأنا لا أرسل ابنتي إلى حيث الفلتان والإباحية.

-أبي ماالذي تقوله؟ باستغراب ونوع من عدم الفهم سألت البنت أباها. ما قصدك؟

-قصدي واضح... أوروبا، انزعيها من فكرك... فكري فقط: البنت للبيت

ولا حاجة لأن تخرج هنا، هناك، تعرض نفسها للمشاكل وتقع في الورطات والمآزق.

–تريد أن تحبسني في البيت؟ بنبرة احتجاج حادة سألت البنت...

–أريد أن توفري علي المشاكل..

–لكنك تعلم: حلمي أن أدرس الطب..

–في أوروبا؟ ووحدك؟ قاطعها الأب محتداً، لا.. علي الطلاق بالثلاثة لاتدوسينها..

–ماذا أفعل إذن؟

–ما تفعله كل بنت، بدأ بعصبية واضحة لكن سرعان ما كبح نفسه متنحنحاً متظاهراً بالحكمة، ثم تابع: المرأة حرمة... يا بنتي، عورة ينبغي أن نسترها، لا أن نكشفها لخلق الله جميعاً، نبعثها إلى أوروبا وحيدة!؟

–لكنك أنت نفسك كنت تشجعني.. ادرسي.. تعلمي.. سأرسلك إلى الجامعة..

–الجامعة.. الجامعة.. قاطعها الأب من جديد.. ذلك كان أيام زمان، أيام الفقر والحاجة... لكن بعد ذلك أردتك أن تتركي.. قلت لك لا حاجة بعد اليوم للدرس، لكنك ناورت وداورت.. قلت أتركك حتى تأخذي الثانوية، أما الآن وقد أخذتها، ما حاجتك للدرس والجامعة؟

–ماحاجتي؟ كيف.. أبي؟

–أميرة، رد الأب بثقة من يملك كل الأوراق الرابحة في يده، أنت كنت تدرسين للحصول على وظيفة حين كانت الوظيفة مصدر رزق، أما الآن وقد صارت لدينا مصادر رزق وفيرة.. صار لدينا مال كثير، فلماذا الدراسة؟ ولماذا الشهادة؟

–صحيح، لماذا تتعبين نفسك: دراسة ووجع قلب إن كان هناك من يريد راحتك ويوفر لك ما تحتاجين من مال؟ تدخل الأخ ديبو الذي كان مايزال صامتاً حتى تلك اللحظة.

–بل أكثر مما تحتاج؟ تابع الأب فرحاً بمساندة ابنه له.

–لكنني أريد أن أكمل دراستي، حتى ولو هنا..

–وماذا ستدرسين هنا؟ تجارة؟ حقوق؟ آداب؟ حسن.. كم سيكون راتبك بعد التخرج؟ ثلاثة آلاف!؟ أربعة آلاف؟ خذي خمسة.. خذي عشرة آلاف واقعدي في البيت.. تزوجي وانستري.. يا بنتي.. الله يرضى عليك.. السترة خير

ماتسعى إليه الفتاة....

وبدا لأميرة أنها غير قادرة على الإجابة فلاذت بالصمت.. كان والدها قد تغير: خلع السروال والكوفية، لبس البذلة وربطة العنق، خرج من الحاكورة، اتسعت علاقاته... بات يذهبإلى المطاعم والأماكن الراقية... لكن ماذا غير ذلك؟ هاهي ذي تراه... الظاهر تغير لكن الباطن ظل كما كان والأنكى أنه صار قادراً أن يتشبثبباطنه ذاك وأن يدافع عنه: فقد صار لديه المال..

-صحيح... السترة خير ما تسعى إليه الفتاة، تدخلت الأم وهي ترى تلجلج ابنتها وحيرتها، فاركة يديها غامزة بطرف عينها، أبوك وأخوك على حق.. المال وفير ماعليك إلا أن تنفقي.. فلماذا التعب والنكد؟

-يسلم فمك.. هذا ما أريدك أن تقنعيها به.. قال الأب ثم مضى مسرعاً وكأنما فاته موعد، لكن ما إن غادر يلحق به ابنه، وانفردت الابنة بأمها حتى صاحت شبه مولولة:

-حتى أنت يا أماه!! حتى أنت لا تريدينني أن أتعلم!؟

-لا... أميرة... أنا حلمي أن أراك طبيبة..

-كيف تقفين معهم إذن؟ كيف تساندينهم؟ احتجت الفتاة غاضبة.

-أنا أردت إيقاف النقاش فلا يغضب أبوك ولا يحتد.. ثم يقسم يميناً لا تستطيعين تجاوزه بعد ذلك..

-يعني أنت معي؟ قالت أميرة وقد هدأت ثائرتها فجأة.

-بالتأكيد..لكن خشيت أن تشتد العاصفة أكثر فحنيت رأسي لها إلى أن تمر.

-فكرة!؟ هتفت أميرة بعد اطراقة من تفكير، أنت على حق.. الانحناء للعاصفة.. ثم الالتفاف حولها... هي ذي فكرة عبقرية.

ولكي تنفذ الفكرة العبقرية، كان لابد لها من أن تلجأ إلى ذوي الخبرة وأصحاب المشورة.

-عمي مصباح، قل لي ماذا أفعل؟ أكاد أجن، ثم روت له القصة من ألفها إلى يائها..

-لا... لاتجني، رد العم على مهل وكأنه لم يفاجأ. أبوك يرسلك إلى أوربا؟ إذن أنت لا تعرفينه... رجل يحمل رواسب الماضي كلها ويرسلك إلى أوربا؟ وحيدة؟ تتعلم؟ لا. لا. مستحيل..

-لكني أريد الطب، أريد العلم...

-طب.. علم.. قاطعها عمها.. ذلك كله لا يدخل في حسبان أبيك.. هو يكره العلم.. اسأليني.. مذ كان صغيراً كان يكرهه... فكيف تريدين أن يحبه الآن؟

-لكن أنا أحبه.. أريد أن أتعلم...

-هنا بيت القصيد.. رد صائحاً فرحاً، ما الذي تريدينه؟ وهل لديك الإرادة؟

-عمي.. أنا أعرف ماأريد.. ولدي كل الإرادة.

-حسن.. إذن.. لا تخشي شيئاً..

-كيف، وهو يقف في وجهي؟

-أميرة..هي ذي الحياة..صراع بين الجهل والعلم، الظلام والنور،الشر والخير..وأجمل ما فيها أن تخوضي هذا الصراع..لذة الحياة هي في الصراع نفسه، يخوضه المرء بمرارة وقسوة، فإذا انتصر كان نصره متعة المتع ولذة اللذائذ..

-لكنني أخشى الفشل.. أخشى عناده وإصراره فتكون العاقبة مرارة الهزيمة وعلقم الفشل.

-ليس كل ما نريده، يأتينا على طبق من فضة.. بل كثيراً ما ينبغي أن نقاسي المرارات قبل أن نبلغ غايتنا.. يخزنا الشوك قبل أن نصل إلى الورد، يلسعنا النحل قبل أن نصل إلى الشهد...

-عمي، أنا مستعدة لأن أضحي.. أفعل أي شيء كي أتابع دراستي.. فقط... قل لي ماذا أفعل؟ ساعدني!!

-المسألة بسيطة.. يذهب إليه عمك، يضغط عليه ويقنعه، تدخلت امرأة العم التي بدت مستخفة بالأمر كله، فعقلها لم يكن قد استوعب موقف الرجل الذي كان حتى الأمس بسيطاً، لين العريكة، هين الإرضاء، لاينى يطلب من أخيه المشورة والمساعدة..

-لا.. لا.. أخشى أن تتعقد الأمور أكثر. قالت أميرة، وهي تتذكر الآراء الجديدة التي بات والدها يصرح بها، والمواقف الجديدة التي بات يأخذها تجاه عمها "أنا الأخ الكبير، ومكانتي لا أتنازل عنها"، "واجب الصغير أن يطيع الكبير" "ذهبت أيام مصباح وجاءت أيامي" الخ.

-بيدك حق.. عقب العم وقد استعرض هو الآخر مواقف أخيه، وأنا أخشى ذلك أيضاً...

-معقول؟ عادت الزوجة تسأل وهي ماتزال مستغربة.

-في زمن المال، كل شيءٍ معقول. ألا يقولون اليوم "معك قرش تساوي قرشاً، معك مليون تساوي مليوناً؟ "قال العم وهو يطلق تنهيدة....

-لكن هذا غير صحيح... احتجت أميرة بكثير من الانفعال..

-بالطبع.. هذا غير صحيح، تابع العم بنبرته نفسها.. عبر التاريخ كانت قيمة المرء بجوهره لا بمظهره، قدره يقاس بما يملك من عقل وعلم، لا بما يملك من ذهب وفضة.. والدليل على ذلك، أن التاريخ لم يذكر سوى العلماء والحكماء، الأدباء والشعراء. أما الأغنياء، أصحاب الأملاك والأطيان، الجواري والقيان فقد ذهبوا مع أملاكهم وأطيانهم، جواريهم وقيانهم دون أن يذكرهم أحد.

-للأسف، القيم تتغير الآن.. عادت الزوجة للتدخل من جديد، المفاهيم تنقلب.. لتسود قيم المادة وتطغى مفاهيم التملك.

-هذا ما جرنا إليه الغرب.. رد مصباح وهو يصعد زفرة.. رأس المال والاستهلاك، حتى غدت قيمة المرء بما يملك من رأسمال وما يستهلك من حاجات.

-إذن، نحن نسير إلى الهاوية.. قالت الزوجة بما يشبه الاستسلام والتنبؤ.. لما نصل بعد لكننا نسير .

-أنا أعلم ذلك.. أرى بأم عيني كيف يرتفع الواطئ وينخفض العالي، يسود الجاهل ويذل العالم.. وهو نفسه مايخيفني...

-وهو أمر مخيف... ثنت الزوجة.

-أبو دياب يرى ما يجري.. تابع الزوج وكأنه لم يقاطع، يعلم أن كفته بدأت ترجح وكفتي تخف.. فكيف يمكنني الضغط عليه وإقناعه؟. بنبرة أقوى وجه السؤال الأخير إلى زوجته لكن دون أن تترك لها أميرة فسحة لجواب.

-ماذا أفعل إذن؟ أأخضع؟ أأخنع؟

-لا.. لا.. قال العم وهو يلوح بسبابته علامة النهي الشديد. الخنوع للمستبد الظالم هو وحده مايزيده استبداداً وظلماً.. أما الوقوف في وجهه، مجابهته، فهي وحدها ما يمكن أن يردعه...

-أنا معك.. لكن كيف؟ سألت أميرة بكل اللهفة والفضول.

-هو ذا ما ينبغي أن نفكر فيه.. ليس على عجل... بل بتروٍ وإمعان.. ليس برد فعل بل بفعل المتأني المفكر...

-يا إلهي!! كم أحبك ياعماه!! كم أنا معجبة بك!! هتفت الفتاة وهي تطوق عمها بذراعيها لاثمة.

-وأنا كذلك!! لكن أكثر ما أريده منك أن لاتسلمي قيادك للجهل والأمية مهما كان الثمن.

وكيف تسلم قيادها للأمية والجهل؟ هي تفضل الموت على ذلك. عمها، مذ عرفت الدنيا، مثلها الأعلى، هو بعلمه ومعارفه، بفهمه وأخلاقه، مثلها الأعلى، فكيف... تقبل مثلاً آخر؟

ذلك المساء مكثت أميرة في بيت عمها، فقد كانت بحاجة لرؤية نور، ونور في الجامعة.

-السنة الرابعة صعبة، موادها كثيرة ودوامها طويل، شرحت لها ابنة العم وهما تدخلان الغرفة معاً، ربما لتتسنى لهما حميمية الحديث بين البنت والبنت. في المشرحة، المختبرات، قاعات الدرس.. كانت نور قد ظلت النهار بطوله إلى أن هدها التعب، مع ذلك هي سعيدة.. سعيدة بكدها، سعيدة بدراستها "مذ كنت صغيرة وأنا أحلم بالمريلة البيضاء ألبسها وأعالج الأطفال".. كانت تقول لأميرة قبل أن تدخل هذه الإعدادية، "الأطفال في بلادنا يموتون، بسبب الجهل، الفقر، انعدام الرعاية، يموتون، وعلينا أن نبذل كل ما في وسعنا لمنع ذلك".

ولم تكن أميرة تملك إلا أن تعجب بابنة عمها، بل وتغبطها، لكن في ذلك المساء فقط أحست بشيء من الحسد.. "لماذا تتحقق رغباتها وأنا لا؟" لماذا تترجم أحلامها إلى حقيقة واقعة وأحلامي تتكسر؟.

"لماذا ليس لي والدها، يفهمني ويتفاهم معي؟ يتعاطف ويحاور؟" كانت تفكر حين فاجأتها ابنة عمها بالسؤال:

-هه، بم أنت شاردة؟ فيم تفكرين؟

شرحت أميرة لابنة عمها المأزق الذي هي فيه ثم ختمت شرحها متسائلة وهي أكثر قلقاً وتخوفاً:

-والآن، مارأيك؟

-رأيي، كما قال أبوك: انزعي فكرة أروربا من رأسك..

-معقول!؟ أنت ابنة عمي نور تقولين ذلك؟

-أميرة، أجابتها ابنة عمها وهي تحيطها بذراعها، المثل يقول: إن أردت أن تطاع فاطلب المستطاع...

-هه.. هــ.. ها.. هتفت أميرة فرحة، ها أنت ذي قلتها.. هل أبي فقير؟ ألا يستطيع أن يرسلني إلى أوروبا؟ ينفق علي هناك؟

-أميرة.. المسألة ليست مسألة غنى وفقر.. إنفاق ومال؟ لا.. لا.. المسألة

هنا.. وأشارت بسبابتها إلى صدغها، مسألة عقلية وتفكير.. نفسية ووعي.. والذهاب إلى أوروبا.. بصراحة، فوق مايستطيع عقله تحمله... أجل، هذا فوق المستطاع.

-ماذا أفعل إذن؟ أستسلم وأقعد في البيت بانتظار العريس؟

-بل تدرسين في الجامعة.. هنا..

-وماذا أدرس؟ تجارة؟ سكرتارية؟

-بل شيء قريب من حلمك.. اختصاص يخدمك!!

-أي اختصاص؟ سألت أميرة وكأنما غاب عن ذهنها كل شيء.

-اسمعي، أجابت نور بكثير من التركيز غارسة عينيها في عيني ابنة عمها... أنت، كعمك مصباح، تحبين الكيمياء، أتذكرين كم كنت ترددين ذلك؟

-أجل.. أذكر... ردت أميرة وقد لمعت عيناها ببريق فرح..

-إذن، لم لا تدرسين الكيمياء، وعلامتك فيها تامة؟

-أجل.. لماذا؟ تساءلت أميرة شاردة من جديد مستعيدة إلى ذهنها ماكان يقوله عمها مصباح عن الكيمياء: " هذا العلم الرائع الذي وضع أسسه العرب، أوجده كعلم قائم بذاته العرب، كانوا يومذاك يسمونه السيمياء، وكانوا يحلمون أن يستطيعوا به أن يحولوا الحديد إلى ذهب، الحجر إلى جوهر.. فأية أحلام؟ خالد بن يزيد قضى حياته وهو بين أنابيقه وحواجله يجري التجارب ويقوم بالاختبارات.. ثم جاء بعده علماء وعلماء أضافوا وطوروا حتى غدت الكيمياء أهم العلوم.. الآن كل شيء كيمياء.. مبادئها تحكم حياتنا.. معادلاتها تغير من معيشتنا وتبدل.. صحيح أنها لم تستطع أن تحول الحديد إلى ذهب والحجر إلى جوهر، لكن الصحيح أيضاً أنها استطاعت أن تصنع ما هو أهم من الذهب.. أن تقدم ماهو أجدى بكثير وأخطر بكثير. لقد استطاعت الكيمياء أن تصنع الحضارة، بل الحضارة هي الكيمياء "هكذا كان عمها يختم حديثه، عمها يعشق الكيمياء، ذلك العشق تسرب إليها منه حتى باتت الكيمياء مادتها المفضلة في المدرسة جنباً إلى جنب مع الفيزياء والعلوم.. ألم تكن تحلم بالطب..؟ وما الطب سوى تلك العلوم؟"

-إي أميرة، مارأيك باقتراحي؟ تكلمي.. أم أن القطة أكلت لسانك!؟ قالت نور مداعبة ضاحكة وهي تشد ابنة عمها إليها، آملة أن تدفعها للتنفيس عن كل مافي صدرها من هموم.

لكن أميرة لم تشعر بقدرتها على التنفيس حتى أطل مأمون. فهو بقامته الفارعة وهامته المرتفعة، بوجهه النضر، وثغره الباسم كان يحمل لها دائماً

الأمل ويشيع في نفسها البشر والتفاؤل،

-لاعليك، قال وقد سمع منها القصة، عقارب الساعة لا ترجع إلى الوراء والتاريخ لا يعود القهقرى!!

-لكن عقارب الساعة قد تتوقف.. فماذا يحدث لي؟

-لن تتوقف، بل ستسجلين كيمياء وتدرسين.. فقط *Take It Easy, Take It Easy*.

وتنفست الصعداء.. هي تعلم أنه لايقول تلك العبارة إلا وهو مطمئن وواثق مما يقول "بالراحة.. بالراحة" كان يقول لها وهي صغيرة ثم ما إن كبرت وبدأت تعرف الإنكليزية حتى صار يقولها بالإنكليزية. مأمون دماغ نشيط، عقل فهيم، وهو واثق دائماً من نفسه. يخيل إليها أنه لو واجه الحيتان، العمالقة، لظل واثقاً من نفسه.. واثقاً من انتصاره.

بالحقيقة هو لم يعرف الفشل.. في دراسته كان المتفوق دائماً.. الرياضيات مادته المفضلة، ومن الرياضيات الهندسة خصوصاً. حلمه في هذه الدنيا أن ينشئ ويبني، يعمر ويشيد. جسر طويل عريض يعمل فيه الآن.. قبل أيام حدثهم طويلاً عنه، عبر الحارات القديمة سيقام ذلك الجسر.. بيوت عتيقة ستهدم، طريق عريض سيشق، غائصاً في أعماق دمشق.. ليصل شارع بغداد بشارع الحجاز.. شريان سير رئيسي، إلى اليمين ذاهب وإلى اليسار آيب، وفي الوسط جسر للذهاب والإياب أيضاً تمر تحته طرق أخرى وممرات، ومأمون يعمل ليل نهار، ورشات كثيرة تعمل ليل نهار.. البناء صعب بقدر ما الخراب سهل.

من غرفة الطعام ارتفع صوت الأم يدعوهم إلى العشاء.

-الحمد لله!! أسرع مأمون إلى مصدر الصوت هاتفاً، انقذتنا من مخالب الجوع يا أم!!

لكن قبل أن تبدأ العائلة الطعام، جاء من الخارج صوت رصاص: طلقة، اثنتان، ثلاث ثم انطلقت صرخة ألم حادة وساد صمت. هب الجميع من كراسيهم مذعورين وكلهم دهشة وذهول.. فيما اندفع مأمون إلى الخارج جارياً.

-لا.. لا.. لا تخرج مأمون، صاحت به الأم خائفة، ترصد أذناها أصوات همهمة رجالية، وتحاول عيناها اختراق الجدران.. لكن مأمون كان قد خرج، بل لحق به الأب دون أن يجري، فيما راحت ابنتا العم تسيران بخطا حذرة نحو الباب: رجل إلى الوراء ورجل إلى الأمام، الفضول يدفعهما والخوف يرجعهما... ثم لم تستطع الأم نفسها إلا أن تلحق بهما لترى ماحدث.

حين وصل مأمون إلى الرصيف كان رجل ملثم قد وصل إلى دراجة نارية

تربض في الجانب المقابل. امتطاها فأطلق عادمها فرقعة شبت بعدها كفرس جموح. بعدئذ راحت تنهب الأرض نهباً، طائرة على مدرج تهم بالطيران...

التفت مأمون إلى اليمين، إلى الشمال. هناك عند مدخل البناء الثاني كان رجل ملقى أرضاً وقد بدأ الناس يتراكضون إليه. أسرع مأمون فرأى الرجل الممدد على ضوء مصباح الشارع: جارهم الضابط الكبير، ببزته الرسمية ونياشينه وقد صار جثة مضرجة بالدماء.

–مسكين!!

–يا حرام!!

–فعلها ذلك المجرم!!

–لماذا قتله؟

راحت التعليقات تترى من رجل هنا، امرأة هناك، وهم يتجمعون حول الجثة الهامدة إلى أن طغت عليها جميعاً ولولات وصرخات كانت تنحدر مع درج المبنى الذي استلقت الجثة عند أسفله:

–أبي!!

–حبيبي!!

–زوجي!!

أم، بنتان، ولدان، وكلهم بثياب المنزل كانوا يركضون باتجاه الجثة، وقد اكتشفوا أن الرجل رجلهم. وصلت المرأة فألقت بنفسها على الرأس، تمسكه من كلا جانبيه، البنتان ألقتا بنفسيهما على الكتفين والولدان على الجنبين..

الحيرة، الخوف، الذهول، الإشفاق، مزيج عجيب من الأحاسيس كان يسيطر على الحشد الذي اجتمع، كانت الزوجة تنتف شعرها وتولول، الأولاد يبكون ويصرخون، أكبر البنتين تشق ثوبها وتزعق زعيقاً تنفطر له القلوب، وكان ذلك سيستمر بل ربما لم يكن باستطاعة أحد أن يوقفه لو لم تأت سيارة مطلقة بوقاً مخيفاً وهي تنهب الأرض نهباً...

نزل بضعة رجال على عجل، شقوا الحشد على عجل، حملوا الجثة على عجل رغم تشبث المرأة وأولادها بها ورغم ولولاتهم وصراخهم، وضعوها داخل السيارة ومضوا لا يلوون على شيء...

وشوشات جانبية، همسات خائفة راحت تنداح اثر السيارة..

"المسكين.. كان ينزل من سيارته عائداً من عمله إلى بيته وأولاده، ككل خلق الله، لكن رجلاً ملثماً كان يترصده، في المدخل.. خلف عمود... بيده

مسدس وفي قلبه حقد. رصده وهو يغادر السيارة ثم رصده وهو يقترب.. خطوة خطوة.. فيما كانت السيارة نفسها تبتعد، اقترب، تحرك نحوه، وحين صارا وجهاً لوجه، فتح عليه النار، طلقة في الرأس، طلقة في هذا الجانب من الصدر، طلقة في ذلك الجانب، ثم أسرع يعيد مسدسه إلى مكانه ويركب دراجته هارباً".

بحزن شديد ورؤوس منكسة عاد الجميع إلى البيت... كانت الولولات ماتزال تدوي في آذانهم، لكن لم يكن بمستطاعهم أن يفعلوا شيئاً، فالشرطة، ورجال الأمن، الحراس، الخفراء كلهم كانوا قد جاؤوا ليفرقوا الحشد ويبعدوا الناس، بالسباب أحياناً وبالسياط أحياناً أخرى وكأنهم هم القتلة الآثمون. في الداخل ساد الصمت برهة من الزمن، صمت الذهول ربما، وصمت الخوف والتوجس ربما... فقط كانت الدموع تنساب من عيني الأم التي كانت تعرف الرجل جيداً وتربطها بامرأته علاقة وشيجة:

–ويلي عليها!! ماذا سيحل بها؟ قالت أخيراً وهي تمسح دموعها منكسة الرأس.

–بلى قولي الويل عليه... هو الذي مات!! علق الزوج وقد أزعجته كثيراً حركة الشرطة، والحراس...

–من يمت يسترح.. أما العثرة فعلى من بقي!! تابعت الأم من جديد وهي لا تستطيع أن تتصور كيف يمكن لامرأة أن تفقد زوجها، هكذا فجأة، وبلا مقدمات.

–لكن من هو ذلك المجرم؟ لماذا فعل فعلته؟ سأل مأمون وهو مايزال في حالة شديدة من الاضطراب والضيق.. لقد رأى المجرم، ربما كان باستطاعته أن يمسك به لو وثب وثبتي كنغارو، لكن تباطؤه وربما خوفه هو الذي جعله يتمهل، يتلفت دون أن يندفع فيقبض عليه أو يميز دراجته ووجهه على الأقل...

–ربما هو جندي خدم لديه فحقد عليه وأراد الانتقام منه، ردت نور وهي غير واثقة من ردها.

–ربما هي قصة ثأر ريفي. تابعت أميرة مدلية بدلوها هي الأخرى.

–لا .. لا.. المسألة أخطر من ذلك.. بدأ الأب بعد أن أطلق زفرة طويلة...

–أخطر، كيف؟ سألت الأم وقد اشتعلت فضولاً وحب استطلاع..

–هو اغتيال سياسي.. في الغالب..

–لكن الرجل عسكري ولا علاقة له بالسياسة.. قاطعته الزوجة.. هو ضابط مشهور... عسكري بارع...

–لذلك هو اغتيال سياسي... قاطعها الزوج بدوره، وهو ليس الأول من نوعه، بل خامس اغتيال في البلاد...

–خامس اغتيال!؟ تساءلت أميرة باندهاش، هي التي لم تسمع بذلك من قبل.

–أجل.. منذ سنة ونيف بدأت حركة الاغتيالات.. في هذه المدينة أو تلك.. اغتيالات متباعدة لكنها مخططة، والرأس الذي يخطط واحد...

–من هو ذلك الرأس؟ من هم أولئك المنفذون؟ تساءلت نور.

–لا أحد يعرف هويتهم تماماً، لكن يقال إنهم متطرفون.. يستهدفون الضابط والطبيب، المهندس والكاتب...

–لكن ما ذنب هؤلاء!؟ صاحت أميرة متعجبة، وهي تنظر إلى مأمون، المهندس الذي يمكن أن يكون هدفاً لهم...

–هذا مالا يعرفه سواهم.. خيرة الضباط، أمهر الأطباء، أحسن المهندسين، أنبغ الكتاب.. لكأنها عملية انتقاء للأفضل، تصفية للأدمغة والعقول.

–أمرهم عجيب!! علقت الأم هذه المرة وهي تتنقل بناظريها بين زوجها وابنها...

–هي فتنة إذن؟ سأل مأمون وقد لمعت في ذهنه فكرة...

–هذا مانخشاه.. فتنة يقصد بها إشعال حرب أهلية...

–مثل لبنان؟ سألت نور على حين غرة...

–بالضبط.. لكأنهم يريدون أن ينقلوا عدوى الحرب الأهلية من هناك إلينا...

–اللعنة عليهم.. أياً كانوا.. ومهما كانوا!! هتفت الأم بقلب لدعته النار التي اشتعلت قبل قليل.

فالفتنة وصاحبها في النار.. لكن، فجأة لفت نظرها العشاء على الطاولة فأكملت مشيرة إلى المائدة، مصباح، مأمون، أيتها البنات، هيا إلى الطعام.

لكن من له رغبة في طعام أو شراب؟.. كان الحديث قد قضى على كل شهية لديهم، قلَّم كل ماللجوع من مخالب وأنياب.. ليتركهم وليس من شاغل يشغلهم سوى: الاغتيال والفتنة، المخاوف والمستقبل. لكن في الصباح عاد الشغل الشاغل لأميرة مستقبلها هي ومخاوفها، وحين رجعت إلى البيت كانت خطة ماقد وضعت..

–إي.. أميرة.. ماذا ستفعلين؟ سألت شاهة، التي كانت تزور أمها، بكثير من اللهفة.

–لا أدري.. أجابتها أميرة بهزة من كتفيها ورأسها، وقلب لكفيها وشفتيها.. أبي يقول، جامعة ودراسة يعني وجع رأس وتعب قلب.

–لا... لا.. حذار أميرة يجب أن تدرسي!! يجب أن تكملي تعليمك.. أصرت شاهة بحماسة شديدة، غير أن أميرة تابعت كلامها وكأن الأمر لا يعنيها:

–لماذا؟

–أميرة، أنت تسألين؟ لا.. لا.. يجب أن تتعلمي كي تستقلي.. كي يصبح لك كيانك.. ولا تستطيعٍ واحدتنا أن تكون كذلك إلا إذا كانت قادرة على إعالة نفسها، مستقلة اقتصادياً...

–وأبي، ماذا أقول له؟ هو مصر على رأيه يقول انه مستعد لإعطائي كل ما أريد من مال.. وإن أحداً لن يحتاج إلى عملي أو مالي.

–لا.. لا.. اسمعي مني.. ادرسي واستقلي... لاتكوني مثلي.. بقرة حلوباً يأتي إليها الرجال فإذا لم يجدوا فيها حليباً ذبحوها من أجل لحمها... اسمعي من أختك. اتعظي منها، هي رأس الذئب المقطوع.

شاهة مذ عادت من شهر العسل تشكو وتتذمر!! "أنا بائسة، أنا ضحية، أنا رأس ذئب مقطوع". ألا يقولون الزواج برميل من طبقتين: عسل وزفت؟ بعضهم يلتقي بالعسل أولاً لكن بعضهم الآخر يطمس في الزفت على الفور، بعضهم حسن الحظ فتكون طبقة العسل سميكة وطبقة الزفت رقيقة. الآخر بالعكس.. طبقة العسل سطحية فقط رقيقة للغاية لا يباشر الأكل منها حتى تتكشف طبقة الزفت تحتها.. هكذا كان حظ شاهة.. إذ ما إن عادت إلى دمشق.. ودخلت البيت الارستقراطي العريق.. حتى اكتشفت الزيف الفظيع الذي يقوم عليه بنيان العائلة كله: من الخارج رخام ومن الداخل سخام. الأم أرملة منذ سنوات طويلة، في أواخر خمسينياتها، أكل الدهر عليها وشرب والأخت عانس في أواخر ثلاثينياتها بلا جمال ولا مال، والزواج بحاجة إلى جمال ومال.

كلتاهما لاتعرف إلا القشور ولا يهمها إلا المظاهر. أم سمير تفيق كل صباح، همها أن تستحم وتتبرج: ساعتين تظل في حوض الاستحمام: رغوة الصابون المعطر تملأ الحمام كله فقاعات، وصوت الموسيقى، وقد رفعت المسجلة، يملأ المكان كله صخباً وضجيجاً، فإذا ماانتهت من الحمام دخلت مخدعها. أمام مرآة الزينة تقضي ساعتين أخريين: تحمِّر شفتيها، تصبغ وجنتيها، تتكحل، تتزين، حتى تغدو لوحة ألوان. بعدئذ يأتي دور الحلاق ليسهم بقسطه في رسم تلك اللوحة، فلديه لاتسوي المرأة شعرها وحسب، بل الأظافر،

أصابع اليدين، أصابع الرجلين، حيث المانيكير والباديكير وما إلى ذلك من أسماء لم تكن شاهة قد سمعت بها قط.. الأم سيدة من سيدات المجتمع المخملي وحيث يكون المخمل على المرأة أن تكون أحسن قطيفة... الخادمة من المظاهر... إذن على المرأة الارستقراطية أن تحتفظ بخادمة تطهو وتنظف، تكنس وتغسل، واكتشفت شاهة أنهم جاؤوا بها خادمة. أنامل أم سمير رقيقة ناعمة، ينبغي ألا تمس الكيماويات والمنظفات، وإلا اخشوشنت وغلظت، لكن الحال لا تسمح، فمذ ذهبت أراضيهم في الجولان والغوطة ومات الأب كمداً ولمداً، تردت الحال وذهبت الخادمة، باعوا مابقي في حوزتهم من أراضٍ وعقارات... لينفقوا!! كان كل مايهم تلك المرأة أن تحافظ على ذلك المظهر البراق حتى لا يكتشف أحد حقيقتهم. سمير مدلل حتى الإفساد، مغرور حتى جنون العظمة، وهو قبل هذا وذاك دمية في مسرح عرائس خيطها بيد أمه.. هي تحركه هنا، تحركه هناك تأمره يطيع، تشير له يلبي، هو يعلم أنه جمل يعيش على سنامه لكن ماذا يفعل؟ الظروف حاربته.. القمار، السياسة، الاشتراكية.. أجل، لولا الاشتراكية لظلت لدي الأراضي الواسعة والموارد الكثيرة التي توفر لي عيش البذخ والترف.. آه منها تلك الاشتراكية!! إنها أس البلاء".. كان كثيراً مايردد لنفسه وأمام الآخرين، وهو على قناعة تامة أن الاشتراكية هي التي قضت على البقية الباقية من رصيده واعتباره. هو يكره العمل.. وكيف يعمل سمير بك الأدهم؟ بل لو شاء ما تراه يعمل؟ ليس في يده صنعة، لم يحصّل علماً، فالمدرسة كانت بالنسبة إليه حلبة يعرض عليها عضلاته، وينفخ أوداجه كأبطال كمال الأجسام. لم يكن يدرس لكنه كان ينجح، لم يكن يعرف شيئاً لكنه كان ينتقل إلى الصف الأعلى.. في الحياة مفارقات عجيبة، ولم تكن تلك هي المفارقة الوحيدة في حياة سمير.. أيام زمان كان لديهم في القرية الجولانية فرس شعلاء، وكان سمير يذهب إلى تلك القرية، يركب الفرس، يتنكب البارودة، يتجند بالرصاص، ثم يذهب إلى الصيد. الصيد كان هوايته الوحيدة.. ولو كان الصيد عملاً لكان باستطاعته أن يمارسه الآن.. لكن الصيد هواية. هو ناقم على العالم الذي لايعرف قيمة ابن الأدهم، حاقد على البشر الذين اخترعوا نظاماً كالاشتراكية، يأخذ من الغني لكي يعطي الفقير، يرفع من تحت ليصبحوا فوق، ويحاول أن يجعل من أولئك الرعاة الحفاة العراة، بشراً أسوياء.

كانت عائلة سمير قد وصلت إلى قاع المنحدر حين انتقل سيف الدين النايفة إلى شقة المالكي، وسرعان ماانتشرت في الحي أقوال وأقوال خلصت العائلة منها كلها إلى أن الرجل غني، باع أراضي بالملايين، ولا يدري كيف ينفقها، هو الفلاح البسيط الذي كان حتى الأمس لا يعرف غير الفلاحة والزراعة...

مؤتمر صغير عقدته الأم والأخت والابن تداولوا فيه الأمر: الجيران الجدد، لديهم فتاة في سن الزواج.. أكثر من مرة رأتها الأم والأخت تفتح النافذة أو الباب.. تخرج إلى الشرفة أو تمر في الشارع، تمسح، تنظف، تكنس، إذن.. هي فارغة الأشغال، تنتظر الزوج الذي يخرجها إلى بيت الزوجية فلماذا لا يكون سميراً؟ صحيح، هي لا تملك ذرة من جمال، قصيرة بدينة بعض الشيء، وجهها جهم السيماء بعض الشيء، بشرتها قاتمة مكمدة بعض الشيء، لكن الصحيح أيضاً، أنها يمكن أن تكون قارب النجاة، وسفينتهم تشرف على الغرق... " ستأتي لنا بالمال "قالت الأم بحماسة شديدة.... " أبوها سيدفع لكي يخلص من بلوى كهذه "ثنت أختها: وقد يموت فترث منه الملايين "أجل... هي المنقذة، سمير! " تابعت الأم بنبرة الحزم والجزم" بأموالها تؤمن لك العيش الكريم، معها لن تحتاج أنت إلى عمل أو تعب ولن نحتاج نحن إلى خادمة". وانتهى المؤتمر باتفاق وقع عليه الأطراف الثلاثة، أعقبته خطوات عملية سريعة لإتمام الزواج، ذلك الذي طارت له شاهة فرحاً، ولم تحط إلا في بيروت حيث العسل اللذيذ، لكن ما إن عادت إلى دمشق، حتى وجدت طبقة الزفت في انتظارها، وما إن مدت يدها إلى البرميل حتى خرجت سوداء ملطخة... الأم تنظر إليها من علٍ وكأن بونا شاسعاً يفصل بينهما: ثريا وثرى.. شاهة لاتمانع أن تكون ثرى، لكنْ أن تصبح ثرى للوطء كل لحظة، ممسحة للدوس في الذهاب والإياب، فأمر بدا فوق طاقتها بكثير.

في البداية لم تأخذ شاهة ولم تعط.. هي فرحة بزواجها، سعيدة برجلها، وهي على استعداد للعمل.. في بيت أبيها كانت تعمل، ليس في البيت وحسب بل في الحقل أيضاً، إذن لم لا تعمل هنا؟ لكن ما إن مضى أول شهر حتى بدا الأمر يصعب يوماً بعد يوم.. هي في بيت أهلها كائن بشري له حقوق وعليه واجبات، لكنها في بيتها الجديد كائن عليه واجبات وليس له حقوق، له أذن تسمع وليس له فم يتكلم..

ثم، لشد ما صدمت حين تكشف لها أن البيت الارستقراطي الذي طمعت بالانتساب إليه مجرد طلاء، الزوج الذي بهرها قامة وعضلات مجرد جوزة فارغة.. قشرة خارجية، أما داخله فينغل فيه الدود.. شيئاً فشيئاً، بدأت الأيدي تمتد إلى ماجاءت به من مال، ثياب، حلي.. أليست غنية؟ إذن عليها أن تدفع، أليسوا في ضائقة؟ إذن عليها أن تفرج تلك الضائقة.

الحماة لا تكف عن الطلب وعليها هي أن لاتكف عن الدفع.. ألم تفز بأجمل شاب في البلد؟ إذن.. لتدفع الثمن.. لكن حتى الشاب الذي كانت تدفع ثمنه راح يتغير.. لم يعد يقعد في البيت.. بل راح يتعلل بهذا العذر أو ذاك.. يغيب أكثر

وأكثر.. ثم ما إن دخلت شهرها السادس حتى بات لا يطيق النظر إلى وجهها.. هي لا تنكر أن الحمل زادها بشاعة: جسمها كله استدار كالبرميل، عنقها غلظ كعنق بقرة هولندية، بشرتها صارت أكثر قتامة وقد غطتها طبقة من الكلف الأسود، تضاريس وجهها ازدادت انخفاضاً وصعوداً حتى باتت الأم تصرخ علناً: لا تريني وجهك في الصباح.. أنا أتشاءم من القبح..

ولم تكن شاهة تستطيع الرد.. فالحقيقة واضحة كعين الشمس، وهي لا تستطيع أن تضع عينها في عين الشمس.

وضعت شاهة بنتاً فازداد الطين بلة، لم تكن البنت تشبه أباها الأبيض الأشقر، ولا أمه الساحرة الفاتنة بل تشبه أمها: فماً وأنفاً، عيوناً وبشرة.. وبازدياد الطين بلة ازدادت حياتها شقاء وبؤساً: الأم أشد تسلطاً، الأخت أكثر قوة، الزوج أكثر نفوراً، والكل يبغي المزيد من المال "... لم يبق معي شيء" تقول لهم فيردون بازدراء... "اذهبي إلى أهلك ائتي بالمال" وكانت تأتي إلى أهلها: ترجو، تتسول.. فكيف لا تنصح أختها بأن تتابع تعليمها وتبتعد عن التفكير بالزواج؟

أميرة تعلم سبب تلك النصيحة، فكثيراً ماجاءت أختها إليها شاكية باكية، بل كثيراً مافكرت بأن تظل لديهم فلا تعود.. لكن الأم المشبعة خنوعاً المترعة خضوعاً تقف لها بالمرصاد. "لو طحنوا الملح على ظهرك لا تتركي زوجك.. "الطلاق وصمة عار.. لا تجعلي وصمة العار تلطخ جبينك".. "اصبري.. الصبر يابنتي مفتاح الفرج".

لكن صبر شاهة لم يفتح لها باب الفرج بل جاء بمزيد من الضيق، مزيد من الحصار، مزيد من الاحتقار فكيف لا تلح على أختها:

-تابعي دراستك.. كوني سيدة نفسك..

-كيف، وأبي يرفض؟ أخواي يعارضان؟

-يجب أن تجدي الطريقة.. الحل.. ولكل حل مشكلة.. ازدادت الأخت إصراراً، مع ذلك الإصرار لم تملك أميرة إلا أن تعترف بما اتفقت عليه مع العم.

-تسجلين طباً أوصيدلة؟ عظيم، لكن كيف؟ هتفت شاهة فرحة، فردت أميرة بالفرح نفسه لكن بما يقارب الهمس.

-أنا طالبة شبيبة قمت بدورات وأنشطة وللشبيبة حيز خاص في القبول الجامعي عمي يعرفه ويستطيع مساعدتي فيه:

-إذن.. لا تترددي.. سجلي.. ودون أن تناقشي أحداً فيكون أمراً واقعاً...

-هذا رأيي أيضاً..، ثنت الأم، ثم التفتت إلى أميرة بحركة خاصة، ولا من سمع ولا من دري، وكل ما تحتاجينه عندي. وهكذا، حين ظهرت قوائم القبول الجامعية، بدت الشبيبة ذات فائدة. صحيح أنها لم تستطع بلوغ الطب.. لكن مالها الصيدلة؟

خفية ودون أن ينتبه إليها أب أو أخ قدمت أميرة أوراقها، ثم بدأت الدوام، بل كيف يتنبهون "وكل في فلك يسبحون".

الأب رجل أعمال كبير... أشغاله كثيرة، وقته مليء، وليس لديه فراغ لشؤون صغيرة كهذه.

دياب غارق في عالمه الخاص، وماعالمه؟ السيارات.. مذ كان صغيراً، كان يحلم أن يجلس وراء مقود، يمتطي سيارة ثم يطير بين الأرض والسماء. وما أكثر ما حدث أخوته عن حلمه ذاك، حين كانوا يعملون في الحاكورة يزرعون الباذنجان أويقلعون الجزر، يقطفون البقدونس، أو يحوشون الملوخية، ولعل أكثر ما أسعده، حين جاءتهم ليلة القدر وانفتحت لهم أبواب السماء، أنه سيحقق حلمه ذاك.. لكن أباه لم يكن بذلك الرجل الذي يسارع لتحقيق الأحلام.. "السيارة تبذير وهدر أموال" رد عليه في البداية ثم.. "هي خطر وشر"، راح يردد بعد ذاك. أخيراً وجد الحجة "أنا أعلم كم أنت مجنون بالسيارات ولا أريد أن أخسرك".

"أشتري سيارة صغيرة وأعمل عليها بالأجرة.. تاكسي أنقل بها الناس وأكسب المئات كل يوم" عرض عليه، فوجد أبو ديبو الحجة المضادة في الحال "وهل نحن بحاجة إلى مئاتك هذه؟ أنا الآن رجل أعمال.. أشتري عقارات وأبيع.. تعال اعمل معي". لكن ديبو لا يحب العقارات ولا العمل فيها، فمضى يسعى في مناكبها عله يجد سبيلاً إلى الحبيبة التي يعبد. أخيراً وجد السبيل في مكتب سيارات،

كان المكتب قريباً من بيته، قديم العهد قليلاً.. صاحبه في الثلاثينات، لديه لسان ذرب وخبرة واسعة... يعلم كل شيء عن السيارات.. مواصفات كل منها، أسعارها، معاملها، لكنه لا يملك مالاً لشرائها فيكتفي بالتوسط.. هذا يريد أن يبيع سيارته، ذاك يريد أن يشتري فيوفق بينهما. وله حقه. مرة بعد مرة زاره دياب.. جلس في مكتبه، حضر صفقات بيع وشراء، وشيئاً فشيئاً بدأت تتوثق عرى الصداقة بينهما إلى أن اقترح عليه الرجل "مارأيك أن تشاركني؟" "كيف،؟" سأل دياب صديقه الجديد وهو لايكاد يصدق.. "اسمع، بدلاً من أن آخذ سمسرة البيع والشراء فقط، يمكن إذا ما توفر لنا المال، أن نشتري السيارة، نصلح مافيها من أعطال، نحسن من وضعها ثم نبيعها ويكون الربح الضعف أو ثلاثة

وربما أربعة أضعاف" فكر دياب بالعرض مدارياً فرحه قليلاً ثم عقب "فكرة جميلة، ماذا يتوجب علي أنا؟ ماذا تريد مني؟ " "المال طبعاً" رد الرجل على الفور.. "والدك غني.. يمكنه أن يمولنا برأسمال معقول، نشتري به سيارة... سيارتين ونبدأ العمل، ومتى دار الدولاب، صدقني، لن يتوقف" ".. صحيح.. أجل... نشتري سيارات مضروبة.. سيارات عاطلة.. نصلحها ونبيعها.. أجل لكن كيف نقتسم الربح؟ " تابع دياب الحديث وكأنه يكلم نفسه.. " دياب.. أنت صديقي ولن نختلف.. لكن مبدئياً أقول.. المال مقابل المحل.. والربح فيفتي فيفتي" لكن دياب لم يكن يعرف الانكليزية ولا الألمانية ففتح فمه مستغرباً.. "أقصد النصف بالنصف" أجاب صاحبه على فمه المفتوح، وهو يضحك ثم تابع "اسمع.. عليك أن تتعلم شيئاً من الأجنبي.. فرنسي.. انكليزي.. نحن في عالم السيارات بحاجة إلى شيء من الفرانكوأرب.. الزبون تدوِّخه إذا ماخلطت لغتك العربية ببضع كلمات أجنبية... يحسبك أنك أكثر فهماً وشطارة"، وهز دياب رأسه بالموافقة ليس على اقتراحه الآخر وحسب بل على اقتراحه الأول أيضاً.." كم تقدر رأس المال الذي تحتاجه؟" سأل صاحبه من جديد وهو يفكر بالباب الذي سيدخل منه إلى أبيه عله يحصل على المبلغ. "كلما كبر رأس المال كبر الربح.." أجابه صديقه بحماسة أكبر، "هذا مبدأ أساسي من مبادئ الاقتصاد... لكن يمكننا أن نبدأ بثلاثمائة.. أربعمائة ألف.." أردف وهو يريد أن تكون ضربة العمر. فجأة، بدا الأمر لدياب هيناً ليناً.. لكن كان لابد له من معرفة المزيد فسأل صاحبه غارقاً قليلاً في التفاصيل. "سأشرح لك"، أجاب صاحبه رامياً بثقله وذلاقة لسانه كلها.. "سيارة البيجو الآن بخمسين ألفاً... الأوبل بأربعين... الفيات كذلك.. إذن بمثل هذا المبلغ يمكننا أن نشتري ست سيارات أوسبعاً".. "صحيح" ثنى دياب على كلام صاحبه شارداً بعض الشيء. "على هذا الأساس نعمل... كلما وقعت لنا سيارة اشتريناها وحين يأتي الشاري المناسب نبيعها، دون أن نضطر للتوقف... المهم: استمرار الحركة.. استمرار البيع والشراء.. فذلك ببساطة يعني استمرار الربح".. كلمة الربح هي المفتاح السحري الذي جعل أبا دياب يفتح صندوقه، وقد أقنعه أن الاتجار بالسيارات مشروع استثماري لايقل ربحاً عن الاتجار بالعقارات. وهكذا، انطلق دياب في عالم عشقه، يشتري ويبيع، يتاجر ويربح، ألم يدفع له أبوه؟

أبو دياب يدفع حين يعلم أن الدفع سيعود عليه بالربح... لكنه يدفع أحياناً وهو على يقين أنه لن يعود عليه بربح. فهد جعله يفعل ذلك، ودون تلكؤ أو تردد، فقط كي ينقذه من ورطة. كان الفلك الذي يسبح فيه فهد مختلفاً، لا عقارات ولا سيارات.. بل هو فلك المرأة... المرأة تسحره، شعرها يطيح به،

نظراتها تفتنه، بسمة من ثغرها تصيبه بالدوار.. مذ كان في المدرسة عرف في نفسه حبه للفتيات.. إذ غالباً ما وقفت مدرسة الإناث حائلاً بينه وبين إكمال طريقه إلى المدرسة. كان حسبه أن يقف قرب المدخل، يرى تلميذة داخلة أو تلميذة خارجة، حسبه أن يرصد الشبابيك، يظهر منها وجه أو يلوح شعر... لكن ما إن بدأ الزغب يظهر على شفته العليا وذلك الشيء الذي بين فخذيه يتحرك، حتى باتت نظرة من أنثى تسمره في مكانه، أمله في أن يلمح فتاة ينسيه مدرسته ودروسه، بيته وحاكورته، وكان ذلك سبب طرده من المدرسة قبل أن يأخذ الإعدادية.

هو ذكي، سريع البديهة، حاذق اللسان، في سيماه شيء من وسامة تجذب الفتيات. بذلك كله استطاع أن يوقع في شباكه أكثر من فتاة، لكن إلى حين، فلكي تمشي عجلة الحب لابد من الزيت.. وفهد ليس لديه زيت.. حاكورته بالكاد تسد رمقه.. لهذا، كان يصاب بالإحباط تلو الإحباط.

لكن مذ جاءتهم ليلة القدر تلك، تغيرت حال فهد... صار يجد الزيت، صار باستطاعته أن يدخل مغامرات ويقيم علاقات إلى درجة طلبت بعضهن الزواج منه. لكن الفتى لايريد الزواج.. الزواج ثبات واستقرار وهو يكره الثبات والاستقرار.. نحلة تريد التنقل من زهرة إلى زهرة.. فراشة تطير من مصباح إلى مصباح، تحلق وتحلق...

في إحدى التحليقات وصلت الفراشة إلى الساحل... هناك، على شاطئ البحر كان فندق أزرق الوجه أبيض القلب يفرش جناحيه على مرفأ قديم، قدم الفينيقيين، أصيل أصالة الكنعانيين. حجارة المرفأ نفسها تحمل نقوشاً تحكي عن انطلاق السفن الفينيقية باتجاه الغرب... حيث قرطاجة، ثم باتجاه ممالك أخرى على الشاطئ الغربي الأبعد حيث الأندلس وأشبيلية... لكن فهداً لم يكن يعرف شيئاً عن ذلك كله ولم يكن معنياً بأن يعرف... كل ما يعنيه أن يسافر، أن يسوح، أن يسبح في البحر... والبحر مغناطيس المرأة وجاذب الأجناس الفاتنة.

ذلك اليوم من أيام تشرين كان دافئاً مشعاً كأنه يوم من أيام الصيف، وكان قد ذهب إلى الشاطئ الرملي ذي الأمواج الساكنة... هناك سبح حتى تعب،استمتع برؤية الأجساد العارية، والسابحات الفاتنات حتى أتخم ثم أوى إلى فندقه... متأخراً أوى.. فالكازينو القريب كان سخي المائدة، سخي الأنغام، سخي البرامج. أكل هناك، شرب، تفرج على الراقصات، سمع الأغاني، المطرب منها وغير المطرب، ثم مضى إلى فراشه، منتشياً سكراً، مشبعاً طعاماً فلم يلامس الفراش حتى استغرق في سبات عميق.

في لحظة ما من ذلك الليل، أحس فهد بشيء يتحرك قربه، بدفء يسري

في أوصاله... "ماذلك الشيء؟ ماذلك الدفء؟ "سأل نفسه سؤال النائم ثم مد يده يتلمس الفراش إلى جانبه.. ثمة جسد.. جسد طري، طري.. دافئ دافئ.. كما لم يحلم بطراوة ودفء من قبل.. "أنا أحلم" قال لنفسه وهو يتلمس الفراش من جديد.. لكن سرعان ما سرت ارتعاشة في يدده.. وهي تقع على لحم غض بض.. فتح عينيه على مهل وهو لا يصدق مايلمس ويشم.. رائحة عطر ما كانت تغزو خيشومه، مثلما كان الدفء يغزو جسده... ومن جديد تلمس.. " إنه جسد بشري.. هذه هي الكتف.. هذا هو الخصر.. بل هو جسد أنثى.. يا إلهي!! نهداها حمامتان تهدلان، حلمتاها حبتا فريز، مؤخرتها شراع قارب، ولم يشعر فهد إلا وهو يلقي بنفسه فوق ذلك الجسد الطري الدافئ، ثم صرخة أنثى مكتومة تنطلق من تحته.. كيف تعرى؟ كيف عرى تلك الأنثى؟ كيف ولج فيها طاعناً طعنة الفارس الصميدع؟ هو لايدري، كل مايدريه أن الأنثى تحته صرخت صرخة الألم المكتومة، ثم حاولت التملص والابتعاد لكن أنى لها ذلك ويداه تمسكان بها، جسده يطبق عليها حتى لكأنها بين فكي ملزمة... بعد ذلك لا يدري فهد كم نام غارقاً في بحر من النشوة والمتعة، لكن شيئاً ما أيضاً جعله يستيقظ فاتحاً عينيه من جديد.. هذه المرة كانت أشعة الصباح قد تسللت عبر شق في ستائر النافذة. نظر إلى جانبه فبهر ناظراه: "أهي الشمس إلى جانبي؟ أليس هذا الجسد الغض البض قطعة من الشمس؟ " قال في نفسه وهو ينهض على مرفقيه يتأمل الجسد الأبيض الشهي المستغرق في النوم. "أهي حورية خرجت إلي من البحر؟ ملاك هبط من السماء؟ يا إلهي أية هبة سماوية بعثت لي؟ " ومن جديد راح يتأملها طارفاً من جديد بأجفانه... "لا.. لا.. لاشك أنني في حلم.. فتاة بهذا الجمال!! فتاة بهذه الروعة!! " ولكي يقطع الشك باليقين، يفصل بين الحقيقة والحلم.. راح يلثم كتفيها، يتلمس نهديها، بطنها ثم لم يستطع منع نفسه من أن يلج فيها من جديد...

ابتسامة طائرة كالفراشة ارتسمت على ثغر الفتاة وهي تعطي نفسها له هذه المرة، دون صرخة، دون تملص، دون تشنج.. بل في لحظة من الزمن أحس بها ترتعش ثم ينتفض كل مافي جسدها شاهقة شهقة النشوة. إذ ذاك كان الرجل يهمد منقلباً بنفسه إلى جانبها وهو لايشك البتة بأنها حورية من حوريات البحر رأت نفسها بحاجة إلى الرجل، فخرجت إليه. بمحض إرادتها جاءت تقضي وطرها من الرجل.

فتحت الفتاة عينيها، وهي تمد يدها إليه تتلمسه متأوهة آهة المتعة والاسترخاء.. لكن سرعان ما فغرت فاها، واتسعت حدقتا عينيها.

–من أنت؟ جاء ه صوتها الأنثوي المفعم نشوة واسترخاء، همسا في البدء،

ثم صراخا فيما بعد.

قل لي من أنت؟

–أ... أنا... الرجل الذي جئت إلى فراشه تبغين الحب، رد فهد بكثير من التلعثم وكأنه لا يدري مايقول لحورية بحر تسأل في الوقت الذي كان عليها أن تجيب.

أسرعت الفتاة تتلمس مابين فخديها، تنظر إلى الفراش تحتها، ثم تصرخ وقد أفزعتها بقع الدم الحمراء،

–كيف جئت إلى فراشي؟ أنت لست عريسي أين عريسي؟ أيـــ....ن عـــ....ريـــ......ســـ.......ـــي؟

-5-

سبعة أيام بسبع ليال، ظل العريس الذي لم يكن عريساً طريح الفراش: ضماد على عينه اليسرى يحجبها عن الرؤية وثلاث لصقات أو أربع موزعة بين جبينه وذقنه وقد تحول وجهه إلى خارطة لاشتباكات دامية بين قوتين ضاربتين من قوى الحرب والدمار.. يداه، رجلاه، جسده كله تحول إلى ميدان يحمل آثار المعركة الدامية.

فعلى صرخات العروس أفاق العريس وفي الحال اكتشف غيابها. بقفزتين أو ثلاث تبع مصدر الصوت، فتح الباب، فوجد العروس حواء تحاول وضع ورقة التوت، هامة بالفرار وهي ترى أن ذلك الآدم ليس آدمها.

لحظة من الزمن وقف الثلاثة فاغري الأفواه، جاحظي الأعين وكأنما أسقط في أيديهم، لا يدرون مايقولون، لا يدرون ما يفعلون...

بعد ذاك طار كل ما اختزنه العريس ليلة دخلته من شراب وكحول، ثم ما إن فتح فهد عينيه وأغمضهما حتى وجد غريمه قد تحول إلى ثور هائج ينطح، يضرب، يرفس ولا يفرق بين ذكر وأنثى. حاول فهد أن يمنع عن نفسه الرفس والضرب، لكنه لم يستطع، فالثور ذو قوة خارقة لعله هو نفسه ذاك الذي هاجم تموز، حبيب عشتار، فأودى به إلى باطن الأرض.

-اختطفت عروسي!؟ اغتصبتها؟ قسماً، عظماً، لأذبحنك!! كان يصيح وهو يضرب ويرفس، ينطح ويركل كأنما تملكته نوبة من جنون.

-أرجوك!!! اسمعني!! افهمني!! كان رد فهد الوحيد وقد تكوم على نفسه في الزاوية يحاول اتقاء الضرباتٍ وحسب، فالثور الهائج كان قد بث في أوصاله رعباً فكك مفاصله وأقعده أرضاً. العروس نفسها كانت تتلقى الضربات وهي تحاول إبعاد عريسها عن الآخر دون أن تجرؤ على الصراخ لكأنها كانت مدركة لخطئها راضية أن تعاقب عليه.

كرسي الخيزران تكسر على رأس فهد، الجروح تفتحت في أنحاء وجهه، قوائم الكرسي نفسها راحت تتكسر على جسده، ولم يعد باستطاعته التحمل فانطلق صوته يستنجد ويستغيث.

اثر النجدة جاء الطبيب يمسح ويداوي، يقطب ويضمد بعد أن رفض فهد الذهاب إلى المستشفى. لكن طوال أيام سبعة لم يستطع الحراك من فراشه لكأن

مدحلة مرت على جسده.

رغم المسكنات والأدوية، كان الألم يمسك به إمساكة الغول الهائل يرصه فلا يدعه ينام. كان يشعر وكأن في جوفه سكاكين. هل اخترق قرنا الثور جلده ودخلا أحشاءه فتمزق منها ماتمزق وانجرح ماانجرح؟ دقائق من اللذة مقابل أيام من الألم.. أهذا هو ثمن اللذة؟ "أي قدر!؟ أي حظ!؟" كان لايفتأ يلقي باللائمة على القدر والحظ وهو يفكر بالورطة التي وجد نفسه فيها. فقد تبين لفهد أن الفتاة التي وجدها في فراشه ليست حورية بحر ولا ملاك سماء، بل هي عروس جاءت تقضي شهر عسلها في الفندق أزرق الوجه، أبيض القلب، ولكي يحتفي عريسها بها أقصى احتفاء، أقام لها مأدبة عامرة بكل مالذ وطاب من طعام وشراب.. كأس منه وكأس منها ثم كأس منها وكأس منه حتى دار برأسيهما الشراب واستغرقا في سبات عميق قبل أن يتسنى لهما حتى تأدية الشعائر المقدسة لليلة الدخلة...

حاجة بشرية ما دفعت العروس إلى الاستيقاظ في الليل، خرجت خارج الغرفة وهي شبه نائمة، ثم عادت وهي شبه نائمة، لكن بدلاً من أن تدخل غرفتها، دخلت غرفة فهد ثم انسلت إلى جانبه وكل ظنها أنه هو العريس.

لكن العريس لا يصدق. هو مصر على اتهامه بأنه اختطف عروسه، بأنه استخدم الحيلة والخديعة لاغتصابها، فيما العروس تبكي وتنوح على بكارتها التي فضها رجل غير رجلها، على الفضيحة التي سببتها لنفسها.

العريس نفسه في حال من الهياج والغضب لم يتوقفا قط: "أدفع مافوقي وماتحتي لكي آخذ الفتاة التي أحببت فيأخذها غيري؟ أشرب لأفرح وأستمتع فينقلب فرحي حزناً واستمتاعي ألماً؟ أي قدر!! أي حظ!! "كان لايفتأ يصرخ ويصيح هو الآخر، يشكو ويتذمر، فالمشكلة عويصة والقضية أعقد من أن تحل. كيف يقرب فتاة ضاجعها سواه؟ كيف يبقي على عروسه وقد صارت عروس غيره؟ في الوقت نفسه لِمَ يتخلى عنها وهو يحبها؟ كيف يرمي بها وهي كل أحلامه؟ من ضفاف الخابور جاء بها ليقضيا شهر عسلهما على شاطئ البحر فماذا فعل بهما البحر؟

–ليس البحر من فعل ذلك بل الشراب... ردت عليه وهو يشكو موشكاً أن ينوح.. قلت لك لسنا معتادين الشراب.. كلانا لا يتحمل الشراب.. لكنك ألححت.. اشربي.. اشربي.. ورحت أنت تشرب وتشرب حتى أضعنا أنفسنا...

هو يشعر بالذنب.. صحيح الفكرة كانت فكرته.. لكن من كان يتصور تلك النهاية؟ من كان يعلم أنها ستفيق في الليل لقضاء حاجة فتخطئ في العودة إلى

غرفتها؟

-والحل؟ قولي ما الحل؟ أنت شبكتنا فخلصينا... قال محتداً وهو يبحث عن حل..

-أنا لم أشبك أحداً ولا أستطيع أن أخلص أحداً.. ردت العروس باكية وقد باتت على يقين أنها أسوأ عرائس الأرض حظاً.. فمذ أفاقت ذلك الصباح على عريس غير عريسها وفي فراش غير فراشها والحيرة والحسرة تنهشان قلبها، الألم والندم يفتتان روحها.. عريسها لايستطيع الاقتراب منها والرجل الذي صار رجلها طريح الفراش مهشم محطم.. سبعة أيام بسبع ليال وهي وحيدة في غرفتها.. تأكل.. تشرب، تنام وحيدة، ومع من تنام يا ترى؟ عريسها الشرعي أم عريسها الفعلي؟ من كانت زوجته ولم تصر كذلك، أم من صارت زوجته ولم تكن كذلك؟ مفارقة!! وكان لابد من الاحتكام لمن يحل المفارقات.

استمع قاضي الشرع للقصة ثم أفتى:

-ما قام على باطل فهو باطل، والاستمرار في الخطأ خطأ أشد وأفدح.. لهذا ينبغي إصلاح الخطأ حيثما وقع...

-ماذا تعني؟ أعيدها زوجتي؟ هكذا، كأن شيئاً لم يحدث؟ سأل العريس الذي يملأ صدره الغيظ ولا يستطيع أن يكظم غيظه..

-يابني!! هذه امرأتك عقدت عليها قرانك... بالشرع والقانون هي كذلك.. ومافعلته لم تفعله عن عمد.. بل هو خطأ تحتمل أنت وزره بقدر ما تحتمله هي نفسها...

-لكنه خطأ فادح.. خطأ قاتل..

-مع ذلك، هو لا يلغي عقد قران موثقاً شرعاً وقانوناً...

-والولد؟ ماذا إن خرجت حاملاً؟

-الولد للفراش.. هذا ماسنه أسلافنا...

-لا.. لا أستطيع تحمل ذلك.. ولد من غير صلبي!؟ لا أستطيع أن أتحمل مجرد الشك فيه.

-اقطع الشك باليقين.

-كيف؟ سأل العريس المغتاظ من جديد.

-تبقى مائة يوم لا تقاربها.. فإن كانت حاملاً ظهر ذلك..

-ولماذا ننتظر مائة يوم سيدي القاضي؟ تدخل فهد مقاطعاً وقد أعجبته المرأة. ليتخلَّ عنها أعقد قراني عليها الساعة...

-وقح!! خسيس!! رد العريس وهو يصرف على أسنانه ولا يستطيع منع نفسه من الهجوم عليه إلا بالكاد.

-بل أنا أريد إصلاح الخطأ.. أنا أعلم أنني أخطأت لكنني على استعداد لإصلاح الخطأ.. فليطلقها سيدي القاضي أتزوجها والتعويض الذي يريد أعطيه له... أنا رجل غني، أموالي كثيرة وبإمكاني أن أقدم له مايشاء من تعويض.. فنخرج لا ضرر ولا ضرار..

-هه!! ماذا قلت يابني؟ سأل القاضي العريس وقد بدت له الفكرة معقولة أيضاً..

-قلت عليه اللعنة..!! قلت امنعه ياسيدي القاضي من التكلم بهذه الطريقة أو هشمت رأسه...

-ولماذا تهشم رأسي؟ رد فهد بنبرة الواثق أنه في حرز حريز، أنا أقدم حلاً نخرج به كلنا من هذه الورطة... فإن لم يقبله سيدي القاضي.. دع الأمر للعروس.. اترك لها حرية الخيار..

-حرية الخيار!!؟ ردد كالمذهول ناظراً إلى عروسه التي لم تعد عروسه، ماذا إن تخلت عني؟ ماذا إن اختارت ذلك الرجل؟ تساءل في سره ثم صاح، هي امرأتي ولن أتخلى عنها...

-إذن تنتظر ثلاثة أشهر وعشرة أيام.

-أنتظر ياسيدي...

-فإن خرجت حاملاً تطلقها أنت ويتزوجها هو، وإن لم تكن كذلك عادت زوجتك ودفع لك مائة ألف ليرة... حكم القاضي الشرعي مبرم لا استئناف فيه ولا تمييز، وقد قبله الأطراف الثلاثة على أن يلتقوا في جلسة ثانية بعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام... لكن ماعساه يفعل فهد؟ كيف يأتي بالمائة ألف ليرة؟ والده غني حقاً، لكن أيدفع مثل هذا المبلغ، هكذا دونما مردودٍ أو ربحٍ؟ هو يدفع أحياناً لكن بالعشرة والعشرين ألفاً.. لكأن غناه لايزال عرضاً آنياً لم يدخل إلى جوهره.. بل يخيل لفهد أن أباه يتصرف أحياناً وكأنه مايزال فقيراً لا يملك شروى نقير.. "أتراه لما يصدق بعد أنه غني كبير؟" كان فهد يتساءل وهو في طريقه إلى دمشق مهموم البال منشغل الخاطر.

أمه مهمومة البال أيضاً منشغلة الخاطرِ، فغيابه كانٍ قد طال إلى درجة جعلتها تقلق.. صحيح أنه كانٍ يغيب.. راحلاً هنا، مسافراً هناك.. لكن عشرين يوماً؟ كيف؟ وأين؟ رأته عائداً فنسيت كل شيء... احتضنته، قبلته، أما حنوناً ترى كل شيء يحاصر حنانها، مطارداً فلوله في زمن لا أمومة فيه ولاحنان... ثم ماإن

تفحصت وجهه حتى رأت بقايا ندب وجروح، سألته، راوغ... حاصرته، ناور لكنه لم يجد مفراً من الاعتراف أخيراً وهو يخطط لأن يصنع من أمه جسراً إلى أبيه فيحصل على مايريد.

بهتت أمه مثلما بهت هو نفسه حين عرف الحقيقة ذلك الصباح، لكن إلامَ الانبهات وابنها في ورطة؟ كيف الخلاص إن لم تواجه الأب بالحقيقة؟

وهكذا، لم تنته المائة يوم حتى كانت الأم وابنها قد قاما بعمليات كثيرة من تمهيد ومناورة، دوران والتفاف قبل أن يكشفا له الحقيقة. هاج الأب وماج، أرغى وأزبد لكنه في النهاية رضخ للأمر الواقع ودفع المبلغ.

لكن إن كان أبو دياب قد دفع المبلغ "شرفية" للعروس الخابورية وتعويضاً لعريسها المفجوع فمن تراه يدفع "شرفية" ميرنا، الخادمة الفيلبينية؟

كانت أم دياب قد باتت غير قادرة على القيام بخدمات البيت، فالعظم الذي كسر، جبر مع الزمن لكنه لم يعد كما كان لكأنه انكمش حتى غدت أم دياب تظلع حين تمشي كشاة جبرت قائمتها على غش. في الوقت نفسه ازداد وزنها، استدارت عجيزتها وتضخمت حتى لتوشك، إن قامت، أن تصل إلى الأرض، بل إن بطنها راح يتسع وينتفخ كما لو أن فيه توائم ثلاثة... ماذا تفعل بنفسها؟ هي قاعدة لا تتحرك..

الكسر ثم الكسل أجبراها على القعود ثم إنها تحب الطعام.. والطعام كثير.. منذ صغرها كانت تحب الطعام، لكنه، تلك الأيام، كان عزيزاً وكان في الغالب قليل الأصناف مقيتاً إلى النفس.. أما اليوم فهنالك أطايب المأكولات وأكثرها تنوعاً فلماذا لا تأكل؟ ألم يقل سبحانه "كلوا من طيبات مارزقناكم"، إذن ستأكل... الأكل لذة اللذائذ ومتعة المتع فكيف إن لم يكن هنالك متعة أخرى؟

أم دياب تشعر أحياناً أن الحياة أقفرت من كل ما يمتع. فالزوج غائب دائماً، وإن حضر عقله دائماً في مكان آخر، وقته لا فراغ فيه، قلبه لا مكان فيه.. كذلك الأولاد ما إن يفيقوا حتى يتفرقوا.. لتظل هي وحيدة في البيت.. لا أنس و لا أنيس. وهكذا، لم تعد الخادمة ضرورية من أجل الخدمة فحسب، بل من أجل الأنس أيضاً، فلا تشعر أم دياب بالوحشة والوحدة.

خادمة سيرلنكية أعقبت التايلاندية وكلتاهما لاتعرفان العربية فكانت لغة التفاهم الإشارات والقليل من الكلمات. لكن هذه الفتاة الفيلبينية مختلفة...عيناها تلمعان ذكاء عكس تلك السيرلنكية ذات العينين الجامدتين كعيني سمكة ميتة. في بشرتها وضاءة لا تشبه من قريب أو بعيد بشرة تلك التايلاندية القاتمة المسودة. لحسة من لبن كانت تجعل سيماها قريبة من القلب.. وبعض امتلاء في الجسد كان

يجعل قامتها أكثر جاذبية وكفلها أكثر لفتاً للانتباه... ثم هي خبيرة، مارست الخدمة من قبل، فتعلمت جملة من هنا وعبارة من هناك إلى درجة بدا من السهل على أم دياب التفاهم معها دون أن تضطر لتحريك الأيدي وصنع الإشارات.

منذ الأيام الأولى أحبتها أم دياب، فميرنا ملؤها الحيوية والنشاط، لاتفتأ تتنقل من غرفة إلى غرفة، ملبية طلباً بعد طلب.. تمسح، تكنس، تطبخ، تنفخ. ماتشاء السيدة تفعله الخادمة وبكل فهم وذكاء.

ميرنا بارعة أيضاً في التقرب من الآخرين، أم دياب ترى ذلك جيداً.. إذ لم تمض عليها أشهر حتى أصبحت عضواً أساسياً في البيت. حيويتها، ذكاؤها، براعتها كلها كانت توظفها لكسب ود العائلة... ثم شيئاً فشيئاً بدا لأم دياب أن ابنها الصغير لم يعد يستغني عن تلك البراعة ليس في النهار وحسب بل في الليل أيضاً.. إذ ما إن يدخل البيت حتى يبحث عن ميرنا، يذهب إلى المطبخ، يدخل غرفتها، وذات ليلة رأته أم دياب ينسل من تلك الغرفة وليس عليه سوى قميص رقيق..

-ستقتلك دناءة نفسك، قالت له هامسة، وقد لحقت به إلى غرفته، ستقتلك المرأة.. أيها الرجل الذي لا يشبع منها أبداً!!!

-أماه!!! أرجوك!! تظاهري أنك لم تري شيئاً..

-أتظاهر!؟ تباً لك!! ألم تكفك تلك الورطة مع تلك العروس، تريد أن تورطنا مع خادمة فلبينية مرة ثانية؟ ينقصنا مشاكل؟ هموم!؟ دع الفتاة وشأنها.. هذه المسكينة تستغل ضعفها.. فقرها.. ألا تستحيي!؟ ألا تخجل!؟ طوال ساعة وبضع الساعة ظلت تقرعه... وهو يروغ ويزوغ، سمكة زلقة الجلد لا يمكن الإمساك بها.. أخيراً راح يتوسل:

-أماه.. أنا تعبان نعسان.. دعيني أنم.. أرجوك.. لكنها لم تدعه ينام حتى أقسم لها، بالأيمان المغلظة، أنه لن يقارب الخادمة الفلبينية من جديد. وبدا الفتى بعد ذلك حريصاً على قسمه متمسكاً بأيمانه.

... لكن دياب لم يكن كذلك.. فذات يوم، وفي عز النهار، كانت ميرنا في الحمام تنظفه.. ولم تكن الأم قد تحركت من غرفتها بعد.. كان التكاسل قد صار في دمها.. ساعات تظل في سريرها، وماعساها تفعل إن خرجت؟ الخادمة تنظف، تغسل، تكوي، تطهو.. فلماذا لا تبحث السيدة عن راحتها؟

فجأة أحست أم دياب بصوت المسح يتوقف في الحمام.. ثم جاءتها همهمات وغمغمات.. متثاقلة نهضت من فراشها، وببطء ورفق سارت إلى الحمام،.. كان الباب موارباً، ومن الفتحة المواربة تلك رأت دياب يحتضن ميرنا بين ذراعيه

شاداً إياها مقبلاً شفتيها، فيما راحت يده اليسرى ترفع تنورتها إلى خصرها، صيحة غضب أطلقتها أم دياب فأوقفت كل شيء لينسل بعدها دياب خارجاً مسرعاً إلى درجة لم تستطع معها لومه أو توبيخه. لكن الطامة الكبرى وقعت حين اكتشفت أم دياب أن براعة تلك الخادمة الفلبينية ونشاطها أوسع دائرة من فهد وأخيه دياب...

ذات أصيل، وكانت تنام فترة القيلولة كعادتها، أحست بعطش شديد.. نهضت من فراشها تبتغي المنهل.. لكن قبل أن تصل إليه سمعت حركة وصوتاً.. حين نامت لم يكن أحد غير ميرنا.. أميرة في الجامعة، الأولاد كالعادة هنا أو هناك، أبو دياب لم يعد إلى الغداء، ونادراً مايعود هذه الأيام.. "إذن من يصدر تلك الحركة والصوت؟ " تساءلت أم دياب وهي تتقدم بحذر.. الصوت آتٍ من غرفة ميرنا.. أصاخت السمع جيداً فعرفته.. إنه ذلك الشخير والنخير الذي يصدرهما أبو دياب في وضع معين.. أم دياب تعرفهما جيداً.. لكن أيعقل ذلك؟ بحذر شديد اقتربت الزوجة من غرفة ميرنا... هناك رأتهما معاً آدم وحواء متعانقين متشابكين، وهو يشخر وينخر... "يا إلهي!! ماذا أفعل؟ " تساءلت وقد تسمرت حيرة وعجباً لحظة من الزمن ثم تراجعت.. تكاد تتعثر بشحمها ولحمها، إلى أن ألقت بنفسها على الفراش وقد نسيت العطش والماء.

ذلك المساء، مضت الزوجة إلى غرفة ميرنا، وضعت في يدها رزمة من نقود، هامسة في أذنها بأنها لم تعد بحاجة إليها وأن عليها أن تبحث عن بيت آخر تخدمه. لم تحتج ميرنا ولم تعترض، لكن ما إن بدأت ترزم حاجاتها حتى رآها دياب.. دياب تحدث مع فهد.. فهد ودياب استفسرا عن السر، ثم بدا الاستغرب والاستهجان على وجهيهما معاً إلى حد جعلهما كتلة واحدة متراصة في وجه الأم التي أعطت الأمر... ثم بدأ الهجوم المعاكس.

-كيف تطردين خادمة مثل ميرنا؟ احتج دياب منتفخ الأوداج، من أين سنأتي لك بواحدة مثلها، ذكاء ونشاطاً وبراعة؟

-ولك عين تتكلم؟ أوصلت بك الوقاحة هذا الحد؟ ردت عليه الأم وهي تغرس عينيها في عينيه عله يستحيي على نفسه...

-أية وقاحة؟ أي عين؟ عم تتكلمين يا أماه.. ميرنا خادمة ممتازة ولن نجد بديلاً لها...

-بالطبع، لن تجد بديلاً لها.. لكن كيف يمكنني أن أتحمل مايجري.. الحرام في بيتي.. الزنى في عقر داري..

-أماه!! أماه!! قاطعها فهد هذه المرة، ماهذا الكلام؟ زنى، حرام، لا.. لا..

القرآن الكريم قال..

-اخرس، صاحت به الأم المؤمنة التقية مقاطعة إياه، لا تجلب ذكر القرآن على لسانك...

-لكنه قال "وادفعوا لهن أجورهن" ونحن ندفع لها أجرها، إذن هي حلال لنا...

-بل هو حرام وأنتم تستغلون ضعفها، تعلمون أنها عزلاء بغير سلاح فترغمونها على فعل الإثم والخطيئة.

-بل هي تفعل ذلك بمحض إرادتها.. رد دياب هذه المرة، نحن لا نرغمها أبداً.

-مع ذلك، هذا لا يجوز، قاطعته من جديد.. في هذا البيت لا أسمح بالإثم والخطيئة.

-اثم!! خطيئة!! عاد فهد للمناقشة.. أماه!! الأمر غير ذلك!! بل هو بمنتهى البساطة.. أنا بلا زوج.. وهي بلا زوج..

لكن سرعان ماشردت.. عقلها ذهب إلى الأب، شيء ما كاد يصيح به "وأبوك أهو بلا زوج؟ " لكنها توقفت آخر لحظة.. فالدافع الذي جعلها تنسحب متظاهرة بعدم رؤية شيء، مؤثرة أن تدعها في القلب تجرح ولا تخرج فتفضح، منعها من أن تصارح ابنها بالحقيقة. الفضيحة صعبة وفضح الأب أصعب الفضائح... "ماذا سيقول عنه دياب إن عرف؟ كيف سينظر إليه فهد إن سمع؟ لا.. لا.. ينبغي أن يبقى في عيون أولاده الأب المبجل والرجل المحترم.." هي لا تطيق أن تنشر غسيله الوسخ، ولكي لا تضطر لنشر ذلك الغسيل صمتت بانتظار أن تحاسب الخاطئ الأكبر.

طوال ذلك الليل لم تستطع النوم.. فراشها قتاد وعيناها جمر، تطبق أجفانها فلا تحتمل سوى لحظات.. النار في الحدق فتنفتح الأجفان من جديد ويتقلب الجسد الممتلئ شحماً ولحماً على فراش الشوك.. مرافعات وخطب كانت تجول في ذهنها رغم أنها لم تدرس القانون ولم تعرف القراءة والكتابة. بخار يتراكم في جمجمتها ولابد له من أن يتحول إلى سحاب ثم مطر تريده أن ينصب على رأس أبي دياب.. صحيح لم ترد أن تسيء إليه أمام ميرنا أو تفضحه أمام الأولاد... لكن بينها وبينه لا تستطيع أن تسكت... يجب أن تواجهه بالحقيقة عله يرتدع فلا يعود إلى فعلته أبداً. متأخراً كعادته جاء، لا مبالياً بدا لكن ما إن بدأت لومها حتى انفجر صائحاً وقد عاوده العي:

-اسســـ. سمعي.. أنا أفعل مأشاء.. ألم يقل سبحانه "وانكحوا ما طاب لكم

من النساء مثنى وثلاث ورباع؟"

-لكن بالحلال.. قاطعته الزوجة المهددة التي انتظرت طويلاً تلك اللحظة والتي كان لها ذات يوم دالة وسطوة.

-وهي حلال.. ألم يقل سبحانه "وما ملكت أيمانكم" وهي ملك أيماننا، نطعمها، نسقيها، نؤويها وندفع لها مالاً..

-لكن هذا حرام.. حرام تمارسه وحلالك في الغرفة الثانية..

-حلالي!! آه!! ما أطيب ذلك الحرام وأبشع هذا الحلال!! قال بما يشبه الهمس وكأنه يكلم نفسه.

-ماذا تقول؟ ردت وهي تفتح عينيها على سعتهما غير مصدقة ماتسمع...

-أقول.. أتحسبين نفسك ماتزالين امرأة.؟ انظري إلى شحومك ولحومك طيات.. طيات.. لا.. لا.. لم يعد بالإمكان احتمالك.. بل لا أدري كيف احتملتك حتى اليوم.

-سيفو!؟ صاحت الأم خائفة وقد طار كل مافي رأسها من حجج ومرافعات..

-اسمعي حفيظة.. عاد مشيراً بسبابته إشارة الأمر الصارم.. منذ الليلة فصاعداً.. كل منا ينام في غرفة.

-سيف الدين!! شهقت بمزيج من الاستهجان والتوسل.

-لا سيف الدين ولا محيي الدين.. قسماً، لن تجمعنا بعد هذه الليلة غرفة نوم واحدة.. وأحست أم دياب بما يشبه طعنة خنجر في صدرها وهو يصفق الباب خارجاً.. "يا إلهي!! ماذا فعلت؟ ماذا أفعل؟ " راحت تتساءل وهي تلقي بنفسها على سريرها عاصرة رأسها بين راحتيها. لم يعد الفراش قتاداً ولا الحدق جمراً فحسب بل بات القلب نفسه ناراً تشتعل. "قد خسرت زوجك!! ومن أجل من؟ خادمة فلبينية!! حفيظة!! أي خطأ ارتكبت؟ لماذا لم تغضي النظر؟ لماذا لم تتجاهلي الأمر كله؟ هو سيد البيت وهو القيم الحاكم، الآمر الناهي، فكيف تحاسبينه؟ كيف تعرضينه للمهانة؟"

وفي الصباح تجد نفسها تنهض أمة خاضعة، رافعة الراية البيضاء، ترى ميرنا قد فكت رزمها وأعادت ثيابها إلى خزائنها ومضت تعمل في مطبخها كعادتها فلا تنبس ببنت شفة.

العالم يتغير.. بسرعة كبيرة يتحرك وعلى نحو لا تستطيع أم دياب متابعته.. هي ترى بعينها كل شيء يتغير ولا تدري لماذا أو كيف؟ كل شيء

ينحدر، يتردى، دون أن تستطيع إيقافه أو الاحتجاج عليه. الباطل يفرد جناحيه ويطير عالياً، فارشاً ظله ممتداً هنا وهناك وهي ترى وتسمع.. صندوق عجائب غرائب تصير الدنيا وهي لاتملك إلا أن تتفرج.

رغماً عنها تتفرج: فهد ابنها البسيط المسكين يغدو الألعبان البهلوان، في كل يوم له مغامرة، عشرات النساء يتصلن به، يردن ضرب المواعيد معه... ديبو ذلك البليد الأجوف يصبح تاجر سيارات، بل بات يحدث أباه عن مغتربين ومشوهي حرب يستورد سيارات باسمهم ويبيعها ثم يربح مئات الآلاف...

-هو عصر السمسرة، زمن المقاولات والوساطات، قالت لها أميرة بعد أن أبدت الأم استغرابها من صندوق العجائب ذاك، كل شيء يخضع لمنطق الصفقات والمساومات، الربح والخسارة، فلا تستغربي إن كان أخي أو أبي يجمعان المال أكداساً أكداساً....

-لكن كيف؟ من أين تعلما؟ احتجت الأم التي كانت تعرف زوجها وولدها جيداً.

-هما من رجال هذا العصر.. دخلا عالم السمسرة.. ولابد أنهما يملكان صفات السماسرة الناجحين فيه.

-صفات السماسرة؟ وماهي هذه الصفات؟

-عقلية العصابة.. نزعة النهب والسلب.. قطف ثمار مايتعب في إنتاجه الآخرون، إطعام التسعة لأكل العشرة، الآخرون كلهم أعداؤك، وحلال سرقتهم واستغلالهم...

-معقول!؟ أهذه صفات السماسرة؟ أهكذا صار أبوك وأخوك؟ قالت الأم وهي تزفر زفرة الحسرة والحرقة..

-أجل، هكذا، وكل شيء معقول يا أماه!! فهد، دياب، أبي، كلهم يرددون: في عصر السماسرة إما أن تكون سمساراً أولا تكون!؟ ألا ترين كيف بدأ الناس يتغيرون!؟ يسلخون جلودهم ويكتسون جلوداً جديدة، فلماذا لا يكونون مثلهم؟ هذا مايرددونه دائماً؟ أولا تسمعينهم؟

-بلى.. أسمعهم، قالت وهي تزفر من جديد.

-عمي مصباح قال لي أمس: شيئاً فشيئاً تسيطر على الناس نزعة الاستهلاك... ومانزعة الاستهلاك؟ تشييء الإنسان، تحويله إلى مجرد سلعة تباع وتشرى، قيمتها بما تساوي من مال.... أتفهمينني يا أمي؟

-تشيــ...يئ.. ردت الأم متلعثمة متسائلة، سلعة، استهلاك؟ ماهذا الذي تقولينه، أميرة؟

–لست أنا من يقوله. إنه عمي مصباح..

–عمك مصباح نجم عال يا بنتي.. لا يبلغه فهمي..

–للأسف، ذلك النجم العالي بات ينزل.. تصوري.. عمي صار يشكو ويتذمر!؟

–يشكو؟ من أي شيء؟

–من أن التغير نحو الأسوأ والأسوأ، من أن الفساد يستشري.. القيم تتعكس، المفاهيم تتقلب فيصبح الشريف العفيف حماراً والنهاب المحتال شاطراً، من تلك الشعارات المطروحة: "اسرق، انهب، لحق حالك، " "عسكرية دبر رأسك"، "كن منافقاً أولا تكون"..

لكن أميرة اضطرت لإيقاف استرسالها وهي ترى الأم فاغرة الفم لكأنها أمام صندوق دنيا يعرض عليها عجائب غرائب.

أميرة نفسها تشعر وكأنها أمام صندوقٍ دنيا يعرض عليها عجائب غرائب، لكنها آلت على نفسها أن لا تبدي استغراباً.. أن تتعلم بسرعة وتتكيف بسرعة. مذ دخلت الجامعة، آلت على نفسها ألا تظل تلك الفتاة الغرة التي لا تعرف سوى المدرسة والبيت، الطاعة والدرس. الأم تشعر أنها كبرت.. خلال سنة واحدة كبرت سنين، فكيف حدث ذلك؟

منذ اليوم الأول في الجامعة أحست أميرة وكأنها تخرج من تحت الماء، بات باستطاعتها أن تتنفس ملء رئتيها، أن تنعم بالنور، الدفء، رحابة الأمداء... لم يعد هناك تلك البذلة الخاكية بإشاراتها الحمراء والصفراء، وقبعتها المقيتة... هي تلبس ماتشاء، حرة كالنسيم، أبواب الجامعة مفتوحة تدخلها متى شاءت تخرج منها متى شاءت، ليست كتلك الأبواب في ثانويتها السابقة تغلق في ساعة محددة وتفتح في ساعة محددة، عليها حراس كالجلاوذة يسلقونك بسياط نظراتهم ويشوونك بشواظ أسئلتهم... حتى الجدران واطئة لا توحي لك بالأقفاص والسجون...

الجامعة عالم مختلف، الطالب يختار، بملء حريته يختار، يحضر المحاضرات، يغيب، ذاك شأنه، وتلك حريته، فأية متعة هذه الحرية؟ أميرة تلتهم الحرية التهاماً.. تشعر أنها فراشة تطير.. في سماء مشرقة صافية، دون حدود ولا قيود... زميلات.. زملاء.. وكل منهم عالم جديد يمكنها أن تستكشفه... أن تفتح مغاليق أبوابه وتدخل فتعرف مالم تكن تعرفه من قبل.. في المدرسة الثانوية، لم يكن سوى الفتيات... هنا فتيان أيضاً هذا أسمر، ذاك أشقر، بل ثمة الزنجي القادم من غابات أفريقيا... وهي تحادثهم ويحادثونها... إحدى زميلاتها

استنكرت ذلك:

-مالك ومالهم؟ نحن شيء والشبان شيء آخر، دعيهم وشأنهم..

لكن أميرة ردت مبتسمة:

-نحن زملاء.. والزمالة لا تفرق بين شاب وفتاة، فلماذا تفرقين؟ ثم لم تكمل النقاش فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من مناطحة الصخرة، والصخرة هي ذلك الحجاب الذي تضعه الفتاة على وجهها فيشوه حتى رؤيتها... عمها مصباح كان قد نبهها "حذار من المتزمتات المتعصبات فهن محدودات الآفاق شائهات التفكير".. أميرة تسمع مايقوله عمها مصباح وتطبقه "كوني طبيعية، منطقية، عقلانية،.. لا تتحكم بك عقدة نفسية ولا تفكير مشوه"..

"وما التفكير المشوه؟ " سألته أميرة حينذاك وهي ترغب في مزيد من المعرفة. "إنه تفكير الرجل الشرقي المغرق في شرقيته، تفكير الحريم المغرق في حريميته... كلاهما مشوه خاطئ فاحذريه... ".

أكثر ما يسعد أميرة أن تزور عمها في المكتب فتقتنص معه لحظات الفراغ القليلة لتسأله ويجيب، يحدثها وتسمع.. لكن ما أكثر ما كانت تلتقي به في ممرات الجامعة وطرقها، فتمسك بذراعه وتسير معه، يتحادثان ويتحاوران. هو منبع ثرٍ للأفكار الجميلة والآراء الباهرة... تسمعه أميرة ولا تشبع... لكأنه يعزف لها أنغاماً ساحرة..

في كثير من الأحيان تشعر أنه يحل محل أبيها "وكل فتاة بأبيها معجبة" إذن لم لا تكون معجبة به؟ في السراء، في الضراء، في كل ظرف وحال يمكنها أن تلجأ إليه، ألم تفعل ذلك حين بدا أن أباها يعارض دخولها الجامعة؟ ألم يكن رأيه سديداً، حين قال لها: "اتبعي معه سياسة الأمر الواقع، افرضي عليه الأمر فرضاً يقبل ويرضى.. هو أخي وأنا أعرفه". وذلك ما حصل.. جاءت إلى الجامعة حاملة أوراقها دون أن تقول لأبيها أو أخويها.. ثم حصل العم مصباح بطريقته الخاصة على الاستثناء، فأصبحت أميرة طالبة في كلية الصيدلة...

بعد شهرين أو أكثر عرف الأب أن ابنته تذهب إلى الجامعة وتدرس الصيدلة، لكنه كان فرحاً بصفقة رابحة أنجزها، مشغولاً بصفقات واعدة بالربح سيعقدها، فلوى عنقه ومضى حتى دون أن يعلق.

عمها معها، فلماذا تخاف؟ كل يوم تراه.. تزوره في مكتبه، يوصلها بسيارته إلى البيت ولا يضن عليها بنصيحة أو رأي... ذات يوم وجدته مكتئباً حزيناً.

-هه.. مالك عماه؟

-قبل قليل عدت من تشييع الدكتور، رئيسنا وأستاذ القانون الأعتق في

جامعتنا.

-رئيس الجامعة مات؟

-بل اغتيل اغتيالاً.. قتله أولئك المتطرفون الذين قتلوا العميد، جارنا.. أتذكرين؟

-لكن، لماذا؟

-هوذا السؤال.. لماذا يستهدفون الأدمغة في هذا البلد؟ لماذا لا يقتلون إلا نخبة المجتمع علماً وثقافة، فكراً وفهماً؟ قال بانفعال وحزن شديدين، ثم توقف لحظة قبل أن يستأنف، يخيل إلي أن يداً خفية وراء هذا كله.. مؤامرة خطيرة تستهدف إنساننا ومجتمعنا.. تقضي على رجال العلم فيخلو الساح للجهل...

-وهل ينقصنا جهل ياعماه؟

-هذا ما يحزنني.. نحن بالكاد نحبو على طريق العلم.. الجهل يعشش في كل مكان من أرضنا منذ قرون، وإذا مانبغ أحد بيننا أو استطاع أن يشق طريقه في ميادين العلم والمعرفة، كان من واجبنا أن نحميه بمهجنا، أن ندافع عنه بكل غال ورخيص، لا أن نقتله ونغتاله... هذه مؤامرة خطيرة... هذه جناية عظمى...

وحزنت أميرة حزن عمها على رجل العلم الذي اغتيل، مع ذلك حاولت أن تخفف عنه.. ألا يحاول هو أن يخفف عنها؟

ذات مرة رآها تبكي، سألها فعرف السبب.

-في الحياة نظام، وأهم ماعلى الإنسان أن يتعلمه في الحياة هو احترام النظام، قال لها مربتاً كتفها وهما يعبران حديقة الجامعة إلى مكتبه...

-لكنها بضع دقائق.. أيطردني من أجل بضع دقائق؟

-مع ذلك هو تأخر عن الدرس والتأخر يعني الإخلال بالنظام.

في مرة أخرى وجدها تعبر ممر الحديقة نفسه وهي تحمل باقة ورد.. شاردة حالمة.

-أميرة!؟ فاجأها وهو يمسك بها من ذراعها مشيراً إلى الباقة، ماهذا؟

ترددت أميرة قليلاً قبل أن تجيب.. تريد استعادة نفسها من شرودها وفي الوقت نفسه تتساءل أتكذب عليه أم تصدق لكنها قررت للتو: "بل أصارحه بالحقيقة".

-هدية من شاب، قالت له بقدر غير قليل من الحياء اصطبغت له وجنتاها.

-شاب.. قدم.. لك.. باقة ورد؟ قال بين المازح والجاد وهو يخطف منها

باقة الورد ثم يخرج من بين أغصانها بطاقة في غلاف.. فتح الغلاف فإذا بورقة كتب عليها:

سيرى إلى معبودتي الزاهرة
ياباقة الزهر
عاطرة تهدى إلى عاطرة
عطراً إلى عطر
لا الموت أخشاه ولا الآخرة
وساعة الحشر
فساعة مع ظبيتي الساحرة
تغني عن العمر

الله!! الله!! ماهذا؟ الفتى عاشق؟ هتف وقد انتهى من قراءة البطاقة.

لم ترد أميرة، بل كيف ترد وقد تحولت وجنتاها إلى بركتي دم. كان الفتى قد تقرب منها عدة مرات من قبل، وكان قد حاول محادثتها أكثر من مرة، لكنها كانت في كل مرة تزور عنه أو ترد باقتضاب... هي تريد أن تكون طبيعية، وهي مع زملائها جميعاً هكذا، يتحادثون.. يتبادلون الآراء في هذه المادة أو ذاك الدرس فحسب. لم يكن أحد منهم قد حاول مغازلتها، فكلهم يعرف حده ويقف عنده... وحده هذا الطالب كان ينظر إليها نظرة خاصة بل تشعر به أحياناً يلاحقها، في الندوة، في الطريق، في الحديقة... تلك الظهيرة، وهي تخرج من الدرس، متعبة، شاردة، فاجأها باقترابه... ثم فاجأها بباقة الورد يقدمها لها وهو يغمغم... كلمات سريعة لم تفهم منها شيئاً... لعله قال "أرجوك"... اقبلي مني هذه الباقة" لعله قال "لم أجد سوى هذه الباقة هدية أقدمها لك".

-إي... لم تقولي لي.. من الفتى؟ زميلك؟

-لا.. لا.. بل الحقيقة أنا لا أعرفه.. لعله من كلية الآداب.. لعله شاعر...

-بيدك حق.. الأطباء والصيادلة لا يتقنون صنعة الكلام، ثم تبسم وهو يمسك بها من ذراعها اليسرى إلى مكتبه حيث كان عليها أن تقدم تقريراً كاملاً وشرحاً مفصلاً، فالعم مصباح مازال يحمل في أعماقه بقايا الرجل الشرقي الذي تعنيه كثيراً ابنة أخ هي بمثابة ابنته.

-لا.. لا.. لا تخف.. ابنة أخيك في حرز حريز، قالت أخيراً وقد أدركت أنه يسأل للتحقق.

–هكذا أريدك.. دائماً في حرز حريز!!

–لكن ماذا أفعل بمثل هذا الشاب؟

–أشيحي بنظرك عنه.. لا تعيريه اهتماماً..

–لعله صادق العاطفة.. يشعر فعلاً بالحب..

–ليس الآن وقت الحب يابنتي.. الآن وقت الجد.. أنت في أخطر مراحل الحياة، تشقين طريقك، تبنين مستقبلك لبنة لبنة، وحب كهذا لهو وعبث.. فكيف يجتمع الجد واللهو؟ البناء والعبث؟

وكان على أميرة منذ ذلك اليوم أن ترفع جدراناً في وجه كل لاه وعابث. موادها كثيرة وعليها أن تدرس.. الفحص حشرها في زاوية قاتلة، تريد أن تعبره بنجاح.. هي تسهر الليل وتنام النهار، فلا تتاح لها فرصة لمغازلة أو لهو... بل ولا حتى فرصة لمشاركة أمها همومها ومشاكلها.. إنه التغير العجيب الذي يطال كل شيء، سنة للحياة وناموساً للطبيعة...

أختها شاهة خضعت لناموس الطبيعة ذاك، الأم ترى كم تغيرت أيضاً فتغمغم متنهدة "سبحان مغير الأحوال!!" لم تعد شاهة تلك الفتاة خفيفة العقل التي تطيرها نسمة هواء، تقول مايخطر ببالها دون حسبان أو تفكير، ولم تعد تلك الفتاة التي تطلق قهقهاتها عالياً لسبب ودونما سبب، حتى نظراتها إلى الناس لم تعد نظرة الغرّة البسيطة، بل باتت ملأى بالريبة والشك مشبعة بالحذر والتوجس.. حبها للكلام والثرثرة لم يعد كما كان.. باتت شاهة تأتي إلى أمها مثقلة بطيئة الخطا... حين كانت حاملاً كانت الأم تعزو بطئها إلى حملها لكنها وضعت جنينها وكان بنتاً أيضاً، مع ذلك ظلت تمشي بتلك الخطا البطيئة المتثاقلة ولم تعد قهقهاتها تملأ البيت، بل هي دائماً ساهمة، مطرقة، تفكر وفي عينيها رماد جمر انطفأ قبل الأوان.

–مالك شاهة؟ سألتها أمها ذات أمسية صيفية وهما تجلسان على الشرفة.. أنت لا تعجبينني!!! دائماً مطرقة، دائماً مهمومة: مابك يابنتي؟

–مابي؟ ردت وهي تطلق زفرة حرى، بل مالذي ليس بي؟ أنا بائسة يا أماه!! أنا شقية!!

–بائسة!؟ شقية؟ كيف؟ فضفضي لي.. احكي لي..

لكن ماذا تحكي شاهة والهموم كثيرة كثيرة؟

كانت البنت الثانية قد جاءت ضغثاً على إبّالة فلم تعد حماتها وابنة حماتها تخاطبانها إلا "بوجه النحس" و "أم البنات" وكأنما ارتكبت ذنباً عظيماً حين جاءت بابنتين.. ورغم أن البنت الثانية كانت قد ورثت الكثير عن أبيها وأم أبيها

ولم يكن لآل النايفة شعرة واحدة فيها إلا أن ذاك لم يغفر لها... فشاهة لا تلد إلا البنات وهي ستحرم الجدة من وارث لاسم العائلة الكبيرة ذات الحسب والنسب مما جعلها أشد كرهاً ومعاملتها أشد ازدراء.

"رضينا بالبين والبين مارضي بنا"، "مسكينة لاجالست نسوان ولا حشت مصران" كانت تنهال عليها تعليقات الحماة الساخرة وإذا أرادت شاهة الذهاب إلى أهلها هزت حماتها رأسها متبرمة متأففة "جينا على سارة لقيناها دوارة" لكن إن تنسى شاهة فإنها لا تنسى تعليقات حماتها اللئيمة حين كانت حاملاً، إذ ما إن تراها ببطنها المنتفخ و وزنها الثقيل حتى تشيح بوجهها بارمة شفتيها.. "مثل الوز تمشي وتهتز" ولم تكن شاهة تستطيع الرد.. ذات مرة فكرت في الدفاع عن نفسها والوقوف في وجه تلك الطاغية المتعجرفة التي تدعى حماة، فردت عليها الصاع صاعين، لكن ما إن جاء الابن حتى قلب الدنيا على رأسها "أمي، تردين عليها؟ أمي ترفعين صوتك في وجهها؟ " وهات يا ضرب ورفس أدمى لها فمها ورضرض عظامها إلى درجة باتت تعلم معنى تلك الحكمة "إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب"..

ساكتة تسمع التعليقات، صامتة تتلقى التوبيخ، ودونما تردد أو اعتراض تلبي الأوامر وأوامر الحماة كثيرة لكأنما هي لها بالمرصاد: الحماة تستحم كل صباح، وفي الصيف كل عصر أيضاً، وعلى شاهة أن تحضر لها الحمام، تملأ لها الحوض، تأتي لها بالمنشفة والثياب لتدخل أم سمير أميرة يحيط بها الخدم والحشم. الحماة تستقبل صديقاتها كل أربعاء.. وفي يوم "الاستقبال" ذاك تتحول شاهة إلى "إنسان" آلي" "اذهب" "تعال" "خذ" "هات" "هنا" "هناك" ويفعل الإنسان الآلي كل شيء دون تردد ودون أن ينطق بحرف... أليست شاهة ابنة الفلاح الذي كان في الحاكورة؟ ألم تكن هي نفسها تعزق، تعشب، تشتغل طوال النهار في التراب وتحت وهج الشمس؟ إذن لماذا تحتج وهي تعمل الآن في الظل.. عملاً أخف ثقلاً وأقل اجهاداً؟.

حجج الحماة مفحمة، فشاهة لا تنسى العمل في الحاكورة، لاتنسى ملمس التراب الخشن ووسخ الزراعة وطينها... لكن العمل في البيت صعب وخدمة خمسة أنفس عملية شاقة.. البيت الواسع بحاجة كل يوم إلى المسح، فالرخام الأبيض المخطط بالأسود كحمار الوحش لا يرضى بالمسح كل يومين وإلا بطلت لمعته وذهبت رهجته، الأفواه تريد ثلاث وجبات كل يوم وإلا لعلعت الألسن وعلا الصراخ والصياح.. ثم هناك الكي، الغسيل، الجلي... والطفلتان... الطفلتان وحدهما بحاجة إلى خادمة... وفكرت شاهة أن تحاكي أمها وتأتي بخادمة فلبينية...

-لا.. لا.. صاحت أمها محتجة منتفضة كأنما لسعتها عقرب، كل شيء إلا الخادمة،

-لماذا يا أماه؟

-العاقل من اتعظ بغيره يابنتي" ردت الأم وهي تتنهد ملقية نظرة على المطبخ وكأنما تحاذر أن تسمعها خادمتها. أنا أمك أقول لك.. اتعبي جسمك ولا تتعبي نفسك، ابعدي عن الخادمات يا بنتي... وإلا قد تخسرين زوجك كما خسرت أنا أباك.

وأقلعت شاهة عن الفكرة، فقد كانت تعلم قصة الخادمة الفلبينية، وكانت تعلم ماجر ذلك على أمها وقد أقسم أبوها ألا ينام معها في غرفة واحدة... لكن زوجها، سمير بيك الأدهم نفسه، لا ينام معها أحياناً. "ابنتاك تبكيان في الليل"، "صياحهما يزعجني"، "في الصباح تفيقان باكراً" إلى آخر تلك الحجج التي كان سمير يطلع بها لينام في الغرفة الأخرى، وتظل هي طوال الليل تتقلب يمنة ويسرة، لا تدري ما تفعل.. هي تشتغل في البيت، تخدم أمه، أخته، ابنتيه، ولا تشكو أو تتذمر.. لماذا؟ أليس من أجل ذلك الجزاء الذي يقدمه لها آخر الليل؟

زوجها في عز رجولته، الشباب ملء ردفيه، الحيوية في كل خلية من خلاياه، فلماذا يضن عليها بغلال الشباب والحيوية؟. لماذا يخرجها كل يوم، لا جزاء ولا شكوراً؟ أليس من حقها كامرأة، أن تنام مع زوجها، تنعم بدفئه، تستمتع برائحته، تهنأ بدفق رجولته؟ حتى تلك النعمة حرمها إياها سمير... لا، هو لم يحرمها منها تماماً، بل باتت سلاحاً لديه يحاربها به، وسيلة لغاية هي المال. تدفع له ينام معها، تعتذر بهذه الحجة أو تلك يذهب إلى الغرفة الأخرى بهذه الحجة أو تلك ولا يردعه رادع عن أن يقول لأمه وبصوت يحرص كل الحرص أن تسمعه شاهة "لا أريد أن أتصبح بذلك الوجه المكرب" أو "أوف... ما أتعس من يتزوج امرأة قبيحة دميمة ليفيق على قبحها ودمامتها كل صباح". ولم تكن شاهة تملك إلا أن تدفع... تأخذ من أبيها، تشحذ من أخيها، تتمول من أمها، ثم تدفع.. وكان ذلك كله يثقلها بالهموم فلا تفتأ تطرق وتفكر... "من أين آتي له بالمال هذه المرة؟" "كيف سأحصل على المبلغ الذي يطلبه؟ ويزداد الحزن في وجهها والغم في صدرها، ولا تستطيع أن تبوح حتى بالشكوى... في تلك الأمسية الصيفية، أصرت الأم، وهما جالستان في الشرفة، فاضطرت الابنة للبوح بكل ما في قلبها، لإفشاء حتى ذلك السر الزوجي الذي كانت تعتبره خاصاً لايفشى.

-صحيح!! عش رجباً ترى عجباً!! هتفت الأم وهي تضرب كفاً بكف، الرجل لا ينام مع امرأته إلا إذا دفعت له مالاً؟ ذلك كنت أسمعه عن بعض أولئك النساء اللواتي يلجأن إلى هذه الحيلة، لكن أن تكون الآية معكوسة.. أمر

عجيب...

-إنه ابتزاز، صاحت أختها أميرة حين سمعت الخبر... هذا يدعونه ابتزازاً وهو منتهى الدناءة والخسة...

شاهة تعلم أنه دناءة وخسة، لكن ما تراها تفعل؟ تعلم أنه ابتزاز لكن لا يسعها إلا أن ترضى به طالما هي زوجته... أحياناً تتمنى أن تصبح بلا زوج.. مثلما صارت صديقتها سلوى، لكن كيف؟ زوج سلوى قتله المتطرفون غيلة لكن من يقتل سمير بيك الأدهم؟ لا... لا... هي لا تريد له الموت، لكن تريد لنفسها الحرية... سلوى باتت حرة. مذ قتل زوجها، ذلك الضابط المتشدّد القاسي الذي كان يكتم أنفاسها، وجدت نفسها حرة.. صحيح أنها بكت عليه، مزقت ثيابها، لبست السواد، لكن الصحيح أيضاً أنها غدت ملكة نفسها، لا آمر عليها ولا ناهي، فانطلقت تعيش حريتها على أكمل وجه.. هما صديقتان مذ تعرفت إليها شاهة في بيت عمها، أصبحتا صديقتين، تذهب شاهة إليها، تستقبلها، تلتقيان هنا، تلتقيان هناك، فلا تملك إلا أن تحسدها على خلاصها من قيود الزوج وأصفاده، ثقله وأعبائه، تصرح بذلك لأمها ذات يوم فتصدها لائمة:

-لا تقولي هذا يا بنتي... أنت بألف نعمة فلا تكفري بنعمتك، اصبري ولا تبطري..

-أماه!! ماذا تقولين؟ أنا لا أكفر بالنعمة ولا أبطر.. بل أقول لك لم أعد أحتمل.. لم أعد أطيق الصبر..

-لا... لابد لك من الصبر.. هكذا نحن النساء يا بنتي!! عمرنا كله صبر واحتمال.. نحتمل قسوة العيش كي نحصل على لقمة العيش، نصبر على الرجال.. كي لا يضيع منا الرجال..

وتنهدت الأم تنهدة كلها حرقة وحسرة على رجلها الذي ضاع..

كانت أم دياب ترى بأم عينها كيف تزداد الشقة اتساعاً كل يوم بينها وبين الرجل الذي كان قبل حين من الزمن فقط في عبِّ اللحم منها وخاتماً في اصبعها. لقد تغير أبو دياب!! لكن كيف لا يتغير وقد دخل عالم المال من أوسع أبوابه؟

كان الرجل يشق طريقه قدماً في ذلك العالم، وحسب المتوالية الهندسية، التي شرحها له أحدهم ولم يفهمها، كانت أمواله تتكاثر.. هي لم تعد في بيت الشطرنج الثامن أو العاشر بل باتت في الثامن عشر والتاسع عشر.. منطقة الحواكير كلها كانت قد باتت ميداناً لحصانه.. يسرح ويمرح فيه خاصة بعد أن انضم إليهما في المكتب شريك ثالث.

ثالثهم ذاك، وأبو دياب لا يذكر الآية القرآنية التي تتحدث عن ثالثهم، كلبهم، لم يكن فلاحاً ولا طفيلياً دخيلاً على عالم الأعمال والمال.. إنه مدير عام.. مكتبه فخم باذخ فيه من الأرائك، والفرش مايساوي مئات الآلاف.. القلم الذي يوقع به الأوراق من ذهب، منافض السجائر على طاولته من ذهب، سكرتيرات، سكرتيرون، موظفات، موظفون، والكل في خدمته.. بل ثمة مرافقون.. ثلاثة يقفون على أهبة الاستعداد، يفتحون له باب المكتب، يبعدون عنه المتطفلين والمتطفلات، يرافقونه إلى السيارة المرسيدس السوداء، يفتحون له الباب أيضاً، يطمئنون على سلامته ويندفعون اثره في سيارة فاخرة أخرى تنهب الأرض نهباً، فلا يهتم سائقاهما بشرطي مرور ولا يباليان بإشارة حمراء أو صفراء.

تلك القوة، العظمة، الهيبة... كلها تعجب أبا دياب،... بل مذ أخذه شوكة الداهوك إلى مكتب أبي سامي وهو مندهش مذهول.. أية ثقة، أي اعتداد، أي كبرياء، أبو سامي هذا!؟ على الهاتف يرد ساخراً، على الموظفين بين يديه يلقي أوامره ناخراً، يسير بخيلاء.. يداه متباعدتان عن جانبيه وكأن دمامل كبيرة تفصلهما عن إبطيهما... الكل يخشاه وهو لايخشى أحداً.. رجل قوي.. الناس كلهم يعرفون ذلك.. بل يعرفون مصدر قوته فيتحاشونه. يسمعون أوامره فيطيعونها.

"أنا أشارك بنفوذي فقط" قال المدير العام منذ البداية، وبكل وضوح. وهكذا منذ البداية، لم يكن أبو سامي يدفع مالاً بل يسخر نفوذه لمكتب الداهوك– النايفة العقاري، فيستخرج لهم قرارات يتعذر استخراجها، يلغي أوامر من مصلحتهم إلغاؤها، يكشف لهم المستور، يستر لهم المكشوف، يطلعهم على الغيب، يغيب لهم الطالع، وله الثلث، أهو كثير؟ الثلث مقابل كل ذلك النفوذ؟. "سنصبح أكبر المتعهدين في البلد" قال شوكة الداهوك لشريكه وهما يخرجان أول مرة من مكتب شريكهما الثالث "لكن عليه أن يساهم ببعض المال" احتج أبو دياب حينذاك وهو لما يستوعب أبعاد اللعبة بعد.. "لا.. لا تغلط سيفو.. نفوذه هو المال، بل قوته أكبر رأسمال.. حسبنا منه أن يؤمن لنا الحديد والاسمنت بأسعار الدولة وليس بأسعار السوق السوداء.. "وكان شوكة على حق.. سيف الدين النايفة يعترف أن شريكه أبعد نظراً وأكثر فهماً، فالمقاسم الجديدة التي بناها الشركاء الثلاثة لم تكلفهم نصف التكلفة.. يكفي أن يتصل أبو سامي بصديقه المدير العام قائلاً "أعط صاحبنا، شوكة، مائة طن من الحديد "حتى يعطيه، أو ينخر بالمدير الآخر" وقع لصاحبنا سيف الدين النايفة على ألف كيس من الاسمنت "حتى يأتي سيف الدين بالأكياس الألف. شيء رائع أن تكون قوياً واسع النفوذ يخشاك

الناس ويحسبون لك ألف حساب.. سيف الدين بات يدخل المؤسسات، المديريات، الدوائر، واثق الخطا، منتصب القامة، مرفوع الهامة.. ليس كأيام زمان.. هو الآن "مدعوم"، ظهره قوي، يستند إلى حائط من صوان..

من المقاسم الجديدة بدت الأرباح تتضاعف والمال يصب صباً وكأن صنبور ماء فتح إلى أقصى مدى.. "دعنا نفتح رصيداً لنا في المصرف.." أشار عليه الداهوك.. " لكن... لنا رصيد في المصرف!؟ " احتج أبو دياب على اقتراح بدا له سخيفاً غبياً "أقصد رصيداً بالدولار في مصرف أجنبي.." وبدا لأبي دياب أنه هو السخيف الغبي، فقد تبين له أن الشريك الثالث، المدير العام المبجل، لا يضع قرشاً واحداً من أمواله الطائلة في مصارف بلاده.. "ومابلادي هذه؟" كان أبو سامي يتساءل قالباً شفتيه باستهزاء، "ليس فيها أمان.. ومن الغباء أن تضع أموالك في بلاد ليس فيها أمان".

فكرة لم يستوعبها أبو دياب في البداية، لكنه بعد قليل استوعبها.. "الحذر واجب" هكذا يرى شوكة الداهوك "والحيطة ضرورة أساسية، فمن يدري، قد يحصل شيء والمنطقة كلها على كف عفريت؟. ألم يحصل ذلك في بيروت؟ ألم تغد لبنان كلها ساحة للعراك والقتال، الأخ فيها ينهش أخاه والجار جاره؟ دمشق على مرمى حجر فقط من بيروت وإذا حصل ذلك الشيء وجد المرء أمواله في الخارج سليمة لم تمس. وهكذا مضى الشريكان إلى سويسرا يحولان الليرات إلى دولارات ويضعانها في مصرف عالي المبنى، بللوري الواجهة، موفور السلامة والأمان.

أبو سامي واسع النفوذ ليس لدى أصحاب الحل والربط، الأمر والنهي فحسب، بل هو كذلك في كل مكان.. ذات ليلة عقدوا صفقة أدخلت إلى جيوبهم الملايين، دعاهم أبو سامي للاحتفال بالمناسبة، فظن أبو دياب أنه سيأخذهم إلى بيته، بل سر كل السرور أنه سيتعرف أخيراً إلى بيت المدير العام، امرأته وأهله.. لكن سرعان ما اكتشف خطأه... السيارة المرسيدس تشق بهم طريقاً غير طريق بيته ثم تقف أمام مبنى غير مبناه، ولشد مادهش حين وجد نفسه وسط حلقة من الغجر..

الأب يلعب على العود، الأم تدق الطبلة، الأخ يعزف على المزمار، الأخت ترقص وفوزة البدوية مطربة رخيمة الصوت ساحرة الغناء. أمامهم على الطاولة ما تشتهي الأنفس.. مشروبات من كل صنف ولون، مأكولات صنعت في أرقى المطاعم.. من جاء بها؟ أبو دياب لا يدري؟ كيف رتبت الحفلة؟ هو أيضاً لايدري... في البدء ظن أن الفكرة مرتجلة والدعوة بنت الساعة... لكن الخراف المحشوة التي جاءت في منتصف السهرة أكدت له أن لاشيء مرتجل

ولا هو ابن الساعة:

إن سرينا يمهم إيمت نصلهم

اعزاز وعزوا بقلبي نصلهم

جبل لوشال عن قلبي نص الهم

اهتز ومال وتزحزح وداب

غنت فوزة فانتشى أبو سامي، هاتفاً ملء صوته، ضارباً بيده الطاولة، مخرجاً بيده الأخرى المال من جيبه.. أم خمسمائة، ستاً، عشراً، عشرين أم خمسمائة، نثرها أبو سامي على رأس فوزة فتساقط بعضها على الأرض وعلق بعضها الآخر بشعرها الأسود وقد انسدل على كتفيها...

خسارة يا ربيع العمر وليت..... وما عاد ينفع معك اللو والليت

ياريتك قبل ماوليت وليت..... على قلبي وقلب ولفي الأحباب

وانتثرت عشرات أم الخمسمائة من جديد على صدر فوزة ورأسها، يديها ورجليها.

هنيهة من الزمن، أغمض أبو دياب عينيه، ربما نشوة من الطعام والشراب، ربما تعبا من الغناء والألحان، وربما هربا من الدخان الذي كانت الغرفة تنؤ به حتى درجة الاختناق، لكن حين فتحهما لم ير فوزة ولا سميرة.. كان الأب مايزال يدق على العود، لكن ليس دق رقص، وكان الأخ مايزال يعزف على المزمار لكن ليس عزف غناء، بل عزف آه تخرج من صدر مجروح أضناه الوجع والقهر.

أبو سامي ، شوكة الداهوك، كلاهما كانا غائبين أيضاً.. أين ذهبوا جميعاً وفي طرفة عين؟ راح أبو دياب يتساءل سراً، خجلاً من أن يسأل علناً، لكن الأم، التي كانت قد توقفت عن دق الطبلة، أمسكته من يده ثم نهضت به هامسة

–تعال... لا تخجل.. صاحباك لم يخجلا.

القبو واسع الأرجاء خافت الأضواء، كثير الدهاليز والممرات لكأنه متاهة ثورندايك... صاحباه ولاشك في بعض تلك الدهاليز.. أما أم فوزة فقد قادته إلى دهليزها الخاص.. حيث كان فراش عال وثير مضمخ بالمسك والعنبر قد مد على الأرض، فالغجر شأنهم شأن البدو الرحل لا يحبون الأسرة. على الفراش، المرأة الأربعينية تلتهمه التهاماً، لكن أبا دياب يتشنج، وفي داخله شيء من حنق، "لماذا أعطى هذه الكهلة ويستمتع الآخران بالصبيتين؟" كان يتساءل وهو يحس بجلافة لحم المرأة وغلاظة شحمها .

–من أم دياب إلى أم دياب أخرى، قال لشوكة الداهوك وقد عادا إلى مكتبهما في الصباح.

–ومن قال لك أن تتبالد وتجمد!؟ رد عليه شوكة ضاحكاً ثم لكزه مردفاً: في الحركة بركة يا رجل.

–لكنني جديد على هذه الأجواء.. ليس لي فيها خبرة..

– الآن، صار لديك خبرة.

–الظاهر، أبو سامي خبير كبير؟

–هـــ.. هـــ.. ـــه ضحك الداهوك، أبو سامي ملك الغجر.. ملك اللهو والطرب..

–قل لي شوكة.. كيف كانت صاحبتك؟

–سميرة؟ عسل لا ألذ ولا أشهى..

–كيف إذن فوزة؟ سأله سيف الدين.

–قشطة تذوب في الفم، رد شوكة وهو يتلمظ.. في عمر الورود غضة بضة.. أخي.. تريد الحقيقة.؟ المرأة هي الصبية فقط، صغيرة السن فقط.. أما إن كبرت فاشطب عليها..

–صحيح، وأنا البائس بليت بتلك الكهلة جلفة اللحم، غليظة الشحم.. آه!! كم أنا مشتاق لصبية صغيرة، قمر أربعة عشر!!

–وماذا يمنعك؟ لديك من المال ما يجعلك تأخذ كل ليلة صبية صغيرة، قمر أربعة عشر..

–شهريار يعني؟

–ولم لا؟ المال يجعلك خيراً من ألف شهريار!

–صحيح.. لكن القتل صعب علي.. فيكف أكون شهريار آخر يتزوج المرأة في الليل ليقتلها في النهار؟

–تزوج شهرزاد أخرى تلهيك بحكاياتها عن قتلها.. رد شوكة مقهقهاً.

–فكرة والله!! غمغم أبو دياب بعد إطراقة من تفكير.. صحيح.. لم لا أتزوج؟

–تفعل عين الصواب.. عقب الداهوك وفي نيته أن يزلقه أكثر فأكثر فيمتلك ناصيته أكثر فأكثر..

–الليلة إذن..

-ماذا؟ تساءل الداهوك وهو يتظاهر بالمفاجأة والاستغراب..

-أجل.. الليلة.. تذهب معي فنخطبها..

-من؟

-غادة، ابنة الصف العاشر، رد أبو دياب مشيراً إلى بناية مجاورة، وكأنما لمعت الفكرة في رأسه لمعاناً.

-جارتنا، تلك الصبية الغندورة التي تمر بمكتبنا كل يوم؟ تساءل الداهوك بمزيج من الدهشة والاستغراب، وحين هز أبو دياب رأسه هزة الإيجاب، كان قد استوعب الأمر فتابع ضاحكاً: مرحى!! امض قيس!! امض قيس!!

وهكذا، عشية ذلك اليوم، كان الشيخ المأذون يعقد قران أبي دياب، الكهل المليونير على غادة التلميذة الغندورة التي لا يزيد عمرها عن أربعة عشر عاماً والتي تكره المدارس والدرس إلى درجة كانت على استعداد لأن ترمي بنفسها إلى الشيطان شريطة أن يخلصها من ذلك العبء الثقيل، فقد تعلمت في مدرسة الحريم التي تعلمت فيها أمها وخالتها، عمتها وجدتها "أن زوجاً من عود خير من قعود" و "أن اصطياد زوج أخطر مهمة تقع على كاهل الفتاة، وأفضل شيء تفعله الفتاة".

-6-

الجديد يطرد القديم، فتطرد السن الدائمة السن اللبنية، والكبش الفتي الكبش الهرم، والشعرة البيضاء الشعرة السوداء إلى آخر السلسلة التي تجعل الأمر سنة لا يملك لها أحد تغييراً، فكيف يملك ذلك أبو دياب؟

هو يخضع للسنة نفسها فتطرد أسرته الجديدة أسرته القديمة، يحل بيته الجديد محل بيته القديم فلا يذهب إليه إلا ماندر. زوجته الجديدة مغناطيس شديد الجاذبية لا يستطيع الفكاك منه، زهرة تفتحت لتوها وكلها رحيق فلا تملك النحلة إلا أن تغرق بين تويجاتها. هو لايدري كيف لمعت الفكرة في رأسه أول مرة، لكن حين قلبها بعد ذلك كاد لا يصدق "أيعقل هذا؟ غادة تقبل بي زوجاً؟"

كانت الفتاة مغناجاً تضج أنوثة، وعلى الرغم من أنها كانت تلبس الخاكي وتتوجه كل صباح إلى المدرسة، إلا أنها كانت تعرف جيداً كيف تعرض نفسها صبحاً وعشية، فلا تمر به، واقفاً أمام مكتبه أو داخلاً وخارجاً إليه، إلا وتكتسحه موجة عطر، تأسر ناظريه بمشيتها المتراقصة، بثيابها الهفهافة الشفافة التي تنشمر حتى منتصف الفخذين، فيتلمظ في إثرها وهي تتراقص مهرة يهز عطفيها دفء نيسان: القد أهيف، الخصر ضامر، العنق أتلع، الشعر أشقر، العينان مرجتان والشفتان كرزتان فكيف لاتدفع بأبي دياب إلى التلمظ؟ بل كيف لا يفكر بها وهي لا تعدم فرصة للتقرب منه؟ لفتة، ابتسامة، صباح خير، بل طلبت منه ذات مرة نقوداً... وكاد ذات مرة أن يهصرها بين ذارعيه دون أن تقاوم أو تعترض، فكيف لا يخطر بباله أن يجعلها زوجته؟

لقد مل الخادمات و "الفنانات". بات يخشى بائعات الهوى والغجريات، فلم لا يبحث عن برعم جديد لما يتفتح بعد يمنحه المتعة واللذة... ويوفر له الدفء والأمان؟

منذ زمن طويل، كان الرجل قد خرج من مخدع امرأته ولم يعد، ومنذ زمن أطول، كان يكرس لياليه للكاس والطاس، الحفلات والسهرات، ليختمها في سرير هذه المرأة أو تلك، لكنه مل... أو بالأحرى بات يخاف.. مرتين أو ثلاثاً أصابه السيلان "تباً لهن.. فنانات وبائعات هوى!! ترى واحدتهن فتحسب أنها كشعاع الشمس نقاء ونظافة.. تضاجعها فتصاب بالسيلان!؟" مرض قذر هذا المرض.. سائل قيحي يخرج منك فيلوث ثيابك ويسبب لك حرقة وألماً لا

يسمحان لأجفانك بالرقاد. الطبيب حذره "تكرار الإصابة سيصيبك بالزهري المزمن، أو..." "أو ما.. ما.. ذا... يا.. طبيب؟" سأله أبو دياب بخوف أعاد إلى لسانه وشفتيه عيه القديم. "الإيدز" "الـــ...ما..ماذا؟" عاد بعي أكثر يسأل وقد زاد من رعبه سيما الطبيب المتشنجة. "إنه مرض نقص المناعة.. اكتشفه الأطباء من جديد.. منشأه أفريقيا.. ربما من القردة أصلاً ثم انتقل إلى الإنسان. "وكيف انتقل؟" سأل المريض الغبي" "بالعدوى طبعاً وعن طريق الجنس.. لكن تذكر الإصابة به تعني الموت المحتم.. فالطب لا يعرف علاجاً له."

شرح الطبيب بلغة العلم المجرد، فلم يملك أبو دياب إلا أن يهتف مذعوراً "ياستر الله!! شيء مرعب هذا المرض!!" وتمنى في سره أن تكون له زوجة لا يمسها سواه كيلا يصاب بسيلان أو إيدز...

موجة العطر التي كانت تكتسحه في الغدو والرواح ربما جعلته دون أن يدري يفكر بالفتاة الغضة البضّة، هو يعلم شيئاً عن أهلها، عنها هي نفسها، وما يعلمه يكفي لأن يشجعه: أب من الساحل وأم من دمشق جمعتهما الأيام البيضاء حين كان الأب آمراً ناهياً، ثم حط الزمان به وأفلت من يده زمام الأمر والنهي، ولم يبق للأم التي اعتادت البحبوحة والرفاه إلا أن تعيش مع بناتها الثلاث على الفتات وعلى مابقي للماضي الذهبي من ذكريات.

البقال، اللحام، الخضري، كلهم يؤكدون أن أبا غادة يمر في حالات عسر أكثر من حالات اليسر ورغم أن طلبات امرأته كثيرة إلا أنهم يلبونها ديناً، ودائماً هم يلبون، بل كثيراً ما تتراكم الديون حتى ييئسوا من إيفائها، لكن فجأة يأتي أبا غادة المال فيدفع.. كيف؟ من أين؟ لا أحد يعلم.. فقط هم يعلمون أن العائلة متقلبة الحال، بحاجة للمال..

أبو دياب يعلم أن ماله هو كلمة السر.. به يفتح كل باب، يمهد كل طريق ويلج كل فراش فمضى مع شوكة وأبي سامي، لخطبة الفتاة.. "لم لا؟" ردت الأم الدمشقية التي تمسك شؤون زوجها وبيتها بقبضة من حديد "لكن كما تعلم، نريد مايضمن حق ابنتنا ومستقبلها". و "ماالذي يضمنه؟" سأل أبو سامي الذي تبين أنه ذو دالة على الأم والأب معاً... "بيت وسيارة، جواهر وحلي والعصمة بيدها"، ووافق أبو دياب، هو الذي لم يكن معنياً بالعصمة، بيده أم بيدها، وهو الذي يعرف أن لكل شيء ثمناً.. الغجرية في بيت المطربة فوزة لها ثمن، بائعة الهوى التي يطلبها بالهاتف لها ثمن، إذن لماذا لا يدفع ثمن غادة؟.

أبو دياب لم يعد يخشى الدفع.. مسافة من الزمن والغنى باتت تفصله عن الفقر والخوف من الفقر.. مكاتب، عقارات، أراضٍ جديدة للبناء، أرصدة بالدولار في الخارج، أرصدة بالليرة في الداخل، فكيف يخاف الدفع؟

بسخاء دفع الرجل ثمن شقة للعروس الجميلة، وبسخاء أكثر قدم لها مفاتيح سيارة ثم ملأ لها أصابعها وساعديها خواتم وأساور وحين مضى بها إلى اليونان جعلها تسبح في أنهر من عسل وخمر، بيض سمك وأكباد إوز.. وكان سعيداً.. بل أشهراً طويلة امتد به شهر العسل وهو سعيد.. غادة أنثى فذة.. حبتها الطبيعة أعظم المواهب في فنون الغنج والدلال، التحريض والإثارة..

هي ينبوع ثر لاينضب للذة.. مرج دائم الاخضرار للمتعة، فكيف لا ينهل من الينبوع ويشرب؟ كيف لا يسرح في المرج ويمرح؟ همساتها، دفئها، غنجها، كله دوخه منذ الليلة الأولى "لكل جديد لذة" هذا صحيح، لكن جديد غادة يدير الرأس أكواباً من خمر معتقة.. بارعة غادة في ابتكار الأساليب، ماهرة في اختراع الوسائل وتجديدها.. وغرق الرجل في بحر بلا شواطئ، صنعته له زوجته الجديدة.

-فهد، ما أخبار أبيك؟ قل لي هل تراه؟ سألت الأم التي أمضها غياب زوجها الطويل.

-أراه!؟ طبعاً أراه.. كل يومين أو ثلاثة أذهب إليه في المكتب...

-لكنه لم يعد يجيء إلى البيت.. لم يعد ينام هنا، لماذا فهد؟ أهناك حقاً مايشغله عن بيته إلى هذا الحد؟

-ومأدراني أنا؟ اسأليه أنت.. وخرج فهد على عجل دون أن يشفي غل الأم التي حاولت أكثر من مرة أن تعرف كيف يمكن لأب أن يجفو بيته وأولاده هذا الجفاء؟

هي تكره الهاتف.. ربما لم تستطع الاعتياد عليه.. مع ذلك كانت تتصل به من حين إلى حين، تسأل عن حاله، تحاول اعتراض سيره، استعادته إلى بيته، لكن عبثاً فالرجل يعرف كل مرة كيف يردها على عقبيها: "مشغول"، "لا وقت لدي" "غارق حتى شحمة أذني" إلى آخر ماهنالك من أعذار... هي لم تعد تريده شريك فراش، فذلك أمر نسيته منذ زمن، لم تعد تريد حضوره كل يوم، لكنها تريده أن يظل سقف البيت، إذ كيف يظل بيتها بلا سقف؟ ما الذي يقي سكانه قر الشتاء وثلجه، من يمنع عنهم حر الصيف وقيظه؟

في البدء كان انشغال أبي دياب قد جعلها وحيدة، لكنه، وقد هجر البيت، صارت داراً مهجورة موحشة، أرضاً يسكنها القحط والجفاف، متيبسة متشققة تعصف بها الرياح وتسكنها الأشباح.

-أميرة، قولي لي الحقيقة، لماذا لا يأتي أبوك إلى البيت؟ ماالذي يشغله إلى هذا الحد؟ لجأت الأم أخيراً إلى الابنة التي يفترض أنها سر أمها. تنهدت أميرة،

فهي الأخرى كان يمضها غياب أبيها... وكان يقض مضجعها نسيانه لكل شيء... دراستها وحدها كانت تعزيها، لكن ماذا يعزي الأم، تلك التي تنام وحيدة، تأكل وحيدة، تسهر وحيدة وتزفر.. الزفرة تلو الأخرى تطلقها كقطار ينفث دخانه تعباً وإرهاقاً؟

-ماذا أقول لك؟ أبي بات رجل أعمال والأعمال تشغل الإنسان.. ردت بنبرة كل ماتريد منها أن تحمل لأمها بعض الهدوء والسكينة.

-لا، ما من عمل يشغل المرء عن بيته وأهله.. أميرة صارحيني.. أرجوك.. أتعلمين شيئاً وتخفينه عني؟ سألت أخيراً وهي تتعلق بشفتي ابنتها لكن شفتي ابنتها لم تنطقا بحرف، فتابعت، أجل... كلكم تعلمون الحقيقة.. وأنا وحدي زوجة مخدوعة آخر من يعلم...

-ماما، أقسم لك انني لا أعلم شيئاً..

-إذن.. ينبغي أن تعلمي.. اذهبي أميرة.. اسألي أباك.. اعلمي منه... لماذا يقاطع البيت؟ لماذا يتركه بلا سقف؟ لماذا يتركنا كلنا في العراء؟

-ماما، ماهذا الذي تقولين؟ ردت أميرة بمزيج من المزاج والمداعبة، بيتك أحسن بيت، سقفك مزين بالرسوم فما هذا الذي تتوهمين؟ ماالذي تحتاجين إليه وأنت الثرية زوجة رجل الأعمال الكبير؟

-آه!! ليته لم يصر رجل أعمال و لاكبيراً!! ليته لم يعرف الثروة ولا المال!! ليتنا ظللنا كما كنا، نعمل في حاكورتنا ونكتفي بما تغله لنا.. إذن ماكنا قد خسرناه!!

-أنت لم تخسري أحداً.. صدقيني.. أبي لا ينسى بيته.. يغرقك بالمال، لديك أولادك، خادمة، سيارة، وكل ما تشتهي نفسك، فاحمدي ربك واشكريه!؟

-الحمد له والشكر.. لكن ما ينفع المرأة أن تربح الدنيا كلها وتخسر رجلها؟

-آ.. أنت تحبين أبي إذن؟ ضاحكتها أميرة مداعبة وكل أملها أن تخفف من تأزمها.

-أحبه؟ كيف لا وقد أمضيت عمري كله معه وبه ومن أجله؟ أبوك هو حياتي كلها فكيف أعيش بغيره؟ كيف أحيا بعيدة عنه!؟ اسألي عنه يا ابنتي.. ابحثي.. علنا نعرف شيئاً عنه..

انطلقت أميرة تسأل وتبحث.. كان حزن الأم يحفر عميقاً في نفسها، وكانت معاناتها تفتت قلبها.. هي ترى ألمها وشقاءها فلا تملك إلا أن تتألم وتشقى.. صحيح، لو ظلوا فقراء لما عانت أمها كل ماتعانيه.. لو ظلوا في حاكورتهم لما عرفت أمها الوحشة والوحدة، الهجران والإهمال، لكن ماذا بيدها أن تصنع؟

-المرأة... ابحثي دائماً عن المرأة.. وراء كل مشكلة امرأة.. رد العم وقد سألته عن أخيه.

-كيف؟ قل لي.. عادت تسأله وهي أكثر فضولاً ولهفة.

-أنا لاأعرف التفاصيل، لكن ألا يقولون البرد سبب كل علة؟ كذلك المرأة سبب كل علة، رد العم ثم أردف ضاحكاً، هذا مع اعتذاري لك أيتها الفتاة التي ستصبح ذات يوم امرأة..

العم مصباح يختزل العالم كله إلى مبادئ وأحكام، نادراً مايشذ عنها. هي تعرف ذلك وتعجب به.. ربما لهذا السبب، هو دائماً ملاذها، تلجأ إليه كلما استعصى على فهمها أمر، وتحتمي به كلما خشيت من أمر. ذات يوم جاءت تشكو إليه التخلف الذي تراه في كل ماحولها: فظاظة الناس، فوضى العلاقات، غياب النظام والقانون، فرد بمرارة أحست بها تقطر من رأس لسانه: "إيه.. أميرة، تشكين؟ إذن أنت لا تدرين كم نحن غرباء عن هذا العصر!! إنه عصر التكنولوجيا ونحن في عصر الأساطير والخرافات، عصر التجمعات الاقتصادية الكبيرة ونحن في عصر الدويلات الهلامية الصغيرة، عصر حرية الإنسان وكرامته ونحن في عصر القمع البوليسي وامتهان الإنسان، عصر العلم والثقافة ونحن في عصر التخلف والأمية، عصر حقوق الإنسان والديمقراطية ونحن في عصر حقوق الحكام وإذلال الرعية"...

وبهتت أميرة، ذلك فعلاً ما كانت بحاجة إلى معرفته.. البون الشاسع بين مجتمعها و مجتمعات البلدان المتقدمة، لماذا؟ إنه اختلاف المفاهيم، تفاوت الوعي، فارق التطور الحضاري... وعمها مصباح يملك المفتاح لفهم تلك الأشياء كلها.

طوال فترة من الزمن ظلت تشغلها مسألة التفاوت بين البشر، انعدام المساواة، عدم تكافؤ الفرص، "كيف يوجد ولماذا يستمر؟" سألت عمها، فأجابها "أميرة، جان جاك روسو قال ذات يوم: العقد الاجتماعي يؤسس مجتمعاً سياسياً على أساس حلف عاقل بقدر ماهو مهيمن، إذ يمنح للفقير عقبات جديدة وللغني قدرات جديدة، بحيث يكفل التفاوت بين البشر ويثبت ذلك التفاوت".

-الآن، أريد التفاصيل يا عم.. قالت لعمها مصباح أخيراً وهي تعود من شرودها، أمي في حالة فظيعة من الحزن والشقاء... ولابد من أن نمد لها يد العون، إنها تستغيث ولابد من أن نغيثها...

في العالم الحديث الذي خلا من المروءة والنخوة، كثيراً ما يسمع المرء أصوات استغاثة ونخوة، لكنه لا يحرك ساكناً ولا يرف له جفن.. فشعارات

العالم الحديث: "اللهم أسألك نفسي"، "هذا لا يعنيني"، "لا علاقة لي بالأمر" وخلف تلك الشعارات تأسنت المروءة واهترأت النخوة حتى لم يعد لهما وجود.. لكن العم مصباح لا يمت لذلك العالم.. ربما هو من بقايا الفرسان، أصحاب المروءة والنخوة، أولئك الذين كانوا يضحون بالغالي والرخيص من أجل الآخرين، يحملون أرواحهم على أكفهم ويقاتلون. "عوذ الجاني وغوث الطريد" ولأنه كذلك أسرع يسأل عن أخيه سيف الدين، يبحث ويفتش...

بعد أيام، ذهب إلى بيت أخيه، فإن يصارح امرأة أخيه بالحقيقة خير من أن يخفيها، وأن يحاول التخفيف عنها خير من أن يترك الأمر لأميرة فلا تحسن التصرف..

-سيف الدين متزوج امرأة أخرى، قال لامرأة أخيه وفي نيته أن يجعل كل شيء بينهما بساطاً أحمدياً علهما يتوصلان معاً إلى العلاج الصحيح.

-كنت أعلم.. قلبي كان يقول لي ذلك.. ردت المرأة وهي تطرق مغرورقة العينين بالدموع...

-بيدك حق.. لا يشغل الرجل عن المرأة إلا المرأة... وأبو دياب مشغول بامرأة أصغر من بناته سناً... لكن كيف سكت حتى الآن.. وقد صار له منها بنت..؟ سأل مصباح محتجاً

-لا أدري، قلت اصبر عليه... رأيته مع الخادمة وسكت عليه.. هجر غرفة نومي إلى غرفة أخرى وتحملت... بات يغيب الليلة بعد الليلة وصبرت.. كنت أقول لعلها نزوة الثراء ، نشوة الغنى.. تذهب ثم يعود الرجل إلى بيته..

-وها هو ذا تمادى.. ترك الرجل أهله وبيته.. قال مصباح متنهداً زافراً، أم دياب.. المال يفسد لكن كلما ازداد أكثر أفسد أكثر...

-أعلم.. أبا مأمون.. أعلم.. وهذا ما يخيفني.. وهو ما يجعلني أتساءل: إلى أين نحن ماضون؟ ماذا سيحل بنا؟

-الله وحده يعلم، رد مصباح وهو أكثر إحساساً بالهم والعناء. سيف الدين أثرى بسرعة كبيرة، وفي كل يوم يزداد ثراؤه أكثر وأكثر فمن يعلم ماهو فاعل؟ من يعلم أين يصل به ذلك المال؟ يقولون درهم من مال بحاجة إلى قنطار من عقل، فكيف إذا كان هناك قنطار من مال ودرهم من عقل؟ صدقيني أم دياب.. أنا خائف.. خائف مثلك.. فكثير ممن يثرون بمثل هذه السرعة تطق عقولهم.. لا تحتمل ماترى من غنى وثروة فتتطاير كالبخار..

-مع ذلك، يجب أن نفعل شيئاً.. تدخلت أميرة وقد أفزعتها احتمالات المستقبل...

-أجل،.. يجب أن تفعل أنت شيئاً.. تابعت الأم المكلومة وهي تحس بجرحها ينزف غزيراً هناك في الأعماق، أنت أخوه المتعلم، المستنير.. وأنت وحدك من يمكنه أن يكبحه...

-أنا؟ رد مصباح وهو يهز رأسه بكثير من الأسى.

-أجل.. سارعت أميرة لدعم الأم الجريحة.. أنت ياعمي!! أنت وحدك من له عليه دالة!!.

-آه!! قاطعها العم متنهداً من جديد.. ربما كان ذلك أيام زمان، أما اليوم فما أظن أنه بقي لي شيء من تلك الدالة. هو يتجنبني، تمر الأشهر فلا أراه، أتذكرين؟ سأل امرأة أخيه وهو يتنهد من جديد. أيام زمان لا يمر عيد فطر ولا عيد أضحى إلا ونلتقي.. تذهبون إلى بيتي، أجيء إلى بيتكم.. المهم كنا نقضي العيد معاً ولم تكن تمر مناسبة إلا وأراه، لا يقع في ورطة إلا ويلوذ بي، لا تواجهه مشكلة إلا ويبحث عن حلها لدي.. الآن ولى ذلك كله.. لم يعد سيف الدين سيف الدين.. تغير أبوك يا أميرة... مائة وثمانين درجة تغير...

ورغم أن الأم لم تكن تعرف الرياضيات أو تفهم الدرجات والزوايا إلا أنها أدركت تماماً ما يقصد، فهي لا تنسى نظرة زوجها الجديدة إلى أخيه مصباح ولا تعليقاته التي بات يطلقها من حين إلى آخر، "الآن صرت أحسن من مصباح". "على ايش شايف حاله مصباح؟ بمالي أشتري عشرين موظفاً مثله". "راحت أيام مصباح." "المسكين، سيأتي يوم يترجاني فيه أن يشتغل عندي محاسباً" ولم تكن إذ ذاك تسكت عن تعليقاته بل غالباً ماكانت ترد عليه: "لا تغلط بأخيك.. هو الذي كان يقف إلى جانبك.. هو الذي كان يمد يد المساعدة لك"، "مصباح إنسان طيب عظيم وأخ صادق مخلص.. أنسيت؟ مائة مرة كنت تجد نفسك بلا قرش وكان هو يعطيك.. دائماً كان يعطينا.. لم يبخل يوماً علينا ولم يكن يوماً إلا عوناً لنا.." لكن سيف الدين كان يهز رأسه ساخراً من امرأته "أنا أخوه الكبير، ولأني كذلك كنت أرغمه على الدفع.. تظنينه سخاء وكرم أخلاق؟ لا.. لا.. أنا أعرفه.. مصباح لا يعطي السخونة لغيره.. لكن الحمد لله.. أنا لم أعد بحاجة إليه.. بل هو سيكون بحاجة إلي وسوف أرد له الصاع صاعين". رغم ذلك كانت أم دياب تعلم أن زوجها يكن الكثير من الهيبة والاحترام لأخيه المتعلم الراجح العقل.. ولعل ذلك بالذات ما ترك لديها قبساً من أمل في أن يجدي تدخل مصباح نفعاً.

-رغم كل شيء، الوضع كله ما عاد يحتمل.. قالت الأم أخيراً وهي تخرج من شرودها.. يهجر البيت هكذا؟ لا.. أنا امرأته ولي عليه حقوق.. لايريد أن يعطيني حقوقي، ليطلقني..

-لا.. لا.. صاح مصباح محتجاً، لا تدعي لسانك ينطق بهذه الكلمة أبداً.

-صحيح.. أمي... كيف تلفظينها؟ تابعت أميرة احتجاج العم.

-ماذا أفعل إذن، يتزوج امرأة أخرى ويهملني؟ يأخذني لحمة ويرميني عظمة؟ لا.. أنا أيضاً لي كرامتي.. والله لا يقطع بأحد.. الدود في الصخر يطعمه ويسقيه..

-أم دياب.. مهلاً.. مهلاً، قاطعها مصباح وهو يراها على حافة البكاء، هذا البيت لك.. هو من حقك.. فلا تفكري بالخروج منه.. صدقيني.. الرجل يذهب ويجيء.. لكن المرأة إن ذهبت يصعب أن تجيء.. ابقي في بيتك.. حافظي عليه.. كرامتك فيه.. صدقيني...

وكانت أم دياب تصدقه، لكن ماذا تفعل والنار في قلبها تقيد قيداً؟ لم تكن تستطيع أن تتصور سيف الدين، البسيط، الدرويش، العيي، يصبح عنتر زمانه، هكذا وبهذه السرعة، يتخلى عن بيته، امرأته، الماضي كله.. ليعطي نفسه لامرأة جديدة وبيت جديد.. كانت، بحاسة المرأة السادسة، قد أدركت أن هناك نساء في حياته وليس امرأة واحدة فقط.. وكانت تعلم أن الشرع، المفاهيم، التقاليد كلها تبيح للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع دون أن تستطيع المرأة أن تشكو أو تتذمر، لكن أن يعاملها، هي أم دياب، رفيقة عمره التي لم يكن يخرج عن شورها يوماً ولا يشق لها عصا الطاعة لحظة واحدة فأمر لم تكن تتصوره.. إنها كبالعة الموسى إن بلعتها جرحتها وإن أخرجتها جرحتها، وكان ثمة خيار وحيد: أن تبقيها في مكانها ريثما يبحث أبو مأمون عن حل.

عدة مرات اتصل أبو مأمون بمكتب أخيه بحثاً عن ذلك الحل وكل مرة كان يأتي الرد "ليس هنا"، "غير موجود"، "لم يأت اليوم"، إلى أن راوده الشك: "أيتهرب مني؟ أيرفض رؤيتي؟" وقرر أن يذهب بنفسه إلى المكتب. كانت تلك المرة الأولى التي يذهب فيها إلى مكتب أخيه، فذلك النوع من الجفاء الذي قام بين الأخوين كان قد قطع جسور التواصل... ولم يكن باستطاعة مصباح أن يفرض نفسه على أخيه..

-أنا مصباح، أخو سيف الدين... أريد أن أراه.. قال للشريك شوكة الداهوك، وهو يخشى أن يكون المال قد أنساه الماضي أيضاً.

رحب شوكة الداهوك بمصباح ترحيب الصديق الحميم.. أجلسه، قدم له القهوة المرة، تداول معه الأسئلة والأجوبة المألوفة.. بعدئذ قال ضاحكاً:

-إذن أنت لا تدري أنه مسافر!؟

-مسافر؟ لا.. لا.. بالحقيقة.. أنا منذ فترة لم أره..

-هو في إيطاليا.. رد الرجل الداهية وهو يميل على الأخ المستغرب هامساً، وليتك تكون معه... إنه يقضي شهر عسله هناك..

-شهر عسل وامرأته وضعت بنتاً؟ رد مصباح باستغراب أشد من ذي قبل.

-امرأة جديدة!! امرأة ثالثة!! أجاب شوكة مقهقهاً، أخوك فتحت شهيته على النسوان.. قال، هو لايستطيع انتظار امرأة والدة أربعين يوماً.. أنت تعلم.. النفاس وحالة النفاس.. فتزوج من جديد..

ثلاثة أيام ظل مصباح النايفة كالمذهول، يفكر بما سمع و لايصدق، ثلاثة أيام ظلت قهقهات شوكة الداهوك في أذنيه لاتبارحهما، نظراته الساخرة في حدقتيه لا تغيب عنهما "ثلاث نساء!!؟ سيفو يتزوج ثلاثاً، ولماذا؟" كان لا يفتأ يردد في سره وهو يقلب الخبر على هذا الوجه أو ذاك، الكبت!؟ مصباح يعلم أن علة مجتمعه كله هي ذلك الكبت.. مئات السنين والرجل فيه يكبت، يعيش الحرمان إلى أن غدت عقدته المرأة: محور تفكيره الجنس، أليس كل ممنوع مرغوباً؟ الجنس ممنوع، المرأة محجبة معزولة، إذن الرجل لا يرغب إلا بكشف حجابها، باختراق عزلتها كي يشعر بالنصر، وكلما كشف عن نساء أكثر أحس بالنصر أكثر.. لكن سيف الدين لم يكن يوماً بالرجل الذي عاش الحرمان والكبت، أو عذبته الحاجة للمرأة... كان في السابعة عشرة حين زوجه والده.. بل خطب له وهو في الخامسة عشرة.. وكان على خير وئام مع امرأته.. في الأرض، في البيت في الليل، في النهار، في السراء، في الضراء، هما معاً دائماً، فكيف أحس سيف الدين بالحرمان؟ متى عانى من عقدة النقص؟ من أين جاءه الكبت؟ وشرد مصباح إلى ما قرأه في علم النفس عن الموروثات الجمعية.. عن اللاوعي الجمعي الذي كثيراً ماتحدث عنه يونغ... "أتراه كبتاً جمعياً ما يعاني منه سيف الدين؟" تساءل وهو يستعيد في ذهنه حالات أخرى عرفها في حياته.... المثل الشائع يقول "إن غني الرجل أمامه ثلاثة: يتزوج أو يشتري بارودة أو يقتل قتيلاً" ترى هل يعبر ذلك المثل عن نمط سائد في المجتمع؟ مصباح يفكر طويلاً "النمط السائد الآن هو هذا.. أناس يخرجون من القاع، يطفون على السطح.. فتكون المرأة أول مايفكرون به... فقراء يخلعون ثوب الفقر ويلبسون ثوب الغنى فيكون الزواج من جديد هدفهم وغايتهم.. هو يعرف المئات ممن أثروا وكلهم تزوج مرة أو مرتين.. فتح بيوتاً لعشيقات، قصوراً لمحظيات. أحدهم ممن استطاع التستر في حياته، ظهرت عشيقته ساعة وفاته لتقف أمام الجنازة معلنة أنها زوجة الميت وأن لها منه طفلين.. "هي ذي عقدة الكبت التي تكلم عنها فرويد.. تعشش في نفوسنا جميعاً، فإذا ما أتيحت لها الظروف المناسبة، أبت إلا أن تظهر". كيف إذن يلوم أخاه؟ إن كانت علة عامة

وداء شائعاً لدى الجميع كيف يستثني أخاه؟ الوزير الفلاني، المدير العلاني، هذا المسؤول، ذاك المشهور، كلهم فعلوها. إنه النمط السائد في مجتمع الكبت والحرمان..

-هه.. أراك تضحك؟ سألته أميرة وهي تدخل مكتبه فيفاجئها بضحكة يشوبها الكثير من الاصفرار وهز الرأس.

-شر البلية مايضحك، رد وقد وقف يصافحها ثم يجلسها بكثير من الحنان إلى جانبه، تصوري أبوك تزوج امرأة ثانية..

-مـــ... -.. ما.. ذا؟ تلعثمت أميرة وهي لا تصدق ماتسمع، ثم أردفت.. تقصد.. زوجة.. ثالثة!؟ وحين هز رأسه بالإيجاب، لم تستطع منع نفسها من الضحك، بل والقهقهة وهي ترجع بكرسيها إلى الوراء

-ألم أقل لك: شر البلية مايضحك.. عاد يعلق هازاً رأسه يمنة ويسرة.. والأنكى من ذلك أنه يقضي شهر العسل في إيطاليا...

-ياعيني!! شهر العسل الماضي في اليونان.. وهذا في إيطاليا!! الله!! الله!! أبي صار رجلاً عالمياً!!

-هو ذا رأس المال.. عالمي دائماً... مثله مثل الفقر لا وطن له.. قال مصباح ملوحاً برأسه زافراً، ثم تابع شبه هامس وكأنما يكلم نفسه، لكن من يصدق؟ سيفو البسيط الدرويش الذي لايفك الحرف إلا بالكاد ولا يخرج لسانه الكلام إلا بالكاد يطلع منه هذا؟ من يصدق؟ حقاً... الجهل أس كل فساد.

-يعني... كل مانراه من حولنا من فساد سببه الجهل!؟ سألت أميرة وهي تتنهد...

-بالطبع.. الجهل والفساد صنوان متلازمان مثلما الوعي والصلاح صنوان متلازمان.. انظري في كل مكان.. أين تعشش الجريمة؟ في تربة الجهل والأمية والتخلف! أين تكثر حوادث القتل، السرقة، العهر، الاغتصاب؟ حيث حثالة المجتمع، رعاعه البعيدون عن العلم والمعرفة، المحرومون من الوعي والثقافة..

-كم هو خطير إذن هذا الجهل؟ عقبت أميرة وهي شبه شاردة تفكر، في ما سمعته من عم أكره ما يكرهه الجهل وأحب ما يحبه العلم..

-وهل تشكين في ذلك.؟ الناس منذ آلاف السنين اكتشفوا خطورة الجهل والجهلاء.. أتدرين ما قاله علي بن أبي طالب؟

-ماقال؟

-إياك والجاهل فإنه إذا أراد أن ينفعك ضرك.

-ماأبلغها من حكمة!!!

-وعنترة؟ أتدرين ماقاله في العلم؟ سألها العم فأنشدت إليه وقد تحولت كلها إلى آذان صاغية، تصوري عنترة عرف معنى العلم وأهميته فقال ناصحاً:

اعلم بأن العلم أرفع رتبة.... وأحل مكتسب وأسنى مفخر

والعلم ليس بنافع أربابه.... مالم يفد عملاً وحسن تبصر

-عظيم!! رائع!! هتفت أميرة بحماسة ونشوة، فارس مقاتل كعنترة يتحدث هكذا عن العلم!؟

-أترين كم رجعنا إلى الوراء والناس اليوم لا يقيمون وزناً لعلم ولا لمعرفة.. بل للمال.. وللمال فقط؟

-لكنها كارثة!! هتفت أميرة فاغرة الفم.

-أجل كارثة، مجتمعنا مقلوب رأساً على عقب، رأس الهرم في الأسفل وقاعدته في الأعلى، فكيف نصير بشراً، كيف نلحق بركب الحضارة؟ وبدا العم أشد حزناً واكتئاباً مما رأته أميرة في أي يوم، لكن أمها لم تبد كذلك حين نقلا لها الخبر، فقد ضحكت، خلافاً لكل توقع، بل ضحكت حتى كادت تنقلب على قفاها.. أخيراً أفصحت عن سبب ضحكها:

-ضرة الضرة!! يالهناي!! أخذته الأولى مني فجاءت الثانية تأخذه منها!! يالفرحي!! يالسعادتي!! ووجم مصباح هنيهة يفكر "ما أعجب عقل المرأة!! النكاية محور تفكيرها، المكايدة همها الأول... تريد الشر بالأخرى فإذا نزل هان شرها هي... أهو قانون نفي النفي يعمل به عقل المرأة"؟ ولم يجد مصباح الوقت للإجابة، فقد انهالت عليه الزوجة الشامتة بالأسئلة ثم تشعب الحديث حول القصة الجديدة والتغيرات الطارئة.

-إذن كما ترين، قال أخيراً الأمر أخطر مما تصورنا، فهل تريدينني أن أحدثه بعد ذلك؟

-لا.. لا.. الداء مستشرٍ إلى درجة لاينفع معها علاج.. دعه وشأنه ولي الله..

لكن مصباح لم يدعه وشأنه. كان يريد أن يرى بأم عينه عله يصدق. فمضى إليه في مكتبه ولم تمض على عودته من إيطاليا بضعة أيام.. كان مصباح يريد أن يعيد الجسور مع أخيه، أن يصلح ما يمكن إصلاحه وأن يبقى إلى جانبه ما استطاع، فقد أيقن أن بعده عنه لن يؤدي إلا إلى الضرر به.. لكن

لشد ما فوجئ مصباح بالأخ الذي يلبس الجوخ الانكليزي والقميص الفرنسي والحذاء الإيطالي.... "هوذا رجل آخر.. يخيل إلي أنني لا أعرفه" راح يحدث نفسه وهو يستمع لأخيه يحدثه عن روما، مدينة الفن والجمال، عاصمة العالم ذات يوم..

-لكن، ماذا فعلت؟ كيف تتزوج امرأة ثالثة؟ انفجر أخيراً وقد نفد صبره.

-ولم لا؟ ألم يعطني الشرع هذا الحق؟ رد وكأنما يردد عبارة حفظها عن ظهر قلب.

-لا، الشرع يقول "وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" وأنت لم تعدل... تزوجت أول مرة فأهملت بيتك وهجرت امرأتك....

-اسمع، مصباح، قاطعه سيف الدين بنبرة الحزم.. صحيح أنت أخي.. لكن هذه حياتي الخاصة، شؤوني الخاصة وأنا لا أسمح لك بالتدخل في حياتي أو شؤوني الخاصة...

-كيف لا أتدخل.. وأنا أرى الخطأ يستفحل!؟

-ليس هذا من شأنك.. أنا حر... ثم... من ولاك وصياً علي.؟ أم ترى أن الآية مقلوبة.؟ الأخ الصغير يكون وصياً على الكبير.. لا.. مصباح.. الزم حدودك ولا تنس لحظة واحدة أنني أنا أخوك الكبير وأنا من يجب أن تحترمه.. تسمع كلامه وتطيعه..

-سيف الدين...

-لاتقل لي سيف الدين، صاح به مقاطعاً، أخوك الأكبر تناديه باسمه هكذا!؟ حاف!؟ لا.. احترامي واجب عليك ومن باب الاحترام أن تناديني بأبي دياب أم نسيت أصول اللياقة؟

"يا إلهي!! "قال مصباح في سره وهو يفتح عينيه على سعتهما" أحقاً هذا أخي سيفو؟" منذ الصغر كانا معاً، يأكلان، يشربان، بل ينامان في فراش واحد.. أخواهما الآخران ماتا وهما طفلان.... أختهما الوحيدة في كنف أمها، كبرت، عملت، تحجبت، ثم جاءها زوج من الهرمل فذهبت ولم تعد. كانا وحيدين تقريباً.. العلم وحده فرقهما، لكي يرتفع مصباح وينخفض سيف الدين... مصباح يتكلم فيصغي له سيف الدين. مصباح يريد فتنفذ إرادته، هو الرأس المفكر والعقل المدبر وسيف الدين يد تنفذ ورجل تلبي. حالة ألفاها واعتادا عليها، فكيف تلغى حالة وتبطل عادة؟ أهو الانقلاب نفسه الذي حدث للمجتمع كله، حدث لهما؟ هل استيقظت عقدة الدونية أيضاً فجعلت رأس الهرم قاعدته وقاعدته رأسه؟ هاهو ذا سيفو ينتفض ويرد، ومصباح فاغر الفم جاحظ العينين ينظر،

يفكر... لقد قلب المال الموازين.

-ماذا؟ سأله سيف الدين وقد طال انبهاته وسكوته، لجم لسانك؟ لم تعد تعرف الكلام!؟

-بل أعرف الكلام أبا دياب.. نطق مصباح أخيراً وهو يحاول تجاوز دهشته.. أنا جئت إليك لكي أنبهك... أنت تسير في طريق خطر.. شديد الانزلاق...

-لا.. لا.. قاطعه سيف الدين بحدة واضحة، قل إنك جئت تعلمني.. طفلاً غراً لا يعرف شيئاً.. لكن اسمع.. لن أسمح لك بعد اليوم. إن كنت قد استغللت فقري ذات يوم لتملي علي آراءك ونصائحك فاعلم أن ذلك الزمن ولى... أنا الآن أعلمك... بمالي أعلمك أنت وأمثالك.. أشتري شهاداتك... فعلام غرورك وعنجهيتك؟ وعلى من؟ على أخيك الأكبر الذي علمك ورباك؟ صرف على مدارسك وأنفق على جامعتك؟

-أنت علمتني وربيتني؟ صرفت وأنفقت علي؟ رد مصباح وهو أكثر انبهاتاً من ذي قبل...

-من إذن؟ قل من؟

-أبي هو الذي علمني... أبي الذي رباك أنت نفسك، تعب عليك.. زوجك، وجعل منك رجلاً...

-بل أنا الذي علمتك.. الناس كلهم يشهدون على ذلك!! اذهب واسأل.. من تعبي في الأرض تعلمت.. من عرق جبيني أخذت شهاداتك... وأنت لاجزاء ولا شكورا.. أنا صاحب الفضل عليك أنا الذي صنعتك..

-وتقلب الحقائق أبا دياب؟ تطعم نفسك الجوز الفارغ؟ بدأ مصباح التساؤل لكنه فجأة كبح نفسه وهو يرى عدم الجدوى من النقاش. توقف لحظة ثم استأنف مقاطعاً أخاه وقد هم بالكلام، على كل حال.. أنا لا أريد أن أنبش القبور كيلا تخرج الروائح النتنة... بل صدقني أنا ماجئت إليك إلا بناء على طلب امرأتك وابنتك، لكن الآن أنا أعتذر.. افعل ما بدا لك.. وكن على ثقة أنني ماجئت إلا من أجلك. من أجل مصلحتك أنت وبيتك..

مصلحته وبيته هما اللذان دفعا سيفو بعد أيام من التفكير لأن يذهب إلى الزوجة المهجورة المهملة. شائلاً رأسه رافعاً أنفه دخل الرجل البيت الذي لم يدخله منذ أشهر. أم دياب تتفرج على التلفاز، تسليتها الوحيدة في هذا العالم، فجأة أحست برائحة غريبة في الجو.. رائحة الرجل الذي كان ذات يوم رجلها، ترى من خلاله الدنيا وتذوق طعم الحياة، وعلى الرغم من ثقل جرمها هبت ملء

طولها.

-أهلاً وسهلاً.. نورت بيتك، راحت ترحب به ناسية كل شيء، فقد عادت المرأة الشرقية التي لا تتقن إلا السمع والطاعة، الخضوع والخنوع.

بخطا الواثق من نفسه تابع الرجل مشيته إلى غرفة الجلوس، حيث كانت الخادمة الفلبينية تجلس مع سيدتها. رأت أنه لم يعد لها مكان فتراجعت منسحبة إلى مطبخها. بنظرات شزراء راح الرجل يتفحص امرأته من الأعلى إلى الأسفل ومن الأسفل إلى الأعلى راح يتفرس بها.

-ماذا حفيظة خانم؟ صار لك لسان يحكي وفم يشتكي؟ بادرها الرجل وهو ينفخ صدره وأوداجه فارشاً عليها ريشه كديك يهم باعتلاء دجاجته.

-أبا دياب.. ماهذا؟ أنت سيدي وتاج راسي.. كيف أحكي أو أشتكي؟ ردت المرأة بكثير من الذلة وحب الاسترضاء.

-لا أدري كيف.. لكأنه ينقصك شيء.. أنت ملكة.. بيتها قصر سياح نياح.. خدم وحشم.. ذهب وأموال.. آ!؟ قولي ما الذي ينقصك؟

-أعوذ بالله.. خيرك يغمرني، ولا ينقصني شيء.

-إذن.. كيف تشتكين لأخي؟ كيف تطلبين منه أن يذهب إلي، يقرعني ويهددني؟

-أنا طلبت إليه ذلك.؟ معاذ الله أبا دياب.. أنا فقط أردت الاطمئنان عليك.. أشهراً لم أرك فاشتقت إليك... صدقني.. اشتقت إليك.. لم تهن علي العشرة.. ثلاثين سنة ابن عمي... هل نسيت عشرة ثلاثين سنة؟ سألت بنبرة سكبت فيها كل مالديها من رقة وعذوبة.

-أنا لم أنس.. رد بكل ما لديه من جلافة وغلظة، فقط لا أريد من أحد أن يتدخل في حياتي، أتسمعين؟

-أسمع.. أسمع.. لكن قل لي.. صحيح.. أنك..

-نعم، صحيح.. قاطعها وهو يعلم ماتريد قوله.. تزوجت اثنتين.. لديك مانع؟

-لا.. لا.. معاذ الله.. ردت المرأة التي شفي غلها مذ سمعت بزواجه الثاني.. أحست وكأنه هو نفسه أخذ بثأرها فلماذا تغضب بعد ذلك؟.. تزوج ماتشاء ومن تشاء.. فقط لا تترك هذا البيت.. أنت سقفه الذي نستظل به فلا تتركه بلا سقف...

-أنا مشغول، لدي التزامات ولا أستطيع أن أجيء كل يوم..

-كل أسبوع.. كل شهر... فقط ابق معنا... لا تحرمنا من طلتك.. من أنسك..

-لا أحرمك.. لكن لا أريد لأسرارنا أن تخرج من بيتنا.. لاأريد لأحد أن يعرف شيئاً عني..، عنك، عن أولادي.. أتفهمين؟ حتى مصباح لا أريده أن يعرف شيئاً..

-لكنه أخوك..

-أخي.. أبي.. لايهم.. لاأريدكم أن تذهبوا إليه أو يأتي إليكم.. اقطعوا علاقتكم به.. مصباح هذا يكرهني.. يحسدني.. ولا يريد من كلامه معكم ومجيئه إليكم إلا أن يفسد عقولكم.. يخرب بيوتكم..

-معقول يا أبي؟ تدخلت أميرة وهي تدخل على مهل سامعة كل ماقاله، مصباح، عمي، يكرهك؟ يحسدك؟ يريد أن يخرب بيتك؟

-اسمعي يابنت!! أنت بالذات لا أريد أن أسمع صوتك.. قلت لك لا تذهبي إلى الجامعة وذهبت، كذبت وتحايلت، لففت ودرت حتى فعلت مافي رأسك.. لو تزوجت لكنت أرحتنا وارتحت..

-وماذا أزعجك الآن؟ أنا لم أكلفك عشر ماكان سيكلفك زواجي.. ردت أميرة وهي على حذر، بعيدة بعض الشيء عن أبيها، بالعكس، يجب أن تفرح، دخلت الجامعة لكنني نجحت، كل سنة أنجح في صفي وماهي إلا أشهر حتى أتخرج وأصبح صيدلانية قد الدنيا..

-بياعة أدوية!؟ وماذا تعنيني بياعة أدوية؟ لا.. كل ما يعنيني أنك خرجت عن طوعي.. ومن السبب؟ عمك مصباح!!

-عمي مصباح ليس السبب يا..

-بل هو.. أنا أعرفه.. قاطعها الأب زاجراً، لكن من اليوم فصاعداً أمنعه من الدخول إلى هذا البيت، أتفهمين؟ عاد من جديد يخاطب امرأته ثم التفت مرة أخرى إلى ابنته، وأمنعك أنت من الذهاب إلى بيته.. أمنعكم جميعاً من رؤيته..

-أبي.. لا.. أرجوك، تدخل هذه المرة ابنه دياب وقد دخل قبل لحظات إلى الغرفة.

-ترجوني!؟ ماذا يا ولد؟ سأله الأب وقد استغرب ذلك الطلب..

-أرجوك.. لا تقطع العلاقة الآن.. أنا بحاجة إليه..

-بحاجة إليه؟ أية حاجة؟

-نور.. ابنته..

-مالها نور.. ابنته؟

-أريد أن أتزوجها..

لحظات من الزمن خيم الصمت على المكان، لايسمع فيه غير أنفاس تتردد، والكل ينقل ناظريه من واحد إلى الآخر..

-نور.. تريد أن تتزوجها!؟ كرر الأب أخيراً وكأنه الببغاء..

-ولم لا؟ هي من عمري وابنة عمي ومن تراه أحق بها مني؟

-مستحيل!! عقبت الأم بدافع لا تدري كنهه.

-دياب هل جننت؟ هتفت الأخت بالمنعكس الشرطي ذاته أيضاً.

-ولماذا مستحيل؟ رد دياب بامتعاض، لماذا جننت؟ ألست رجلاً؟ ماذا ينقصني؟

-التعليم!! أم نسيت أنك لم تحصل على الشهادة الابتدائية؟ ردت الأخت محتجة.

-لكن... أنا غني.. لدي المال.. هي لديها الشهادات وأنا لدي المال.. إذن.. نحن متساويان.

-صح!! هتف الأب وقد أعجبته الفكرة فجأة.. أنتما لستما متساويين فحسب بل أنت ترجحها.. مالك بشهادات الدنيا كلها... طبيبة مخبر؟ ماذا يعني هذا؟ ماله خير من شهاداتها.. إذن لِمَ لا يتزوجها؟ تساءل وهو ينقل ناظريه بين امرأته وابنته والاستغراب مايزال على وجهيهما..

-لكن فارق التعليم.. لايمكننا أن ننكر فارق التعليم يا أبي، هي دكتورة وهو شبه أمي.. كيف تتزوجه؟

-غبية!! أنت غبية!! رد الأب بامتعاض شديد وزجر كبير، هذا الكلام يصح أيام زمان.. أما اليوم.. في زمن رأس المال، فما قيمة الشهادات؟ ماقيمة العلم؟ ألا ترين المتعلمين يتسكعون في الطرقات بلا عمل؟ المعلمين يبيعون على البسطات؟ أصحاب الشهادات يعملون سواقين بالأجرة؟ ثم من أين ستأتي بالمال لفتح مخبر لها؟ آ؟ قولي لي.. أبوها فروج منتوف لا يملك غير راتبه.. على الأقل دياب سيؤمن لها مخبراً..

-أنت موافق إذن يا أبي؟ هتف دياب فاركاً يديه الواحدة بالأخرى وهو يكاد يطير فرحاً...

-أجل.. فكرة!! فكرة عظيمة!! نكسر بها أنفها وأنف أبيها!!

-لكنها لن توافق.. اعترضت الأم متخوفة من زوجها الذي جاءها عنترقبن

شداد..

-غير مهم.. توافق.. لا توافق.. الرأي ليس رأيها.. ابن عمها يريدها.. إذن ابن عمها يأخذها، بل، من حقه أن ينزلها عن ظهر فرسها..

لم تفهم أميرة مامعنى أن ينزلها عن ظهر فرسها، لكنها لم تستطع أن تستفسر، فقد اقترب منها والدها حتى أصبح وجهه فوق وجهها، وسبابته بين عينيها ثم قال: وعليك أنت أن تمهدي الطريق... أتسمعين؟ عليك أنت أن تقنعي عمك وبيت عمك.. أحباب قلبك..

أحست أميرة بقلبها يرتعش.. وهي تتمتم لنفسها العبارة الأخيرة "أحباب قلبي!؟" مستعيدة الحديث كله، وحيدة في الفراش.. كانت أمها قد شرحت لها المغزى من عبارة أبيها "ينزلها عن ظهر فرسها" قائلة: إن العروس في الماضي كانت تنتقل إلى بيت عريسها راكبة فرساً وكان من حق ابن العم، إن لم يكن راضياً عن الزيجة، أن يعترض طريقها، ينزلها عن ظهر الفرس ليتخذها حليلة له، "آه!! لو يحدث ذلك معي كم سأكون سعيدة!! لو يفعل ذلك مأمون ويأخذني حليلة له، كم سأطير فرحاً"!! راحت تردد لنفسها وهي تقلب ناظريها في ظلمة الغرفة "لكنه لن يفعل.. أنا واثقة أنه لم يفكر بذلك يوماً؟" تمتمت أخيراً وهي تصعد زفرة ثم مضت تستعيد في خيالها صورته.. صورة أحب الرجال وأقربهم إلى قلبها.

كم مرة أرادت أن تبوح له بما تشعر!! كم مرة همت بمصارحته بالحقيقة؟ أميرة لاتدري، لكنها كل مرة كانت تتراجع... مأمون دمث، نبيل، متفهم، تعلق قلبها به منذ الصغر، كانت تذهب إليه وهي صغيرة، وكان يلاعبها ويدلعها.. "أمورتي.. صغيرتي.." هكذا كان يناديها، ورغم أنها كبرت إلا أنه ظل يناديها كذلك.. ظل يداعبها، ويمازحها.. في الثانوية... في الجامعة ظل مأمون ابن العم الحميم والصديق القريب... تسرع إليه في كل ملمة، تسعى إلى رؤيته دائماً، تشتهي صحبته باستمرار.. وكان هو دائماً الملبي المحب الذي يسمع.. لكنه ظل يناديها "صغيرتي.. أمورتي" ألف مرة أرادت أن تقول "أنا كبرت".. "أنا لم أعد صغيرة" "أنا فتاة ناضجة" لكن عبثاً هو لا يسمعها وهي لاتجد الجرأة الكافية للكلام.

ألف مرة سرحت شعرها من أجله.. تكحلت.. بل وضعت أحمر الشفاه ورشت العطر، لكنه كان ينظر إليها نظرته إلى الطفلة الصغيرة التي كانت من قبل.

لجأت ذات مرة إلى نور.. تريدها أن تكون وسيطة.. لا.. ليس بشكل

مباشر.. بل غير مباشر.. لكن نوراً قالت، وبشكل غير مباشر أيضاً، "من المستحيل أن يرى مأمون ابنة عمه إلا أختاً.. مستحيل أن يفكر بها زوجة"

لكن ها هو ذا دياب يفكر بنور زوجة له، وها هو ذا أبوها يكلفها بتمهيد الطريق لتلك الزيجة، فماذا تفعل؟ أتقوم بالمهمة؟ أترفض؟ "أجل.. أجل.. سأقوم بالمهمة.. فمن يدري!؟ "قد تعود العائلتان عائلة واحدة ويعود الأخوان قلباً واحداً" وسرها ذلك الأمل، "لكن علي أن أمهد الطريق لنفسي وأفتح عيني مأمون علي مثلما أمهد الطريق لدياب وأفتح عيني نور عليه.." على ذلك رقدت تلك الليلة والمآذن تضج بأذان الفجر.

لكن ما إن فاقت في الصباح ومضت إلى جامعتها، رأت زملاءها وزميلاتها، غسلت وجهها بأشعة الشمس حتى بدا لها كل ماغزلته في الليل مجرد وهم، لكأن كلام الليل مدهون بزبدة، كما قال الشاعر الشعبي، إذا طلعت عليه الشمس ذاب. "أنا أقنع ابنة عمي، نوراً، بالزواج من دياب؟" راحت تتساءل وهي تقدم رجلاً وتؤخر أخرى على طريق بيت العم... أفكار جديدة، تصورات، حجج كلها باتت تتوارد إلى ذهنها فتثبط همتها، وأحست أميرة أنه كما يضيء الليل الهموم، يضيء النهار العقول فتنجلي عنها ظلمة الليل، وتذيب كل مالحق بها من شوائب وأوشال.

في بيت العم لم يكن ثمة مأمون ولا نور... الأول في مكتبه الهندسي، ربما يلاحق أحد مشاريعه، والثانية في مختبرها الذي تعمل فيه صباح مساء، وشعرت أميرة بأنها تخففت من حملها، إذ لايصح مفاتحة عمها بالأمر قبل أن تسبر غور نور...

مع عمها ميدان الحديث واسع، تصول فيه وتجول... لكن كعادته في السنوات القليلة الأخيرة عمها حزين، يزفر الزفرة تلو الأخرى.

-مابك عمي؟ سألته وهما يشربان شاي العصر كما يفعلون هناك في قصر بكنجهام في لندن.

-مابي؟ رد السؤال بسؤال مماثل وهو يهز رأسه حزناً وحسرة. انظري في كل ماحولك تجدي جواب سؤالك...

عمها يحمل هم الوطن، تشغله مشاكله وبنبرة حزينة يتحدث عنه، كان الوطن يعاني: الانفجارات ازدادت، الاغتيالات تفاقمت: تكون راكباً في حافلة فلا تشعر إلا والأرض تميد من تحتك وقد انفجرت قنبلة هائلة الدوي. يكون الطبيب خارجاً من بيته أو داخلاً إليه فلا يرى إلا رشاشاً أشرع في وجهه وصب وابلاً من الرصاص عليه... كذلك المهندس، الكاتب، الضابط... وكانت

السلطة ترد، طلقة تخرج من مبنى فتتوجه إلى المبنى قاذفات ورشاشات، ولا يترك إلا وقد غدا أثراً بعد عين. تسمع عن عصابة في حي فيحاصر الحي كله، ويساق عشرات الرجال إلى حيث تغيبهم غياهب الظلمات. مع ذلك، لم تعد الحوادث فردية متناثرة هنا وهناك... بل ظهرت تمردات وعصيانات، اشتباكات وصدامات. كان الوطن يثخن بالجراح... وكانت دماؤه تنزف...

البلاد تفقد الأمن، المجتمع مهدد بالفتنة، الحاضر صعب والمستقبل غامض، تلوح في أفقه أشباح سوداء تهدد بالويل والثبور... خارج البلاد الحال أسوأ. هي تصغي وهو يسترسل، يحدثها عن الوطن الكبير المنكوب والأمة العظيمة الممزقة.. في لبنان كانت إسرائيل قد اجتاحت حدوده، خارقة سيادته، محطمة كرامته... وصلت حتى بيروت، حاصرتها، أخرجت منها الفدائيين، ألقت بهم في البحر ثم عاد آرئيل شارون وهو ينفش ريشه كالطاوس. على شاطئ الخليج كانت تدور حرب ضروس، وقد أرادت أمريكا أن تضرب إيران بالعراق، والعراق بإيران، تضعفهما كلتيهما وتخلص منهما كلتيهما... كانت إيران تريد أن تصدر ثورتها إلى كل ماحولها من بلدان، وكان الإمام قد صرح بنبرته الحازمة المميزة "نريد العراق جمهورية إسلامية تابعة لنا"، فجن جنون بغداد هي التي تحلم أحلاماً أخرى: توحد الأقطار العربية، تصنع وطناً قوياً لا يستطيع خوض القادسية فحسب بل مواجهة الأمريكان أيضاً. كان قد مضى على تلك الحرب سنوات لكن دون أن يفكر أحد بإخماد نارها. مصلحتهم في استمرارها، مصلحة إسرائيل في استغلالها فتضرب المفاعل النووي في رحم بغداد.

في السودان حرب أيضاً، يريدون من ورائها أن يفصلوا شماله عن جنوبه، في المغرب الأخوة يقتتلون من أجل صحراء واسعة شاسعة تكفي الملايين.

–لكن أليس هناك قبس من ضوء في هذه الظلمة الحالكة؟ سألت أميرة وهي تعرف وجعه، حاملة إلى شفتيها فنجان الشاي، متفرسة في وجهه، ذاك الذي ترتسم على سيماه أحزان الدنيا كلها.

–بلى.. هناك.. أم نسيت رد شعبنا في مصر على خيانة السادات؟.. أليس القصاص الذي نزل به بشير خير وبصيص أمل؟ رفض شعبنا هناك التطبيع مع العدو، أليس دافعاً للتفاؤل؟ صمود جنودنا العرب على الخليج في وجه الآلاف المؤلفة من أناس شحنوا تعصباً وحقداً، أليس دليلاً على قدرة أمتنا على الصمود والبقاء؟ وحين ودعت أميرة عمها كانت فرحة بذلك القبس من ضوء، وبذلك التردد الذي منعها من أن تفاتحه بأمر نور..

ترددها ذلك زاد منه موقف شاهة، فقد فاجأتها وهي تنحو عليها باللائمة:

–معقول أميرة؟ معقول تسعين لزواج ديبو من نور؟

–هم يريدون ذلك.. تمتمت بشيء من خجل وهي تشير إلى أهل البيت.

–لكن هذا حرام، زواج لا يقوم على التكافؤ كيف تفكرين به، أنت المثقفة المتعلمة؟

وبدا لأميرة أن شاهة قد جنت كل الفائدة من زواجها غير المتكافئ. معاناتها مع زوجها، مقاساتها مع أمه وأخته، جعلتاها أكثر حكمة وفهماً... هاهي ذي تجادل مصرة على أن يكون طرفا الزواج متكافئين، غنى وفقراً، مكانة اجتماعية ومنبتاً، علماً وثقافة، سناً ونضجاً، بل ذكاء وفهماً كي يستطيعا التفاهم وينجح الزواج. لفت نظر أميرة ذلك التطور الواضح الذي حدث لأختها، لكن مالفت نظرها أكثر، تخلصها من خجلها وحيائها، اكتسابها جرأة لم تكن تملكها من قبل، جرأة تجعلها تناقش. لكن ديبو كان أكثر جرأة وإصراراً.. "يجب أن أتزوج من نور. لماذا؟ ألم تفاتحيهم بالأمر؟ ألم تقولي لعمك؟" كان كلما التقى بها يسألها على ذلك النحو وكأنما لا تعنيه نور أو رأي نور.

مرات عدة ذهبت إلى بيت عمها وكل مرة كانت تجد هذه الحجة أو تلك كيلا تطرح السؤال... التقت بنور، تحدثت مع مأمون، جلست مع الأم، لكن كل مرة كانت جرأتها تخونها وترددها يغلبها، هي تشعر بالخزي بشكل من الأشكال.. تسعى من أجل شيء هي نفسها غير مقتنعة به.. بل حتى شاهة غير مقتنعة: ديبو ونور غير متكافئين إذن كيف يتزوجان؟ جبال ووهاد تفصل بين عقله وعقلها، فهمه وفهمها فكيف إذن يتفاهمان؟

وتحس أميرة من حين إلى حين بوخز الضمير "أنت أنانية، تنظرين إلى الأمر من مصلحتك الخاصة، تريدين مأمون زوجاً فتبررين لديبو أن يتزوج من نور"، لكن كان لابد لها من تنفيذ المهمة، فالأب والأخ يضغطان بإصرار.

–عمي مارأيك بزواج الأقارب؟ سألت عمها أخيراً وهي تريد لسؤالها أن يكون مدخلاً.

–هي ذي مشكلة المشاكل، عقدة العقد...

–كيف؟ ماذا تقصد؟

–علماء الوراثة يقولون: المورثات تنقل أسوأ صفات الزوجين إلى نسلهما إذا كانا قريبين، فيتردى النسل وينحط، وإذا ما تكررت العملية جيلاً بعد جيل، انحط النسل أكثر، إلى درجة يمكن أن يولد معها نسبة كبيرة من أفراد العائلة مجانين أو متخلفين عقلياً.. ألا تذكرين بيت السروجي؟

–أجل.. أذكرهم.. ردت أميرة وهي تستعيد في ذهنها أكثر من صورة لابن

مجنون أو بنت بلهاء من تلك العائلة التي لايتزوج أبناء العم فيها إلا من بنات عمهم.

-وهذا السبب، في تردي حال أمتنا نفسها على ماأظن.

-أمتنا نفسها؟ كررت أميرة بكثير من الاستغراب، لكن كيف؟ لماذا؟

-إنه زواج الأقارب، انتشر فيها انتشار الوباء، أبناء العم لبنات العم، وبنات العم لأبناء العم.

-صحيح.. فعلاً.. عادت أميرة تكرر وكأنها تتنبه لأول مرة لتلك المسألة..

-هكذا ساءت صفات النسل وهكذا تردت الأمة جيلاً بعد جيل إلى أن وصلنا إلى هذا الدرك الذي فقدنا فيه القدرةعلى رفع رؤوسنا، استمرأنا الذل والخمول، حتى بتنا آخر أمة أخرجت للناس.

ذلك الحديث كان الشعرة التي قصمت ظهر البعير فآلت أميرة على نفسها، والحسرة في قلبها، أن لاتكمل المهمة.

-إن كنت تريد الزواج بنور اذهب فاطلبها بنفسك، أودع أباك نفسه يطلبها.
لم يفهم دياب سبب انفعالها وغضبها ذلك، فقلب شفته وذهب إلى أبيه.

لكن الأب غائب، هو في المزرعة والمزرعة في الغوطة، الآذن لا يعرف المكان ولم يطلب إليه أحد ذلك. ثمة أسرة كاملة تقوم على خدمة "المعلمين" الذين يتعبون من أعمال التجارة و "البيزنس" فيذهبون إلى أحضان الطبيعة يستجمون ويسترخون.

في المزرعة مسبح بارد في الصيف دافئ في الشتاء، فيلا على الطراز الارستقراطي: ساحة واسعة من الرخام والمرمر في الطابق السفلي، تناثرت فيها الأرائك والوسائد، المقاعد والمفارش، بار مليء بكل ماتشتهي النفس، "شمينيه" يوقد فيه حطب الصنوبر، فينتشر عبق ولا أمتع. وفي الطابق العلوي مخادع للنوم عريضة الأسرة، رومانسية الأجواء...

شوكة الداهوك عبقري، أفكاره فذة، مع ذلك لم يستطع إقناع أبي دياب بشراء المزرعة إلا بشق النفس. لكن ما إن اشتراها حتى وجد أبو دياب أنها فردوس حقيقي على الأرض كذاك الذي كان يحلم به في الآخرة، حين يلقى وجه ربه حاملاً كتابه بيمينه، فيرى سبحانه أن عبده الحقير الفقير لله لم يرتكب معصية ولم يأت إثماً فيأخذه إلى جنته. لكن أبا دياب ينظر إلى مزرعته- الفردوس- ويضحك.. بات بإمكان الإنسان أن يصنع فردوسه على الأرض.. عسل ولبن، خمر وويسكي، سمك وكافيار.. ثم هناك الحور.. الغلمان المخلدون.. لا...لا... أبو دياب لا يحب الغلمان.. حسبه النساء.. شقراوات،

بيضاوات، سمراوات.. كلهن يعجبنه.. فيأتي بهن إلى المزرعة، فرادى وجماعات.. أجل.. حسن كثيراً أن تكون بين سرب كامل من الحوريات.. ديكاً بين دجاجات.. إحساس الديك يملأ نفسه... هن يتعرين له.. يحطن به.. يدللنه.. هارون الرشيد بين جواريه.. هذه تمسد له عنقه، تلك تدلك ظهره، هاتيك على فخذيه، تلك على ساقيه، وينتشي الرجل واللحم يصطك باللحم، والراحتان تتلمسان الأفخاذ والنهود، والعين تغرق في مفاتن الأجساد وقد رفض بعضها أن يبقي ستراً فخرج عارياً متوهجاً توهج النار.

دهاء الداهوك جعل شريكه يفتح عينيه استغراباً من جديد وهو يكتشف أن المزرعة لغاية أخرى... شبكة صيد يلقيها على أصحاب الشأن وكلهم يتوق للفردوس والحور..

ذلك المساء كانوا خمسة: الشركاء الثلاثة ورأس كبير في المحافظة إضافة إلى صاحب نجوع كثيرة، أملاك وأطيان. كانوا قد أكلوا مالذ وطاب وشربوا مالذ وطاب واستمتعوا من النساء بمالذ وطاب، ثم جلسوا يحمدون ربهم على ماقدم لهم من نعم لم يعرفها أب لهم أوجد...

–هه.. مارأيكم بفكرة النادي؟ بدأ شوكة الذي كان قد أمسك بزمام المبادرة من قبل وكلمهم على انفراد... صدقوني.. مشروع ناجح جداً، يسد ثغرة هامة في البلد هي الخالية من أمثاله..

–صحيح، تدخل الرأس الكبير في المحافظة، أنا أعرف ناساً يذهبون إلى مونتي كارلو ليلعبوا هناك..

–وأنا أعرف ناساً يذهبون إلى باريس وروما من أجل امرأة شقراء، قال صاحب النجوع الكثيرة..

–حسن.. نادينا سوف يوفر كل مايتمنى ناس كهؤلاء، كل ماتشتهي أنفسهم.. عاد شوكة يشرح بحماس.. خمر، نساء، فن، رقص، ساونا، سكواتش، بلياردو، تنس، خيل، قمار..

–لكن هذا مشروع كبير وأنا لا أملك مالاً.. احتج صاحب النجوع الكثيرة بقدر غير ضئيل من الخبث.

–لاتملك مالاً يارجل!؟ اعترض الرأس الكبير في المحافظة محتجاً غامزاً، وأموالك في مصارف سويسرا وفرنسا؟

–لا.. لا.. نحن لا نريد منكما مالاً.. تدخل شوكة قاطعاً الطريق على الأخذ والرد ثم مخاطباً الرأس الكبير. منك، نريد الأرض، تستملكها بثمن بخس أو بلا ثمن، كما تعلم، ثم تقدمها للمشروع، بعدئذ التفت إلى صاحب النجوع

الكثيرة، ومنك ادخال المواد التي نحتاجها من الخارج، قال وهو يشير إلى جهة الغرب، وبعض اليد العاملة ترسلها لنا.. حسب.. معرفتك.. ختم كلامه غامزاً مبتسماً..

-أنا موافق، قال صاحب النجوع الكثيرة، طلباتكم مستجابة...

-وأنا أيضاً موافق.. عقب الرأس الكبير في المحافظة، والأرض تحت يدي.. رابية بعيدة قليلاً عن المدينة مطلة على بردى، فسيحة الذروة، يمكننا أن نصنع منها أحسن ناد...

-عال.. إذن نسميه نادي الذروة.. اقترح شوكة في الحال ووافق الآخرون. بعدئذ حددت الغايات والأهداف.

-لايدخل النادي سوى علية القوم من أثرياء وأصحاب نعم، ذوي شأن ورجالات أعمال، مغتربين وسياح، أسعاره تضاهي نوادي باريس ولوس أنجلوس.. فمالنا وللفقراء المعوزين؟ ختم أبو سامي الكلام في الغايات والأهداف ووافق الآخرون أيضاً، وكلهم منشرح سعيد، أبو دياب منشرح سعيد هو الآخر.. استمع للنقاش وهو منشرح وأدلى بدلوه مرتين وهو سعيد، ثم مد يده إلى الأيدي الأخرى يشد عليها ويبارك إتمام الصفقة والأرض لاتسعه، فها هو ذات يقف جنباً إلى جنب مع كبار ذوي الشأن ورجال الأعمال.. رجلاً لا يضاهيه في الأهمية أحد.

هم واحد كان يشغل باله وهو في طريقه إلى بيت الزوجة الجديدة "أعمالي تتسع ومشاريعي تزداد ولا يمكن للمرء أن يتقطع ألف قطعة.. لابد لي من أعوان يساعدونني، فعلى من أعتمد؟"

وعلى حين غرة وجد نفسه يفتل مقود السيارة باتجاه مغاير... "فهد.. دياب.. علي أن أعتمد عليهما.. صحيح يد واحد لا تصفق". وقبل أن يصل إلى بيت الأولاد، كان قد صمم على ادخال فهد في لعبة النادي الجديد، فهد الأكثر ذكاء وتفتحاً، الأكثر ولعاً بأجواء النوادي والنساء.

-صحيح!؟ إذن، أنا طوع بنانك.. فقط مرني، هتف فهد وهو يسمع الخبر الجديد، ثم شرع يسأل أباه عن هذا الجانب أو ذاك وهو يرغب في أن يعرف كل ما يستطيع عن مشروع رائع هو حلم العمر "أرى فنانات من أرقى بلدان أوروبا!! ياالله!! إذن سأسبح في بحر من المتع واللذائذ!!"

واتخذ القرار بتفرغ فهد للنادي، لكن دياب كان يفكر بالتفرغ لشيء آخر.

-أبي، بادره دياب في الحال، أميرة لا يعتمد عليها.. حتى الآن لم تقم بالمهمة التي كلفتها بها.. مارأيك أن نذهب أنا وأنت إلى عمي نطلب منه يد

نور..

-لا.. لا.. أنا رجل أعمال كثير الأشغال ولا فراغ لدي لمثل هذه التفاهات، أميرة، قال مخاطباً ابنته في الطرف الآخر من الغرفة، عليك أن تنفذي المهمة..

-بصراحة، ردت أميرة بشيء من تلعثم، حاولت لكنني لم أستطع.

-لم تستطيعي!؟ رد بامتعاض ثم توجه إلى ابنه، إذن تولّ المسألة بنفسك..

-اسمع مني أبا دياب.. تدخلت الأم هذه المرة، البنات كثيرات.. يمكننا أن نخطب له أحسنهن، فلماذا نور بالذات؟

-يجب أن أكسر رأسها، رد دياب وملء صوته الحقد وحب الانتقام...

-ورأس أبيها أيضاً، تابع الأب بالنبرة نفسها وحب الانتقام ذاته.. فيعلم أنني بمالي الآن أشتري نساء، رجالاً، شهادات، أشتري كل ماأريد..

أميرة لم ترد على أبيها ولم تناقشه، هي تعلم أن هناك الكثير من الناس لا يشترون بمال، ونور على رأسهم، لكن ما الفائدة من قول ذلك؟ ماالفائدة من مناقشة دياب وهي تعلم أنه كتلة حقد وحب انتقام؟ يمكنك أن تأخذ وتعطي مع العقل، تقنعه أو يقنعك، لكن كيف لك أن تقنع رأساً كله ضغينة وحقد؟

ذهبت أميرة مع أخيها وهي مصممة أن تكون صماء بكماء.. القضية قضيته فلماذا تحشر نفسها فيها؟ يريد أن يأكل الكستناء، إذن ليخرجها بيده من النار.

-ماذا تقول؟

-لا.. لا.. مستحيل..

-بالتأكيد أنت جننت، راحت التعليقات تتناثر رداً على الاقتراح الذي تقدم به ديبو آملاً بإخراج الكستناء من النار.

كانت الأسرة كلها قد اجتمعت استغراباً لزيارة الرجل الذي نادراً مايزور بيت عمه، وتوجساً من شر قد تجره تلك الزيارة.. لكن العم تدخل للتو وفي نيته أن لايترك لديبو مجالاً للرد على تعليقات أفراد الأسرة.

-عمي دياب، أنت شاب وفي عز شبابك، لديك المال والثروة وبإمكانك أن تتزوج أية فتاة في دمشق.. أنت تعلم.. هنا لايسألونك إلا عن المال.. لا يهمهم غير المال.. فلماذا لا تذهب إلى فتاة من هذا النوع..؟

-أنا لا أريد زواج مال.. أنا أريد ابنة عمي..

-لكنك تعلم أنني ضد زواج الأقارب.. رد العم بسرعة، هذا مبدأ لدي.. وطالما تحدثت به.. إليك.. إلى أمك.. إلى أختك.. أليس كذلك أميرة؟

-أجل.. عمي.. ردت أميرة هازة رأسها رغم أنها كانت قد قررت من قبل

ألا تشارك في نقاش.

-لكن هذا هراء.. الناس كلهم يأخذون بنات عمهم، فلماذا نحن لا؟ لماذا هذه النظريات الجديدة والفلسفات الغربية؟

-فلسفات غريبة!؟ صاح مأمون، وقد احمر وجهه قليلاً، احفظ كلامك ديبو، لا تنس أن هذا عمك..

بعدئذ تطور الأمر بسرعة لم تستطع أميرة اللحاق به، فقد احتدم النقاش، ليس بين العم وابن أخيه، بل بين ديبو ونور التي وثبت للدفاع عن نفسها، كارهة أن يدافع عنها أحد.. ردوداً قاسية ردت وتعليقات ملأى بالازدراء علقت على رجل أمي جاهل، الأمي الجاهل مؤمن أنه يدافع عن حقه، يصر عليه في وجهها مهدداً إياها بالضرب، بإلزامها بالزواج قسراً، مأمون يثور للدفاع عن أخته التي ينتخي بها مثلما كان يفعل أجداده من قبل.

ثم كلمة من هنا وكلمة من هناك فلم تر أميرة إلا وابنا العم يتشابكان، مأمون يصفع ديبو وديبو يصفع مأمون، لكن مأمون الأقوى فيصرعه أرضاً ثم يوشك الأمر أن يتطور لولا تدخل العم.

كسيفة كسيرة خرجت أميرة من البيت، وهي ترى أحلامها مرآة تلقت حجراً، كانت اللحمة التي أرادت شدها بين الرجلين، الأسرتين قد تقطعت، والشقة التي أرادت تضييقها قد اتسعت، حاولت تهدئة ديبو، لكن ديبو ثور هائج، يقسم أغلظ الأيمان أن يلقن أولئك المتكبرين المغرورين درساً لن ينسوه أبد الدهر.

ولكي يلقنهم ذلك الدرس، مضى الثور الهائج إلى أقبية وأصحاب. في المساء، حين عاد مأمون إلى بيته، كانت عصابة من ثلاثة رجال تنتظره في العتمة ثم لم تتركه إلا وقد تكوم على إسفلت الشارع ممزق الثياب، محطم العظام، مثخناً بالجراح. حينذاك، أسرع ديبو إلى أبيه يروي له القصة.

-حسناً فعلت!! الجوز لايؤكل إلا إذا كسرته..

-وقد كسرته، لكنني خائف يا أبي.

-لا تخف.. نحن الآن أغنياء، أقوياء، واسعو النفوذ، فماذا يفعلون؟

-لا أدري.. لكن دعنا نحتط للأمر، قال ديبو وفي نيته أن يضرب عصفورين بحجر واحد.. لا تنس.. عمي أيضاً قوي وله علاقات...

-ماذا تقول ياولد؟ ماذا يمكن لعمك أن يفعل وورائي أنا أصحاب الشأن كلهم!!

-مع ذلك الحذر واجب يا أبي!! أنا أخشى السجن، وإن سجنت ساعة واحدة سيشمتون بنا!!

-بيدك حق.. رد الأب وقد عاد إليه العي قليلاً.. لكن ماذا تقترح؟

-هناك صفقة سيارات في ألمانيا.. كان شريكي سيذهب لإبرامها.. مارأيك أن أذهب أنا بدلاً منه؟

-فكرة!! أجل.. سافر غداً في أول طائرة..

-بل لدي حل أفضل، رد الولد مبتسماً بسمة الظفر، هامساً في أذن أبيه شيئاً..

وهكذا، حين جاءت دورية الشرطة تفتش عن دياب النايفة بتهمة الاعتداء على ابن عمه مأمون، كان الرجل قد غادر البلاد كلها قبل ساعات.

- 7 -

عروساً مجلوة ليلة عرسها كان نادي الذروة. من برج السور المرتفع نظر إليه سيف الدين النايفة فأحس بقلبه يرفرف كأنما يريد أن يطير... من كان يصدق أنه سيخرج بهذه الروعة؟ سيظهر بهذا الجمال؟ صحيح أن المهندسين كانوا قد رسموا مخططات، صنعوا ماكيتات، نماذج مصغرة لهذا النادي، لكن أبداً ما كان سيخطر لأبي دياب أنه سيكون هكذا.

"حقاً، الواقع يتجاوز الخيال" فكر أبو دياب وهو مازال يمسح بناظريه الرابية المشعشعة متنقلاً مع الخط الدائري للأنوار الكهربائية التي تبهر العين، صانعة من الرابية كلها هالة من نور..

مذ طرحت فكرة المشروع، كان يحلم بهذه اللحظة، لحظة التدشين. "عباقرة أولئك المهندسون، كيف كانوا يرون بأم أعينهم كل شيء مسبقاً؟ " الحدائق، الأشجار، الممرات، البرك، النوافير، كلها منسقة كأنها بمسطرة، تنسيقها يذكره بحدائق فرساي، تلك التي بهرته حين رآها أول مرة، مثلما هو منبهر الآن..

مروج خضراء، ممرات مرصوفة بالحجارة الملونة، أقواس من عرائش ومعشقات، بل حتى الأغراس تبدو كبيرة وكأنها ولدت أشجاراً. هو لا يدري ماذا يسمونه ذلك الشجر الذي يكبر بسرعة، لكنه يدري أنهم جاؤوا به من أوروبا.. زرعوا الغراس يوم بدؤوا العمران، ثم كبرت الغراس والمباني معاً، حتى اكتملت الليلة معاً، وها هي ذي الأشجار في كل مكان، متدلية متشابكة كأن عمرها عشر سنين.. إن ينسَ أبو دياب، لا ينسى أبداً كيف ذهل حين سمع من منفذ المشروع الرقم الذي قدروا به الكلفة: ثلاثمائة وخمسة وثلاثين مليوناً!!" ولم يملك إلا أن يردد وراءه الرقم كالبِبغاء، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما. لكن نظرة شوكة الداهوك المعنفة وحركة يده المقرِّعة أعادتا عينيه إلى محجريهما، فأصغى لشريكه باستسلام وهو يقول للمتعهد المنفذ"حسن ابدأ وعلى بركة الله." وفي الحال تم توقيع العقد" لكن، من أين نأتي بمبلغ كهذا أبا عمرو؟" سألٍ أبو دياب وقد ذهب المنفذ والشركاء ليسيرا وحيدين في الطريق.." من دهنه سقّ له".. ماذا؟ "سأل أبو دياب من جديد وهو أكثر دهشة." يا شريكي الغبي!! "خاطبه ضاحكاً مثلما اعتاد أن يخاطبه مذ كانا في المدرسة"، لماذا إذن وجدت قوانين الاستثمار والسياحة؟" "وما أدراني أنا؟" رد أبو دياب باستغراب أكثر، هو الذي لا يفقه شيئاً من تلك القوانين. "ألم أقل لك؟ غبي.. مع ذلك أنت

شريكي وصديقي ولسوف أجعلك تدري." ثم شرع شوكة، وهو يتأبط ذراع صاحبه سائراً به على الرصيف الخالي في هدأة الليل، يشرح له كيف وجدت تلك القوانين لتشجيع السياحة وتطويرها إضافة إلى خدمة العاملين في قطاعها، ذلك القطاع الضروري للدخل الوطني والقطع النادر. "إذ حسبك أن تبدأ بإقامة مشروع سياحي حتى يسمحوا لك باستيراد كل شيء". "لكن الاستيراد بحاجة إلى دولارات"، "عليك نور.. ضع شيئاً منها في الخارج.. رصيداً يعني.. يفتحوا لك الأبواب على مصاريعها لتستورد ما تشاء بذلك الرصيد"، "والمعنى؟" "المعنى يا عزيزي" "رد الشريك الداهية" بما أن ما تستورده من مواد معفى من الضرائب والرسوم.. ومفقود نادر.. فإن أسعاره ستكون غالية وأرباحه كبيرة.. يعني ما تشتريه بعشرة ملايين يمكنك أن تبيعه بثلاثين، والثلاثين بتسعين." "حقاً شوكة.؟ صحيح أبا عمرو!! "راح الرجل يردد وهو غير مصدق.. "طبعاً.. صحيح" "يعني.. لا.. مـــ.. ما.. نع من أن تستورد المواد التي تريد؟ " تساءل أبو دياب هذه المرة لكن بأثر من عي قديم، فرد الشريك الداهية"هناك.. موانع بالتأكيد.. لكن بالمال يزول كل مانع" قال ضاحكاً وهو يفرك أصابعه الواحدة بالأخرى إشارة الدفع" تـــ.. تـــ.. قصد.. ترشو أصحاب الشأن؟" "أجل.. ترشو... وبدلاً من أن تقول إنك بحاجة لعشرين طناً من السيراميك مثلاً، قل إنك بحاجة لمائة.. وضاعف الأرباح.. فقط ادفع.."

حينذاك فقط، بدت اللعبة واضحة كعين الشمس لأبي دياب.. "قوانين الاستثمار الجديدة تسمح باستيراد كل شيء: من الملعقة حتى الرافعة وما بينهما.. إذن، كيف لا يمكنهم أن يسقوا المشروع السياحي من دهنه؟ كيف لا يتسنى لهم أن يبنوا ذلك الصرح الكبير دون أن يكلفهم شيئاً؟ بل كيف لا يمكنهم أن يربحوا الكثير؟. شريكهما الأول بهلوان في ذلك المجال، فأبو سامي خيال الزرقا، يعرف جيداً كيف يصول ويجول، يستورد السلع مغرقا السوق، بائعاً رابحاً، ليكدس الشركاء الخمسة المكسب تلو المكسب، صاحب النجوع الكثيرة، الرأس الكبير في المحافظة، شوكة، لكل منهم دور حتى هو نفسه كان له دور وقد قام به على أكمل وجه.

أربعين شهراً ظلت الرابية القريبة من دمشق خلية نحل هائلة الدوي، هائلة الحركة.. ليل نهار كان الناس يعملون، ورش بناء، آلات حفر، مهندسين، عمالا، وكان لا يفتأ أبو دياب يأتي إلى الموقع فيفغر فاه تعجباً، الآلات العجيبة كانوا قد أدخلوها باسم نادي الذروة، صحيح أنها كانت تعمل لتشييده، لكن الصحيح أيضاً أن آلات أخرى كثيرة بيعت في السوق، بل مقابل كل رافعة، جبالة، بلدوزر، كريدر، كان هناك رافعات، جبالات، بلدوزرات، كريدرات

كثيرة قد بيعت في السوق. السوق بأمس الحاجة إلى مثل تلك الآلات، مثلما هي بأمس الحاجة للحديد، الإسمنت، السيراميك، ومواد البناء الأخرى كلها.

أبو دياب معجب بقوانين الاستثمار، تلك التي تبيح لهم ذلك، معجب بشريكه الداهية الذي تنبه لفوائدها.. لكن ثمة مالا يفهمه في تلك القوانين، لكأنها وضعت للأغنياء فقط..... لفائدة الأثرياء فقط... تسهم في تكديس ثرواتهم، وتراكم رأس المال لديهم ليزداد الغني غنى والفقير فقراً، فكيف لم تتنبه الحكومة لذلك، وهي، حسب معرفته، حكومة الكادحين والفقراء؟.

ذلك السؤال طرحه على شركائه ذات ليلة وهم في جلسة أنس كثرت فيها السيقان والكؤوس.. "هذا ما يجب أن يحدث يا صاحبي: دعم رأس المال.. تكديس الثروات وزيادة تراكمها".

رد الرأس الكبير في المحافظة"بل كان ينبغي أن يحدث منذ زمن طويل." تابع الرأس،" لكن لماذا؟" ، عاد أبو دياب يسأل. "لماذا؟ إذن كيف تريد لبلدنا أن ينهض؟ بالفقراء؟ بأولئك البروليتاريا الذين لا يشبعون الخبز؟ لا.. لا.. بالفقراء لا يصبح بلدك سياحياً حضارياً متقدماً، بل بالبورجوازيين الرأسماليين".

مع ذلك لم يكن أبو دياب قد ازداد فهماً قدر خردلة، فآثر الشريك الآخر التدخل. "اسمع، أنا أفهمك" بدأ أبو سامي الذي كان ذات يوم يقرأ كتب كارل ماركس ويتحدث بالثورة واليسار.. والبروليتاريا.." بلدنا هو بلد الطبقة المتوسطة.. أي، الناس جميعاً فيه متقاربون ينتمون لشريحة واحدة متجانسة، تشكل القسم الأعظم من المجتمع... يعني لا أحد في البلد يجوع أو يعرى، ولا أحد يكنز الأموال الطائلة ويملك المصانع الكبيرة..

قلة قليلة فقط كان لديها بعض المال وقلة قليلة فقط كانت تعرف الفقر والحرمان، أما البقية فطبقة متوسطة تجد حاجتها ويتوفر لها غذاؤها وكساؤها".. وسر أبو دياب أنه كان يفهم حتى تلك اللحظة ما يقوله الشريك الفهيم، لكن سرعان ما بدأ حاجباه يقطبان حين بدأ الرجل الغوص أعمق فأعمق متابعاً تفسيره.." والحقيقة، طبقة كهذه، لا هي بالغنية ولا هي بالفقيرة، لا تصنع نظاماً برجوازياً رأسمالياً.. في أوروبا تشكلت طبقة بورجوازية رأسمالية في المدن، هي التي قادت نهضة أوربا: مقيمة المصانع، مرسخة أسس الثورة الصناعية، فاتحة أبواب التجارة مع الخارج، ناشرة الاستعمار، وإذا أردنا أن نصبح مثل أوروبا، نبني نهضة، نقيم صناعة لابد من أن يكون لنا طبقة بورجوازية رأسمالية مثلها، .. لهذا وجدنا من الضروري أن نصنع مثل هذه الطبقة.. وكيف؟ بقوانين الاستثمار... فتنشق الطبقة المتوسطة شقين، شقاً صغيراً يصعد إلى الأعلى حاملاً معه الثروة والمال، وبالتالي قيادة النظام البورجوازي

الرأسمالي، وشقاً كبيراً، هو الأغلبية العظمى، ينزل إلى الأسفل لينخرط في عداد العاملين والكادحين..".

ورغم أن أبا دياب لم يستوعب الكثير مما كان يقصده أبو سامي، إلا أنه استوعب ما يكفيه لأن يضحك ضحكة شقت وجهه حتى الأذنين" يعني نحن من الشق الصغير الذي ارتفع، لا الكبير الذي انخفض؟" "بالطبع.. وسنرتفع أكثر فأكثر إذا استطعنا أن نسخر كل ما يصدر من قوانين لزيادة ثرواتنا... أن نغتنم الفرصة في اللحظة المناسبة.. مثلاً.. الآن.. عليكم أن تبدلوا كل ما تملكون من عملة محلية بعملة صعبة.." "كيف؟ لماذا؟" سأل أبو دياب الذي بدا وكأنه وحده خارج اللعبة، لا يفقه من أصولها شيئاً "هه.. سأقول لك كيف.. الآن ستعمل الحكومة على تعويم العملة". "تعويم العملة!؟ ماذا تعني؟" سأل أبو دياب من جديد فاغر الفم، فرد الرجل مبتسماً مثلما ابتسم أصحابه جميعاً" لا، صعب أن أشرح لك، أبا دياب.. لكن ما يمكن أن أشرحه هو أن الحكومة تنوي رفع يدها شيئاً فشيئاً عن تحديد سعر الدولار مما يعني أنه سيرتفع بالمقارنة مع الليرة.. بكلمة أخرى.. دولاب التضخم سيدور وسيظل يدور إلى أن يستقر على السعر الحقيقي للعملة المحلية، لا السعر الذي تدعمه الدولة وتثبته.." "وماذا يعني هذا؟" سأل أبو دياب من جديد وهو يجهد دماغه كي يلحق بما يقصده الرجل" هذا يعني أنه ربما خلال سنة أو سنتين سيصبح سعر الدولار أضعاف سعره الآن"." لا، معقول؟"

"ليس معقولاً بل مؤكداً" "والنتيجة؟" "النتيجة إن كنت تملك الآن مليون ليرة، أي ما قيمته مائتان وخمسون ألف دولار، ستظل تملك بعد سنة أو سنتين المليون ليرة نفسها، لكن ستكون قيمتها بالدولار قد أصبحت أربعين أو ثلاثين ألفاً وبالتالي تكون قد خسرت من ثروتك خمسة أسداسها أو سبعة أثمانها.." "يا لطيف!! يا ستار!!" هتف أبو دياب مذعوراً ذعراً جعله خلال أيام فقط يحول كل ما يملك من عملة محلية إلى دولار وجنيه. ثم تبين بعد أشهر فقط أن نصيحة الرجل كانت بقطيع جمال لا بجمل واحد وقد بدأ الدولار يقفز قفزات كنغارو ناشط لا يعرف الكلل ولا الملل...

"الرأسماليون أذكياء يعرفون جيداً كيف يتلاعبون ويستغلون." تمتم أبو دياب لنفسه وكله فرح وزهو أن ليلة القدر طلعت له هو، ذات يوم، كي يكون من الشريحة التي صعدت ولا تزال تصعد. إنه القدر أن تكون البورجوازية ولية الأمر، وأن يكون لها كل شيء: صناعة، تجارة، سياحة، سلطة، فنون... أليست هي رأس الهرم؟ أليس للرأس كل شيء وليس للقاعدة شيء.؟ إذن، ما أحلى أن تكون جزءاً لايتجزأ من ذلك الرأس". ابتسامة تحمل الكثير من السرية والتآمر

ومضت على شفتي أبي دياب وهو في برج المراقبة يفكر ويمسح بناظريه الرابية العالية المتلألئة نوراً مستعيداً في ذهنه الأشهر الأربعين التي استغرقها العمل إلى أن بات نادي الذروة جاهزاً للافتتاح.

حفل الافتتاح باذخ، مترف، أجواؤه أشبه بأجواء ألف ليلة وليلة. بمقص من الذهب قص الشريط، ثم علا التصفيق من كل جانب، وتطايرت البسمات والتهنئات. الضيوف كثر... أربعمائة من علية القوم، والشركاء كلهم حريصون أن يكون الحفل ليلة من ليالي العمر... شوكة، الداهية الماكر، هو المهندس الحقيقي للحفل... خطوات الاحتفال، واحدة واحدة رسمها مع الشركاء، والكل حريص أن يثبت أن النادي نادي ذروة حقاً.

المرمر مرايا متلألئة في كل جانب ينظر المرء إلى نفسه فيراها خمسين. المرايا في الأسفل، المرايا في الأعلى، الزخرفة، الزينات، الأنوار كلها تجعل نادي الذروة متعة للناظر وبهجة للخاطر.. أبهاه، قاعاته، ممراته، مطاعمه، باراته، مراقصه،.. كل شيء فيه متعة للناظر وبهجة للخاطر.. علية القوم تسير في الأروقة والأبهاء، تستعرض معاً معالم صرح سياحي لم تعرف البلد مثيلاً له ".. آه!!! ما أجمل أن تكون في الذروة؟؟" كانت الفكرة الوحيدة التي أبت أن تفارق خيال أبي دياب وهو يطوف مع الضيوف أقسام النادي وأبهاءه." ما أجمل أن ترى الناس جميعاً تحت قدميك وأنت في الأعلى، تطل من فوق، ترفسهم إن شئت، تنظر إليهم شزراً إن شئت، تلقي إليهم بفتاتك إن شئت، لكن تظل مطمئناً أن الثروات والخيرات كلها لك أنت ومن معك فوق، لتطؤوا بأقدامكم من هم تحت... آه!! ما أجمل أن تشعر أنك نفدت بجلدك!! الكل ترسب إلى القاع، ليزدادوا فقراً وحرماناً كل يوم وأنت صعدت إلى الأعلى لتزداد غنى وجاهاً كل يوم..." ولم يشعر أبو دياب إلا وهو يحمد ربه، على نحو كاد يلفت نظر جيرانه، فكتم ما في نفسه" أجل... الحمد لله أن انقلبت الآية" عاد يحدث نفسه بسرية أكثر وقد شرد ذهنه إلى أخيه." مصباح أصبح في القاع وأنت في الذروة.. هو يزداد فقراً ومهانة وأنت غنى واعتباراً، فأية ضربة حظ يا رجل!! أية ضربة حظ!!"

كانوا قد وصلوا بتطوافهم إلى المطعم، وكان المطعم قرصاً وهاجاً من ألق ولألاء.. ثريات عشرون جاءت من بوهيميا حيث يتحول الكريستال إلى ماسات لألاءة، كانت تتدلى من السقوف المزخرفة بأحلى الصور وأجمل اللوحات وكلها يشع نوراً يكسف نور الشمس.

على جدارين كاملين من المطعم مدت طاولة مفتوحة فيها كل ما تشتهي النفس.. لا.. لا.. .. بل أكثر مما تشتهي النفس من مأكولات لم يعرفها حتى

هارون الرشيد... ما ينتجه صيف استراليا كان لديهم في شتاء الذروة، ما تخرجه مطاعم باريس ظهراً وصل إليهم تلك الليلة... كافيار بحر الخزر، محار اليابان، فواكه أفريقيا، توابل الهند، أسماك أمريكا.. كلها على الطاولة المفتوحة وليس عليك إلا أن تحمل أطباقك وتحشوها بما لذ وطاب..

"حتى هذا الحفل كان فكرة رابحة.. استغلها أبو عمرو أقصى استغلال!!" قال في سره وهو يبتسم مالئاً طبقه بما يعلم ولا يعلم من أصناف وألوان. "كل ما استورده للحفل، استورده بكميات كبيرة استخدم القليل منها فقط وباع أكثرها في السوق، فكم ربحت يا أبا عمرو؟".

كان الحضور يتزاحمون على الطاولة المفتوحة، وكل منهم يحمل صحناً كبيراً يملؤه ثم يمضي، يأكل، يتحدث، فالحفل فرصة نادرة لعقد الصفقات، ترتيب الاتفاقات، إجراء المساومات ورواد الحفلات هذه يعرفون كيف يستنزفونها حتى الثمالة.

– هه.. ما رأيك؟ جاء السؤال من أبي عمرو نفسه وهو يشير إلى الحفل، لكن لم يكن أبو دياب من أجاب بل الرأس الكبير في المحافظة الذي أسرع إلى التدخل غامزاً بعينه.

– وهل لأحد رأي، أبا عمرو؟ أنت أبرع من رأيت في تنظيم الحفلات وتوجيه الدعوات. تعرف جيداً من تدعو وكيف تدعو ولماذا؟.

– قل يعرف جيداً من أين تؤكل الكتف، جاء التعليق هذه المرة من صاحب النجوع الكثيرة الذي كان يفرش جناحيه كالطاوس.

وكان جواب الآخرين ضحكة رنانة استدعت إلى ذهن أبي دياب القروض الكثيرة التي اقترضوها من المصارف.. أليست معفاة من الفوائد؟ هل تستوفى إلا بعد خمس سنوات؟ إذن، لم لا يقترضون والمصارف ملأى بالأموال؟ لم لا يعملون بأموال الدولة إن كان باستطاعتهم توفير أموالهم؟ ثلاثمائة مليون أقرضتهم المصارف التي لا تقرض مبالغ كهذه أبداً. لكنها السلطة والنفوذ، يصنعان الأعاجيب.. يجعلان مدراء المصارف يوقعون على مالا يوقعون عليه عادة.. الشركاء الخمسة شره لا يشبع.. إنهم كالجحيم، مهما جاءها قالت هل من مزيد؟

أبو سامي يعرف جيداً كيف يجد طرقاً جديدة لاستثمار الأموال وتوظيفها.. "عجيب عقل هذا الرجل كم هو نشيط، يتفتق عن أفكار وأفكار!!" كان أبو دياب لا يفتأ يتمتم في سره كلما سمع اقتراحاً من اقتراحاته.." بفائض الأموال ننشئ شركة استيراد وتصدير" وأنشئت الشركة في الحال" ما الذي لا يمكنك أن تفعله

بالمال؟ أية مجاهيل لا يمكنك أن تفتحها؟ فقط.. املك ناصية السيد الذهب يصبح كل شيء ملك بنانك"

راح أبو دياب يخاطب نفسه وهو ينتقل من طرف في القاعة إلى طرفها الآخر.

الضيوف كلهم من علية القوم: تجار، صناعيون، وزراء، مدراء، عيون، وجهاء.. إنها مناسبة، وعلى الشركاء أن يستغلوا المناسبة إلى أقصى حد.. إعلانات نشرت في الصحف، لافتات أقيمت بجانب الطرق، بل حتى الإذاعة والتلفاز أعلنا عن الموعد التاريخي لافتتاح أكبر ناد في الشرق: نادي الذروة.

في تطوافهم كانوا قد مروا بالساونا، السكواتش، البولينغ.. وكل منها يدعوهم لأن يأتوا للتريض... مروا بالبارات وفيها كل صنف ولون من مشروبات الأرض فمن يشربها إن لم يأت هؤلاء؟ مسرح الفن، من يشهد فيه الراقصات التاهيتيات وفنانات الستربتيز الباريسيات إن لم تأت علية القوم تلك؟ الطاولات الخضراء من يلعب البوكر عليها؟ الروليت وآلات الحظ من يجرب حظه فيها؟ المطعم، المسبح، الفندق.. كل شيء في النادي أعد للاستغلال والاستنزاف.. آلات للحلب والامتصاص فماذا تفعل إن لم تجد من تحلب وتمتص؟.

الملابس الفاخرة الآتية من باريس ولندن، خواتم الذهب في الأصابع، شكالات الذهب على الصدور، كل ذلك لفت نظر أبي دياب. لكن ما لفته أكثر رجل مسن وقور، على رأسه طربوش أحمر وعلى صداره سلسلة من ذهب وفي يده عصا مفضضة.

– من هذا؟ هامساً سأل شريكه الداهية فأجاب شوكة ضاحكاً.

– لا تعرفه؟ إذن، قد خسرت نصف الدنيا.

ولكي يعوض خسارته التي تساوي نصف الدنيا، انكب سيف الدين على شريكه يرجوه أن يعرفه به.

– هذا صدر الدين أبو الرمحين أكبر تجار البلد. رد شوكة هامساً، يعني بلغة أيام زمان شهبندر التجار.. ولم يكن أبو دياب بعد ذلك بحاجة إلى معلومات.. صدر الدين علم في رأسه نار.. صيته في شرقي الأرض وغربيها، فكيف لا يعرف ذلك أبو دياب؟ مكانته التجارية، محلاته، صفقاته، ثرواته كلها حديث الناس، لكن كيف كان لأبي دياب أن يلتقي به وهو الجديد على عالم النخبة، الحديث في دنيا النعمة والثراء؟.

لم يكن ينشب خلاف بين التجار إلا ويحله صدر الدين، ولم تكن تعقد

صفقة، كبيرة أم صغيرة، إلا وله يد فيها.. ذات مرة، وكان"ترشيد" الطاقة الكهربائية قد غدا نظاماً متبعاً في طول البلاد وعرضها، قال له شوكة الداهوك"أتدري ما سمعت؟" "ما سمعت؟" سأله أبو دياب متعجباً." يقولون أن يداً خفية وراء انقطاع الكهرباء، ناساً لهم مصلحة في ذلك".. "كيف؟" "بسيطة.. تقطع التيار الكهربائي فماذا يحتاج الناس؟" "مولدات كهرباء" "حسن، وصدر الدين أبو الرمحين هو الذي يبيع المولدات" "معقول؟" "لم لا ولديه محل لتجميع تلك المولدات.. عشرات.. بل مئات الآلاف من المولدات يبيع، وحيداً صاحب احتكار، وهات يا ربح!!" "ابن الـــ.. إنها لتجارة هائلة، كم يربح منها يا ترى!؟" "لو كان وحده لكان قد أصبح قارون.. لكن معه شركاء.." وغمز شوكة الداهوك بعينه إلى الأعلى غمزة فيها شيء من خوف.

– من زمن أتمنى أن أتعرف إلى هذا الرجل.. قال أبو دياب وهو يميل على صاحبه، مشيراً بعينه إلى صدر الدين أبي الرمحين الذي يقف وسط القاعة يحيط به حلقة من الرجال. أمسك شوكة بساعده ثم مضى باتجاه الرجل المسن، صاحب الطربوش الأحمر والعصا المفضضة والسلسلة الذهبية.

– بيدك حق.. شهبندر التجار مفتاح أساسي من مفاتيح البلد.. وينبغي أن تتعرف إليه.

"آه!! لو تعلم يا مصباح على من أتعرف؟" خطر الخاطر في ذهنه وهو يسير إلى الرجل المسن.."

لو تعلم من هم أصحاب أخيك وأصدقاؤه الآن!؟ أية منزلة بلغها أخوك!؟" لكنه لم يتابع التساؤل فقد وصل مع شريكه إلى حلقة الرجال الوقورين التي يزينها صدر الدين.

– النايفة، سيف الدين، أهلاً بك يا بني.. رحب به الرحل المسن الوقور بعد مراسيم التعارف، ثم شرع يتفحص سيماه جيداً من وراء نظارتيه، أنا سعيد بك.. سعيد كثيراً لنجاحك السريع في دنيا المال والأعمال، وكاد أبو دياب يفغر فاه تعجباً، فقد تبين أن الرجل يعرف عنه الكثير..

– لكن من أين يعرف كل هذه المعرفة عني؟ سأل صاحبه أبا عمرو مستغلاً أول فرصة جعلته ينفرد به.

– من أين؟ رد أبو عمرو هازاً رأسه ساخراً، رجل يمسك تجارة البلد كلها، بل الصناعة والسياحة أيضاً، وتسأل من أين يعرف؟ هذا صدر الدين يا صاحبي.. السوق بيده مثلما هي عصاه بيده، لا يرتفع تاجر ولا ينخفض تاجر إلا بإشارة من يده، سياسة البلد لا توضع إلا بمشورته فكيف تسأل أيها الغر ذاك

السؤال؟ ولم يملك أبو دياب إلا أن يعتذر عن غبائه الذي يورطه بعض الأحيان فيما لا تحمد عقباه..

– قل لي شوكة، أتعرفه أنت منذ زمن طويل؟.

– بالطبع، رد شوكة، ولا أعمل إلا بوصاياه العشر..

– وهل لديه وصايا عشر؟

– بالتأكيد، موسى جاء بوصاياه: لا تقتل.. لا تسرق.. لا تزنِ.. أما وصاياه هو فالعكس.. قال شوكة وهو يحاول الابتعاد بصاحبه قليلاً عن حلقة الرجال المسنين الوقورين.

– ما هي؟ قلها يا رجل؟ حثه أبو دياب، فبدأ شوكة يعدد على أصابعه.

– اقتل ثم اقتل.. اسرق وانهب.. اعتد على جيرانك.. اقطع الرحم.. اكذب واكذب إلى أن تصدق أنت نفسك.. لا تشفق على ابن أنثى، ولا تعرف الرحمة قلبك، لا تثق بأحد، لا تمد يد العون لأحد، انتهز كل فرصة، أخيراً: مبررة كل وسيلة للوصول إلى معبودنا: المال..

– يا لها من وصايا!! هتف أبو دياب بصوت شبه عال إعجاباً ودهشة، إنها لدستور..

– بالطبع.. دستور ينبغي أن يسير عليه كل من يريد أن يربح دائماً ويكون الغالب دائماً..

– بيدك حق.. فالرحمة كثيراً ما تؤذي والشفقة كثيراً ما تجر البلوى.. الثقة ضارة ومساعدة الغير أكثر ضرراً!!

– أرأيت؟ أنت بالحقيقة تفهم، لست غبياً دائماً بل أحياناً تعجبني..

– أنا تلميذك النجيب أبا عمرو!! قاطعه أبو دياب وقد أطلق كل منهما ضحكة عالية لفتت أنظار الحلقة المهيبة.

– شوكة، هتف الرجل المسن الوقور وهو يدب على عصاه مقترباً منهما فأسرع الرجلان كلاهما إليه..

– أمرك سيدي شهبندر التجار، أجاب شوكة وهو ينحني بين يديه علامة الاحترام والطاعة.

– أعجبتني لديكم تلك القاعة الحمراء، قال صدر الدين مشيراً بيده إلى الداخل واليسار، ما رأيكم أن أستأجرها؟ سأل متنقلاً بناظريه بين الشريكين كليهما، متعمداً أن يجعل سيف الدين يشعر بأهميته.

– هي تحت تصرفك سيدي الشهبندر.. بل النادي كله.. ان أمرت.

– لا.. لا.. أريد.. في حفل الافتتاح هذا أن أبرم معكم عقداً سنوياً بإيجارها.. تقديراً لجهودكم ورداً لخدماتكم.. فماذا قلت شوكة؟ ما رأيك يا بني، سيف الدين؟

– نحن رهن أمرك.. سيدي.. رد سيف الدين وقد عاد العي فتعثر وتأتأ وهو يلفظ كلمة سيدي تلك.

– حسن، أنت تعلم، استأنف الشيخ المشرف على الثمانين وهو يتوجه بخطابه إلى شوكة، نحن نحتاجها مرتين أو ثلاثاً في الشهر، من أجل لقاء، اجتماع، كما تعلم، ما عدا ذلك هي لكم..

– وهو كذلك، سيدي..

– مليونان يكفيكم!؟ سأل المشرف على الثمانين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة خاصة فيها من المعاني ما أدركه أبو دياب وما لم يدركه..

– أنت أكرم من حاتم الطائي يا سيدي..

– حاتم الطائي!! عقب الشيخ المسن ملوحاً برأسه هازئاً، مسكين!! وما حاتم؟ ذاك البدوي البائس الذي لم يكن يملك غير شويهات وفرس!؟

– بيدك حق سيدي.. ما حاتم ذاك مقارنة بمن يملك كنوز قارون!؟

– أنت تفهم شوكة.. عقب الشيخ المسن وهو يبتسم ابتسامته الوقور نفسها. أنت داهية!! لكنني أريد أن يكون سيف الدين مثلك، فهماً ودهاء.. ثم التفت إلى أبي دياب مستأنفا: كما أريدك أن تكون أكثر قسوة، أن تضرب بلا شفقة أو رحمة..

ولم يعلم أبو دياب ما الذي قصده بجملته الأخيرة.. لعله كان يلمح إلى موقف ضعف من مواقفه، لكن أي موقف؟ لم يستطع الرجل أن يحدد، فقد كانت تلافيفه الدماغية كلها مشغولة بذلك الرقم الفلكي الذي طرحه شهبندر التجار.

– بالتأكيد سيدي!! أجاب أبو دياب بعد أن استطاع بشق النفس الخلاص من أفكاره.. يجب أن يكون المرء بلا رحمة ولا شفقة في عالم لا رحمة فيه ولا شفقة.

– عالم ذئاب.. قل.. عالم ذئاب هذا الذي نعيش فيه.. شريعته شريعة الغاب ونحن أولى بتطبيق شريعة الغاب تلك!! أتفهم سيف الدين؟ نحن أولى الناس بأن نكون سادة ذلك الغاب.

لكن اثنين أو ثلاثة من الرجال جاؤوا إلى الرجل الوقور فانقطع حديثه. كان سيف الدين يود أن يستمر، عله يأخذ الحكمة من منبعها نفسه.. الشهبندر

بذاته!!" يا إلهي!! كم لديه من الخبرة!! كم يملك من الحكمة!! وكم علي أنا سيف الدين أن أصغي إليه علني أستفيد من تلك الخبرة والحكمة!!"

– أسمعت؟ مليونا ليرة.. هذه صفقة رائعة!! راح شوكة يهذر وهو يقود شريكه بعيداً عن الحلقة التي تكاثر فيها المتزلفون المجاملون.

– الرجل كريم فعلاً!! من يصدق أنه يدفع مليوني ليرة من أجل اجتماع أو اجتماعين يعقدهما في الشهر.

– هذا ليس كرماً أيها الغبي، همس شوكة لصاحبه، بل هو دعم، إسناد، يريد للنادي أن ينجح ويزدهر.. ويريد لنا نحن أن ننجح ونزدهر..

– على كل حالٍ هو رجل عظيم.. رائع.. راح سيف الدين يردد وهو يسير بجانب شريكه ملتفتاً بين الحين والحين إلى الرجل الثمانيني الوقور.. لكن أعد لي مرة ثانية وصاياه العشر.. كررها على مسامعي من جديد..

– لا.. لا.. ليس الآن.. علينا أن نبشر شركاءنا الآخرين بالخبر... وأسرع به إلى حلقة قريبة.

– أبشروا.. جاءنا الضوء الأخضر، قال لشركائه وضحكته ملء فمه.

– إذن نادي الذروة سينجح.. سيكون ساقية ذهب، راح أبو سامي يردد وقد سمع التفاصيل.

– ونحن سنعب من تلك الساقية، هتف صاحب النجوع الكثيرة، سنشرب منها ولا نشبع،.. ثم أغرقت ضحكات الشركاء بقية كلام كان صاحب النجوع الكثيرة يريد أن يقوله.

– فقط، لو أعلم لماذا يريد القاعة الحمراء بالذات؟.. أليس لديه مكان يعقد فيه اجتماعات للتجار سواها؟ عقب أخيراً أبو دياب وهو يشعر أنه أمام نوع من اللغز...

– هذه ليست لاجتماعات التجار، أبا دياب.. رد الرأس الكبير في المحافظة الذي بدا الأكثر خبرة بشؤون الشيخ الوقور.

– اجتماعات من أذن؟ تابع أبو دياب وهو أكثر استغراباً وحيرة.

– منظمته السرية. أجاب هامساً وقد مال إلى الأمام مشيراً للبقية بأن يلتفوا حوله.

– منظمة.. سرية؟ ردد أبو دياب بكثير من العي والتأتأة وقد صدمته العبارة مشيعة في نفسه رعشة من خوف.. أيعمل شهبندر التجار مع الفدائيين الفلسطينيين؟

– لا.. لا.. بل هو يعمل مع شركة سفن يونانية يملكها أوناسيس.. رد شوكة الداهوك ضاحكاً.

– بل مع تروست سيارات ألماني، عقب أبو سامي ساخراً.

– بل مع كارتل نفط أمريكي، ختمها الرأس الكبير في المحافظة وكلهم يضحك غارزاً عينيه في عيني أبي دياب.

"يالك من غبي!! كيف تتصرف هكذا؟ لم تسأل أسئلة كهذه؟" راح يوبخ نفسه والآخرون مازالوا يقهقهون" أيعجبك أن تبدو جاهلاً لا يعرف شيئاً؟ غبياً لا يملك ذرة من ذكاء؟ الزم السكوت يا رجل.. ادّع المعرفة وتظاهر بالعلم. نصف النجاح ادعاء وتظاهر." تابع توبيخ نفسه وهو يقطب جبينه منكمشاً في داخله عقاباً أراده لنفسه أكثر مما أراده للآخرين.. فهو الذي لم يدرس في مدرسة ولا تزود بعلم يجد نفسه أحياناً: وجهاً لوجه أمام كلمة لا يعرفها، عبارة لم يسمع بها، أو اسم كاللغز، فما تراه يفعل؟

"باردون" أكثر من مرة كان قد سمعها دون أن يفهم معناها، "سي لافي" كثير ممن يرتادون مكتبهم كانوا يرددونها، وها هي ذي كلمات: "أوناسيس.. تروست.. كارتل.." فماذا يقول؟ كيف يتصرف؟ إن تجاهل سيظل جاهلاً وإن سأل كان مثار سخرية.. هو يغض النظر أحياناً.. يتظاهر بعدم السماع... يدعي المعرفة أحياناً أخرى.. لكن ماذا عن تلك المنظمة السرية؟ لا.. هو لا يعرف شيئاً عنها ولا يستطيع الادعاء، فليسأل.. أجل.. عليه أن يعرفها طالما تلك المعرفة من مستلزمات رجل المال والأعمال..

بشق النفس حصل سيف الدين على بعض الفتات من المعلومات.

– تنظيم سري وراءه اليهود يهدف إلى السيطرة على العالم، قال أبو سامي بعد جهد جهيد.

– حركة قديمة أوجدها اليهود مثلها مثل الصهيونية تهتم بالنخبة من كل مجتمع، أصحاب الأدمغة والرساميل، لصنع المجتمع العالمي والدولة العالمية التي تخدم مصالح اليهود. شرح الرأس الكبير في المحافظة، لكن صاحب النجوع الكثيرة اعترض.

– لا أعتقد إلا أنها وهم.. مثلها مثل الأطباق الفضائية.. الكل يتكلم عنها وما من أحد يستطيع إثبات وجودها.. إنها مجرد وهم".

– بل هي حركة قائمة فعلاً، لها نظامها الداخلي، تعاليمها، مراتبها، محافلها بل يقولون إن أبا الرمحين نفسه رئيس محفل وهو المرشد الأكبر في الشرق كله...

– أنا لا أصدق، اعترض من جديد صاحب النجوع الكثيرة بكثير من الحماس، مثل هذه التنظيمات ممنوعة لدينا، محظور نشاطها...

– ممنوعة!؟ محظور نشاطها؟ قاطعه أبو سامي هازئاً، بعدئذ تابع بنبرة الهمس: يقولون إن ملوكاً في وطنك الكبير رؤساء محافل فيها.. أمراء.. وزراء، مدراء.. بل إن أحدهم أكد لي أن أكثر من ثمانين بالمائة من ذوي الشأن هم من أتباعها..

– آ!! الآن فهمت، غمغم صاحب النجوع الكثيرة وقد بدا أقرب لأبي دياب جهلاً وغباء، فهمت لماذا ينبق لك أحدهم فجأة؟ لماذا يظهر من غامض علم الله رجل نكرة فيستلم أميناً عاماً لمنظمة أو رئيس وزراء، وزيراً أو قائداً.. إذن ثمة تنظيم يخطط ويبرمج!!

– بالطبع. أكد أبو سامي بنبرته الأولى نفسها، ومن يرغب بتسلم سلطة عليه أن ينتسب لواحدة من تلك المنظمات، أن تدعمه حركة من تلك الحركات...

– ما رأيكم إذن بالانتساب إليها؟ سأل شوكة هكذا على حين غرة.

– لا، أنا أكره مثل تلك المنظمات. قال صاحب النجوع الكثيرة بكل ما تبقى لديه من إباء وكرامة..

– وأنا أيضاً، عقب أبو دياب وقد أحس بشيء في داخله يتشنج، شيء هناك في الأعماق.. أنا أكره السياسة.. لا أفهمها ولا أتدخل بها..

وضحك الجميع من الرجل الذي لا يفتأ يعترف بمواطن جهله الكثيرة، ثم انقطع الحديث وقد حان موعد الفقرة التالية في حفل افتتاح النادي الذي استقطب علية القوم.. مضى الجميع إلى المسرح حيث كان البرنامج الفني حافلاً، ممتعا، مثيراً للدهشة: نساء ينزلن بالسلال من السقف.. وحسبك أن تقارب واحدتهن حتى تلمس حرير الهند وتشم عطور باريس وتتذوق خمور أدونيس.. ألم يعد سبحانه وتعالى المؤمنين بجنات فيها أشجار حور، يفتح واحدهم ثمرتها فتتفتح عن حورية حوراء العين هيفاء القد، غضة بضة حتى لتذوب بين يديك؟ مسرح تلك الليلة كان شيئاً من الجنة، لم تنته برامجه إلا وقد انبلج الفجر وأترعت النفوس متعة ونشوة جعلتا أبا دياب يتوجه إلى زوجته الجديدة، البيضاء كشعاع البدر، الهفهافة كإزار الحرير، الشفافة ككأس البلور رغم أنه كان دور الزوجة الشقراء، غادة، التي خلبت لبه ذات يوم.

"سبحان من يغير ولا يتغير" تمتم الرجل وهو يلقي بنفسه على المقعد الخلفي من السيارة الأمريكية الفاخرة، فانطلق السائق تبعاً للقاعدة التي أملاها عليه منذ البدء والتي كان يسير عليها تشرشل من قبل: "سق على مهل، فأنا في

عجلة من أمري".

"إيه!! حقاً!! كم من متغيرات حدثت ومستجدات طرأت مذ تزوجت تلك الشقراء!!" تابع تمتمته الهامسة وهو يغرق أكثر فأكثر في مقعد القطيف الأحمر..

تلك الشقراء ظلت تخلب لبه إلى أن التقى بالسمراء اللاهبة الأشبه ببنّ خارج من محمصة.

مرتين أو ثلاثاً رآها وفي كل مرة كان يشعر وكأنما أمسك بتلابيبه مصارع جبار ، بارما، فاتلا، مطوّحا به ذات اليمين، ذات الشمال إلى أن يصيبه الدوار فلا يعود يملك من أمره شيئاً. حاول التقرب إليها، مغازلتها، إلا أن السمراء اللاهبة صدت وردت متلبسة ثوب العفة والإخلاص.

وخطرت لأبي دياب فكرة"دعينا نتزوج" "أنا متزوجة" "طلقي زوجك"، قال الرجل، فردت المرأة بلغة المساومة التي بدت تتقنها جيداً. "مقابل؟" "بيت، سيارة ورصيد في البنك مهر كبير بمقدمه مؤخره". "وثق ذلك" ووثّق أبو دياب ذلك لتطلق السمراء اللاهبة زوجها صاحب الدخل المحدود وتتزوج المتعهد الكبير، رجل الأعمال الخطير، فتكون زوجته الثالثة ويكون زوجها الثاني.

السمراء اللاهبة لم تنجب من زوجها السابق ولا من زوجها اللاحق.. ثلاث سنين ولم تنجب.. هي شبقة لا تشبع، عنيفة لا ترحم، إذا ما التقت بأبي دياب على الفراش أحس وكأنها تدخل معركة تستخدم فيها صنوف الأسلحة كافة إلى أن تقضي على العدو قضاء مبرماً.. بالأظافر، بالأسنان، بالسواعد، بالسيقان، هي تنشب، تعض، تضغط، تعصر، ولا يخرج أبو دياب إلا شيئاً من حطام، أخشى ما يخشاه أن يعود إلى ساحة المعركة مرة ثانية.

خشيته تلك جعلته يعود إلى الشقراء، لكن الشقراء بطيئة كالسلحفاة، باردة كطين الشتاء ومن جديد بحث عن بديل.

البديل بيضاء قصيرة القامة، ملفوفة الجسم، رقيقة ناعمة، شهية لذيذة، أشبه بكبة من غزل البنات، يفتح فمه فيلتهمها دفعة واحدة. كان جسمه قد نما وترعرع حتى بات كرشه وحده أثقل وزناً من البيضاء. صحيح.. سبحان من يغير ولا يتغير.. لقد ولى أبو دياب ذلك الضعيف الناحل، محني الظهر، ليكبر جسمه ويتضخم.. أليس في الضخامة مهابة؟ أليس الكرش وجاهة؟ إذن ليسمن..

وهكذا، حين تزوج البيضاء، كان باستطاعته أن يدحرجها على كرشه، أن يرقصها على الثديين الناهدين في صدره... كيف لا وهو لم يعد يفطر إلا بيض الغنم وكبد الخروف، يتغدى الكبة والأوزة، يتعشى شواء الضأن والدجاج؟.

ما أزعجه فقط هو شعره... فالشعرات الباقيات في رأسه راحت تتساقط الواحدة تلو الأخرى، مسيل من حصباء بيضاء راح يشق رأسه من الجبين حتى آخر الرأس... لكن شوكة كان يعزيه..... "هكذا الكرش، لا يأتي إلا مع الصلع" أو"الصلع سمة العباقرة الأذكياء.. تعمل أدمغتهم فتسقط شعورهم"، ولم يكن يملك إلا أن يواسي نفسه" أهون الشرور.. أم تريد أن تكسب كل ما في الدنيا دون أن تخسر شيئاً، أبا دياب؟".

ويستعرض أبو دياب ما كسبه. لا.. لا.. مكاسبه لا تعد ولا تحصى. في المقعد الأمامي سائقه وحارسه.. أجل.. لم يعد من المناسب أن يسير وحيداً أو يسوق سيارته بنفسه.. باله مشغول دائماً، أعماله كثيرة دائماً فكيف له أن يسوق؟.

الحارس أيضاً مكسب مهم.. يسير وراءك، وأنت ماش، فينفحك قوة لا تجدها بغيره، يزعجك أحد فينقض عليه. تدخل به مكتباً فتبث الذعر في قلب صاحب المكتب... ألا يقولون"معه خدم وحشم؟" إذن، خير ما فعل أنه استخدم خدماً وحشماً.. مكتب دياب بات بحد ذاته ورشة سائقين ومرافقين.. بإمكانه كل يوم أن يغير سائقه وحارسه.. فيزيد ذلك من هيبته لدى الشركاء وغير الشركاء، الأصحاب والأعداء.

مكسباً هاماً كان مكتب دياب.. في البداية لم يوله كبير اهتمام، لكن مذ سافر ابنه إلى أوربا هرباً مما فعله بابن عمه، أحس أن عليه أن يوليه اهتماماً أكبر.. فتجارة السيارات صنو تجارة العقارات ربحاً ورواجاً، وهكذا زاد رأس مال المكتب، وسع عمليات الشراء والبيع، لم يعد يكتفي برخص المغتربين ومشوهي الحرب، بل جعل ابنه يدخل مزادات علنية للسيارات تجريها المناطق الحرة.. كما أمن له وكالة سيارات ألمانية للسوق المحلية والعربية...

مشاريع فهد كانت مكسباً عظيماً أيضاً.. أبو دياب يستعيد في ذهنه، وهو مسترخ في مقعده الخلفي، المشروع الذي افتتحه لابنه فهد قبل سنين، ملهى على طريق المطار، فناناته غجريات فقط والسياح الخليجيون مولعون بالغجريات...

صنبوراً من الذهب كان الملهى، كل ليلتين أو ثلاث يمر أبو دياب.. يجلس نصف ساعة... ساعة... يسمع مطربة غجرية، تذكره بفوزة البدوية وأيام ثرائه الأولى... أو يلقي نظرة فقط وينسحب...

الأشغال كثيرة والمكاسب كبيرة وعليه هو أن يتنقل هنا وهناك كيلا يفلت منه مكسب.

"خير مكسب هو هذه البيضاء" قال في سره وقد اقتربت سيارته من بيت

الزوجة الجديدة، بيضاء البشرة، ناعمة الملمس، صغيرة القامة.. مبتسماً في سره حامداً ربه أيضاً أن تلك المرأة ليست عبلة ربلة كالسمراء ولا طويلة فارعة كالشقراء، بل هي منمنمة ململمة.. باستطاعته أن يحتويها بين ذراعيه يخفيها فلا يظهر لها أثر... أكثر ما يعجبه فيها أنها قنوع، غير متطلبة، يمكنه أن ينام لديها الليالي دون أن تستثيره أو ترغمه على شيء.. هي كالقطة تنتظر، بمواء حيناً وبغير مواء حيناً آخر، فإذا رأت في نفسه رغبة ردت عليه بمثلها وإن رأته عازفاً بدت أكثر عزوفاً.هي امرأة مريحة.. سميعة مطيعة.. مذ رآها في مكتب شركة الاستيراد والتصدير الجديدة، عرف أنها مريحة، سميعة مطيعة.

لكن دون توقع، بدت له غير ذلك في ليلتها الأولى. الأمرين أذاقته قبل أن تسلم نفسها.. تلوت، تشنجت، هربت، صالبت، كرت، فرت، ولم يستطع فض بكارتها قبل طلوع الفجر..

مع ذلك أنجبت طفلتها بعد مرور مائتي يوم بقليل"ابنة سبعة!؟" قال له بعضهم"لعلك تزوجتها حاملاً؟"

قال صاحبه شوكة ممازحاً، لكن أبا دياب انتفض مستنكراً"كيف وقد كانت بكراً عذراء لم يمسسها إنس ولا جن؟ أنا بنفسي فضضت بكارتها.. ساعات ظللت أتعذب قبل أن تستسلم لي.."

"وما أدراك أنها لم تكن تمثل عليك؟" "كيف؟" "كثيرات يدعين أنهن عذراوات وهن ثيبات.... الطب الحديث يصنع المعجزات.. حسب المرأة أن تذهب إلى الطبيب ساعة حتى يعيدها فتاة عذراء.. إنها عمليات غشاء البكارة يا سيدي، "لكن، كان من الصعب على أبي دياب أن يتصور أمراً كهذا..... فالبيضاء ناعمة الملمس حيية غير متطلبة بل لم تشعره يوماً برغبة . توقفت السيارة فنزل أبو دياب مترنحاً من نشوة الليلة التاريخية النادرة.. مضى إلى الباب، أدار المفتاح في القفل فدار، دفع الباب فلم يندفع.." هو مرتج"خاطب نفسه بكثير من الإحباط، وقد غادره السائق والحارس. حاول مرة ثانية ثم ثالثة لكن الباب أمامه باب خيبر، ثقيل مصفح بالحديد".. بيدها حق.. هي وحيدة.. تخاف اللصوص والمتطفلين." رن الجرس ثم انتظر، وأبخرة الويسكي، الشمبانيا، النبيذ تتصاعد إلى قمة رأسه.. دقائق طويلة مرت.. خيل إليه أنها ساعات رن خلالها الجرس المرة تلو المرة إلى أن فتح الباب.

– أبا دياب!! غمغمت المرأة البيضاء قصيرة القامة وهي في غلالة شفافة هفهافة تدعى ثوب النوم تفرك عينيها كأنما أفاقت للتو. ادخل.. ادخل..

– نومك ثقيل!؟ خفت ألا تفيقي..

– لا تؤاخذني قد فاجأتني.. الليلة ليس دوري..

ولم يؤاخذها أبو دياب.. فالخدر في جسده والتعب في مفاصله لم يكونا يغريانه إلا بالنوم..

– أنا مشتاق إليك، قال وهو يلفها بذراعه مدعياً الشوق، فقلت أتجاوز الدور..

– لكنه الفجر.. وأنت متعب منهك، ردت وهي تدخل معه غرفة النوم متلكئة مترددة وكأن كل ما تتمناه أن لا تدخل..

– أجل.. أنا متعب كثيراً، قال وهو يلقي بنفسه على السرير دون أن يلحظ كأسين من الويسكي كانتا ماتزالان على منضدة زينتها..

– دعني أخلع ثيابك إذن.. قالت على عجل واقفة بينه وبين المنضدة، شارعة بخلع ملابسه... غلالتها الزهرية الشفافة جعلته يرى أنها لا تلبس شيئاً سواها.. مد سيف الدين يده وقد أحس فجأة بإغراء أشد من التعب، جاذبية أقوى من الإنهاك.. أهي كؤوس الكوكتيل تفعل فعل الشباب؟

– تقول إنك متعب.. غمغمت بين الدل والروغان وهي تحس بيده تتلمس فخذها ثم تصعد إلى الأعلى.

– أنت مثارة، غمغم وقد أحس بما يشبه اللزوجة على رؤوس أصابعه المتسللة.

– الشوق.. يا حبيبي.. فكيف أراك ولا أثار؟

– إذن.. تعالي.. ليلتي التي بدأت رائعة يجب أن تنتهي رائعة أيضاً، تمتم وهو يحاول جذبها إلى الفراش، لكن سرعان ما تملصت مبتعدة.

– لا، يجب أن أستحم أولاً.. وضحك في سره وهو يتثاءب ناعساً"لابد لها أن تحتج.. هي لا تحب ذلك، تتهرب منه دائماً. لو كانت السمراء إذن لالتهمتني التهاماً، حتى الشقراء لا تدعني أذهب حتى أعطيها حقها.." كان يتمتم لنفسه فيما كانت الزوجة بيضاء البشرة، سوداء الشعر قد أسرعت إلى الحمام، مطفئة الأضواء في طريقها، حاجبة عن ناظريه منضدة الزينة وكأسي الويسكي، تاركة موسيقى خافتة تملأ المكان شاعرية ودفئاً راحا يهدهدانه على فراش الرغد والهناء، يطبقان أجفانه شيئاً فشيئاً إلى أن أغرقه التعب والشراب في سبات عميق.

– مكتوب على ورق الخيار، ساهر الليل ينام النهار، بادرته الزوجة البيضاء المنمنمة الململة بكثير من الغنج والدلال، وهي تقدم له قهوة الصباح...

– أوف!! الساعة الواحدة، قال وهو ينظر إلى ساعته راشفاً قهوته بأسرع ما يستطيع..

– أين؟ لم العجلة؟ سألت المرأة وهي تدلق ثدييها على وجهه إغراءً وإغواءً.

– لدي عمل وقد تأخرت، ثم نهض على عجل.. مودعاً الزوجة الرابعة التي كان قدومه مطلع الفجر قد قطع أنفاسها ثم لم تستردها حتى سمعت شخيره.

– أين فهد؟ سأل أبو دياب الزوجة العتيقة وهو يدخل مسرعاً..

– مايزال نائماً.. ردت الزوجة وقد فاجأها دخوله وسؤاله..

– أيقظيه.. أنا في عجلة من أمري..

– دائماً أنت هكذا..!؟ في عجلة من أمرك!؟ قالت بنبرة من عتاب لا غير.. اجلس.. اجلس.. أبا دياب.. نحن أيضاً بحاجة لرؤيتك. ولم يملك إلا أن يجلس.. هذه النبرة، هذا الاستقبال، هذه المعاملة لا يجدها إلا في هذا البيت الذي كانت أشغاله تبعده عنه.. مع ذلك ما إن يعود حتى يبدو كأنه لم يغادره قط.. هذه المرأة طيبة، قنوع، ترضى بأي شيء.. "أهذا ما يسمونه الذهب العتيق؟" كان يتساءل في سره وهو يختلس النظرات إليها: بدينة ما تزال، بريئة ما تزال كأنها في بيت الحاكورة القديم، بسيطة لم تتغير ولم تتبدل.

– هه.. في فمك كلام.. ماذا هناك؟ سألها أخيراً وقد رآها ترفع رأسها وتخفضه حائرة مترددة..

– هناك مشكلة شاهة.. أرجوك.. دعنا نجد لها حلاً..

وأحس أبو دياب بغصة في حلقه.. المشكلات كلها تهون أمام مشكلة شاهة. فحياتها هي النكد عينه. إن خلصت من نظرات حماتها الشزراء وكلماتها الجارحة، لم تخلص من امتهان ابنة حماتها وتعليقاتها الساخرة.. "الفلاحة تتمدن"، "حديثة النعمة التي لا تستحق النعمة"، "الوضيعة تتسلق المراتب الرفيعة" وكانت أكثر من مرة قد وصلت بشاهة حد الجنون فاشتبكت مع ابنة الحماة ضرباً وشد شعر.. سباباً وشتائم.. لكن سرعان ما تجتمع عليها القوى الأخرى ويتحالف مع الابنة الأم والأخ فتلقى شاهة أرضاً وتوسع ضرباً..

– ما الحل؟ قولي أنت.. أجاب أبو دياب زوجته أخيراً وهو أكثر قناعة بأن عليه أن يجد حلاً لمشكلة ابنته..

– اجلس معها.. دعها هي تقل لك ما الحل..

ووافق الزوج الذي يعلم أن زوجته أطالت التفكير وناقشت الأمر مع ابنتها ولا شك قبل أن تفاتحه بالأمر.

– اتصلي بها.. دعيها تأتي الآن..

حين وصلت شاهة إلى البيت، كان أبو دياب قد تحدث مع فهد الذي لم يكن له مشكلة زواج بل مشاكل غرام ونساء. فهد، مذ أوقعته حورية البحر، تلك التي جاءت إلى فراشه في الفندق، أزرق الوجه أبيض القلب، في تلك الورطة، صار زير نساء خالصاً.. لا يخطر بباله الزواج أبداً. أمه تصر عليه، أختاه، أخوه، بل حتى أبوه أراده أن يتزوج.. "لكن لماذا؟ أنا اليوم حر طليق فلماذا أزج بنفسي في قفص ولو كان من ذهب؟ أحلى النساء ملك يدي فلماذا أدع واحدة تكبل يدي؟ "كان لا يفتأ يردد دون خجل فتشعر الأم بالضيق فيما يشعر الأب بنوع من الحسد!!.." لو كنت في عمره، أتراني أفعل إلا ما يفعل؟".

كان فهد الولد المدلل لديه، وكان قد اختاره للعمل في النادي، لكنه لم يحضر افتتاح النادي. لماذا؟ "كنت مشغولاً"، "لكن يجب أن تستلم المهمة الجديدة"، "أستلمها الآن" "الآن"، وبلا مبالاته، تلك التي بدأ بها الحوار أنهاه، وهو يتهادى خارجاً إلى النادي الجديد.

– إي.. حدثيني.. أما تزال مشكلتك قائمة؟ سأل الأب ابنته وقد جلسا جنباً إلى جنب مثلما كانا أيام زمان لا تفصلهما مشاكل العالم وهموم الدنيا..

– بل هي تزداد تعقيداً.. يا أبي.. ردت الفتاة التي ازدادت سمنة ودمامة دون أن ينفعها ازدياد ما في جعبة أبيها من ذهب وفضة. كنت أرجو أن يأتي صبي، فلا يعيرونني بعد ذلك: "أم البنات".. لكن جاء الصبي ولم أستفد شيئاً.. إنهم يحتقرونني يا أبي.. ينظرون إلي من علٍ.. كأنني مجرد خنفساء..

– خنفساء.. الأنذال.. السفلة..

– بل أكثر.. يريدونني بقرة يحلبونها صباح مساء، فإن كفت لحظة عن إعطائهم الحليب تحولوا إلى نمور ضارية.. حياتي جحيم يا أبي.. خلصني يا أبي!! أنقذني أرجوك..

وأحس أبو دياب بهزة الكرامة فانتفض:

– كيف؟ ماذا تريدين؟ قولي وأنا على أتم استعداد..

– طلقني منه.. لم أعد أريده..

– وأولادك؟ سألها الأب فوجمت متلجلجة حائرة..

– لا.. لا تفكري بالطلاق. إنه أبغض الحلال عند الله..

– ماذا أفعل إذن. قل لي.. أنا لم أعد أطيق الحياة معهم.. لم أعد أستطيع التحمل..

– اسمعي.. قال الأب بعد لأي من تفكير.. اطلبي منه أن تنفصلي عنهم.. تأخذي بيتاً وتعيشي فيه مع زوجك وأولادك..

– وأين هذا البيت؟ سيقول مستحيل.. لا أستطيع استئجار بيت ولا أملك مالاً..

– أنا أعطيك أجرة البيت.. بدأ الأب بنفحة كرم مفاجئة..

– بل تشتري لهم بيتاً.. تدخلت الأم مقاطعة، محاولة استغلال نفحة الكرم تلك..

لحظة من الزمن تسمرت نظرات كل منهم على الآخر.. الاقتراح حجر واحد يضرب عدة عصافير..

– أجل.. يا أبي.. بحماسة مفاجئة هتفت البنت التي لم تهبها الطبيعة شيئاً من جمال ولا فضلة من ذكاء، فخرجت عزلاء إلى الحياة لا ينقذها سوى سلاح يملكه والدها فقط.. لو تشتري لي بيتاً يكون ملكي أسكن فيه فلا يهددني أحد بالخروج منه.. أجل!! هو ذا الحل!!

– حسن.. موافق.. قال الأب وهو ينظر إلى زوجته فيرى في عينيها الكثير من اللوم وفي خاطره الكثير من التساؤل:

"لم لا وأنت تشتري لكل زوجة من زوجاتك بيتاً، سيارة وتضع لها رصيداً في البنك".

– حقاً يا أبي!؟ آه!! ما أحسن أبي!! راحت الفتاة تهتف وقد انكبت عليه تعانقه وتلثمه.. ثم التفت إلى أمها: أسمعت يا أمي؟ سيشتري لي أبي بيتاً..

– وسيشتري لك سيارة أيضاً، تابعت الأم وهي توجه له النظرة ذاتها.

– ومحلاً للملابس. أجل يا أبي، متجراً يؤمن لي دخلاً دائماً لا أحتاج معه لأحد، تابعت شاهة طرق الحديد وهو حامٍ.

– ماذا؟ سيارة ومحل ملابس؟ رد الأب بنبرة احتجاج واضحة..

– أجل!! أبا دياب.. هي ابنتك.. لحمك ودمك والناس حين يهينونها يهينونك أنت.. أرجوك.. هذه المرة فقط اسمعني.. أنقذها من مخالب أولئك الناس.. وفر لها حريتها واستقلالها.. توفر لها حياة كريمة..

– أجل يا أبي!! هذا ما أحلم به!! هذا ما ينقذني.. أرجوك افعل ذلك يا

أبي!! أنقذني يا أبي!!

وأدرك الأب أن الأم وابنتها كانتا قد فكرتا بكل شيء من قبل، اتفقتا على كل شيء.. ولم يكن عليه هو إلا أن ينفذ..

وافق الأب أخيراً، ليس بدون غصة، فالمشروع سيكلفه كثيراً، لكنها ابنته.. أولاً وأخيراً هي ابنته.. إن لم يضحِّ من أجلها، فمن أجل من يضحي؟

وهكذا، لم يمض الشهر حتى كانت شاهة قد غادرت إلى شقتها الجديدة في أحدث بناء شيده والدها، واشترت سيارة"سكونا" خضراء تذهب بها إلى محل الملابس الراقي الذي جاء الأب بنفسه لحضور حفل افتتاحه.

- هيه.. أميرة.. ما رأيك بهذا المحل؟ سأل الأب ابنته الصيدلانية التي تخرجت قبل سنتين مشيراً إلى المحل المجاور وقد أخذ حصته من سبوت الزهور والأكاليل..

- حسن، لكن لماذا!؟ ردت أميرة وهي تسير معه إلى السيارة.

- أشتريه لك، تفتحينه صيدلية فتصبحان جارتين، قال بأريحية لم تعهدها فيه من قبل، مشيراً في الوقت نفسه إلى محل شاهة للملابس الجاهزة.

- لا.. ليس الآن يا أبي.. تمتمت وهي تبتسم ابتسامة خافتة ذات مغزى بعيد..

- ليس الآن؟ لماذا إذن درست الصيدلة؟

لحظة من الزمن، تسمرت في مكانها مستعيدة في خيالها ذلك الموقف الصلب الذي اتخذه حين أرادت أن تتابع دراستها في الجامعة، كرهه لكل ما كانت تخطط له.

- لماذا درست؟ أنا الآن معيدة في الجامعة يا أبي.. أدرِّس الاختصاص الذي أحببت..

- لكن الصيدلية خير لك.. قاطعها الرجل وهي تهم أن تزف له خبراً أفرحها كثيراً ذلك اليوم.. أم يرضيك ذلك المبلغ التافه الذي يسمونه راتباً!؟ ألفان؟! ثلاثة آلاف ليرة؟

وتبسمت أميرة من جديد، متذكرة أيضاً تلك الأيام التي كان والدها يحلم فيها بالمائة، والخمسين...

- هذا مؤقت يا أبي.. هذا الآن فقط..

- مؤقت أو دائم!! ما المهم؟ افتحي صيدلية.. وفي موقع جيد كهذا الموقع تدر عليك الأرباح الطائلة.

– في هذا أنت على حق.. صيدلية هنا تدر أرباحاً طائلة، بالتأكيد.. لكن ما يشغلني شيء آخر يا أبي!؟

– ماذا؟ أي شيء آخر يشغل بال أميرتي؟

– أريد أن أدرس أيضاً.. أتابع تحصيلي العلمي.. بدأت لكنه عاد إلى مقاطعتها من جديد.

– ماذا؟ تدرسين أيضاً؟ هتف بمزيج من الاحتجاج والغيظ.. أتنوين أن تقضي عمرك كله في الدرس ومـــ.. مـــ.. ذا؟ التحصيل العلمي؟ سأل أخيراً وقد عاوده العي فأشاح بوجهه..

– أجل.. هو ذا ما أحلم به.. ردت وهي تشرد بعينيها كأنها تحلم..

– أميرة.. دعك من هذا الهراء كله.. واسمعي مني.. اسمعي مني مرة واحدة في هذه الحياة، أم لا تسمعين سوى من عمك مصباح؟

سأل سؤاله الأخير على عجل، ثم دخل سيارته على عجل، وقد تذكر أن لديه موعداً هاماً عليه أن يلحق به.. لم تجبه أميرة، فهو لم يكن يقصد أن تجيبه.. إذ أدار السائق المحرك في الحال وانطلق كالصاروخ فيما راحت أميرة تتابعه ساهمة التفكير مبتسمة.." إيه!!! أبي يجلس في المقعد الخلفي الوثير، وأمامه سائق ومرافق!! يا الله!! أي تبدل!! أي تغير!!" وبدلاً من أن تعود إلى أختها شاهة تشاركها فرحة الافتتاح حتى النهاية، رأت نفسها تسير على الرصيف وحيدة بلا هدف.

كانت تفكر في اقتراحه: تفتح صيدلية تبيع فيها أدوية، عطوراً، مواد تجميلية، وتكنز الذهب والفضة!! كان بودها أن تطيعه وتنفذ ذلك الاقتراح، لكن شيئاً آخر أكثر جاذبية كان يشدها: إنه علم الصيدلة نفسه، تدرسه، تتبحر فيه، تأخذ دكتوراه، تصنع أدوية، تبتكر وتكتشف، أليس هو أشبه بعلم الكيمياء؟ إذن لم لا تتابعه حتى النهاية؟ "لا يا أبي.. لن أسمع منك؟" تمتمت لنفسها أخيراً، ولم يكن أبو دياب بحاجة لأن يسمع تمتمتها تلك. هو يعلم أنها تسمع من أخيه مصباح أكثر منه، وكيف لا تسمع منه وهو أقرب إليها من حبل الوريد؟

صحيح أن قصة ديبو ونور كانت قد تركت بعض الظلال على ذلك القرب، ثم جاء زواج مأمون من شريكته المهندسة، فترك ظلالاً أخرى. بعدئذ، اكتملت الأثافي الثلاث بزواج نور من طبيب أخذها معه إلى ساحل البحر تاركاً بيت عمها كالح الوجه، قاتماً، لكن الصحيح أيضاً أن مكتبه في الجامعة كان هناك، وكانا مايزالان يلتقيان، تحدثه بهمومها ويحدثها بهمومه، وما كان أكثر تلك الهموم!!

كان الرجل قد ازداد شكوى وتذمراً "هم يشيئون الإنسان.. يجعلونه برغياً في آلة تدور وتدور.. اذهبي إلى أي مكان.. انظري إلى أي وجه تري أنه أشبه بالحجر.. لا فرح، لا حزن، لا مشاعر".." هذه هي الحضارة، عمي" ردت عليه ذات مرة" هذه هي التكنولوجيا، وهذا ما حصل للإنسان نفسه في الغرب"، فرد وهو أكثر حزناً: "لو كان لدينا حضارة لحنيت رأسي خضوعاً وطاعة، لو كان لدينا علاقة بالتكنولوجيا لقبلت ورضيت.. لكن أين نحن من الحضارة والتكنولوجيا؟ ما علاقتنا بهما وفي القلب منا جهالة الجاهلية وتخلف العصور الحجرية؟".

لم تكن أميرة تملك جواباً لأسئلته، فكانت تشاركه الشكوى والتذمر. "حصِّلي أكثر ما تستطيعين من علم"، كان يؤكد عليها كل مرة "سيري في طريق الاكتشاف والإبداع فهما أروع ما يفعله الإنسان".

ولم تكن تخالفه الرأي.. كانت نتيجتها في دراسة الصيدلة قد خولتها أن تكون في عداد هيئة التدريس، وكانت سعيدة في عملها الجديد لكنه لم يكن هو الغاية. ثمة غاية أخرى.. عمها دلها على الطريق من قبل.. "الدراسة في الخارج حيث الحضارة والتقدم العلمي" "كيف؟" سألته يومذاك." تعملين معيدة، ثم تذهبين إلى أوروبا، هناك تحصلين على شهادة عالية وتتاح لك فرصة البحث والاكتشاف.".

سنتان مرتا عليها قبل أن تعلن الجامعة عن بعثة، لكن ما إن صدر الإعلان قبل شهر حتى سارع عمها يكتب معها الطلب ويقدم الأوراق، ولو تريث والدها لمعرفة ذلك الشيء الذي كان يشغل بالها لقالت له: فرحتها بالبعثة.. ففي الساعة الواحدة من ذلك النهار كانت النتيجة قد أعلنت..

وكان اسم أميرة بنت سيف الدين النايفة يتصدر لائحة البعثات إلى الخارج، حيث عليها أن تعود بدكتوراه في الصيدلة وصناعة الأدوية من باريس.

-8-

مدينة النور: باريس. ربما قبل أن يعرف الإنسان الكهرباء وقبل أن تشعشع مصابيحها هنا وهناك، كانت باريس مدينة أنوار أخرى هي المعرفة، الأدب، الثقافة.. موليير.. مونتسيكو.. فولتير، روسو، كلهم شموس شعت ذات يوم مطلقة أنواراً متلألئة تجذب إليها الفراش، وتبهر أبصار الناظرين.. كانوا يعرفون أن مهمة التنوير عسيرة لابد لها من الزمن الطويل والنفس الطويل، مع ذلك حملوا على كواهلهم أعباء تلك المهمة لإدراكهم أن المعرفة والتثقيف شرطان أساسيان لإصلاح المجتمع، ولإيمانهم أنه قبل إصلاح الحكام والخلاص من فسادهم، لابد من إصلاح نفوس المحكومين والخلاص من فسادها.. كانوا يعلمون أن حق الشعب في الحرية والسعادة لا يتحقق إلا بالكفاح والنضال، ذلك أن الظالمين إن لم يجدوا من يقف في وجوههم، استمروا في العيث فساداً واستمرؤوا الجور نظاماً، فيستمر البائسون في بؤسهم والمظلومون في ظلمهم إلى أن تخمد أنفاسهم يد الموت... لهذا كتبوا "محاربة الظلم والوقوف في وجه الجور ليس حقاً من حقوق الإنسان وحسب، بل هو واجب مقدس عليه أيضاً"، كما كتبوا: "الملك الذي لا يتفانى في خدمة شعبه ولا يضحي بنفسه ومصالحه من أجل شعبه ومصالح وطنه ملك لا يستحق إلا الموت.." وحين كان البعض يخوفهم من"أن الملكية في فرنسا باغية طاغية وأن ما تقولونه يشكل خطراً على حياتكم"، كان واحدهم يضحك ساخراً ثم يقول"كل ما ينتجه الطغيان بهدف تعميق جذوره وتخليد حكمه إنما هو سبب في زواله وفأس تعمل في تقطيع جذوره..."

كانوا يريدون للإنسان أن يرتقي وللمجتمع البشري أن يتطور، فتسود العدالة وتتحقق المساواة وينعم الناس بالحرية. كانوا يريدون أن يصبح الإنسان أخا الإنسان، أن يعرف كل امرئ ماله من حقوق وما عليه من واجبات فيأخذ ماله ويؤدي ما عليه، أن ينتفي مجتمع السادة والعبيد، ينتفي مجتمع النخبة والغوييم.

أفكار عظيمة عملوا من أجلها، ومبادئ رفيعة دعوا إليها إلى أن جاء اليوم الذي هب فيه الشعب وقد وعي الحقيقة... أشعل الثورة وأطاح بالطغيان لتغدو مذ ذاك باريس مدينة النور، فكيف لا تفرح أميرة وهي تجد نفسها في قلب مدينة النور؟

أشهراً عديدة ظلت أميرة مبهورة بأضواء المدينة، مفتونة بنظافتها، بنظام

الحياة، برقي الإنسان فيها... وللمرة الأولى تدرك أميرة جيداً معنى الحضارة، وتلمس لمس اليد الفوارق الهائلة بين المجتمع المتقدم والمجتمع المتخلف.. بيسر تجري الحياة، وبرفق يصل الإنسان إلى كل ما يريد، خدماته متوفرة، حاجاته مؤمنة، وكل شيء بنظام... حين أخذت أوراقها ومضت إلى الكوليج دوفرانس، كانت متوترة خائفة، خشية روتين التسجيل.. لكن عملية التسجيل لم تستغرق أكثر من بضع دقائق.. الموظف يستقبلك هاشاً باشاً، السكرتيرة تكاد تقف لك باستعداد، الكل موجود لخدمتك ومساعدتك، فكيف لا تشعر أميرة بالفوارق؟ كيف لا تقارن بين ما تجده في الكوليج دوفرانس وما تركته خلفها في جامعة دمشق حيث طوابير الطلاب والطالبات يتدافعون ويتشاحنون.. وحيث تنتظر الساعات الطويلة لإخراج وثيقة أو دفع رسم؟.

وسائط النقل كثيرة، تريد تاكسياً، التاكسيات رهن إشارتها، تريد المترو، باريس كلها مترو... حيثما شاءت وفي أي لحظة تريد.. البيوت.. الهواتف.. كل ما تحتاجه أميرة تجده وفي طرفة عين. "هو ذا إذن مجتمع التقدم الذي يحلم به الإنسان"، كانت تقول لنفسها وهي ترى ما وصل إليه ذلك المجتمع من تقدم." الإنسان غاية الغايات.. توفير راحته.. أمنه.. حاجاته.. ذلك هو هدف الدولة، الغاية من النظام" ولا تملك أميرة إلا أن تزفر الزفرات الحرى" أيها التخلف!! يا وحشاً فاتكاً يحاصر الإنسان!! يقتل الإنسان!!" أميرة لا تنسى ما يعانيه أناسها.. وهم لا يستطيعون قضاء حاجة من حاجاتهم، لا يصلون إلى حق من حقوقهم إلا بشق النفس، فكل ما ينتصب في وجوههم عراقيل وحواجز، مشاكل وهموم لتتحول حياتهم إلى عبء وعناء." آه يا مجتمع الجهل والتخلف!! ما أشد بؤسك!!"

مذ وضعت أميرة قدمها في باريس قررت أن تكتشف نهر السين، قوس النصر، كاتدرائية نوتردام، برج إيفل، قصور فرساي، بل حتى سجن الباستيل ذهبت إليه لترى بأم عينها ما فعل التنوير بالشعب فجعله ينتفض محطماً أسوار الباستيل.

كان كل شيء في باريس يبهجها: بدءاً من كوب الكوتشينو الذي تأخذه في مقهى من مقاهي أرصفتها وحتى الساعات الطوال التي تقضيها في مختبر كليتها.. هي حرة.. تشعر أنها كالريشة يمكنها أن تطير في الهواء.. حريتها ملء الكون، تتنفسها ليس بأنفاسها فقط بل بمسام خلاياها كلها... أميرة تشعر بها تتسرب عبر تلك المسام إلى حشاشة كبدها فتتبرعم فيها انتعاشاً وتنمو أجنحة تغريها بأن تطير... لأول مرة تشعر أميرة بأنها تعيش إنسانيتها.. شعورها ذاك كان يملؤها بدفق من السعادة لا يوصف..." أنا إنسانة حقيقية، لي كياني،

استقلاليتي، حريتي، الله!! ما أروع أن تعيشي إنسانيتك يا أميرة!!" ولا تملك إلا أن تضحك وهي تتذكر ما كان والدها يريد لها"خذي ما تشائين من مال، وابقي هنا، تزوجي وأنجبي أولاداً، عمري لك بيتاً واستقري.. أما هذه الدراسة ووجع القلب فلماذا؟ "حين سمع بالبعثة، احتج معترضاً على سفرها كله" باريس غربة.. ومالك وللغربة؟" هناك انحلال، فساد فلماذا تعرضين نفسك للانحلال والفساد؟" يريد منها أن تكف عن الطموح، تقتنع بأن تكون حرمة من حريم الشرق، وكم تكره أن تكون حرمة!! هي تريد أن تكون صنوَ الرجل تعمل، تكافح مثلما يعمل الرجل ويكافح. هي تريد النجاة والسفينة التي يقودها القبطان سيف الدين تجنح وتجنح، تريد الخلاص وكل ما حولها يغرق في الحمأة أكثر وأكثر. هي تعلم ما من طريق لذلك سوى العلم، فلماذا يكره والدها لها النجاة؟ لماذا لا يريد لها الخلاص؟" القناعة كنز لا يفنى "قال لها في آخر محاولة" فاقنعي أميرة بما وصلت إليه أشتر لك بيتاً في أبي رمانة، أفتح صيدلية، أضع رصيداً في البنك، لكن لا تذهبي إلى بلاد الغرب.. وحدك هناك تذهبين فتلقين بنفسك إلى التهلكة... تضيعين يا أميرة "وكادت أمها حينذاك أن تقنع بما قاله والدها" حقاً!! ستضيعين... غداً يعجبك أجنبي فتتزوجينه ولا تعودين!! "قالت الأم مثنية على كلام زوجها" لا... لا تخافوا.. بلدي لا أتخلى عنه وزواج من أجنبي لن أتزوج.. سأكمل البعثة وأعود علني أستطيع خدمة بلادي فأفي مالها من ديون في عنقي!!" لكن ذلك كله لم يقنع الأب فرفض أن يذهب لوداعها....

في المطار أحست بنوع من الغصة وهي ترى غياب والدها، لكن سرعان ما نسيت تلك الغصة وقد جاء الآخرون جميعاً: أمها أختها، أخواها، عمها مصباح، امرأة عمها، بل حتى مأمون جاء مع زوجته: الكل قبلها، والكل زودها بالنصائح وأطيب التمنيات، لكن أكثر ما أنساها الغصة حين وصلت مطار شارل ديغول ووجدت ابن عمها أمين في انتظارها.

مفاجأة حقيقية كان قد صنعها لها عمها مصباح.

"أمين!! ابن عمي أمين" صاحت ما إن وقع ناظرها عليه، ثم أسرعت تلقي بنفسها بين ذراعيه: أخاً وأختاً جاءا من بطن واحد وظهر أحد...

منذ اثني عشر عاماً لم تكن قد رأته.. كانت في الرابعة عشرة، ناهدة الصدر، متفتحة الأنوثة حين غادر إلى باريس لدراسة الكمبيوتر.. درس وتخرج، جاءه عرض مغر للعمل فور تخرجه فقبل.. بعد ذلك تزوج وأنجب.. ثم بات من المتعذر عليه أن يعود إلى بلاده، أو طالته قوانين وقوانين..

طويلاً ضمها إلى صدره، كثيراً قبلها وشدها إليه: أخاً حقيقياً. "يا أنسام الوطن!! يا رائحة الأهل!!" كان يتمتم لها وهو يشدها بين ذراعيه.. "ابنة عمي

أميرة.. أختي العزيزة!! كم أنا سعيد بك!!" وقد أثبت أمين، بالدليل القاطع شدة سعادته بها... حقائبها حملها بنفسه كفارس من فرسان القرون الوسطى... البيت كله كان مشعشعاً احتفاء بها.. ابنته الصغيرة راحت تزقزق وهي تستقبلها، كأنما أعد لذلك منذ أيام.. بل حتى زوجته هشت وبشت، أهلت وسهلت على ندرة كلمات التأهيل والتسهيل في لغتها..

سبعة أيام ظلت في ضيافته، وظل هو في خدمتها.. في الخارج، في الداخل... هو متفرغ لها.. سبعة أيام. "إذن كم كنت على حق يا مأمون!!" كانت لا تنفك تخاطبه وهو بعيد.. فمع أخيه فقط، أدركت أميرة كيف يمكن لابن العم أن يكون أخاً، وكيف لذلك الشعور أن يطغى على ما عداه فيحجب عن الذكر أنوثة الفتاة وعن الفتاة ذكورة الذكر. مع أمين فقط، سامحت الأخ الآخر على تجاهله حبها، على عدم إحساسه بما تكنه له. طويلاً عانت أميرة، تريد أن تبوح له بحبها ولا تجرؤ، أن تعبر عما في نفسها ولا تستطيع. صغيرة لم تكبر كان يراها، أختاً لا أنثى كان يحس بها، وكانت تريده أن يفهم أن المهرة صارت فرساً، وأن ما في القلب هو هوى متأجج لا حب أخت، لكنها أخفقت.. أعيتها الحيل.

"عماه!! ما أقرب الطرق إلى قلب الرجل؟" سألت عمها ذات مرة فأجابها ضاحكاً "بطنه".. "فإن لم يكن لها طريق إلى بطنه.؟" "أميرة" قال العم يومذاك وقد أدرك أن الفتاة إزاء مشكلة" مذ وجد الإنسان، وزعت الطبيعة الأدوار، جعلت من الذكر والأنثى قطبين: أولهما موجب والثاني سالب. الموجب فاعل والسالب منفعل.. لكنهما متكاملان متفاعلان. تشكل المجتمع الشرقي فشوه تلك الأدوار. ألغى التفاعل وأبطل التكامل ليحيل الأنثى طريدة والذكر مطارداً". "تقصد لم يترك دوراً للأنثى.؟ ألغى فاعليتها؟" "أجل، طبقاً لتقاليد المجتمع الشرقي حسبها أن تشير: أنا جاهزة للحب.. جاهزة للتلقي.. فيبادر الآخر ويتحرك.." "فإن لم يحدث ذلك؟" "كان ما يشعر به الذكر شيئاً آخر غير حب الذكر للأنثى... ما بينهما دارة كهربائية غير دارة الجنس".. "أهناك حب آخر أو دارة أخرى؟" "كيف لا، وهناك حب الأمومة، الأبوة، الأخوة؟" وثبط عزيمتها كلام العم ذاك.. بل جعلها تغرق في الحزن واليأس وهي ترى أن ابن عمها لن يكون يوماً الذكر المبادر المطارد..

مع اليأس داخلها شعور بالحقد على مأمون، لكن ما إن التقت بأمين حتى زال كل ذلك الحقد، فقد أدركت معنى حب الأخوة ذاك.. بأريحية العربي وكرم الحاتمي استضافها ابن العم، بل حتى امرأته كانت بأريحيته وكرمه.. هل علّم العربي الفرنسية معنى الضيافة؟. لعله فيروس العدوى أصاب المرأة فكانت

مضيافة هي الأخرى.. لكن ما إن مضت الأيام السبعة حتى حملت أميرة أحمالها ومضت إلى شقة صغيرة قريبة من جامعتها.

هناك عاشت مع إحدى زميلاتها.. حيث كل شيء مسخر لخدمة الإنسان.. راتبها كبير، يمكنها أن تنفق بسخاء، تأكل، تلبس، تذهب، تجيء، كما تشتهي، لكن أين تذهب وتجيء وهي الطالبة المجدة؟ من الجامعة إلى البيت ومن البيت إلى الجامعة. تريد الاستفادة من كل دقيقة من وقتها. بلدها بحاجة إليها.إلى كل ذرة مما تكسب من علم.. هو الخارج من عباءة التخلف والجهل.. في عطلة الميلاد فقط ذهبت إلى الجبال، رأت التزلج على الثلج لكنها لم تمارسه.. في الربيع وصلت إلى بحر المانش في الشمال وفي الصيف مضت إلى البحر الأبيض المتوسط في الجنوب.. رأت شواطئه الجميلة، سابحاته الفاتنات.. استمتعت بأشعة الشمس ودفء الصيف، لكنها في كل الحالات لم تكن تغيب عن أمين وبيته، فهناك تشم رائحة الأهل، عبق الشرق، تنعم لحظات بتلك الطمأنينة التي لا تجدها الأخت إلا في كنف أخيها والبنت في بيت أبيها.

– أخي دياب آت، هل تذهب إلى المطار نستقبله؟ سألت ابن عمها.

– ولم لا؟ أنا بغاية الشوق لرؤية ما حل به...

ومضى ابن العم وابنة عمه أخوين يستقبلان أخاهما الثالث..

– أخشى أن يكون قد تغير كثيراً فلا أعرفه.. أفضى أمين بمخاوفه هامساً.

– صحيح أنه تغير.. لكنك ستعرفه.. كنتما كلاكما فوق العشرين حينما افترقتما..

– لكنها ثلاث عشر سنة لم أره فيها..

– السؤال الذي يشغلني دائماً: لماذا لم تكن تزورنا في العطل الصيفية؟

– لماذا لم تزوري أنت أهلك في هذه العطلة الصيفية؟

وأفحمت أميرة، شيء ما لا تدري كنهه كان قد جعلها تقرر: "أول عطلة، لا عودة إلى دمشق" صحيح أنها كانت مشتاقة لأهلها، لأمها، لعمها مصباح خاصة، لكن الصحيح أيضاً أنه كان لديهم تدريبات عملية وكان عليها أن تشتغل في نطاق البحث الدوائي الذي اختارته.. ثم، هناك البلاجات، شواطئ فرنسا الدافئة على المتوسط، ألا تستحق أن تزار في الصيف؟

– وصلت الطائرة، قطع أمين أفكارها مشيراً إلى لوحة الإعلانات وصوت المضيفة التي تتحدث الفرنسية بطريقة الهمس واللمس حتى ليتعذر على أميرة أن تفهم كلمة واحدة مما تقول..

ظهر دياب من الباب العريض الذي ينفتح آلياً فتبسمت أميرة تبسم الاطمئنان، ثم نظرت إلى أمين..." هل عرفه؟ "نظراته التائهة الباحثة في حشد الركاب الخارجين من الباب العريض الذي ينفتح آلياً لم تكن تدل على ذلك". بيده حق!! لقد تغير دياب كثيراً "قالت في نفسها ثم هتفت ملوحة بيدها تلويحة الدلالة:

– دياب!! دياب!! وحين تابع أمين بناظريه تلويحة اليد فغر فاه تماماً وهو ينظر إلى الرجل ذي الملابس الفاخرة والنظارتين السوداوين والغليون المذهب الذي ينفث الدخان طباقاً طباقاً.

– هذا هو دياب؟ سألها ابن العم فاغر الفم.. يا إلهي!! كم تغير!! أقسم لو اصطدمت به في هذا المطار لما عرفته.. هو الآن ممتلئ صحة.. مشرق عافية، بل هو أكثر طولاً ونضارة ووسامة.

– المال يفعل المستحيل، ردت ابنة العم هامسة.. يجعل القصير طويلاً، والقبيح جميلاً.. وضحكت ضحكة مبتسرة "ألم يقل الشاعر العربي: رأيت الناس شرهم الفقير!؟"

– أجل.. فسبحان الله!! كم أودع من سره في المال!!!

ثم توقف عن الحديث، وقد رأى أميرة تندفع، ربما بالغريزة والدم، إلى أخيها تحتضنه وتشبعه لثماً وتقبيلا. بشوق احتضن ابن العم ابن عمه أيضاً وبكثير من اللهفة استقبله.. ليمطره كلاهما، في الطريق، على الغداء، العشاء، بالأسئلة عن كل شيء هناك في دمشق.. كانت أميرة متشوقة لنتف الأخبار، وكان أمين لا يقل عنها تشوقاً وهو ينظر إلى ابن عمه فيرى ما طرأ عليه من تغير ليس في المظهر فقط بل في المخبر.. ثقة في النفس واعتداد بل حتى صوته صار له تلك النبرة المتأنية المتعالية "ياالله!! أين دياب البسيط، الفقير، الساذج الذي تركته؟". بإفاضة شديدة كان دياب يتحدث عن الثروة التي صارت لديهم.. عن النجاح الذي يحققه والدهم في ميدان التعهدات والمقاولات.. عن نجاحه هو في عالم السيارات والتجارة.

– اسمع، أريد أربعين سيارة بيجو، هل تستطيع مساعدتي في شرائها؟ سأل ابن عمه وهم يتعشون في مطعم"برجيه"، على حساب المضيفة الحاتمية، أميرة.

– بالطبع.. أستطيع.. لكن كيف ستأخذها؟ سأل أمين، سؤال الجاهل بالأمر كله..

– لا تخف.. أستأجر لها سواقين.. رد دياب من بين نفثات الدخان وغليونه ما يزال بين شفتيه.. سيارات المرسيدس نأخذها من ألمانيا هكذا دائماً.

– هذه المرة لم لا تأخذ مرسيدس؟

– سآخذ ستين مرسيدس.. لا تخف.. علي.. صفقة كبيرة تركتها قبل أن أجيء.. لكن قلت أبدأ بالبيجو..

– اطمئن.. ليس هناك أكثر من البيجو!! المعمل كله في خدمتك سعادة المليونير!! قال ابن العم ضاحكاً ضحكة هزت أعطافه لكن سرعان ما توقف، وابن عمه يخبره أنه يريدها مستعملة وليس من المعمل.

آخر السهرة عرض عليه كلاهما أن ينام لديه ضيفاً معززاً مكرماً، لكنه برم شفته:

– وهل جئت إلى باريس لأنام في بيت؟ لا.. لا ...أريد أرقى فنادق باريس.. أريد أن أستمتع بإقامتي في مدينة اللذائذ والمتع...

بعدئذ، وطوال خمسة عشر يوماً قضاها دياب في باريس، لم تستطع أميرة أن تراه سوى مرة واحدة.

ثم، طوال خمسة عشر يوماً أخرى ظل دياب في حركة دائبة بين ميونخ وكولون، بون ودسلدورف، فقد كان عليه أن يؤمن صفقة المرسيدس. كان شريكاه في ألمانيا قد استقبلاه خير استقبال: مرزوق المرادي من المغرب وسعد الله أبو سمرة من لبنان.. هما يعرفان ألمانيا شبراً شبرا، مدنها، قراها، أنهارها، طرقها، كلها كانا قد خبراها أطول خبرة.

كان مرزوق قد جاء قبل ثلاثة عشر عاماً لدراسة هندسة التعدين وسعد الله بعده بعام لدراسة الطب لكنهما كليهما أخفقا وقد أغرتهما التجارة والنساء فغرقا في سوقهما بعيداً عن الهندسة والطب.. لم تكن المرة الأولى التي يراهما فيها دياب.. لكنها كانت المرة الأولى التي يقيم فيها معهما مثل تلك المدة.. كان عليهم أن يترصدوا السيارات المستعملة ويشتروها: المرسيدس من مصنعها غالية، لكنها ما إن تنزل إلى السوق وتمشي بضعة آلاف من الكيلو مترات حتى ينخفض سعرها إلى النصف، إذن لم يشترونها من المصنع؟.

البحث تطلب منهم التنقل الكثير؟ لكن ما يهم؟.. التكنولوجيا ألغت المسافات.. دياب سعيد برحلته، يشعر أنه ملك العالم، الغليون في فمه، أرقى الفادق تحت تصرفه، ولا حدود عليه ولا قيود.. حين اجتاز الحدود إلى ألمانيا لفت نظره أن أحداً لم يسأل المسافرين الفرنسيين ولم يطلب منهم شيئاً..

– كيف؟ لو أراد واحدنا الذهاب إلى لبنان لوقف ساعتين في انتظار إجراءات الحدود، قال لصاحبيه أول ليلة، وهما يحتفيان به في ملهى، نساؤه كلهن عاريات. ولو أراد الذهاب إلى الأردن لوقف ساعات.. فكيف هنا لا يوقفون ولا يسألون؟.

– يا رجل!! يا رجل!! رد مرزوق المرادي بلهجته المغربية السريعة المضغوطة التي كان يتعذر على دياب أن يفهم معظمها. هنا.. يطبقون نظرية تمييع الحدود.. إلغاء الفواصل والقيود، أوروبا كلها تريد أن تصير دولة واحدة: تكتلاً قوياً يمكنه أن يقف في وجه أمريكا والاتحاد السوفييتي..

– يعني لن تعود هناك ألمانيا أو إنكلترا أو فرنسا.؟ سأل دياب وهو غير فاهم شيئاً..

– لا.. لا.. سيظل.. لكن ولايات ضمن اتحاد أوربي واحد.. وبذلك يلغون الحدود.

– مثلنا تماماً.. عقب سعد الله بنبرة من سخرية.. عندنا يزيدون الحدود ونحن أمة واحدة..

وهؤلاء يلغونها وهم أمم عديدة..

– لا.. لا تقل ذلك.. عقب مرزوق ضاحكاً.. عندنا في المغرب اتحاد مغاربي.. سنلغي فيه الحدود.

– حبر على ورق.. رد سعد الله..

– شباب.. سياسة.. لا.. صاح دياب مقاطعاً.. أنا أكره السياسة، لا تتكلموا بها.

– بماذا نتكلم إذن؟ سأل سعد الله هازئاً.

– بالجنس.. رد دياب المتشوق للانفلاش خارج كل قيد.

– الجنس.. أجاب مرزوق متلمظاً.. الآن، في أوروبا ثورة يدعونها ثورة الجنس.. يريدون أن تمحى الحدود بين الرجل والمرأة.. يصير هناك مونوسيكس..

– مونو.. ماذا؟ سأل دياب بكثير من الغباء الذي لم ينفعه التستر والادعاء.

– مونوسيكس.. أي الجنس الواحد.. لذلك ترى الرجال يحلقون شواربهم ويطيلون شعورهم، النساء يقصرن شعورهن ويقلبن مظاهر أنوثتهن، والجميع يلبسون الجينز ليكونوا متشابهين.. جنساً واحداً..

لكن ثلاث فتيات شقراوات جئن يتثنين بكل غنج الغانيات ودلالهن فقطعن الحديث..

في النهار كانوا يجرون لقاءات، يساومون، يعقدون صفقات وفي الليل يمضون إلى المرابع فليس أحب على قلب دياب من أن يستمتع بأحدث ما جادت به قرائح الأوربيين في ميدان الفن والجنس.

– ما رأيك، قال مرزوق لدياب وقد وصلوا إلى هامبورغ، نقضي ليلة من ليالي العمر هنا؟

– أجل، وتكون مسك الختام.. ثنى سعد الله بقدر غير قليل من الفرح..

كان دياب قد سمع شيئاً عن هذه المدينة الموغلة في الشمال، الرابضة قرب البحر، لكنه لم يكن قد زارها من قبل، فقال بنبرة الفضول:

– لم لا؟ نقضي ليلتنا في هامبورغ.. فنرى إن كان ما يروونه عنها صحيحاً..

في الليل ذهبوا إلى هامبورغ العبث واللهو.. شوارع، أزقة، مبان، أحياء بكاملها خصصت للهو والعبث. أجساد بيضاء، أجساد سمراء، فتيات زنجيات، أخريات صفراوات، وكلهن يعرضن أنفسهن أمام أبوابهن أو فوق أرائكهن. بارات، مراقص، موائد خضراء، موائد حمراء، كلها تتوزع هنا وهناك في هامبورغ اللهو والعبث. عروض الجنس في كل مكان، نوادي الستربتيز تقدم فتيات يتعرين، رجالاً يتعرون، ثم رجالاً ونساء يتعرون، مختلف الأوضاع يعرضها الستربتيز. مختلف الأوضاع تقدمها النوادي: رجال مع نساء، نساء مع نساء، رجال مع رجال حتى خيل لدياب أنه عاد إلى أيام لوط.. كانوا يتنقلون من مكان إلى مكان، كل عرض يغريهم بالآخر، وكل قبو يدفعهم إلى الآخر، إلى أن وصل بهم مرزوق المرادي إلى قبو لا رقص فيه ولا ستربيتيز، لا غناء ولا موسيقى.

كانت الأرض مفروشة على الطريقة العربية: بسط وسجاد، فرش وأرائك.. وكانت سحابة كثيفة من الدخان تغطي كل شيء.. بشق النفس استطاع دياب أن يرى الأجساد المتناثرة على المفارش هنا وهناك.. أنثى وذكر.. أربعة من إناث وذكور.. حلقة من ستة ذكور، حلقة من سبع إناث والكل متمدد على بطنه أو مستلق على ظهره، عاري الجذع أو عاري الحوض والساقين، أو عار كله.. هذا يدخن السيجار، ذاك الغليون، تلك السيجارة.. هذا يقبل هذه، تلك تعانق صاحبتها، ذاك يضاجع رفيقه، والكل لاه عن الكل.. غائب في دنيا التهويم والضياع.

– ما بهم هؤلاء؟ سأل دياب صاحبيه هامساً..

– سكارى وما هم بسكارى؟ رد مرزوق ضاحكاً..

– ماذا إذن؟

– مخدرون.. هنا الهيروئين، الكوكائين.. المريجوانا – ال دي.إس.دي والحشيشة..

- لكن يبدون جميعاً سعداء..

- بل هم في الجنة.. انظر.. عيونهم غائمة سعادة، وجوههم طافحة سعادة..

- من يستطيع الوصول إلى مثل هذه السعادة؟ غمغم دياب وهو ينظر بنوع من الحسد إلى تلك الزمر العجيبة من البشر في أوضاعها المختلفة..

- بسيطة، كلنا نستطيع، رد سعد الله وهو يلكز خاصرته.. افعل مثلهم.. خذلك سيجارة حشيش.. خذلك شمة هيروئين أو كوكائين.

- يا ليت!!

- هنا.. كل حلم يصبح حقيقة.. رد مرزوق وهو يمسك بذراعه متجهاً إلى طاولة وحيدة قصيرة الأرجل تتصدر القبو الغارق بالدخان، دعونا الليلة جميعاً نشم..

- أوه!! إحساس رائع!! عالم رائع، قال دياب وهو يضحك فرحاً متنقلاً بناظريه بين مرزوق وسعد الله بعد أن وضعت فتاة الطاولة في كفه كيساً صغيراً من مسحوق أبيض حبيباته بللورية، شمها فتسربت عبر خيشومه ناقلة إياه في الحال إلى عالم من الفرح، أبيض الغيوم، متطاير كالرذاذ..

- انتظر قليلاً.. تجد كل شيء أخف وأمتع.

- كيف لم أعرف هذا العالم من قبل؟ كيف لم أكتشفه؟

- هناك الكثير مما ينبغي أن تعرفه وتكتشفه يا صديقي.. قال مرزوق وهو يتمدد على أقرب فراش إلى الطاولة.. فيما اتكأ دياب على أريكة مقابلة وسعد الله على أريكة أخرى..

- ماذا تقصد؟ سأل دياب وهو يشعر بأجنحة أحلام ترفرف تحته رافعة إياه شيئاً فشيئاً إلى السماء..

- أقصد هذا العالم الرائع يمكننا أن نكون ملوكه.. نصنعه بأنفسنا للناس.. ونربح منه.. أتفهم علي؟ نربح كثيراً منه؟

- كيف؟ سأل دياب من جديد وهو يشعر أنه أصبح أبطأ فهماً بكثير..

- قل له سعد الله.. اشرح له..

وشرح سعد الله بكلام مقنع وحجة مفحمة كيف يمكنهم أن ينقلوا بسياراتهم الهيروئين والكوكائين من الغرب إلى الشرق ويأتوا بالحشيش من الشرق إلى الغرب.. فكم سيربحون؟

- لكن هناك خطورة.. تمتم دياب بشيء من خوف ربما يسكن لا وعيه.

– لا خطورة ولا ما يحزنون.. نحن نعرف جماعات تسلك هذا الطريق منذ سنين.. وأموالها الآن بمئات الملايين.. فقط كن حذراً واضحك على الشرطة والجمارك.. خبئ العبوات في أماكن لا يمكن اكتشافها تنقل ما تشاء وتأت بما تشاء..

الكلام مقنع والحجة مفحمة، خاصة وأن مرزوق المرادي أوضح له بصريح العبارة أنه يفعل ذلك مع جماعة أخرى تمسك الطريق إلى المغرب فلماذا لا يفتحون خطاً جديداً إلى لبنان، وهو مصدر أساسي من مصادر الحشيشة في العالم؟

وهكذا، لم تنته تلك الليلة حتى كان الشركاء الثلاثة قد اتفقوا على خطة التهريب، مصادره، تمويله، طرقه وحتى الأناس الذين سيتعاون معهم دياب في بيروت..

مائة ألف دولار كانت حصته من النقلة الأولى التي حملها بسيارته المرسيدس والبيجو ضمن خزانات سرية أعدت خصيصاً لتلك المهمة، ورغم أن بيروت كانت ماتزال غارقة في أوحال الحرب الأهلية.. فجنبلاط يحارب جعجع.. وأمل تشتبك مع حزب الله، قوات إسرائيل في الجنوب، وقوات سورية في الشرق والشمال، إلا أن الطرق كانت سالكة في وجه الهيروئين والكوكائين، دله عليها أعوان سعد الله وشركاؤه، مهدوا له كل عائق ثم طافوا به في جرود بعلبك والهرمل حيث رأى بأم عينه مزارع الحشيشة، مصانعها، وكذلك المطارات الخاصة التي كانت تطيِّر منها حمولاتها إلى مختلف الأصقاع والبقاع. وأدرك دياب وهو يعود إلى دمشق أنه كان مغفلاً طوال ذلك الوقت: يكتفي بأرباحه من بيع السيارات المستعملة أو قطع التبديل، أي غباء هذا؟ أية غفلة؟ باب الثروة الآن يفتح على مصراعيه.. "لن أعتمد على أبي بعد اليوم، لن أحتاج له ولا لأمواله.." كان يقول في نفسه وهو يدخل إلى البيت في دمشق.. فيرى أنه واحد من عدة أشخاص في ذلك البيت.. ليس له منه سوى غرفة..

– أبي، سأشتري بيتاً لنفسي أسكن فيه.. قال للأب الذي كان يقوم بإحدى زياراته القليلة إلى البيت..

– وماذا في ذلك؟ هذا من حقك.. اشتر.. اسكن.. تزوج..

– أتزوج!؟ لا.. لا.. قال الابن الذي لم يكن يعنيه من الزواج سوى ابنة عمه نور.. لكن ابنة عمه رفضته وابن عمه ضربه.. ثم ثارت مشكلة كادت تودي به إلى الهاوية ولم ينهها الأخوان إلا بشق النفس..

– ماذا تريد إذن؟

– أن أستقل.. أن يكون لي بيتي..

– ومن يضايقك هنا يا بني؟ تدخلت الأم بقلب كسير يرى خسائره تترى واحدة تلو الأخرى، إن كنت لا تريد الزواج فهنا خير لك.. على الأقل.. هنا خادمة تخدمك.. أمك ترعاك..

– لا.. لا.. دعيه يستقل.. قاطعها الأب ثم توقف لحظة متفرساً فيه النظر، وإن كنت بحاجة لمال، مرَّ بي غداً إلى المكتب، خذ ما تحتاج ..

لم يكن في ذهن دياب أن يأخذ من أبيه مالاً. هو نفسه لديه الكثير من المال وباستطاعته أن يشتري الكثير من البيوت.. لكن لم لا يأخذ منه؟ أليس خيراً من أن تأخذه زوجاته الأخريات؟ دياب يشعر بالغيظ كلما فكر بأبيه وزوجاته.. ما الذي يجعله مطية للنساء هو الكهل الأكرش الذي كان يوماً بعد يوم يذهب بالطول والعرض؟ ما الذي يدفعه للإكثار منهن وهن يحلبنه حلبا؟ الشقراء، السمراء، البيضاء، كلهن كان يعرفهن دياب، وكلهن كان واثقاً من أنهن لم يتزوجنه إلا لغرض واحد... الذهب معبودهن، صفقة تعقدها واحدتهن: جسدها مقابل ماله.. فلماذا لا يأخذ من ذلك المال وهو ابنه والأولى بما يملك؟.

لكن قبل أن يمر بأبيه في المكتب مر بمكتب الدلال.

– أجل، لدي بيت ولا أحسن.. قال له الدلال ثم أخذه إليه، أراه إياه غرفة غرفة وركناً ركناً. أعجبه البيت موقعاً وحجماً واتفق مع الدلال ثم مضى إلى أبيه..

– البيت على حديقة الجاحظ.. بسبعة عشرة مليوناً.. معي سبعة وتعطيني أنت عشرة ملايين.. وكتب له الأب الذي لا يحسن فك الحرف إلا بالكاد، شيكاً بعشرة ملايين وقعه على مهل ثم قدمه له مؤكداً:

– لكن دياب.. اسمع مني.. تزوج..

– سأتزوج يا أبي.. صدقني.. لكن حين أجد بنت الحلال..

– الغبية.. نور.. لو أخذتك.. لكان قد صار لكما الآن عدة أولاد..

– هي التي خسرت.. رد دياب ضاحكاً لكن في ضحكه مرارة، منذ أيام حكى لي أحدهم: هي وزوجها يشتغلان كالحمير كي يعيشا.. وبماذا؟ بالبول والبراز والدم.. لو تزوجتني لكانت السيدة المغنجة المدللة التي تسبح في بحار من الذهب والفضة!!!

– ألم أقل لك غبية؟ المهم اذهب الآن. اشتر البيت. وابحث لك عن بنت

حلال.

اشترى دياب البيت، لكنه لم يبحث عن بنت حلال، ولماذا يبحث؟ البنات كثيرات.. أكثر من الهموم على قلوب الفقراء.. أليس معه مال؟ أليست سيارته ب. م؟ ألا يملك بيتاً واسعاً شاسعاً؟ إذن حسبه أن يشير بيده فتأتي خمس بنات، يومئ بالأخرى فتظهر سبع أخريات.. الحاجة للمال كانت قد غيرت الناس، شريكه حسام شرح له السبب ذات مرة.. المفاهيم القديمة، القيم القديمة كلها تلاشت أخيراً بخاراً في حر صيف.. الشرف، العفة، من تراه يستطيع التمسك بها اليوم؟ الآن الحاجة، العوز، الفقر.. هذه وحدها التي تحكم حياة الإنسان وسلوكه.. طالبة الجامعة التي لا يستطيع والدها توفير حاجاتها، ماذا تفعل؟ كيف تؤمن المظهر اللائق؟ الفساتين والعطور؟ ثمة طريق واحدة.. إنها المهنة الأقدم في العالم.. وكما كانت فتيات بابل يذهبن إلى المعبد ليقدمن أجسادهن قرباناً للربة عشتار، إلهة الخصب والخير، هكذا تذهب الآن الفتيات والنساء ليضحين بأعز ما يملكن على مذبح يهوه، رب اليهود: المال.

كان حسام عارفاً بأسرار المجتمع خبيراً بخفاياه، وكان دياب قد أسلم له قياده، لا في عالم السيارات وحسب، بل في عالم المرأة أيضاً، وكان يتعلم منه الكثير. أخته شاهة، مذ فتحت محل الملابس ذاك، فتحت له كوة أمل واسعة.. كان حسبه أن يذهب إليها، يجلس في المحل، ليراقب أسراب الغاديات الرائحات، وكلهن جميلات.. كلهن تتحلب أفواههن لثوب جميل جديد جاء من باريس أو روما.. كانت شاهة تتعرف إليهن، بعضهن زبائنها، بعضهن أصبحن صديقات.. تعجبه المرأة فيغمز بعينه ، ترد شاهة بالطريقة نفسها، فيسرع إلى المرأة ووسيلة التقرب ثوب يشتريه لها أو دعوة لعشاء..

هو في مكتبه، كثيراً ما يرن الهاتف، يرفع السماعة فيأتيه صوت امرأة"تريد بنات!؟ سمراوات، شقراوات، ما تشاء لدينا، أبكار، ثيبات أيضاً لدينا.. اطلب وتمنّ، فقط، دق هذا الرقم. وبكل جرأة وثقة بالنفس تعطيه المرأة الرقم، أكثر من مرة دق دياب الرقم ولبى طلبه.. لا.. ما عادت هناك مشكلة بنت!! هناك مشكلة زواج فقط.." ترى لماذا أتزوج؟" كان يسأل نفسه أحياناً، ..ألكي تخدعني زوجتي؟ تكذب علي وتخونني؟" كانت صدمة نور وتجربته مع المرأة قد أفقدتاه كل ثقة بالمرأة، "لا، لا أريد الزواج.. حسب أبي أنه متورط حتى شحمة أذنيه. حسب شاهة أنها تعيسة"..

إذ غالباً ما كانت شاهة تشكو له "سمير بك الأدهم، هذا الوغد الخسيس، يعاملني كأني حشرة، يمتصني كأنه أخطبوط، فماذا أفعل دياب؟ ماذا أفعل؟" لكن دياب لم يكن يملك جواباً.

كانت شاهة قد تخلصت من أمه وأخته فلم تعد تراهما ولا تريانها، لكن كان ثمة الأولاد ولهما الحق في أن ترياهم.. بل هي لا تستطيع منعهما مذ افتتحت المحل. إذ تغيب عن البيت ساعات وعند السفر أياماً وليالي. ثمة أيضاً الزوج الذي يتحول إلى أذنين وحسب حين تحضر الأم والأخت، وتتحول كل منهما إلى لسان قاطع كحد السيف.. بماذا يشحنانه؟ كيف يعبئانه ضدها؟ هي لا تعلم... كل ما تعلمه أنهما كلتيهما اختصاصيتان بارعتان في الكيد.. الكيد تلك الكلمة التي التصقت بالمرأة لا تحول عنها ولا تزول.. ذات مرة سمعت طرفة "يروي أن رجلاً رأى إبليس يسوق أربعة حمير على ظهر كل منهما حمل، سأله الرجل"ماهذا الحمل؟" فقال إبليس"الجشع" قال"ومن يشتريه؟" قال"التجار" و"هذا؟" سأل الرجل مشيراً إلى الثاني، قال إبليس"الجور" ومن يشتريه؟ "قال" "الحكام" والثالث؟ سأله الرجل فأجاب"الحسد" ومن يشتريه؟" "العلماء"، و"الرابع؟" سأل الرجل إبليس فرد"الكيد" و"من يشتريه؟" "المرأة.. ومن يتعامل بالكيد والتآمر غير المرأة؟".

يومذاك ضحكت شاهة حتى انقلبت على قفاها وهي تتذكر حماتها وابنتها. هي تود من كل قلبها لو تسمعهما فقط كيف تكيدان لها، ماذا ترسمان من مخططات وتدبران من مؤامرات، فزوجها كان لا يفتأ يلاحقها بمطالبه، بل مخه لا يفرغ من طلب أو طريقة للضغط. شاهة تضطر لأن تلبي، فالرجل جميل المحيا، رائع الهيئة، حسن القامة، النساء كلهن يحسدنها عليه، وهي تود، بكل ما لديها من طاقة أن تحافظ عليه.. ولكي تفعل ذلك كانت تدفع.. هي تعلم أنه يستغلها، مع ذلك كانت تذعن له وتدفع.. "ليكن" قالت ذات مرة لصديقتها سلوى، تلك المرأة التي اغتيل زوجها ذات يوم فانطلقت بعده وكأنها عفريتة تخرج من قمقم." ما أدفعه له إنما هو أجره، "لكنه استغلال، استعباد، والمرأة الآن أحوج ما تكون إلى الحرية والاستقلال"، احتجت سلوى التي كانت قد ذاقت جيداً طعم الاستقلال والحرية.." حريتي في يدي لا يستطيع أحد أن يسلبني إياها"، ردت شاهة بكثير من الاعتداد بالنفس، لكنها بعد ذلك عرفت أنها على خطأ، فالرجل بدأ يكثر من تردده على المحل، يتدخل في البيع والشراء، يجلس وراء الصندوق أحياناً، ولا يغادر المحل إلا وقد أغلقته العاملات في المساء.

"ما بك؟ لماذا تداوم وتتعب نفسك؟" سألته شاهة وقد طفح كيل تدخله حتى بات يفرض نفسه رأساً آخر للجسم.. "الحقيقة أنا أتدرب على العمل لكي أريحك فتعودي أنت إلى البيت ترعين الأطفال وأنا أعمل في المحل." لم تجب شاهة، فقد شمت رائحة مكيدة في الأمر، أحست معها أنه لابد لها من التفكير كي تحسن الرد.. سمير بك الأدهم اعتبر سكوتها قبولاً، فغدا أكثر تشبثاً بالحضور..

"شاهة، حبوبتي"، فاجأها ذات يوم، "ما رأيك أن تعطيني وكالة عامة بالمحل؟" "وكالة عامة؟" سألته بمزيج من الاستغراب والتباله"، "أجل... أتحرك بحرية أكثر، أشتري، أبيع، وعلى نحو لا أضطر معه لإزعاجك". "الرائحة نفسها شمتها شاهة، لكنها آثرت الالتفاف.. فالمواجهة قد تكون أشد وطأة من أن تتحملها علاقتهما الواهية أصلاً. إذن، لتلتف، وطوال تلك الليلة ظل سمير بك الأدهم مثال الزوج المتيم: في المحل، في المطعم حيث دعاها للعشاء، على الفراش وهو يمطرها بشآبيب الحب والغرام.. الالتفاف كان كلمة واحدة "دعني أفكر" ولم يكن يملك إلا أن يدعها تفكر. هو يريد أن تحرر له وكالة عامة يكون معها حر التصرف بالمحل.. البيت.. السيارة.. الرصيد في البنك.. إذن، هناك خطة كبيرة، لاشك أنهم هم الثلاثة اتفقوا على رسمها، فماذا تقول له؟.

سألت كل من حولها طالبة المشورة فانتفض كل من حولها "حذار، لا تسلميه عنقك." لكن ماذا أقول له؟" "راوغيه"، "هو يريد الجواب ولم يعد باستطاعتي مراوغته".

دياب أصر أن تقول له الحقيقة بل أن ترفض طلبه هذا نهاراً جهاراً، وليبلط البحر.. شاهة تعلم أن أخاها لا يعرف الحساب، فهو لم يتعد الصفوف الأولى في المدرسة، لكن أن تستجيب لطلب الرجل أمر مستحيل أيضاً.. ووجدت سلوى مخرجاً: السفر. كان موسم الشتاء على الأبواب وكان المحل بحاجة لملابس.. فربت دياب كتف أخته إعجاباً بالحل الذي اكتشفته... "ذاهبة إلى باريس؟ إذن سترين أختك.." قال لها، لكن تبين أن الأخت ذاهبة إلى لندن فالصيت في الأزياء لباريس والفعل للندن. هكذا قالت له شاهة.." لكنني قد أعرج على باريس . "وكاد يحكي لها عن الملاهي المثيرة والنساء الساحرات في باريس قبل أن يفطن أنه يتحدث إلى أخته. تلجلج لسانه في فمه قليلاً ثم نهض، وقد شغله شاغل. "ترى كيف نغض النظر عنها؟ كيف ندعها تسافر؟ ومع من؟ مع سلوى!؟ ألن تذهبا إلى الملاهي والكازينوهات؟ ألن تتعرضا للتحرش والمضايقة؟ أم تراهما ستتسكعان هناك في لندن لالتقاط رجلين يؤنسان وحدتهما؟ "كان يتساءل وهو في طريقه إلى نادي الذروة، فلم يملك إلا أن يلعن خلفة البنات اللواتي ينكسن الرأس لكن ماذا يفعل وقد غدا من الطبقة الراقية، والطبقة الراقية تنادي بحقوق المرأة من حرية ومساواة؟

فهد في نادي الذروة يرفع الرأس. منذ افتتاح النادي بل منذ دخوله ملهى النجوم على طريق المطار، كان دياب يستفيد من خدمات أخيه.. هناك، كانت مطربات الغجر وراقصات النور يستقطبن السياح الخليجيين كما يستقطبنه هو نفسه. لكن في نادي الذروة بات بإمكانه أن يجد اليونانية والإيطالية، الفرنسية

والأسبانية بل حتى الإنكليزية والألمانية.. كيف شموا رائحة هذا النادي؟ لا أحد يدري أهو مبدأ النحلة وذقن الدباس؟ ربما، لكن دياب الذي افتقد الألمانيات والفرنسيات منذ عودته من أوروبا كان يود أن يجد واحدة منهن زرقاء العينين، شقراء الشعر، حليبية البشرة، تذوب بين يديه خمرة في كأس فيرتشفها ارتشافاً..

في نادي الذروة يجد المرء كل ما يشتهي: أفخر المأكولات، أرقى المشروبات، أروع الألعاب والتسليات.. وكان دياب يذهب إلى المائدة الخضراء خلسة، يلعب الروليت الذي يسحره قرصها وهو يدور فيما الأعين معلقة به والأفئدة مشرئبة إليه وكل منها يتمنى أن يقف على رقمه فيربح..

–فهد، أسرع إلى نجدتي، أنا الليلة جوعانٍ، عطشان، خرمان، وغمز بعينه وهو يلف ذراعه حول كتف أخيه ضاحكاً..

– خسئ الجوع والعطش والخرم، رد عليه فهد وهو يغمز غمزة مماثلة، سائراً به إلى مكتبه ذي الواجهة البلورية التي يمكن منها أن يرى بهو النادي والعديد من ممراته..

كانت"الشحنة"، التي جاء بها من أوروبا في خزانات يخفيها جيداً باطن سيارته، قد توزعت في بيروت لكن بعضها وجد طريقه إلى نادي الذروة.. "النادي بحاجة ماسة للهيروئين والكوكائين، "كان فهد قد حدثه ذات ليلة." عليه القوم تطالب بهما، الفنانون والفنانات لا يعملون بدونهما". حدثه في ليلة ثانية، وفي ليلة ثالثة، قال له وهو يشير إلى مطرب مشهور "ذلك المطرب لا يصعد إلى الحلبة إلا وقد شم، لا يستطيع الغناء إلا وقد غاب في دنيا الهيروئين". "هذه الفنانة مدمنة على الماريجوانا"، أخبره في ليلة رابعة "تلك المغنية تحب الحشيشة، وعليك أن تؤمن لكل منهم ما يحب ويشتهي". لهذا، حين جاء بشحنته، كان أول من فكر فيه هو فهد وناديه.. همس له بالسر فهش وبش، وعلى الفور عقد اتفاق بين الأخوين: فهد يوفر له سوق التصريف ودياب يأتي بالمواد... "ومتى وصلت المادة، لا خوف ولا ما يحزنون،" قال فهد مطمئناً "النادي منطقة حرة لا رقيب فيها ولا حسيب، مملكة مستقلة لا سيادة لأحد عليها ولا علاقة للدولة بها.."

دخل الأخوان إلى المكتب، فتح فهد درج طاولته، ثم أخرج منه كيساً صغيراً من مسحوق أبيض.

– لا.. لا.. نظر إليه دياب وهو يضحك، ليس خرمي على هذا.. فلدي منه الكثير.. خرمي على الشقراوات ذوات العيون الزرقاء.

– هكذا إذن!! رد فهد وهو يعيد الكيس إلى مكانه.. أفسدتك أوروبا يا

رجل!! شقراء ذات عيون زرقاء!! أهذا هو الصنف الذي يعجبك؟.

– بل يبهرني!! السمراوات، الغجريات، بل حتى ذوات البشرة البيضاء لم يعدن يجذبنني.. أريد شعر الذهب وعيون البحر.

– تزوج واحدة.. اثنتين.. ثلاثاً..

– لا.. لا.. تريدني أن أعيد غلطة أبيك..

– أبي، رد فهد وهو يلوح برأسه ممتعضاً، من كان يظن أنه يحمل ذلك الشره للنساء؟

– شره؟

– أجل.. تصور.. يريد أن يجرب أصناف النساء كلهن: الشقراء التي يشبهها بشهد العسل حلاوة، السمراء التي يشبهها بالقهوة الساخنة، يرتشفها المرء ويتلذذ، البيضاء الأشبه باللبن المبرد بالثلج، اشربه وقت الحر تهنأ به وتنعم..

– ما.. ما هذا الذي تقوله؟ قال دياب ضاحكاً مستغرباً،

– لست أنا من يقول.. بل هو.. أبوك..قبل أيام سمعته يحدث أصحابه وهم يضحكون.. وبيني وبينك، اقترب فهد من أخيه هامساً.. هو يفكر بامرأة رابعة على أن تكون زنجية بلون الأبنوس، ذاك الخشب الأسود اللامع.. فالزنجيات وحدهن لم يجربهن..

– زنجية،؟ تساءل دياب بشيء من قرف..

– وربما فكر ذات يوم بتجريب العرق الأصفر.. صينية أو يابانية.

قال فهد بنبرة السخرية:

ثم الخلاسيات من بنات الكاريبي..

– لكن الشرع لا يسمح له سوى بأربع.. احتج دياب بامتعاض.

– ربما سيبدأ بتطليق من عنده من النساء.. رد فهد بشيء من تفكر..

– المهم ألا يقرب أمنا؟

– لا.. أمنا.. لا.. وإن فكر بذلك يجب أن نمنعه. بالقوة، باللين، يجب أن نمنعه..

– أجل.. يجب أن نفعل ذلك، فكم يكلفه الزواج من مال؟

– لا تسأل عن المال.. حنفية ذهب يفتحها لكل زوجة من زوجاته وخذ يا إنفاق!!

– أليس ذلك كله على حسابنا!؟

– بالطبع، رد بشيء من حماسة، والحقيقة.. منذ زمن أود أن أحدثك بهذا الأمر.. من اليوم فصاعداً.. يجب أن نفكر بأنفسنا، نبني ثرواتنا المستقلة، مستقبلنا الخاص..

– أنا بدأت ذلك.. عاد دياب للاقتراب من أخيه كي يهمس في أذنه.. مشروعي الجديد لن أطلعه عليه.. كل ما أربحه من الصفقات القادمة سيكون لي...

– المشكلة فيَّ أنا.. لست مستقلاً.. في هذا النادي، ذلك الملهى،.. لم أستطع أن أخرج من القفص..

– يجب أن تخرج.. يجب أن تعمل لنفسك.. تبني ثروتك الخاصة..

– سأفكر بذلك.. غمغم فهد شارداً قليلاً ربما وهو يفكر..

– وريثما تفكر، رد دياب لاكزاً إياه ممازحاً، أتريدنا أن نظل قابعين هنا؟ أين وعدك؟ أين شقراؤك ذات العيون الزرقاء؟..

– لن تستطيع رؤيتها قبل أن تقدم نمرتها..

– إذن.. سأذهب إلى هناك، قال وهو ينهض مشيراً باتجاه الصالة التي تتوزع فيها موائد القمار وألعاب الحظ..

– اذهب.. تسلَّ.. قال فهد وهو ينهض معه خارجين إلى بهو الاستقبال الواسع المزين بأجمل الرسوم والزخارف. في الزوايا، هنا وهناك، كانت مقاعد وثيرة وأرائك واسعة تتجمع ثلاث ورباع، فيتجمع عليها الرواد، يستريحون، يشربون، يتحادثون وربما يتفاوضون ويتساومون.

ففي نادي الذروة الكل تاجر يعقد الصفقات ويبتغي الربح.. والكل يريد أن يكون حوتاً يلتهم بقية الأسماك..

قريباً من أحد تلك التجمعات، وقف فهد وقد تسمر في مكانه هامساً في إذن أخيه:

– انظر إلى يمينك.. هذه الفتاة تخلب لبي!!

– من هي؟

– لا أدري.. قبل شهر فقط جاءت.. رأيتها ففعلت بي ما فعلته الآن.. هي مغناطيس هائل الجاذبية، لا أملك حياله إلا أن أنجذب..

– لِمَ لم تذهب إليها؟ لم تكلمها، وأنت الخبير بالنساء، زير النساء؟

– حاولت، صدقني.. لكني لم أستطع.. كانت أختها مع"المعلم" بكل أوسمته

ونياشينه ولم أجرؤ على الاقتراب..

– إذن.. أطعني دعك منها.. مع"المعلم" يعني أنها خطرة.. قال وهو يحاول الابتعاد به..

– لا.. لا.. هي ذي المرأة التي كنت أبحث عنها، قال وهو يتمسك بمكانه قريباً لا يبرحه.. صدقني.. هي ذي الصورة التي كنت أحلم بها.. ولن أدعها تفلت هذه المرة..

– إذن، أدعك لها الآن.. قال وهو يخطو مبتعداً، لكنه توقف فجأة ثم عاد يحدثه بصوت الواعظ محركاً سبابته في وجهه: فهد، بماذا أوصيك؟ كن كالشاطر حسن، بِضربة واحدة من سيفك، اقطع رأس الغولة أو قطعت هي رأسك، لا تثنِّ أبداً.. أو عادت فالتهمتك... وبضكحة عالية، دار على عقبيه، ثم مضى بعيداً فيما تبسم فهد وهو يعود بناظريه إلى ساحرته. كانوا أربعة: الفتاة، أختها، ورجلين لايعرفهما.. هما في عز الشباب، ليسا كهلين أشيبين"كالمعلم" و"الوزير" الآخر اللذين كانا المرة الماضية. سار بحذائهما متصنعاً اللامبالاة، فسمعهم يتكلمون.. "هم لبنانيون.. نكتهم، لهجتهم، ضحكهم.. لابد أنهم جاؤوا من بيروت حيث ماتزال الحرب مستعرة والعماد عون يخوض معارك حامية الوطيس مع قوات جاءت لردع المتعاركين وإيقاف الحرب".

– مالك ساهما فهد؟ سأله شوكة الداهوك وهو يمر به متوجهاً إلى تجمع آخر يضم أكثر من عشرة رجال.

– هذه الفتاة فتنتني، همس في أذن الرجل مشيراً بطرف عينه إلى الفتاة..

– كلك ذوق.. مثل أبيك تعرف طعم فمك.. إنها أخت ملكة جمال الكون..

– ماذا؟ رد فهد شبه هاتف وهو يفغر فاه ويجحظ عينيه.

– أيعقل فهد؟ أنت لا تعرف أختها.. أشهر شهيرات العالم؟

– أقسم لك، والله لا أعرف..

– قبل بضع سنوات فقط كانت شغل العالم الشاغل.. تابع شوكة وهو يهز رأسه.. صورها في المجلات، الصحف، التحقيقات عنها.. المقابلات معها..

– لكن من يهتم بالمجلات والصحف؟ بل من قرأ صحيفة واحدة في عمره؟

– أعلم.. أعلم.. هيا تعال نجلس هنا.. الريس يتحدث وحديثه شيق. دون مقاومة، سحب شوكة ابن شريكه إلى تجمع الرجال، في طرف الصالة ودونما كلام جلسا يصغيان إلى صدر الدين، شهبندر التجار، بطربوشه الأحمر وعصاه المفضضة وسلساله الذهبي، وهو يتحدث إلى رجال، أصغرهم في الخمسين.

– الرعاع لا يصلحون لشيء، كان يقول للتجمع الذي تحول كله إلى آذان صاغية.. منذ بدء الخليقة، الرعاع هم علة هذا الوجود فهم بلا أدمغة، بلا تفكير، بلا مطامح.. مثلهم مثل الحشرات التي لا تملك غير أن تؤذي.. انظروا إليهم.. إنهم يقززون النفس بفقرهم وتعسهم، بثيابهم الرثة وأكواخهم البائسة، بأولادهم الحفاة العراة ونسائهم الناحلات القذرات.. هذه الطبقة.. هي التي تحدث عنها حكماؤنا منذ القديم فقالوا إنها غوييم...

– غوييم!؟ ماذا تعني يا ريس؟ سأله أحدهم بكثير من الخشوع والرهبة.

–البهائم، القطيع.. الذي لا يحسن شيئاً غير أن يرعى.. فإذا رعى وسمن علينا نحن الصفوة المختارة أن نستفيد من صوفه، لحمه، شحمه،..

– كيف يا ريس؟ سأله آخر، وبينا بدا شوكة الداهوك مستغرقاً في الحديث حتى شحمة أذنيه، كان فهد يعطي أذناً للريس وأذناً أخرى مع عينيه كلتيهما، للتجمع الآخر حيث ملكة الجمال وأخت ملكة الجمال.

– تسألني كيف؟ كرر الريس، مثلما يستفيد الراعي من قطيعه.. نحن في هذا المجتمع الرعاة والرعاع هم القطيع.. ولكي نظل الرعاة المسيطرين، على القطيع أن يظل أكثر خضوعاً وذلاً ونحن أكثر قوة وبأساً.

– وكيف نكون أكثر قوة؟ سأله تابع آخر.

– رأس القوة المال.. أس القوة في عالمنا الذهب والفضة.. إذن.. اجنوا ما استطعتم منهما، افعلوا ما شئتم، فقط احصلوا عليها.. لدينا.. الغاية تبرر الوسيلة.. وغايتنا المقدسة هي: الوصول إلى رب العزة والسلطان: المال. ارشوا، ارتشوا، داوروا، التفوا، تآمروا، دسوا...المهم أن تكونوا أنتم أصحاب الثروة، أصحاب القوة، أصحاب السلطان.. لكن فهد لم يستطع المتابعة، فقد جاء رجلان مهيبان متقدمان في السن إلى تجمع ملكة الجمال، سلموا على بعضهم بعضاً، بعدئذ، ودون أن يقعدوا من جديد، انطلقوا مبتعدين.. في البداية، أوشك قلب فهد أن يتوقف"أيعقل أن يرحلوا بهذه السرعة؟" لكن سرعان ما اطمأن وهو يراهم ينحرفون باتجاه المطعم.

في الحال هب فهد دون أن يلتفت إلى شوكة أو"الريس" ذي الطربوش الأحمر والسلسال الذهبي الذي كان مايزال يلقي مواعظه على مريديه. فهد يراهم كلما جاؤوا.. يجلسون، يتحدثون ثم يذهبون إلى تلك القاعة الحمراء الفاخرة التي استأجرها الرجل لاجتماعاته. لم يكن فهد يعلم ما الذي كان يجري داخل تلك القاعة، ولم يسأل... هو غير معني، فلماذا يسأل؟ في بهو الاستقبال، كان يسمع الريس أحياناً وهو يتكلم عن أولئك الرعاع بحقد وسخرية، بل لقد

سمعه ذات مرة يقول"المثل عندنا:.. "إن رأيت أعمى طبَّه، لست أكرم من ربه"، وهكذا الفقير، إذا رأيته اضحك عليه، احتل وانصب حتى تسلبه كل ما يملك فلو كان يستحق المال لوهبه الله إياه!! هو فقير.. لأنه لا يستحق إلا أن يكون فقيراً... الخادم خادم لأنه لا يستحق أن يكون سيداً.. لقد خلقنا الله سادة وعبيداً، وعلينا، نحن السادة، أن نكرس سيادتنا بكل ما لدينا من قوة، وأن نرسخ عبوديتهم بكل ما لدينا من قوة أيضاً"..

وضحك فهد حينذاك، ضحك ملء فمه فرحاً، لا لشيء إلا لأنه كان من السادة وليس من العبيد..

في المطعم خافت الأضواء، رومانسي الأجواء، كانت الفتاة الساحرة وأختها ملكة جمال الكون والرجال الأربعة قد اقتعدوا طاولة قرب حلبة الرقص. إلى جوارها كانت طاولة من خمسة عشر رجلاً بلا امرأة.. على رأسهم والده فمضى إليهم. حيا ثم وقف خلف والده وعيناه على الفتاة الساحرة لا تريمان. كان الرجال الخمسة عشر يحتفلون بأبي سامي المدير العام المنتفخ الصدر كالطاوس..

– كأس الدكتور أبي سامي، رفع أحدهم النخب فلم يملك فهد إلا أن يتعجب:

– دكتور!؟

– بالطبع.. اليوم أبو سامي دكتور في الاقتصاد وإدارة الأعمال واحتفالنا هذه الليلة بمناسبة حصوله على الشهادة من موسكو، قال أحدهم مفسراً..

– لكنه لم يكن في موسكو.. رد فهد متسائلاً، أم أنك كنت تفعل ذلك من ورائنا عم أبا سامي؟ تابع بنبرة الممازحة..

– اسمعني فهد: الغايات بالوسائل، وإذا ما توفرت لك الوسائل لماذا لا تصل إلى كل غاية من غاياتك؟

– لم أفهم.. عم.. أرجوك. كلمني على قد عقلي..

– أنت خبيث فهد، رد الدكتور أبو سامي وهو يربت كتف فهد تربيتة كادت توقعه أرضاً. لنفرض أنك تريد لقب دكتور ولا تستطيع الدرس،

.. ماذا تفعل..؟ تركب المال مطية والذهب وسيلة تحصل على ذلك اللقب.

– يعني باستطاعتي أن أصبح دكتوراً؟ على نحو مفاجئ، سأل أبو دياب ممازحاً لكن بشيء من عيه القديم..

– بالتأكيد.. ودكتوراه في الاقتصاد والسياسة إن شئت..

- أشاء!؟ طبعاً أشاء!! والليلة قبل الغد، تابع أبو دياب وهو يرى المزاح ينقلب إلى جد.

- خمسة آلاف دولار وثلاث رحلات إلى الاتحاد السوفيتي، قال أبو سامي بكل الجد..

-خذ عشرة آلاف دولار وست رحلات إلى الاتحاد السوفييتي..

- وأنت، اعتبر نفسك دكتوراً منذ الآن.. فقط، أعطني عشرة أشهر..سنة وتكون الدكتوراه في جيبك..

- لكن، تدخل أحد الحضور وعلى محياه علائم الاستغراب، أبا سامي، لا تنسَ.. هو ليس مثلك يحمل شهادة جامعية.. أبو دياب لا يفك الحرف إلا بالكاد..

- وماذا في ذلك؟ شاغال في موسكو لا يسأل عن شهادتك.. هو يسأل عن الخمسة آلاف دولار فقط.

- اتفقنا إذن، هب أبو دياب واقفاً، ماداً يده إلى أبي سامي الذي أصبح في ذلك اليوم دكتوراً في الاقتصاد وإدارة الأعمال رغم أن شهادته الجامعية في الجغرافية...

حين عاود أبو دياب الجلوس كانت صورة رجل واحد تملأ ذهنه: أخيه مصباح وهو ينظر إلى بطاقته وعليها بالحرف الأسود الكبير: الدكتور سيف الدين النايفة..

فهد ينظر إلى أبيه: الفرحة ملء قلبه، والضحكة ملء وجهه لكن دون أن يفهم ما الذي سيجنيه من لقب الدكتوراه ذاك؟ لماذا فرحه، إذا ما أصبح دكتوراً؟ والحقيقة لم يكن باستطاعته أن يفهم، فقد كان مشتت الذهن، ثلاثة أرباع دماغه مع عينه وإذن من أذنيه وهي تلاحق تجمع فتاته الساحرة.

الشيء الوحيد الذي فاجأه أن عمليات البيع والشراء وصلت إلى العلم نفسه.. كان فهد يعلم أنه بالمال يستطيع أن يشتري مايشاء: حتى الإنسان يستطيع أن يشتريه فيحول الحر إلى عبد والمرأة إلى أمة، لكن يعهِّرون العلم؟ لا، لم يكن قد سمع بذلك. "العلم نفسه يتحول إلى سلعة تباع وتشرى؟ عاهرة تعطي نفسها لكل من يدفع؟ لكن فهد غير معنيّ كثيراً فقلب شفته ثم ابتعد وفي ذهنه أن يمضي إلى فتاته الساحرة. بطريقة ما سيحاول التعرف إليها، وليكن ما يكون..

- فهد.. أمازلت مفتوناً بفتاتك؟ تلاحقها حيثما ذهبت؟ سأله شوكة ممازحاً وهو يلقاه في منتصف الطريق إلى طاولتها..

– أجل، وأريد أن أتعرف إليها الآن..

– ثقِّل حالك يا رجل، قال وهو يرمقه بنظرة إشفاق.. لا تلق بنفسك على المرأة تهرب منك..

– أخشى أن تضيع الفرصة، وتفلت مني الليلة..

– لا تخشَ شيئاً.. أنا أضمن لك الفرصة.. فذاك الكهل صديقي، فقط انتظر قليلاً، قال هامساً مشيراً بطرف عينه إلى أحد الرجلين اللذين انضما لاحقاً للتجمع اللبناني.

عاد فهد مع شوكة لكن دون أن يجلس.. كان يريد هامش حرية أكثر وقدرة على الحركة أكثر.. في الحال رفع الرجال المحتفون كؤوسهم من جديد يشربون نخب شوكة الداهوك الذي قدم هدية فاخرة لصديقه أبي سامي، دكتور الاقتصاد وإدارة الأعمال.

– اسمعوا يا أصدقائي.. قال بعد ذلك شبه هامس، قد جئت لكم بخبر طازج خرج لتوه من الفرن..

– مصدره"الريس" صدر الدين، وهو صادق لا يأتيه الباطل من أمام ولا من خلف..

– هذا صحيح.. أنت على حق.. جاءت الردود من كل جانب، لكن ما الخبر؟

– سيسمحون بإنشاء شركات مساهمة تقوم على مبدأ الاكتتاب من أجل تطوير الزراعة والإنتاج الزراعي..

– آ!! هذا صحيح!! رد عبد الفتاح الرأس الكبير في المحافظة وقد وجد فرصة مناسبة لتأكيد أهميته، القرار يصدر غداً أو بعد غد.

– إذن ينبغي أن ننشئ، نحن الشركاء والحضور، شركة يكون رأسمالها كبيراً..

– فكرة!! هذه فكرة فعلاً، قال مجيب، صاحب النجوع الكثيرة، شركة برأسمال ألفي مليون ليرة!!

– ألفي مليون ليرة؟! كرر أبو دياب وهو لا يصدق ما تسمع أذناه..

– ولم لا؟ رد هذه المرة أبو سامي وقد تذكر أنه سمع الخبر لكن دون أن يوليه الأهمية اللازمة.

طالما أنها ستكون معفاة من الرسوم والضرائب، وتقدم لها المساعدات والتسهيلات طوال خمس سنوات.. فستكون فرصة ذهبية علينا أن نغتنمها...

– نغتنمها.. وعلى الفور.. قال شوكة بكثير من الفرح والزهو.

– لكن كيف؟ سأل أبو دياب بالنبرة ذاتها.

– نتفق منذ اللحظة على كل شيء، وحين يصدر القرار نكون أول من يعلن عن تأسيس الشركة..

– وماذا تقترح اسماً لها؟ سأل مجيب شوكة الداهوك، لكن أبا سامي تدخل مقترحاً:

– عشتار.. شركة عشتار للإنتاج الزراعي.

– إذن، نخب عشتار الهة الخصب والحب!! رد عبد الفتاح، الرأس الكبير في المحافظة، متهللاً ناهضاً، وفي الحال نهض الجميع عن مقاعدهم رافعين أنخابهم عالياً قارعين كؤوسهم بعضها بالبعض الآخر برنين لفت انتباه حتى الفتاة الحسناء.

-9-

– دارينا، أيتها الكسول، هيا.. أسرعي.. أدركنا الوقت.. راحت ملكة جمال الكون تلح على الأخت الحسناء التي خلبت لب فهد في نادي الذروة ودارينا متشبثة بلحاف الريش الخفيف السميك، مائلة إلى الدعة والكسل شأن كل كائن وجد أحلامه تتحقق كلها دفعة واحدة..

– دعيني.. توليب.. دعيني مسترخية قليلاً، قالت دارينا لأختها بنوع من الغنج..

– أدعك وموعد الكنيسة بعد ساعتين فقط!؟ أتذهبين هكذا؟ من الفراش إلى حفل زفافك؟

راحت توليب تسخر نازعة بحركة سريعة من يدها لحاف الريش عن أختها، لتظهر دارينا تحته عارية حتى من ورقة التوت.. جميلة دارينا، ليس باستطاعة توليب إلا أن تعترف بذلك، بل كثيراً ما تراها أجمل منها. ثمة رقة وتناسق في أعضاء جسدها، يفوقان رقتها وتناسقها هي نفسها. بل أحياناً تحمد توليب ربها أن دارينا لم تدخل مسابقة ملكة الجمال معها وإلا لانتزعت منها اللقب.. لبشرة دارينا تأثير ساحر، يشبه بشكل من الأشكال تأثير عينيها، هي ملكة الجمال. هذه هي نقطة قوة دارينا، نقاء بشرتها وصفاء رونقها وهو ماصرع الفتى حباً وغراماً لا ينقصه إلا أن يهيم في البراري والقفار حتى يصبح مجنون ليلى آخر..

نهضت دارينا بتكاسل واسترخاء، ألقت غلالة شفافة على كتفيها ووقفت تتثاءب.. هذه الشفافية، هذا الجمال جاءا من تهجين عرقين، توليب تنظر إلى جمال الجسد أمامها وشفافية البشرة وتفكر بالأب الذي ذهب إلى بولونيا فتزوج أجمل حسناواتها.. حصان عربي وفرس بولونية، فأية مهرات يلدان؟

المهرة الكبرى كانت توليب وجاءت آية في الجمال مما حمل تاج الجمال في العالم إلى رأسها، حاملاً مع التاج الشهرة ...المجد.. المال.. وزوجاً أحبته توليب كما لم تحب امرأة رجلاً.. دارينا نفسها، الأخت شبه التوءم كانت تعجب من ذلك الحب وكانت تسأل أختها عنه لكن توليب كانت تهز رأسها نافية أن تستطيع تقديم تفسير.. فالرجل مناضل، غارق في السياسة حتى شحمة أذنيه، مهدد بخطر الموت في كل لحظة بل هو رجل في القبر ورجل في الدرب.. مع

ذلك كانت تحبه حتى الموت.. رغم العروض المغرية الكثيرة التي جاءتها فضلت ذلك الشاب متوسط القامة، رقيق الملامح، أبيض البشرة، الذي كان نادراً ما يظهر إلا بزي مستعار واسم مستعار..

سنوات قليلة عاشا في ما يشبه الحلم، رغداً وسعادة، حباً وتفانيا. أنجبا ولداً نسخة طبق الأصل عن أبيه، ثم جاء الإسرائيليون في غفلة من أعين الحراس، زمرة مغاوير، دخلت بيت أبي الهمة، سددت ثلاث فوهات زرعت جسده الذي بوغت في فراشه رصاصاً ثم خرجت دون أن تسمح كاتمات الصوت لأي صوت أن يتعدى جدران البيت.. ووجدت توليب نفسها وجهاً لوجه أمام معبودها وقد أصبح جثة هامدة..

المهرة الثانية كانت دارينا توءم الأولى جمالاً وبهاءً لكنها رضيت أن تعيش في ظل أختها، فالحب الذي كانت تكنه واحدتهما للأخرى كان يمزجهما معاً حتى درجة الانصهار.. كارثة توليب جعلت دارينا تذهب إليها، تعيش معها، ليبقى الأب والأم وحيدين ثم لم تمض سنتان حتى بقيت الأم وحيدة وقد ودع الرجل هريرة إلى غير عودة... فالتم شمل الأسرة من جديد..

– هه.. بم تفكرين؟ سألت دارينا أختها التي كانت ما تزال واقفة بحذاء السرير ساهمة بعيداً..

– لا.. لا شيء.. ردت توليب وهي تنفض رأسها كأنما تبعد عن ذهنها صوراً تأبى مغادرته.. المهم أسرعي، عادت تقول وهي تتجه نحو الباب.. يجب أن نكون في صالون التجميل قبل التاسعة والنصف.

صالون التجميل معرض للحسن والجمال، مهرجان تتألق فيه أجمل جميلات بيروت وقد جئن لإعداد أنفسهن وإعداد الأميرة ابنة السلطان حسن، دارينا المنصور للزواج من ابن الأمير دياب فهد النايفة.. دخلت توليب ودارينا إليه فاستقبلهما الجميع بالتهليل والصخب وبزخة مفاجئة من الزغاريد..

نصر!! دارينا تشعر أنها تقطف الآن ثمار النصر.. فالرجل الذي خلبت لبه ثم راح يلاحقها حيثما كانت استطاعت أن تخضعه لشروطها كاملة.. أليس هذا هو الانتصار؟

دارينا بين أيدي أبرع اختصاصيات التجميل: هذه تمسك اليد اليمنى، تلك تعالج اليسرى، القدمان بين اختصاصيات أخريات. البشرة لها من يعالجها.. سوائل ومنعشات، مرطبات وملمعات تجعل جلد المرأة شعاع شمس آخر يرهج رهجاً ودارينا مسترخية على أريكة مريحة، أميرة حقيقية لم تعرف ابنة السلطان حسن نفسها عزاً كعزها.

أشهر طويلة مرت قبل أن تعطيه ريقاً حلواً. تتذكر دارينا وهي مسترخية كيف بدأ ذلك كله في نادي الذروة.. شاب متوسط القامة، متوسط الجمال، متوسط في كل شيء ما عدا ثراءه، جاء إليها، تعارفا.. ثم بدأ يدعوها لعشاء هنا، غداء هناك، حفل فني، استعراض راقص، وكان ينفق بسخاء عجيب.. هي تحب السخاء.. الرجال الذين ينفقون بسخاء يبهرونها.. يخيل إليها أنهم فرسان شجعان.. السخاء في تصورها يقترن بالشجاعة مثلما يقترن البخل بالجبن ولا تكره كالبخل والجبن في الرجال.

في البداية لم يطلب الرجل شيئاً.. كان يكتفي بافتتانه بها.. يجلس بقربها مسحور الناظرين، مأخوذ اللب، سعيداً حتى درجة النشوة، ولم يكن يكثر من الكلام.. كان حسبه أن يسمع، يستغرق في نظراته كالسابح في أعماق البحر ويسمع.. أتراه غراً جاهلاً في شؤون النساء فلا يعرف كيف يخوض فيها؟ تساءلت هي وأختها أكثر من مرة.. فقد كان يحمر خجلاً إذا ما حشر في زاوية، وكان يحمر خجلاً إذا ما اضطر للكلام أكثر من بضع جمل، وكان يحمر خجلاً إذا ما طلب إليه أحد أن يتحدث عن نفسه، وكانت دارينا تتعجب.. أكثر من واحد حذرها منه: هذا زير نساء خريج ملاهٍ، لا يدع فنانة من شره، فكيف تحول زير النساء إلى ذلك الحيي الخجول الذي لا يحسن التعبير عن نفسه؟.

كانت توليب تسخر منها ومن فارسها الحيي الذي يحتاج أشهراً وربما سنين لترجمة حبه فعلاً وواقعاً..

لكن ذات مرة، وقد انتشى شراباً وسعادة، اقترب منها ثم صرح عن حبه، هو الذي لم يكن بحاجة لأي تصريح: فعيناه، يداه، شفتاه، ربما حتى العطر الذي وضعه كان يصرح بذلك الحب. كان فهد قد وجد الجرأة لأن يطلب لمسة يد، قبلة خد، ضمة عاجلة. ثم ما إن انتقل تلك النقلة حتى طلب يدها للزواج، حينذاك شعرت بشيء من الخوف والانكماش.. صحيح أن فهد النايفة وجد موطئ قدم له في نفسها، بل بات جزءاً لا يتجزأ من حياتها. إن جاءت إلى دمشق فلكي يكون ظلها الذي لا يفارقها، وإن جاء هو إلى بيروت فلكي تكون ظله الذي لا يفارقه.. لكن الصحيح أيضاً أن هناك حواجز وعراقيل.." أنت مستعدة أن تتخلي عن دينك؟" سألتها أمها التي لم تكن تريد لمأساة توليب أن تتكرر.. "لا، لست مستعدة.." إنها تشعر بنوع من الإهانة أن تضطر لتغيير دينها كي تتزوج"إذن.. اطلبي منه هو أن يتخلى عن دينه"قالت لها الأم، لكن ما إن طرحت المسألة على بساط البحث حتى تبين أنها عسيرة، فلكي تسجل على اسمه لابد من أن تكون على دينه.

أعقب ذلك أخذ ورد، جدل ونقاش: هي لا تتخلى عن دينها وهو لا يستطيع

حتى لو أراد.. أياماً وليالي استمر الأخذ والرد وفهد يكاد يجن.. كيف يزيل هذا الحاجز؟. "كوني على دينه في دمشق، وليكن على دينك في بيروت"، أخيراً خرجت الأم بالحل ثم تم الاتفاق، يعقد القران القاضي الشرعي في دمشق وطبقاً للشرع الإسلامي، ثم يكلل العروسان في كنيسة السيدة مريم في بيروت.

سمع أبو دياب بشرط التكليل في الكنيسة فهدد وزمجر.. ابني يتخلى عن دينه؟ كذلك بكت الأم وناحت.." يا بني.. هذا حرام.. كفر.. سيعاقبك عليه الله.." بل حتى شاهة حذرته "فهد.. من أخذ من غير ملته مات في علته" لكنه كان أعمى أبكم أصم.. لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم، وما الجدوى من نقاشك رجلاً لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم؟.

كان الحب قد تمكن من الرجل حتى لم يعد يرى امرأة غير دارينا.. ولم يكن باستطاعته أن يسمح لأي حاجز من حواجز الدنيا أن يحول بينه وبينها. هي تريد مهراً كبيراً؟ سيارة جاغوار؟ بيتاً في دمشق؟ ماساً وجواهر؟ ذهباً وفضة؟ ليكن.. العصمة في يدها؟ هي التي تطلق؟ هي التي تفرق؟ ليكن.. احتجاجات الأهل.. صراخ الأب.. لا يهم؟ المهم أن تكون له دارينا.. هي التي، بحسنها وجمالها، قد بهرته. بغنجها ودلالها لدعت قلبه لدع النار، فصار نصب عينيه هدف واحد: أن يفوز بها زوجة..

وهكذا، كان نادي الذروة كله يلبس أحلى الحلل ليلة زفافهما: ثلاثة آلاف ضيف من كبار التجار والصناعيين، الأغنياء والموسرين، المدراء والمسؤولين، خمسمائة خروف ذبحت، صفائح السمن العربي الأصيل، المئات من زجاجات الشمبانيا، اللوز، الجوز، الفستق، الكاجو، الحلويات الشامية، الحلويات اللبنانية، أطايب المأكولات كلها قدمت احتفاء بعرس القرن: فهد ابن الدكتور سيف الدين النايفة على ربة الحسنوالجمال، أخت ملكة الجمال دارينا المنصور.. لكن تلك الليلة انتهت ككل ليلة، فليس هناك دخلة إلا بعد الإكليل ومباركة الكنيسة. إذن كيف لا تسلم دارينا نفسها لصالون التجميل كي يجعل من آية الجمال فيها آيات للجمال؟ كانت المبارد تعمل، الطلاء يطلى، البشرة تدلك.. ودارينا ساهمة تشعر أنها على بساط ريح والريح رهواً تسير.. تنقلها حيث تشاء... "اتجهي إلى اليمين" تتجه إلى اليمين، "إلى اليسار"، تذهب إلى اليسار. "قفي" تتوقف، فكم هي رائعة لحظات الانتصار!! كم هي سعيدة صاحبة الانتصار!!

– الآن، أنت ملكة الجمال، قالت لها توليب وهي تضع تاج الملك على رأسها، فلم تستطع دارينا أن تحول بين دمعة من عينها وبين السقوط، هي التي تعلم كم يعني تاج الملك لتوليب!! وكم هي حريصة عليه!! لكن دارينا كانت ملكة حقيقية بثوبها الأبيض المتدرج رفارف رفارف، المتراكب كشاكش

كشاكش، كأنه مهرجان زخارف، العقد الماسي في عنقها يتوهج وكأنه قطعة من الشمس، الأساور والحلي في ساعديها تحيلهما نهرين من ذهب، والأصابع.. أصابع دارينا كلها خواتم: زمرد، ياقوت، زبرجد، سفير، أنواع الأحجار الكريمة كلها ترصع كفيها، أذنيها بل حتى كرسيي خديها. من يصدق؟ لقد اخترع المزين المجنون، طريقة تلصق اللؤلؤ والماس على صفحة الخد.. فيبدو وجه المرأة لوحة ماس وجواهر...

– آه!! كم أشكرك توليب!! كم أشكرك!! وكادت تأخذها بين ذراعيها عرفاناً وامتنانا، لكن توليب ارتدت إلى الوراء مبتعدة..

– لا.. زينتك.. دارينا.. الملكة لا تمس.. يجب أن تصلي هكذا إلى الكنيسة كي تبهري الأنظار.. حين وصل ركب العروس بسياراته الفاخرة إلى أمام الكنيسة فغر الكثيرون أفواههم، إذ لم يكن أحد قد رأى من قبل ما يبهر كتلك العروس بذيل ثوبها الأطول بكثير من ذيل الطاوس وسرب الفتيات الساحرات من حولها وكلهن ملكات جمال يبهرن الأنظار..

كانت أجراس الكنيسة قد دقت منذ الصباح معلنة أن حدثاً جللاً يحدث في بيروت، حدثاً تتجاوز فيه بيروت أحقاد الطائفية التي مزقتها وضغائن التفرقة التي أغرقتها في بحيرة من الدماء سنين طويلة... فقد اتفق اثنان متحابان: مسلم ومسيحية على الزواج، على أن يقبل كل منهما الآخر كما هو ويعيش معه دون أن يتخلى عن معتقده ودينه!!.. كان رنين الأجراس ذو البحة الساحرة ما يزال ملء بيروت.. وكانت بيروت هادئة ساكنة وقد سكنت فيها مدافع العماد عون بعد أن ولى الأدبار لائذاً بفرنسا الأم علها توفر له النجاة. كما سكتت بنادق الفرق المتحاربة وقد وصلت جميعاً إلى درجة من الإعياء واستنزف آخر ما فيها من نفس.. فمضت تزحف هنا وهناك، بحثاً عن السلم ورأباً للصدع وقد وجدت أنها هي الخاسرة الوحيدة في معركة أرادها الآخرون..

فهد، أبوه، أخوه، أخته كلهم مذهولون، فموكب الجمال كان أكثر من باهر، وما تراه أعينهم كان أكثر مما تستطيع خيالاتهم أن تتصور.. لحظة من الزمن أحس أبو دياب بغصة الندم على معارضته لذلك الزواج في البدء.. فالمرأة الفاتنة التي صارت كنته تستحق كل تضحية.. فهد على حق... كل ما قدمه من أجلها يهون لقاء ما وهبها الله من سحر وفتنة.. جاغوار!! بيوت!! حلي!! أموال!! كلها ما قيمتها إزاء هذه الهبة الإلهية؟.

استقبلت العائلة المبهورة الموكب القادم بفرح النشوة. وحدها الأم كانت غائبة، جرمها الكبير وثقلها الهائل هما فقط ما أعاقاها عن المجيء.. كان بودها أن تفرح بابنها فهد، هي التي لم تفرح بدياب قبله... لكن قلبها معه ومباركتها

لزواجه أكيدة: هديتها كيلو غرام كامل من أساور الذهب، دياب جاء إليها بهدية ثمينة أيضاً لكن دون أن يكون قد غير قناعته بالتخلي عن عزوبيته. لحظة استقباله للموكب فقط، بدا له أن الأختين التوءمين جمالاً جديرتان بأن تكونا توءمين زواجاً.. لكنه بلع ريقه، فملكة الجمال كانت أكثر كبراً واختيالاً من أن تطالها يداه.

على مهل سار العروسان وقد تأبطت الأنثى ذراع الذكر. على مهل سار ا لركب خلفهما وطفلان أو ثلاثة يرفعون ذيل فستانها عن البلاط الصقيل اللامع، ثم ما إن دخلوا قاعة الكنيسة حتى استقبلتهم من العمق أصوات جوقة تردد مزامير داود.. لا.. ليس كل المزامير.. بل هو مزمور الحب...

الإكليروس كله بحلله وأثوابه، بهارجه وزيناته استقبل الموكب، وقندلفت أو اثنان شرعا يدوران بمجامر البخور هنا وهناك فانتشر عبق تغلغل حتى اللب من دماغ فهد.. الجو الساحر، الموسيقى الكنائسية، صوت المطران وهو يسأل"أتقبلين بهذا الرجل زوجاً لك" "نعم أقبل" ثم المباركة فالقبلة، كل ذلك جعله يرفرف بجناحيه.. يكاد يطير في السماء.. قبل أن يطير مع عروسه على متن الطائرة إلى جزر الهاواي.

– أين الهاواي، سلوى؟ سألت شاهة صديقتها وهما في مطعم فندق"الريجنت" في لندن.

– لماذا لا تسألين أخاك نفسه؟

– وهل أراه لأسأله!؟ ذهب إلى هاواي ثم عاد منها إلى لبنان، فكيف أسأله؟

– وأنا ما يدريني؟ ردت سلوى هازة رأسها. في جغرافية الصف الخامس والسادس لم يكن هناك ذكر لجزر الهاواي، وأكثر من الصف السادس لم أصل، لكن لماذا تسألين؟

– أريد فقط أن أعلم لماذا اختارها فهد..

– اختارها فهد!؟ قاطعتها سلوى مقهقهة ساخرة، قولي اختارتها عروسه المصون أخت ملكة الجمال!!!

تابعت سلوى وهي تطلق ما يشبه الزفرة.

– حسد أم ضيق عين؟ سألتها شاهة وهي تغمز بعينها لاكزة إياها..

– من الاثنين.. ردت بمزيج من المزاح والجد.

– لكنك في وضع يحسدك عليه الجميع..

– صحيح، قالت سلوى وهي تشرد قليلاً: قبل أن يقتل أبو باسم كنت أمة

رقيقة له: أطبخ، أنفخ، أحبل، ألد.. خمسة أولاد وضعت له، كان يريد أن يستهلكني.. حبه للأولاد جعله يمنعني من أن أستخدم مانع حمل. كان يريد إغراقي في هموم الحبل والولادة.. مشاكل البيت والأولاد.. لم يكن يسمح لي بالخروج، لم يكن يتيح لي فرصة لالتقاط أنفاسي.. لا أخفيك شاهة.. كنت أشعر في تلك الأيام وكأنني عصفورة في قفص: قص جناحاها وأقفل عليها القفص..

– لهذا لم تصدقي نفسك وقد وجدتها فجأة خارج القفص!؟

– أجل.. لم أصدق نفسي.. ظللت أشهراً وأنا في حيرة من أمري: أأفرح لموته أم أحزن؟

– لكنك بكيت عليه كثيراً؟!

– بكيت.. صحيح.. لكن صدقيني.. كثيراً ما كنت أسأل نفسي هل أبكي حزناً عليه أم فرحاً بحريتي؟

كنت وأنا أختلي بنفسي في مخدعي، سرعان ما أخلع كل شيء عني.. أقف عارية أمام المرآة.... أضحك وأنا أجد نفسي حرة من كل قيد.. خالصة من كل سيطرة.. ليالي بطولها كنت أمضيها وأنا أحلق مع أحلامي.. وحيدة في سماء حريتي الجديدة.. لم يكن قد ظل من يأمرني.... لم يكن قد ظل من أخشاه.. أبو باسم كان بعبعاً.. يمثل أمامي أينما توجهت.. أخشاه خشية الفأرة للقط. في الليل.. في النهار.. كان مصدر خوف ورعب.. صوته كان يجعلني أرتعد ارتعاد أرنب وهي تسمع زأرة أسد..

– إلى هذا الحد؟ سألتها شاهة وهي تستغرب.. وتفرح في الوقت نفسه لذلك البوح الذي بدأته سلوى..

– وأكثر.. صدقيني.. أبو باسم كان بالنسبة إلي أكثر من غول لم أعرف معه الحب بل الرعب... لم أعرف معه الراحة بل التعب.. ولا السعادة بل الشقاء.. وكيف يمكنك أن ترتاحي أو تسعدي وأنت بلا شخصية، بلا رأي، بلا أمان أو اطمئنان؟.

– سلوى.. أنت تفاجئينني الليلة.. ما هذا الذي تقولين؟

– صدقيني.. هكذا كنت.. وهكذا معظم نسائنا!! اماء رقيقات في محراب الرجل الشرقي الذي يريد أن يمسح لهن كل شخصية، كل وجود...

– من يسمعك يحسب أنك تكرهين الرجل الشرقي.؟

– أكرهه وحسب!؟ أنا أحتقره...

– لكن لك علاقاتك سلوى.؟ لك رجالك هناك في دمشق!؟ أنت نفسك

تحدثينني عنهم..

- أجل.. لي علاقاتي.. لي رجالي.. لكن هل تعلمين لماذا؟

- لا.. أقسم لك انك تحيرينني...

- حباً بالانتقام.. كل من ترينهم حولي أكرههم، أريد الثأر منهم لاثنتي عشر سنة من الاسترقاق والاستعباد... أريد الاقتصاص من خوفي من أبي باسم، رعبي منه...

- لكنك تبدين في غاية الرقة واللطف معهم.. بل والحب أحياناً..

- هو ذا الفن.. فن الانتقام من الرجل دون أن يشعر، توحي له المرأة باللطف.. توهمه بالرقة.. بالحب.. فيذوب بين يديها.. يتحول إلى عجينة تعركها كيفما تشاء.. تلوح له بالجزرة فيتحول تحتها إلى مطية تمضي بها حيث تشاء..

- وتجدين في ذلك متعة..؟

- كل المتعة.. بل كلما ازداد اضطهادي وإذلالي للرجل ازددت متعة ولذة.. وكلما كان الرجل أكثر قوة وسلطاناً اشتد اضطهادي وإذلالي له كي تشتد متعتي.. تصدقين شاهة؟ ذات مرة راودني أحد أولئك الكبار الذين تعرفينهم!! قالت وهي تتوقف عن الكلام مشيرة إلى البعيد حيث دمشق وحيث كبارها الذين باتت شاهة تعرف بعضهم..

- إي.. ماذا صار.. ماذا فعلت؟ سألت شاهة وقد أثير فضولها حتى الذروة.

- جعلته يركع عند قدمي، يزحف على أربع كالكلب، يقبل حذائي..

- يا لك من سادية! علقت شاهة مبتسمة ابتسامة الاستغراب.

- عبوديتي السابقة جعلتني أكره السادة.. أود لو أعذبهم، أجلدهم بالسياط، أفصفص عظامهم....

ولم تملك شاهة إلا أن تشرد بعيداً.. كان مطعم"الريجنت" يغص بالرواد، وكان الكل يأكل أو يشرب، يدخن أو يضحك، وكانت ثمة موسيقى تنبعث من مكان ما لتختلط بالضجة الخفية الظاهرة.. الجابذة النابذة.. مع ذلك شردت شاهة إلى زوجها الذي لم يعد زوجها....

سمير بيك الأدهم الذي سامها الخسف هو الآخر.. لكنه لم يجعلها تكره الرجال كلهم بل نوعاً معيناً من الرجال.. ذلك الذي تسيطر عليه الأم وتقوده الأخت.. كانت ما تزال في قرارة نفسها تؤمن أنه لولا أمه لكان أروع الرجال.. هي التي كانت تزفر في أذنيه بماذا؟ لا أحد يدري.. هي التي كانت ترسم

الخطط له، تكيد وتدس.. وهو لا يملك إلا أن يطيع.. على هذا نشأ وبذاك تطبع، فكيف يتمرد؟

شاهة تعود بذاكرتها للياليهما الحلوة معاً.. حين لم تكن أمه تتدخل.. كم كان رقيقاً!! عذباً!! معطاء!! لا.. لا حرام!! سمير رجل تابع خاضع.. في يد أمه كالخاتم. تلك هي علته... شاهة تعرفها، بل كثيراً ما كانت تحلم أن يأتي يوم تموت فيه أمه فيتحرر ويخلص لها.. لهذا كانت تصبر.. تتحمل.. لكن صحة حماتها، عافيتها، عنايتها بجسدها، كل ذلك جعلها تيئس.. "ربما ستميتني قبل أن أموت"، وقررت الطلاق...

– هه.. أين شردت يا صديقتي؟

– الحقيقة.. أعدتني إلى سمير.. زوجي..

– صحيح!!! أنت الأخرى لديك تجربة مريرة مع الرجل..

– لا.. ليس مع الرجل.. بل مع أمه وأخته..

– ربما.. لكن أخيراً هو الرجل.. صاحب القرار..

– ليته كان صاحب قرار!! ردت وهي تتنهد حسرة.

– إذن من ساومك على الملايين الخمسة؟ من رمى عليك يمين الطلاق؟

– هو.. صحيح.. لكن صدقيني. يظل صوت ما يردد في مؤخرة رأسي، مثلما يكتبون هنا في ممرات السكوتلاند يارد: ابحثي عن المرأة.

– بل ابحثي عن الرجل.. الرجل الذي استغلك.. نهب أموالك.. أتقولين لي بكم خرج من صفقة زواجك؟ سألتها وهي تشير بأصابعها إشارة عد النقود..

لم تجبها شاهة، فقد كانت تلك النقطة تبعث في نفسها الضيق كلما ذكرتها، والكره لسمير كلما مرت بخاطرها..

– أنا أقول لك: خمسة ملايين لقاء طلاقك.. وأكثر من عشرين مليوناً أثناء زواجك.

وتذكرت شاهة تلك المفاوضات الصعبة التي خاضتها قبل أن تحصل على الطلاق. كانت الأم تريد عشرة ملايين إضافة إلى الشقة والسيارة والتخلي عن الأولاد فلا تراهم بعد الطلاق أبداً، ثم لم تفلح في تخفيض المبلغ إلى خمسة والاحتفاظ بالشقة إلا بشق النفس، لكنه أخذ السيارة والأولاد.

– لا.. لا.. عادت شاهة ساحبة نفسها من ذكرياتها، لاشك أنها كانت صفقة.. لكن لا شك أيضاً أن صاحب الصفقة والمخطط إنما هي تلك الأفعى.. أمه..

– أنت تبررين له، كي تظلي على حبه.. أما أنا فأكره الرجال.. وكل ما

أرغب فيه أن أنتقم منهم جميعاً..

– حتى ذلك الشاب الأشقر الذي يطيل النظر إليك، همست شاهة مقتربة منها، ناظرة بطرف عينها إلى طاولة قريبة، عليها شابان أشقر متوسط القامة وأبيض طويل، لكن لكليهما عينان ملونتان، لم تستطع شاهة تمييزهما على أضواء المطعم الخافتة. نظرت سلوى إلى الشاب الأشقر وكأنما لم تكن قد رأته من قبل.. حدقت إليه قليلاً فبادر إلى رفع كأسه مع إحناءة رأسه.. تبسمت سلوى وهي ترفع كأسها ثم أشاحت بوجهها مستأنفة الحديث:

– هذا الرجل غربي.. والغربي غير الشرقي صدقيني.. هذا يؤمن بحرية المرأة، بمساواتها، بإنسانيتها.. انظري كم هو لطيف!!

– هي ذي قشرة.. كلهم سواء!.. الشرقي والغربي..

– لا.. لا.. في هذا اسأليني أنا.. أنا المجربة.. وضحكت سلوى ضحكة الواثقة من نفسها... شاهة نفسها ضحكت فهي تعلم أنها كذلك.. في المرات السابقة التي جاءت فيها إلى لندن، كانت سلوى تطلق لنفسها العنان. تعجب بشاب فتدعوه لمراقصتها، يدعوها رجل فتقبل دعوته.. وكانت تحدثها كل مرة عن مغامرتها مع الرجل، بل تحثها على أن تشاركها في مغامراتها، لكن شاهة كانت ما تزال على عصمة سمير.. صحيح أنها كانت في حالة تشبه الانفصال ومفاوضات الطلاق كانت جارية، غير أن شاهة لم تكن تسمح لنفسها بأن تخطئ كيلا يؤنبها ضميرها ذات يوم.. هذه المرة هي حرة تماماً.... قبل خمسة أيام وصلتا إلى لندن، لكنهما كانتا مشغولتين إلى درجة لم يتح لهما وقت للجلوس إلى طاولة أو التفكير برجل. كان عليهما أن تشتريا البضاعة أولاً.. ولكي تفعلا ذلك كانتا تفيقان باكراً ثم تنطلقان إلى الأسواق.. تبحثان في كل مكان عن فساتين أجمل وأرخص.. عن أوكازيونات وكان ذلك يستهلك كل الوقت.. هذه الليلة فقط التقطتا أنفاسهما فمهمتهما شارفت على الانتهاء...

أول عمل قامت به شاهة وقد عادت باكراً قليلاً إلى الفندق هو الاتصال بأميرة، أختها، في باريس. دعتها إلى لندن، لقضاء يومين أو ثلاثة.. ملأت بعد ذلك حوض الاستحمام ماءً ساخناً وصابوناً عاطراً، ألقت بنفسها فيه ساعتين أو أكثر مسترخية الأعصاب متحللة من الهموم حتى كادت تغفو نشوة واسترخاء.

قرعت سلوى كأسها بكأس شاهة فنبهتها من شرودها، كان الشابان على الطاولة القريبة يرفعان كأسيهما بدورهما فرفعت شاهة كأسها وتبسمت لكن دون أن تطيل النظر..

– هه، ما رأيك؟ قالت سلوى وهي تغمز بعينها في إشارة خفية إلى طاولة

الشابين..

– رأيي؟ بماذا؟ ردت بنوع من التجاهل.

– بهذين الشابين.. إنهما يريداننا.. فهل أدعوهما؟

– الرجل يدعو عادة أم المرأة؟ ردت شاهة بشيء من تعجب.

– هنا لا فرق.. للمرأة والرجل الحقوق نفسها.. وإذا دعوناهما نحن كنا الأقوى!؟

– لا.. لا.. لا أدري.. قالت أخيراً شاهة شأن الغرة الخائفة.. بعدئذ استأنفت: كما تشائين.

.. وبطرفة عين كان الشابان يلبيان الإشارة شبه الخفية من يد سلوى المجربة التي كانت تعرف جيداً كيف تدعو الرجال وكيف تنتقم من الرجال.

الأشقر ذو العينين الزرقاوين وصل أولاً، أخذ بيد سلوى، لثمها كما كان يفعل أرستقراطيو باريس ونبلاؤها في قصر فرساي. بعدئذ التفت إلى شاهة، أمسك يدها بأصابع ناعمة كالحرير رفعها إلى شفتيه، لثمها فسرت رعشة لذيذة في أوصالها كلها.. رعشة جعلتها أكثر توقاً للثمة الشاب الأبيض ذي العينين الخضراوين الذي حذا حذو رفيقه.. بكل ذلك اللطف، بكل تلك الدماثة التي لا تعرفها إلا الطبقة الراقية في لندن وباريس.

ذو العينين الزرقاوين جلس قبالة شاهة وذو العينين الخضراوين جلس إلى جانبها، رفعت سلوى كأسها من جديد وبإنكليزية غير متعثرة تمتمت:

– تشين... شين.

رشف الأربعة رشفات سريعة من كؤوسهم، بعدئذ استأنفت.

– أنا سلوى.. وهذه صديقتي شاهة.. فرد ذو العينين الزرقاوين بعربية ركيكة:

– أنا جون.. وصديقي طوني..

– تتكلم العربية!؟ سألت شاهة باندهاش..

– قليل.. طوني يحكي عربي أحسن.. رد ذو العينين الزرقاوين وهو يغمز باتجاه صاحبه..

– عظيم.. إذن.. دعونا نتكلم العربية، عقبت سلوى ضاحكة.. العربية أحسن للتفاهم..

"بالتأكيد" قالت شاهة في سرها وهي تتخلص من الذعر الذي تملكها حين فكرت "كيف سأتفاهم مع الشابين.." كان كل ما تعلمته من الإنكليزية بضع

عشرات من الكلمات يمكنها بها أن تطلب طعاماً أو تدل سائقاً أو تشتري سلعة، لكن أن تجلس مع رجل، تحادثه ويحادثها، تحاوره ويحاورها، فكيف؟

طلبت سلوى الطعام فأكل الشابان بشهية كبيرة كما شربا بشهية كبيرة.. لم تملك شاهة إلا أن تعجب بها.. ليتران من الويسكي استطاع الشابان أن يأتيا عليهما.. صحيح أن سلوى شربت، وهي نفسها شربت أيضاً.. لكن.. كأساً أو كأسين لا أكثر.. فأخشى ما تخشاه شاهة أن يفقدها ذلك الويسكي المعتق وعيها، فلا تحملها رجلاها إلى غرفتها.

كان الحديث يدور لكن بخليط عجيب من الإنكليزية والعربية، فهمت منه المرأتان أن الشابين إنكليزيان يعملان في ما يسمى"بالخدمات السياحية". لم تفهم شاهة تماماً ما تعني تلك"الخدمات السياحية"، لكنها فهمت أن ذلك العمل يجعلهما يتقنان أكثر من لغة: الفرنسية، الإسبانية، الألمانية وشيئاً من خمس لغات أو أكثر منها العربية واليابانية.

– ثماني لغات يتقنان!؟ إنهما لعبقريان.. أليس كذلك؟ سألتها سلوى شبه هامسة وهي على يقين من أنهما لا يسمعان ما تقول..

– بالتأكيد.. لكن ما تراك فاعلة بهذين العبقريين؟

– نذهب إلى المقصف فوق.. نشرب، نرقص.. ثم نمضي بهما إلى.. وغمزت بعينها غمزة ذات معنى.

بعدئذ التفتت إلى الشابين فبدا وكأنهما يفهمان ما تريد. تأبط ذو العينين الزرقاوين ذراع سلوى فيما تأبط ذو العينين الخضراوين ذراع شاهة ومضيا إلى حلبة الرقص. كانت الجوقة تعزف ألحاناً صاخبة لم تسمع شاهة مثيلاً لصخبها وكانت الأضواء خافتة تطفأ لحظة لتشتعل لحظة، مغرقة أزواج الراقصين في حلكة الفوضى والضجيج إلى درجة شرع معها طوني في الحال بتلمس شاهة في كل موضع: ظهرها، خاصرتيها، إليتيها، ثم شد قامتها إلى قامته كأنما يخشى أن تفلت منه.

حرارة الشراب، حرارة الرقص، حرارة التلمس والشد، كلها جعلت شاهة تشتعل شحماً على نار..

النار في أحشائها أشد ضراماً من أن تستطيع تحملها فانشدت أكثر إلى طوني وهي تنسحب شيئاً فشيئاً باتجاه سلوى.. لكن قبل أن تنطق بحرف، كانت سلوى تشير إليها ضاحكة..

– حسبنا رقصاً.. الفراش الآن أمتع..

في المصعد، استولى طوني على شفتيها واستغرقا في قبلة طويلة لم تنته

إلا بوقوف المصعد... فتحت شاهة عينيها فرأت سلوى ما تزال غارقة في عناقٍ ذي العينين الزرقاوين... تتطاير بكل خلية من خلاياها شرراً وتتراقص لهباً. متعانقين، متخاصرين مضى كل من الزوجين إلى غرفته.. وحين أغلق الباب، أحست شاهة أن ذلك اللهب في أحشائها يدفعها لأن تفترس الرجل.. تمزق ما عليه من لباس... وقبل كل شيء تخلع ما عليها من لباس.. على عجل بدأت، وعلى عجل خلعت السترة فالقميص، لكن فجأة لفت نظرها أن طوني ساكن لا يخلع سترة ولا يفك أزرار قميص..

– مالك؟ لم لا تخلع ثيابك؟ سألته مشيرة إلى ملابسه عله يفهم أكثر.

– قبل أن أخلع.. أريد.. أقبض.. نقود..

– نقود؟ أنت تأخذ نقوداً.؟ ردت وقد فغرت فاها دهشة..

– بالطبع.. هذا عملي..

– عملك!؟ وما عملك؟

– ألم نقل لكما؟ خدمات سياحية.. يعني.. سائحة أمريكية.. سائحة أوربية.. من اليابان.. من بلادكم.. تحتاج إلينا.. نذهب معها.. نأخذ نقوداً..

– لذلك تعرف العربية؟

– طبعاً.. مدام.. عدة شغل، مدام..

– وكم تأخذ؟ قالت بفضول.

– مائتي دولار.. الليلة بمائتي دولار..

وأحست شاهة بنار أحشائها تنطفئ، بصقيع القطب يسري في أوصالها.. يحتلها خلية خلية، زاحفاً من الخارج إلى الداخل ومن الأسفل إلى الأعلى.. "عجباً!؟ تركبوننا وأجرة الخان علينا!؟" قفزت إلى ذهنها تلك العبارة التي سمعتها ذات مرة على لسان كائن يدعونه في بلادها حرمة.

– هه.. ماذا قلت!؟ استأنف طوني قاطعاً عليها تيار تفكيرها.. المبلغ كبير!؟ حسن.. أقبل منك مائة دولار.

– أنت رجل مومس إذن؟ تبيع جسدك.. كأي امرأة مومس!؟

– مومس!؟ أبيع؟ أنا لا أفهم قصدك شاهة.. أنا أفهم.. هذا بيزنس.. شغل..

– بيزنس!! شغل!! هكذا الأمر!! سلعة!! كل شيء صار عندكم سلعة تباع وتشرى، حتى الحب!! هيا.. اخرج من هنا.. أسرع!! أسرع!!

وقبل أن يستطيع التقاط أنفاسه، كانت شاهة تدفعه بيدها وبرجلها ترفسه، ثم تفتح الباب وتقذف به خارجاً بكل ما تملك من قوة.. بعدئذ ألقت بنفسها على

السرير يملأ صدرها الغيظ ويجمد أحشاءها الصقيع إلى درجة لم تملك معها إلا أن تجهش بالبكاء شادة شعرها، مكيلة لوسادتها الضربات انتقاماً من طوني، من البيزنس، من الحضارة التي حولت الرجال إلى مومسين، من النوم الذي أبى أن يأتيها وقد بلغ منها الإنهاك أشده.

حين فتحت شاهة عينيها مرة ثانية كان الهاتف يرن رنيناً متواصلاً فمدت يدها إلى السماعة مسرعة.

– معلوم!! من كان عنده أحبابه نسي أصحابه!! جاءها من الطرف الآخر صوت سلوى مداعباً ممازحاً.

– أحباب!؟ أي أحباب!؟ تساءلت شاهة بذهنها الذي أخلاه النوم من كل شيء.

– ولو!! طوني!! أمازلت بين أحضانه؟

للتو، قفز كل شيء إلى ذهنها من جديد، فانتفضت خارجة من فراشها، باحثة حولها وكأنما داخلها الشك في أن يكون طوني ما يزال في غرفتها..

– ماذا تقولين سلوى!؟ طوني لم ينم هنا..

– ماذا؟ لم ينم عندك؟ ردت بمزيج من الاستغراب والضحك.. إذن، لابد أن لديك حكاية تحكى.. لحظة.. أنا آتية..

الغرفة بجوار الغرفة، وهكذا قبل أن يرتد طرف شاهة إليها كانت سلوى قد دخلت الغرفة.. ثم.. هات يا سؤال.. وخذ يا ضحك..!!! سلوى انقلبت على قفاها وهي تضحك رامية بنفسها على السرير.

– غبية!! عقبت وهي تكفكف ضحكها.. كنت تظنين أنه واقع في غرامك!؟ عاشق يخط لك قصة رومانسية؟

– إذن.. أنت دفعت له مائتي دولار!؟

– ولم لا أدفع؟ هنا كل شيء بثمن، حتى المتعة!؟

– لكن.. يفترض أنه هو الذي يدفع.. ، بدأت تناقش وهي أكثر دهشة واستغراباً من ذي قبل..

– ألم أقل لك؟ هنا الرجل والمرأة متساويان.. ما يفعله الرجل تفعله المرأة، وما يمارسه الرجل تمارسه المرأة.. فلماذا تستغربين؟

– لا، لا، هذا فوق ما يمكن لعقلي أن يتصوره.. حسمت شاهة النقاش وهي تهرع إلى الحمام.

– هلمي، أسرعي، البسي ثيابك.. ندهت بها سلوى وقد استغرقها الحمام..

أم نسيت أن أختك ستصل بعد ساعة فقط؟

نظرت شاهة إلى ساعتها ثم اندفعت من باب الحمام كالسهم..

– تباً لي!! ساعة واحدة فقط.. ومطار أورلي بعيد.. سنتأخر على أميرة..

لكن السيارة السريعة، والطرق السريعة باتت كفيلة باستباق الزمان. وهكذا، حين كانت ساعة المطار تدق الثانية، كانت سيارة شاهة وسلوى تقف بمحاذاة الرصيف، وحين ظهرت أميرة من بوابة القادمين، كانت أختها وصديقتها تمدان لها أذرعهما، تحضننانها وتقبلانها، بشوق عمره سنون.

أرقى المطاعم، أحسن المقاصف، أجمل العروض الفنية، حدائق لندن، نهر التايمز، ساعة بيغ بن، ساحة الطرف الأغر، المتحف، قصور بكنغهام.. كل ما يرى في لندن وما يزار رأته أميرة وزارته. فقد كانت شاهة حريصة أن تحمل لقلب أختها السرور وأن تجعل عطلتها أياماً من العمر. خمسة أيام ظلت أميرة تجوب مع مضيفتيها لندن، تؤم الأماكن السياحية الجميلة، تحدثهما وتسمع. كانت تريد أن تطلع على كل ما جرى هناك في دمشق، في غيابها، وكان الطرف الآخر يريد أن يعرف، بالمقابل، حياة الطالبة الجامعية التي تعيش في باريس بملء حريتها وبكل حيويتها...

– اى.. سألتها سلوى وهن يسرن على العشب الأخضر في حدائق بكنغهام.. نحن نعلم أنك مجدة.. تدرسين وتطمحين لأن تكوني مبتكرة أدوية لا مجرد صيدلانية، لكن هل حياتك مجرد درس وعمل!؟ جد ودأب!؟

– لا.. بالتأكيد لا.. بل حياة كهذه هي قتل للإنسان.

– هه.. سارعت سلوى تعقب بكثير من السرور، هذا ما قلته في نفسي.. فاحكي لنا.. ماذا عن الجانب الآخر من الحياة؟

– أنا أستمتع بعطلتي الأسبوعية.. أسافر مع أصدقائي وصديقاتي.. تعلمان!! ليس هناك مكان في فرنسا وسويسرة يستحق أن يزار إلا زرته..

– أميرة!! قاطعتها شاهة لاوية عنقها، سلوى ليست مهتمة كثيراً بالسياحة والأماكن السياحية.. هي تسألك عن الرجل.. عن الحب..

– بالضبط.. هذا ما أسألك عنه.. أنت في باريس مدينة الحب.. فهل تعيشين هكذا؟ بلا حب!؟ بلا بوي فرند كما يقولون هنا؟.

– للأسف، أنت مخطئة سلوى.. باريس ليست مدينة الحب.. ربما هي مدينة الجنس.. صحيح.. لكن الحب.. لا.. لا.. هذه بضاعة لم يعودوا يعرفونها هنا.. أوروبا.. أمريكا.. بلدان الحضارة الحديثة لم تعد تتعامل بهذه العملة.. يعتبرونها عملة باطلة.. العملة المتداولة هنا هي الجنس..

– وما الفرق؟ سألت سلوى بتعجب المتشبع لقيم الحضارة الحديثة، الجنس هو الحب والحب هو الجنس

– لا.. لا.. الفارق كبير جداً.. الحب هو الدفء، المشاعر الحميمة، الأحاسيس الدافئة، تلك الرابطة الصميمية التي تربط بين قلبين، ويكون الجنس هنا تحصيل حاصل، فعلاً يؤكد الحب، يزيد من شدة أواصره.. أما الجنس فهو تلك العلاقة العابرة بين كائنين لا يربطهما شيء سوى حاجة الجسد للجسد، شهوة، نزوة، لا تترك وراءها من أثر.. إنه كعود الكبريت ينطفئ في اللحظة نفسها التي يشتعل فيها.

– أفهم من هذا أنك لم تقيمي علاقة مع أحد!؟ سألتها سلوى بإلحاح المتعجب..

– لا أخفيك.. كدت ذات مرة أقيم علاقة مع أحدهم، زميلي.. شاب حضاري بكل ما في الكلمة من معنى.. جميل.. ربما أخته تعشقه.. نحن معاً في الجامعة، نحضر المحاضرات، نذهب إلى المختبرات، في لحظة من الزمن خيل إلي أنني أميل إليه، دعاني ذات يوم إلى العشاء، فذهبت معه، شربنا، أكلنا، تحدثنا، لكنني لم أشعر في حديثه بحرارة الحب، لم ألمس ما يوحي بالحب، وحين اقترب مني، أسرع إلى ثيابي يريدني أن أخلعها.. في الحال تملكتني قشعريرة.. هكذا؟ بهذه السهولة أسلم نفسي!؟ بهذا الابتذال أعطي عذريتي؟ تلك هي الأسئلة الوحيدة التي خطرت ببالي..

– إي، ماذا فعلت بعد ذلك؟ سألتها هذه المرة أختها.

– القشعريرة جعلتني أجفل مبتعدة عنه.. ففغر فاه دهشة..

– ماذا؟ أنت خائفة؟ سألني وهو يتفحصني.

– بل أنا عذراء.. ولم يصدق الرجل الفرنسي.. فتاة في مثل عمري... عذراء!؟ إذن أنا معقدة.. أنا فتاة غير سوية.. ودار حوار سرعان ما انتهى بيننا إلى الفراق. لا، لا شك أن لكل منا قيمه وعالمه: الغربي الذي يعتبر الفتاة العذراء بعد الثامنة عشرة مشكلة، والشرقي الذي يعتبر الفتاة التي لم تحافظ على عذريتها مشكلة.. كم هو الفرق شاسع!!

– لكن.. لا تؤاخذيني أميرة.. ردت سلوى بشيء من تردد في البداية.. عالمنا الشرقي.. رجلنا الشرقي.. كل ما في الشرق متخلف.. بال.. وبصراحة.. هم على حق ونحن على خطأ..

– بالمناسبة، تدخلت شاهة مازحة، سلوى لا تكره كالرجل الشرقي، لا تنقم على شيء نقمتها على الاستبداد الشرقي..

– ومن منا تحب الرجل الشرقي أو الاستبداد الشرقي؟ عادت أميرة تتحدث وقد ازدادت حماسة وفصاحة.. بالعكس.. أنا مع تحرر المرأة حتى العظم.. مع نيل المرأة حقوقها كاملة.. مع مساواتها، رفع الظلم عنها.. إلغاء كل ما يلغي إنسانيتها.. فتعيش صنوا للرجل.. لها حقوقه نفسها وعليها واجباته نفسها.

– إذن، لم لاتتحررين من عقد الشرق؟ لم لا تمارسين حياتك الطبيعية؟

– ومن قال لك إنني لست متحررة ولا أمارس حياتي الطبيعية؟ بالعكس.. أنا أدرس، أنجح كل عام بتفوق.. أساتذتي يحبونني، يقدرونني.. زملائي تربطني بهم أحسن العلاقات.

– والجنس؟ أليس الإنسان بحاجة إلى الجنس، ذكراً كان أم أنثى؟ ألا تعيشين كبتك الشرقي بسبب عذريتك تلك؟

– سلوى، ربما أنت على حق.. لو أخذنا المسألة هكذا بسيطة ومجردة.. الإنسان فعلاً بحاجة إلى الجنس، غريزة يشبعها شأن الحاجة إلى الطعام والشراب.. لكن المسألة ليست بهذه البساطة والتجريد.. الجنس بالنسبة إلي شيء خاص، بل هو بالغ الخصوصية.. وسيلته الوحيدة هي الحب.. لا يأتي إلا به.. ولا ينفصل عنه، فهو ليس غريزة حيوانية يشبعها المرء كما تفعل الكلاب والقطط.. أنا لا أستطيع أن أتصور جنساً بغير حب.. بل أشعر أن حاجتي الأساسية للحب.. الذي... يحمل لي الطمأنينة، الثقة، الاحترام، الاهتمام، الرعاية.. وهذا لا وجود له هنا في الغرب... بل أقول لكما شيئاً! منذ فرويد وثورة الجنس لم يعد في الغرب حب...

– إذن، لماذا تبحثين عنه؟ سألتها سلوى بمزيج من تحد وامتعاض..

– أنا لا أبحث عنه.. ردت أميرة بشيء من عصبية، أنا أبحث عن مستقبلي وعلمي.. علني أعود بشيء يفيد بلدي.. أما الحب فهو ذلك النسيم العليل الذي يأتي من تلقاء نفسه..

– رائع.. أميرة، عقبت الأخت هذه المرة.. يعني أنت.. لا تفكرين بالزواج من غربي؟

– لا.. لا.. الزواج من غربي يعني الحياة في الغرب وأنا لا أفكر إلا في بلدي..

في تلك اللحظة كان حراس بوابة بكنغهام بثيابهم المزخرفة، أجسادهم الرشيقة، وجوههم الجميلة قد لفتوا نظر سلوى، وهم يتبادلون المواقع.. حرس صاعد وحرس نازل.. فتوقفت لتتوقف الأختان البعيدتان عن بلدهما.. يرقبن مراسم إبدال الحرس وطقوسه الرائعة.. بعد ذلك حل الليل... وفي الليل يحلو

السهر.. وبرامج المقاصف كثيرة في لندن متعددة الألوان مغرية...

حتى وقت متأخر من تلك الليلة سهرت زائرات لندن، فقد كانت تلك آخر ليلة لهن.

– اسمعا.. قالت سلوى وقد انتهت الفرقة الفنية من تقديم استعراضها الراقص، لتكن ليلتنا هذه مسك الختام..

وأدركت شاهة للتو ما تقصده سلوى.. فمسك الختام لا يكون إلا بوجود الرجل، لكن ماذا عن أميرة، تلك العذراء التي لم تعرف الرجال؟

– وهي كذلك.. ردت أميرة وهي سعيدة بما رأته من عرض فني خلب لبها جماله، تناسق حركاته، روعة الراقصين والراقصات فيه وقد بدا العري البشري أروع من كل لباس.. أنا بالحقيقة، سعيدة كثيراً، ممتنة لكما كثيراً..

– لا.. لا.. ستكونين أكثر سعادة وامتناناً إن جاءنا ثلاثة رجال يراقصوننا ويسلوننا ويقضون الليل معنا..

– مـــ.. مـــ.. ما.. ذا؟ ردت أميرة متلعثمة..

– اي.. صدقيني أنا لا أستطيع أن أتصور أنني أقضي آخر ليلة في لندن وحيدة.. موحشة... باردة الفراش.. لا.. لا.. الرجل شيء لذيذ.. يعطيك الدفء.. المتعة.. السعادة.. وقهقهت ضاحكة ثم مالت على شاهة تهمس في أذنها.. هذه الليلة سنبحث عن رجال فرسان يقدمون الحب بلا مقابل..

– ابحثا أنتما.. أما أنا فاسمحا لي، قالت أميرة وهي تلملم حاجاتها تأهبا للذهاب، بعد أن سمعت جانباً من ذلك الهمس...

– أميرة.. بلا عقد اجلسي.. قالت سلوى وهي تمسك بها من ذراعها في محاولة لتثبيتها على الكرسي.

–أنا بلا عقد سلوى.. ولن أجلس.. طائرتي ستقلع في التاسعة صباحاً وعلي أن أنام باكراً.. قالت وهي تنهض واقفة..

– إذن.. أذهب معك، عقبت شاهة وهي تنهض بدورها.

– ولم تذهبين أنت؟ طائرتنا تقلع ظهراً فلماذا لا نكمل السهرة؟

– لا.. لا.. هناك ما أريد أن أحدث به أميرة.. أكملي السهرة إن شئت...

– اللعنة!! قاطعتها سلوى صارفة على أسنانها، ليلة زفت!! بنات معقدات!!

وكانت البنات المعقدات قد سبقنها إلى الباب فأسرعت تلحق بهن. لكن قبل أن تفعل ذلك، كانت أميرة تميل على أختها هامسة:

– هذه المرأة منحلة، اسمعي مني ابتعد عنها قبل أن تدمرك...

لكن تلك المرأة المنحلة كانت صديقتها وشريكتها ، وكان لديها خطط أخرى لا تبعدها عن شاهة بل تجعلهما أكثر قرباً وانغماساً في العمل وكسب المال. إذ لم ينقض يومان على وصولهما إلى دمشق حتى بادرتها بمشروعها الجديد.

– مكتب لتوريد الخادمات.. قالت لها سلوى وهما تشربان القهوة في"بوتيكهما" الجميل.. من سريلانكا.. تايلاند.. الفيلبين.. البلد بحاجة إلى خادمات والناس تدفع بالدولار.. فما رأيك؟

– كيف؟ اشرحي لي.. سألتها شاهة وقد فاجأها الاقتراح.

– نأتي بالخادمة من الخارج.. نشغلها بمائتين أو ثلاثمائة دولار.. نعطيها النصف ونأخذ نحن النصف الآخر.. إن استطعنا كل شهر تأمين مائتي خادمة كان لدينا المبلغ المرقوم..

– فكرة!! هتفت شاهة وقد سال لعابها لذكر الدولار.. لكن كيف نؤمن الخادمات!؟

– أنا أعرف ناساً لهم صلات بمكاتب في عمان وبيروت...

– عظيم.. ويمكننا أيضاًأن نأخذ عناوين من خادمتك هنا.. من خادمتنا الفيلبينية...

على الغداء، كانت شاهة تسأل الخادمة الفلبينية عن عناوين فتيات يمكن أن تستدعيهن إلى البلاد وكانت الخادمة صغيرة الجسم، غائرة العينين، كالحة اللون تجيبها بعربية مكسرة فرحة بأنها ستؤمن عملاً لبضع قريبات وصديقات...

– ماذا؟ سألتها أمها السمينة المترهلة ثقيلة الخطا وقد فغرت فاها دهشة، أنت تأتين بخادمات؟

– ولم لا،؟ مشروع أجني منه أرباحاً كبيرة كل شهر.. أرباحاً بالدولار.. ولا شقاء ولا تعب، لا ضرائب ولا جمارك.. أليس خيراً من البوتيك والملابس.. الخوف من الجمارك والرشوة!؟

– هكذا والدك!! مشاريع وأرباح!! دولار وجنيه!!

– وماله والدها؟ قاطعها زوجها سيف الدين وقد فتح الباب خلسة وسمع ما قالته..

– أبا دياب!! أهلاً!! أهلاً!! من زمان هذا القمر ما بان.. قالت أم دياب متلجلجة متحيرة، وقد فاجأها الرجل بدخوله.. هو الذي بات يغيب الشهر والشهرين دون أن يمر ببيته القديم، فبيوته الثلاثة الجديدة، مشاريعه، شركاته

كلها تشغله عن أم دياب. "بل لماذا يأتي؟" كانت الزوجة القديمة تتساءل أحياناً وهي تعلم أنه لم يعد لديها ما يغريه. علاقتهما الجسدية كانت قد توقفت قبل زواجه الأول.. ثم جاء الزواج فأبت عليها نفسها أن تسمح له بمقاربتها.." لقد غدر بي.. خان العشرة، الخبز والملح، فكيف أفتح له ذراعي؟ كيف أحضنه ويحضنني وقد كان قبل ساعة فقط بين أحضان امرأة أخرى؟ "هكذا كانت تفكر أم دياب. تشعر وكأن زوجها أغمد خنجراً في ظهرها...." ليبق زوجاً وصاحب بيت.. لكن لن يكون رجلي بعد اليوم. "لكن أبا دياب الذي تغير تغير الأبيض إلى الأسود والأزرق إلى الأصفر لم يبال كثيراً، بل بدا وكأنه سر كثيراً بقرارها ذاك..

– صحيح، ماذا تقولين عن أبيها؟ عاد يسألها وقد فرغ من سلامه على ابنته العائدة من لندن.

– لا.. لا شيء.. قلت لك لا شيء.. تفضل.. تفضل إلى غرفة السفرة.. الغداء جاهز..

مسح أبو دياب المطبخ بنظرة عجلى وكأنما يريد أن يتعرف إن طرأ عليه تغير خلال غيابه الطويل أم لا، ثم دار على عقبيه متجهاً إلى غرفة السفرة وقد وضعت على طاولتها الأطباق والكؤوس وأعد كل شيء للغداء.

– أبي.. أنت تسمن كثيراً!؟ بادرته شاهة التي علمتها سلوى كيف تتخلص من سمنتها.. كيف تكون رشيقة لتجذب الرجال.. كانا يجلسان جنباً إلى جنب على طاولة الطعام، وكانت تتفحص بناظريها الكرش الذي اندلق حتى الفخذين، محاولة أن تتذكر كم كان والدها نحيفاً معروقاً..

– وماذا أفعل؟ طعام كثير وشهية طيبة.. فآكل وأسمن، رد الوالد وهو يربت كرشه بتحبب وتدليل كأنما يربت ظهر حيوان مدلل.

كانوا قد بدأوا الطعام، وكانت أم دياب تجلس قبالة زوجها، فيما كانت الكراسي التسعة الأخرى فارغة... وكانت الخادمة الفلبينية تقف على مقربة بانتظار أي أمر.

– أين الأولاد؟ سأل الأب وهو لا يرى غير شاهة التي أرغمته على دفع خمسة ملايين لزوجها كي يطلقها.

– لا تعلم؟ أجابت الأم وهي تتفحص الكراسي الفارغة من جديد.. زافرة حسرة.. دياب مسافر لا يعلم إلا الله أين. فهد لا يصل إلى دمشق إلا وتأخذه امرأته من جديد إلى بيروت...

– بيدها حق، علقت شاهة بارمة شفتيها، هي التي لم تسر لحظة واحدة

لزواجه من دارينا. هناك بلاجات ومسابح، نواد وكازينوهات.. وهي سمكة لا تستطيع الخروج من بحر بيروت.

– القاضي راضي.. علق الأب مازحاً، فما شأن المفتي إبراهيم؟

– إيه.. تنهدت الأم من جديد، لو أخذ امرأة من ثوبنا تسكن معنا هنا.. كنت أتسلى.. يأتي لي بولد.. لكن.. ها هوذا... بعيد غائب دائماً.. أخوه.. أخته.. آه!! حتى أميرة غائبة بعيدة.. وأنا هنا.. تقتلني الوحدة.. البيت على سعته أضيق علي من خرم الإبرة.

– أف.. عدنا لنقيق الضفادع!! رد الأب زافراً زاجراً.. أنا جئت لرؤية ابنتي فلا تغضبيني..

– صحيح.. ماما.. لا تعكري البابا.. خلينا رائقين، ردت شاهة وهي تخشى أن تنشب معركة بين أبويها كما باتت عادتهما كلما التقيا.. اسمع أبي.. استأنف حديثها وفي نيتها أن تلطف الجو، احزر من رأيت في لندن؟

– من؟ قال الأب وهو يمتعض قليلاً، شارد الذهن قليلاً.. حينذاك فتحت شاهة مذياعها على آخره تحدث أبويها عن أميرة وعن الأيام الخمسة التي قضتها معها في لندن.. فلم تملك الأم إلا أن تذرف الدموع ناشجة بالبكاء.

– أماه!! تبكين؟ لماذا؟

– لماذا؟ سألتها الأم من بين دموعها، تسألين لماذا وأولادي كلهم بعيدون عني.. بيتي فارغ.. قلبي ملؤه الشقاء.. أنا شقية.. تعيسة لم تعرف السعادة قط...

– بعد هذا العز والثراء.. تقولين ذلك؟ سألها الزوج مشيراً إلى كل ما حوله وفي نبرته مزيج من الاستغراب والامتعاض.

– هذه قشور.. كلها قشور.. المال.. الثراء.. كل ذلك مظاهر براقة خادعة.. أما السعادة ففي القلب.. حيث لا مظاهر ولا قشور.. قالت وهي تدق صدرها حانقة.. متوجعة..

– لا فائدة.. أنا أعلم أنه لا فائدة.. كلما جئت هنا نغصت عيشتي.. لكن الحق علي.. لماذا أجيء أصلاً؟ .. وهم بالنهوض حرداً، لكن يد شاهة سارعت للإمساك به، مانعة إياه من النهوض..

– لا.. أبي.. أرجوك.. لدي مشروع وأريد أن آخذ رأيك فيه..

هذه المرة نهضت الأم وهي تمسح دموعها فقد كان أكره ما تكرهه المشاريع.. تلك التي قلبت حياتها رأساً على عقب.. أكره ما تكرهه المال الذي

حرمها زوجها وأولادها، استقرارها وطمأنينتها...

– مشاريع.. مال.. راحت تتمتم وهي تبتعد عن طاولة الطعام.. لا أدري لم هذا اللهاث كله وراء المال؟.. كأنكم ستأخذون شيئاً منه إلى قبوركم...

لكن البنت وأباها لم يسمعا شيئاً.. كانت شاهة قد بدأت تشرح له مشروع الخادمات الآسيويات، ففتح عينيه إعجاباً:

– فكرة عظيمة، طالما الأرباح بالدولار.. لا تترددي.. افتحي المكتب فوراً...

– يعني هذا رأي الدكتور سيف الدين لا الأب، أبي دياب؟ سألته شاهة مؤكدة على كلمة الدكتور مفخمة إياه.

– بالطبع.. هذا رأي.. الدكتور في الاقتصاد والتجارة.. صاحب الملايين، الرأسمالي الكبير الذي لم يخب له مشروع حتى الآن..

– لكن كيف حصلت على الدكتوراه، أبي؟

– كيف؟ صاحب ملايين؟ رأسمالي؟ مشاريعه ناجحة دائماً؟ ألا يستحق دكتوراه في الاقتصاد؟

– لا، ما هذا قصدي.. قصدي أن أفعل مثلك وآخذ دكتوراه أيضاً...

– لا، ما يزال باكراً عليك شاهة.. اعملي.. اربحي.. أثبتي جدارتك في المشاريع وأنا نفسي أؤمن لك الدكتوراه.. قال الأب وهو ينظر إلى ساعته ثم هب على عجل متمتماً، علي أن أذهب.. شوكة بانتظاري.. ولا أريد أن أتأخر.

شوكة يدور بكرسيه العالي إلى اليمين والشمال فرحاً بالحسابات النهائية لشركة الاستثمار الزراعية التي قدمها له المحاسب. منذ أكثر من ساعة وهو يقلب صفحات السجلات أمامه.. الهواتف ترن فيرد عليها وعيناه على السجلات.. الموظفون يدخلون، يسألونه، يجيبهم وعيناه على السجلات، أرقام مذهلة حققها مشروعهم خلال عام.. مجرد عام..

ثلاثون ألف دونم صارت ملك الشركة وكلها أرض صالحة للزراعة.. الرأس الكبير في المحافظة أمنها لهم بلعبة ذكية.. على أطراف السلسلة الجبلية، حيث لا قرى ولا ضياع.. أراض ما تزال ملكاً للدولة فلماذا لا يبيعها للشركة الاستثمارية الزراعية دعماً للاقتصاد الوطني؟ الدونم بليرة. سعر رمزي. وتتحول أملاك الدولة إلى أملاك للشركة فتقام فيها المزارع وتغرس الأشجار؟ تربى الدواجن والأسماك، المواشي والأبقار.. الأمن الغذائي حاجة ماسة، خاصة للعالم الثالث الذي يعاني المجاعة والفقر.. ينبغي توفيره ولا يمكن ذلك إلا بإقامة مؤسسات زراعية كبيرة، رساميلها كبيرة وإنتاجيتها عالية.. الرأس الكبير في

المحافظة حريص على توفير الأمن الغذائي للوطن والمواطنين فقدم الأرض للشركة تسهيلاً لأعمالها...

الدونم الذي كان بليرة صار بعشرة آلاف.. إذن كم الربح!؟ ثلاثون ألفاً بعشرة آلاف.. يا إلهي!؟ ضربة عظيمة. بعد تأمين الأرض، أعلن الاكتتاب على رأسمال الشركة: مليون سهم، السهم بسبعمائة ليرة، وبدأ الناس يكتتبون.. أفواجاً أفواجاً بدأوا يأتون إلى مكتب الشركة.. سبعمائة ليرة للسهم ماذا تعني؟

الناس لديها أموال، وهي تريد ميادين لاستثمارها.. الزراعة وتربية الحيوان ميدان واسع، إذن لم لا يستثمرون أموالهم فيه؟ هذا يشتري ألف سهم، ذاك خمسمائة، ثالث خمسة آلاف.. ولم تمض عشرة أشهر حتى كان جل الأسهم قد بيع. إعلان الشركة كان ذكياً فيه الكثير من الإغراء والجذب: "مشاريع زراعية عديدة"، كان يقول الإعلان "ستقوم بها الشركة، حبوب، أقطان، أشجار، خضار.. كل شيء ستزرع الشركة.... الأرض واسعة والمياه متوفرة فقد ثبت أن الأرض تقوم على حوض مائي لا ينضب معينه، ستحفر آبار ارتوازية وتمدد أقنية وتجر مياه إلى كل ركن وزاوية من تلك الأرض...

كذلك هناك مشاريع صناعية.. تعليب خضار، تجفيف فواكه، كل أنواع الكونسروة يمكن تصنيعها، الأجبان، الألبان، ذلك أن جزءاً كبيراً من الأرض سيكون مراعي تسقى فتصبح مروجاً خضراء ترعاها الأغنام والأبقار فتسمن وتعطي لبناً ولحماً، شعراً ووبراً.. كما يمكن إقامة أحواض للأسماك، حظائر لتربية الإوز والدجاج.. وكلها بطرق علمية حديثة، توفر الإنتاجية العالية والربح الوفير.."

إغراءات الإعلان شديدة،سمع بها الناس فسارعوا إلى مكاتب الشركة الاستثمارية الزراعية"عشتار" يكتتبون ويدفعون أموالاً.. لكن شوكة لم ينتظر حتى انتهاء الاكتتاب.. بل منذ الملايين العشرة الأولى، اقترح على شركائه الآخرين.. "لنبدأ بشراء الآلات وتوريد المواد." الآلات والمواد معفاة من الرسوم والضرائب تشجيعاً لحركة رأس المال ودعماً للاقتصاد.. صاحب النجوع الكثيرة تكفل بإدخال الآلات ومدير المؤسسة العام تكفل بإدخال المواد الأخرى: حديد، إسمنت، رخام، أخشاب... فبناء الشركة لا يقوم في الفراغ.. بل لابد له من مواد للبناء..

وهكذا بدأت شاحنات المواد تدخل.. معفاة من الضرائب والرسوم.. والسوق خالية من تلك المواد، عطشى لقطرة منها فكيف وقد بدأت تنهمر عليها وابلاً؟.. في السوق السوداء أرباح خيالية.. أضيفت هي الأخرى إلى الأرباح السابقة.. الآلات أيضاً عظيمة الربح، فالجرارات، الحصادات، الدراسات،

الشاحنات، محركات الديزل وكل ما تحتاجه المنشأة الزراعية ومالا تحتاجه من آلاتكان بالإمكان إدخالها وبيعها في السوق السوداء.. والمال يجر المال كما يجر السحاب الأمطار...

سبعمائة مليون قيمة الأسهم التي انتهى الاكتتاب عليها قبل أيام.. الشركاء عقدوا اجتماعاً يوم انتهاء الاكتتاب، تأكدوا من الرقم المكتتب عليه و الحسابات المصرفية المتعلقة به، لكنهم لم يطلعوا بعد على الأرباح النهائية لإدخال الآلات وبيعها ، لثمن الأرض، لتشغيل أموال ذلك الاكتتاب.. شوكة ينظر إلى السجلات أمامه ويدور بكرسيه متراقص القلب يكاد يرفرف بجناحيه ويطير في السماء..

– ألفان وثلاثمائة وأربعون مليوناً، بادر شوكة صاحبه أبا دياب ما إن دخل المكتب، أتسمع؟ ألفان وثلاثمائة وأربعون مليوناً رأسمال الشركة الآن..

– معقول؟ رد أبو دياب فاغر الفم جاحظ العينين.

– هي ذي الكشوف.. والحسابات.. بعد الفحص والتدقيق، قال وهو يشير إلى السجلات أمامه..

– رائع.. عظيم.. يعني كم هو ربحنا الصافي خلال عام؟

– اطرح سبعمائة مليون فقط قيمة الأسهم.. يبقى ربحنا نحن ألفاً وستمائة وأربعين مليوناً..

– هذا هو الشغل.. هذه هي الصفقات.. قال أبو دياب وهو ينهض دائراً على نفسه شبه هاتف، فرحاً وسروراً.. يجب أن نجتمع الليلة ونطلع الشركاء على ذلك.

– بالطبع.. يجب أن يطلعوا، أن يفرحوا مثلنا، لكن قبل ذلك، قلت أبحث معك فكرة..

– فكرة!؟ ما هي أبا عمرو؟

– لا أخفيك، بدأ شوكة الداهوك على مهل وقد بدت على محياه سيما انزعاج. أنا فرحت بما أنجزنا خلال هذا العام، لكنني لم أستطع إلا أن أشعر بالغصة حين فكرت بتقسيم الأرباح..

– غصة!؟ كيف؟ لم أفهم أبا عمرو؟ راح أبو دياب يتساءل وقد توقف شريكه عن الكلام مقطباً حاجبيه قليلاً.

– قلت لي: كيف؟ هذه الأرباح لو قسمت على اثنين أليس أفضل من خمسة؟

– أكيد أفضل.. لكن.. أيعقل أن نخدع شركاءنا؟

- لا.. لا.. ما هذا قصدي..

- ما قصدك إذن؟

- أبا دياب، قال شوكة شبه هامس وهو يجلس إلى جانب شريكه، نحن بدأنا اثنين وعلينا أن نستمر اثنين.. رأسلمالنا لاثنين وأرباحنا لاثنين.. شراكة الخمسة لم تعجبني..

- لكن كان لابد منها..

- بالنسبة إلى الشركة الزراعية.. صحيح.. لكن بالنسبة إلى مشروعنا الجديد لا أراها كذلك..

- مشروعنا الجديد!؟

- بالطبع.. وهذا ما دعوتك من أجله..

- أي مشروع!؟ قل أبا عمرو.. أسرع..

- مشروع ستفوق أرباحه كل ما يتصوره خيالك، مشروع سيصل بثروتنا إلى مربع الشطرنج الرابع والستين.

- ما هو.؟ تكلم..

- لا، نذهب إلى بيت المزرعة.. فمن يعلم؟ سأل وهو يشير إلى ما حوله قد تكون لهذه الحيطان آذان.. ونهض شوكة ضاحكاً مقهقهاً ممسكاً بذراع أبي دياب، خارجاً به وقد كست محياه سيما الاستغراب...

-10-

–قهوة أم شاي؟ سألته مضيفته الحسناء ذات الخمسة والعشرين ربيعاً وهي تجلس قبالته في البهو الواسع شديد الفخامة والبذخ..

–لا قهوة ولا شاي، رد أبو دياب وقد اشرأب بعنقه وتسمرت عيناه على المرأة الجميلة التي نزلت لتوها من مخدعها في الأعلى وليس عليها إلا غلالة من بنفسج رقيق يضوع عبقاً ودفئاً وتحيطه هالة من غموض وإيحاءات. أنا فقط جئت أصحبك إلى السهرة..

–لا، لا، أنا متعبة ولا رغبة لي في الخروج.. قاطعته المرأة بكثير من الغنج والدلال، محركة يديها بما يوحي بأنها في غاية الإنهاك والإعياء!!

–سوزان متعبة!؟ أنا لا أصدق، ترى كيف تتعب مهرة في أوج نشاطها وقوتها؟ لا، لا، التعب لغيرك.. هيا.. البسي.. في النادي الليلة برنامج حافل.. حين ترينه ستنتعشين.. ويزول كل تعبك حين تشربين..

–نشرب هنا.. قالت سوزان ثم التفتت إلى النادل ذي البذلة السوداء الأنيقة وربطة العنق الأفقية، جو، هات لنا كأسي جن..

–جن!؟ قاطع أبو دياب النادل وهو يهم بالإجابة تلبية للأمر.. لا.. لا.. الجن، النبيذ، العرق، الكونياك.. كل هذه مشروبات الفقراء الفلاحين.. أنا لا أشرب غير الويسكي "السبسيال" ختم كلامه وهو يقهقه ضاحكاً..

–بيدك حق، ردت سوزان متضاحكة ثم التفتت إلى الخادم، إذن هات لي الجن.. وهات للدكتور وسكي سبسيال..

وأحس أبو دياب بشيء كالوخزة في صدره.. الدكتور، قالتها سوزان بنبرة مختلفة عن كل ما سبقها وما تلاها.. أتراها تسخر من لقبه ذاك؟ لا تصدق أنه من حقه؟ راحت الأسئلة تهاجم دماغه وهو يشعر باضطراب القلق والحيرة. هذه المرأة تحيره.. هي وحدها من كل النساء اللواتي عرفهن عصت عليه، يقترب منها فتبتعد، يبتعد عنها فتقترب، إذا رسم لها خطة أفشلتها وإذا ظل بلا خطة دوخته... كيف يتصرف معها؟ هو لا يدري، في نادي الذروة تعرف إليها ذات مساء.. كان معها زوجها الخليجي الثري وكان يناهز السبعين.. تتالت بعدئذ اللقاءات وعلم أبو دياب أن الخليجي شيد لها فيلا ضخمة محاطة برياض وبساتين وسور عال لا يستطيع أحد اختراقه، أسكنها فيها، وظف لها الخدم، وفر

لها السيارات، أودع باسمها الأرصدة، لكنه كان يغيب، فزوجاته الأخريات بحاجة إليه أيضاً، أعماله تتطلب منه السفر والتنقل..

في غياباته كان أبو دياب يتصل بالزوجة، يدعوها إلى برنامج فني، عشاء في النادي.. وكانت تأتي في بعض الأحيان، فالفراغ قاتل..

مرة بعد مرة، كانا يلتقيان، ومن خلال اللقاء علم أبو دياب أن سوزان سمكة في ماء، يحاول الإمساك بها فتنزلق منه، جنية غابة كلما خيل إليه أنه وضع يده عليها اختفت وذابت.. كيف؟ أين؟ لا يدري.. المرأة اللعوب لا تقول لك كيف وأين.. هي تروغ منك وحسب، تشحذ همتك، تثير شهيتك، تدفع سيخ النار في جسدك حتى الدماغ ثم تنسل، تحاول الإمساك بها فتفلت منك.. حينذاك قال أبو دياب في نفسه لعلها مخلصة ، إخلاصها لذلك الشيخ الفاني يمنعها من إقامة علاقة مع غيره لكن الشيخ الفاني مات. منذ خمسة أشهر سلم روحه المعذبة لباريها، تاركاً لنسائه في شرقي الأرض وغربيها أموالاً لا تأكلها النيران.. ربما كان نصيب سوزان منها الأقل..

منذئذ وأبو دياب يتابع هجماته على حصن سوزان المنيع، لم تعد نساؤه كلهن يغرينه: غادة الشقراء التي كان يصفها بشهد العسل لم تعد بالنسبة إليه شهداً ولا عسلاً، مها السمراء اللاهبة صارت أبرد من الصقيع، نوال البيضاء الصغيرة المثيرة لم تعد صغيرة ولا مثيرة.. هو يريد سوزان.. فمه يتحلب كلما رآها، الدماء تتدفع مجنونة في عروقه كلما لامس أناملها المخملية، ما السر؟ سوزان حنطية البشرة، كستنائية الشعر، بنية العينين، لكنها طويلة القامة، رائعة البنيان.. أجل، هو يعلم أن طول قامتها وروعة بنيانها هما اللذان سحراه.. ينظر إليها من أسفل إلى أعلى إذا كانا يسيران معاً، فلا يملك إلا أن يعجب بجمال تلك القامة وطغيان سحرها عليه.."الطول نصف الجمال" أليس هذا ما يقولون.. فكيف إذا كان مع الجمال تناسق، رشاقة، روعة بنيان؟

عزاها بوفاة الشيخ الفاني، لمح إلى أن أرباح الصفقة كبيرة وسريعة، وأنها تستحق التهنئة بدل التعزية، لكنها اعتصمت بسيماء الجمود والنكران، ترفض الاعتراف بحقيقة واضحة كعين الشمس.. وتابعت أداء دورها حتى النهاية، فالرجل الذي مات زوجها، والمرأة تحزن على زوجها وتحد، بل تقيم العدة على نفسها أربعة أشهر..

بعد الأشهر الأربعة، دعاها للخروج، خرجت معه، عادت الأنثى اللعوب ذات الغنج والدلال، فرح كل الفرح، فالفريسة صارت قرب الفخ.. إن لم تقع اليوم وقعت غداً لكن الأيام مرت والليالي استمرت والفريسة لم تقع.. كل يوم، تجد المرأة اللعوب حيلة تروغ بها من الصياد وتفلت من الفخ.. وأبو دياب حائر

لا يدري كيف الوصول ولم يعد في يده حيله. "دعينا نتزوج،" قال لها وهما في نادي الذروة يشربان ويأكلان، "نتزوج؟ كيف ولديك أربع زوجات؟ أهناك فتوى جديدة تسمح للرجل بأكثر من أربع؟" ردت عليه ساخرة بعض الشيء، هي التي كانت تعرف عنه كل شيء. حينذاك أراد أن يقول لها ان الشرع يسمح، ألم يقل" وما ملكت أيمانكم؟" لكنه خشي أن يجرحها فتنفر منه ، هو يعلم أنها لا ترضى أن تكون محظية من المحظيات اللائي يشتريهن الرجل بماله. فتابع، "هناك الزواج العرفي.. أقصد كتاب "براني" فلا عين رأت ولا".. "لا.. لا".. قاطعته بشيء من عصبية تدل دلالة واضحة على أن الهدف الذي رسمته واضح أيضاً. أنا أريد زواجاً جهاراً نهاراً، لا خجل منه ولا عرة". "سوزان لا تعلّقي على الشكليات.. المهم المضمون.. وما تريدينه ستصلين إليه، فقط اقبلي الآن إلى أن تحين الفرصة وخذي ما تشائين: مليون دولار أضع باسمك في سويسرا.. مليونين.. بل ثلاثة ملايين.."

حينذاك ضحكت سوزان ضحكة خافتة فيها الكثير من الإغراء والغموض في آن معاً، ثم قالت: "أنا أعلم أنك تدفع الكثير لأنك تملك الكثير: شركات استثمار، عقارات، نوادي، مطاعم.. لكنك تعلم في الوقت نفسه أن زوجي ترك لي الكثير أيضاً.. أنا لست بحاجة إلى مالك، أنا بحاجة إلى اسمك، إلى مظلتك أستظل بها في هذه الصحراء اللافحة يا حضرة الدكتور الثري عظيم المقام".

حجتها أفحمته، بل إن كلماتها الثلاث الأخيرة جعلته يحب ذلك الافحام فلا يرد ولا يصد. صحيح.. هو دكتور مذ وفى أبو سامي بوعده وجلب له الدكتوراه بخمسة آلاف دولار. الناس كلهم ينادونه بهذا اللقب. في البداية كان يشعر بشيء من الحيرة والبلبلة حين يناديه أحد به، لكنه شيئاً فشيئاً اعتاد سماعه وشيئاً فشيئاً راح يعتبره جزءاً من حقه على الناس، فإذا حاول أحد أن يغمطه ذلك الحق هاج وماج.. ذلك اللقب فتح له أبواباً كثيرة، زاد من هيبته واعتباره، خاصة لدى أولئك الذين لا يعرفونه. فكرة رائعة كانت تلك الفكرة. هو الآن لا يشعر بالدونية تجاه أحد.. هو دكتور شأنه شأن أولئك الدكاترة والأساتذة كلهم ثم هو ثري.. بل بالغ الثراء.. أصحابه باتوا من علية القوم.. بورجوازية، رأسمالية.. أولي أمر وأصحاب حل وربط.. من لا يعرفه أبو دياب؟ ومن لا يعرف أبا دياب من علية القوم أولئك؟ إذن هي على حق، تريد أن تستظل بمظلته وتستفيد من عظمة مقامه ورفعة مكانته في المجتمع. لم يجبها حينذاك، فقد كان ما يزال مفحماً يقلب الفكر حين خرج..

وطوال الأيام الثلاثة الماضية ظل يقلب الفكر. لكن فكره لم يخبره بحل

فجاء هذه الليلة عله يجد معها الحل.

-كأسك!! رفعت سوزان كأس الجن داقة إياه بكأس الويسكي!! كأس الدكتور الثري عظيم المقام!!

-سوزان!! أنت قاسية، تقفين مع الدهر علي لا معي على الدهر.

وضحكت سوزان حتى انقلبت على قفاها.. مستعيدة في ذاكرتها.. كيف كانت في زيجاتها الثلاث السابقات حليفة الدهر دائماً، لا حليفة الزوج فكيف عرف السر ذلك العييّ الأكرش؟ كانت سوزان تختار أزواجها دائماً ليس من كبار السن فحسب بل ممن طعنوا في السن حتى إذا ما وقع أحدهم بين يديها جعلته يلهث جهداً وانهاكاً.. ومرة تلو الأخرى، كان الجهد والانهاك يتحولان إلى مرض فموت.. أيريد أبو دياب أن يشذ عن القاعدة؟

-تضحكين!؟ سوزان لماذا تضحكين؟

-أضحك على حماقتك!! على تناقضك.. أنا الرقيقة اللطيفة تنعتني بالقسوة!؟ أنا التي تريد أن تقدم نفسها عبدة لك، تخدمك وتخلص لك تقول انني مع الدهر عليك!؟ لا.. لا.. أبا دياب، أنت أحمق ولا يمكنني إلا أن أضحك من كلامك..

-حسن، صدقتك.. لكنني لم أعد أطيق الصبر.. فما رأيك؟ نسافر إلى اليونان، إيطاليا... أي مكان تريدين ونتزوج زواجاً مدنياً؟

لم تجب سوزان للتو، فخيل إليه أن دماغه العبقري أنجده أخيراً بالحل الناجع.. لحظة انتظر ثم تابع وفي ذهنه أن يطرق الحديد وهو حام.. وعرضي السابق ما يزال قائماً.. أضع في حسابك في المصرف ثلاثة ملايين دولار..

-ما زلت لم تفهمني.. سيفو.. حبيبي.. قالت بدلال خرق قلب سيف الدين سهماً في الصميم، ما زلت تخطئ في حقي.. تحسبني أريد مالاً.. لا، من هذا المال لدي أكداس وأكداس.. فماذا أفعل به؟ بل ماذا يهمني المال!؟ لا.. لا. أريد زواجاً رسمياً أكون فيه زوجة الدكتور سيف الدين النايفة على سن ورمح..

-لكن كيف وهناك أربع زوجات؟

-طلق إحداهن يا عبقريي الأحمق!! ردت بأعصاب باردة وبنبرة متقنة بدت وكأنها أعدت منذ زمن..

-آ!؟ أطلق إحداهن؟ ردد كالببغاء قولها مرتين أو ثلاثاً، ثم غامت عيناه فجأة في سديم الحيرة والتردد، لكن تعلمين.. أبغض الحلال عند الله الطلاق.. كما أنني لم أرَ من واحدتهن شيئاً يوجب الطلاق فكيف أطلقها؟

–هذا شأنك.. ردت وهي تنهض غاضبة..

–سوزان.. اجلسي أرجوك لا تغضبي، قال وهو يحاول الإمساك بها.

–لا.. دعني وشأني.. اذهب أرجوك.. وحين تطلق إحداهن حينها فقط عد إلي.. جو! صاحت ملء صوتها بالنادل الذي انتصب أمامها بسرعة، عفريت علاء الدين.. أوصل أبا دياب إلى الباب.. ثم غابت في الداخل.

فاغر الفم، جاحظ العينين، متعثر الخطا، سار أبو دياب إلى الباب وهو لا يصدق أن معذبته التي يذوب فيها حباً وهياماً قد طردته حقاً.. ألقى بنفسه على المقعد الخلفي، أقلع السائق، اندفعت السيارة به على الطريق الواسع تنهب الأرض نهباً. "القاسية، الظالمة، الطاغية، الجبارة.. تطردني!؟ قسماً سأنتقم منها.. قسماً سأثأر لكرامتي".

لكنه وصل نادي الذروة وهو لا يدري كيف ينتقم أو يثأر. شريكه وحده يدري.. هو ملاذه دائماً خاصة إذا ادلهمت من حوله واشتبكت وتعقدت.. شوكة بارع في كل شيء قادر على تخليصه دائماً من المأزق فكيف لا يخلصه من هذا المأزق؟

سأل موظفي الاستقبال عن شوكة فقالوا انه في البهو الكبير مع صدر الدين أبي الرمحين" هذا الرجل أكرهه، يتحدث أحاديث غامضة لا أفهمها.. إن التحقت بمجلسه شوش لي دماغي" فكر وهو يسير على مهل باتجاه البهو الكبير..

حركة الزوار في الفندق نشطة، نساء متبرجات، عاريات الظهور، عاريات النحور كن يمررن به، رجال بأبهى حللهم يسلمون عليه، لكنه هو مشغول البال" يجب أن أستشير شوكة. أليس هو قائدي ومرشدي؟ ألم يكن دائماً وراء نجاحاتي..؟ مشاريعي كلها من صنع يده.. تجارة العقارات، إنشاء النادي، الملاهي، المطاعم، مؤسسة الاستثمار الزراعي عشتار، كل شيء.. كل شيء من بنات أفكاره.. المشروع الأخير، مشروع جمع الأموال واستثمارها، أليس هو مصممه ومنفذه؟"

تساءل مستعيداً في ذهنه جلسة المزرعة تلك والخطط التي وضعاها لتنفيذ المشروع بعيداً عن شركائهما الآخرين. كان سيف الدين قد جلس على أريكة وثيرة تفصله عن مجلس صدر الدين دعامة رخامية ضخمة من دعائم البناء.. وكان شوكة هناك لكنه يصيخ السمع لأستاذه.. مستغرقاً كل الاستغراق "عجباً.. رجل بذكاء شوكة يسحر لبه.. شيخ كهذا الشيخ بعصاه المفضضة وطربوشه الأحمر؟ " قال في سره وهو يتابع التفكير بصاحبه "خلال سنتين فقط استطاع أن يقنع ألفاً وثمانمائة مودع بأن يوظفوا أموالهم لديه.. رجال.. نساء.. كبار..

صغار.. هذا أودع مائتي ألف، ذاك ثلاثمائة.. امرأة باعت مصاغها، تلك بيتها.. وبعضهم كان يودع بالملايين.. الناس تريد فرصاً للاستثمار.. كلهم يلهث وراء الرب المعبود: يهوه.. اله الذهب والفضة. وشوكة يعلم جيداً كيف يبث الدعاية ويلوح بالجرزة فيركض الناس إليه وشفاههم تتلمظ طمعاً بالربح: "ثماني عشرة بالمائة.. فائدة شهرية.. ضع مائة ألف وخذ كل شهر ثمانية عشر ألفاً فكيف إذا وضعت مليونا؟ أو عشرة؟ الفوائد كبيرة، ليس لها مثيل في العالم"؟

في البداية تسرب الخوف إلى قلب سيف الدين النايفة" من أين سنعوض هذه الفوائد التي ندفعها؟ كيف سنربح ثماني عشرة بالمائة كل شهر؟ "سؤال مشروع" رد عليه شوكة الداهوك" لكن تأكد أننا سنربح ونعوض" كيف؟" سأله سيف الدين وهو ما يزال خائفاً يريد شيئاً يطمئن نفسه.

"هه..هه..هه.." رد شوكة ضاحكاً، نحن سنستثمر هذه الأموال في عقد صفقات كبيرة، إقامة مصانع ضخمة، إنشاء مشاريع جديدة.. كل هذا سيعود علينا بأرباح كبيرة لا تسد الفوائد وحسب، بل تعطينا أرباحاً هائلة". الفكرة أقنعته بعض الشيء لكن ليس تماماً، خوفه كان ما يزال يعشش، هناك. في الداخل، خاصة وهو يرى كيف كان شوكة الداهوك يأخذ ما يجمع من أموال إلى الخارج، يصرفها دولارات ويضعها هناك سأله عن ذلك فأجاب "هو إجراء مؤقت نضمن به أموالنا ريثما نبدأ مشاريعنا ثم إني أضعها في مصارف فائدتها ثماني عشرة بالمائة.. النسبة التي ندفعها نفسها.. هذه الفائدة مع فرق أسعار الدولار والليرة وحدها تغطي لنا ما ندفع.. تصور أربعة آلاف مليون بالدولار!! "كثيرة.. الحقيقة، كثيرة" رد أبو دياب إذ ذاك وقد اطمأنت نفسه للأرقام الكبيرة التي كان عقله يقف عاجزاً عن استيعابها "ثم اعلم أن طموحاتي كبيرة.. أنا لن أبدأ مشاريعي الحقيقية قبل أن تبلغ الودائع العشرة.." "عشرة ماذا؟ "عشرة آلاف مليون ليرة.. حينذاك سيصبح العالم كله ملكنا أنا وأنت.. سنصبح نحن الاثنين مثل روكفلر وروتشيلد". ولم يعد باستطاعة سيف الدين اللحاق به.. فهو، رغم ثرائه وشهادة الدكتوراه التي باتت تزين جدار بيته، لم يكن ذهنه يسعفه في الفهم أحياناً.. بل ثمة أشياء لم يكن قد سمع بها من قبل، روكفلر!! من هو هذا الروكفلر!! روتشيلد؟ من هو هذا الروتشيلد؟ لهذا السبب ربما كان أبو دياب يشعر أن عليه أن يسلم قياده لمن هو أكثر منه علماً وذكاء..

من وراء العضادة، نظر الشريك الذي أسلم نفسه إلى الشريك الأكثر منه علماً وذكاء. كان شوكة ما يزال مستغرقاً في سماع أستاذه، كله آذان صاغية "لكن ما تراه يقول ذلك الأستاذ حتى يستغرق شوكة كل هذا الاستغراق؟ "تساءل سيف الدين وهو يشحذ سمعه جيداً، متحولاً هو نفسه إلى آذان صاغية أيضاً..

-الحقيقة نسبية يا أخواني.. وسأضرب لكم مثالاً على ذلك. كان صدر الدين يتكلم بنبرته الواثقة وصوته المطمئن. يحكى أن حكيماً صينياً وضع فيلاً في ساحة ثم غطاه بخيمة. بعدئذ جاء بطلابه ليعرفوا ما تحت الخيمة. مد أولهم يده فلمس خرطومه فقال هذا خرطوم ماء. الثاني لمس جذعه فقال: هذا جذع شجرة، الثالث لمس ذيله فقال: هذا بعير.. وهكذا الحقيقة يا أخوان، كل منا يرى جزءاً منها فيعتبر أنه الحقيقة كلها.. لكن الحقيقة لا يعرفها إلا الحكيم.. والحكماء قلة، فاسمعوا حكماءكم وأطيعوهم... إنهم رسل المعرفة.. ظل الله على الأرض. وتوقف الأستاذ الحكيم فجأة وكأنما يريد أن يترك فرصة لمن حوله لاستيعاب ما قال، فيما انطلقت همهمات من حوله.

-تقول الحق يا سيدنا..

-ما أعظم حكمتك يا أستاذنا..

-تحكي درراً يا أبا الحكماء.. تابع أرجوك..

ولم يكذب أبو الحكماء خبرا فتابع للتو:

-هذه القصة رد على صاحبكم الذي أعرب عن فرحه الشديد لانتهاء الحرب بين العراق وإيران.. ولماذا يفرح؟ كان عليه أن يحزن.. نحن من مصلحتنا أن تستمر الحرب بين دولتين، كل منهما تمثل الشر، فإذا تقاتلتا معاً كفتا شرهما عنا.. ألا يقولون ناب كلب بجلد خنزير؟ إذن هذه هي العراق وإيران ولولا ذلك.. هل كانت القوى العالمية تتركهما تتحاربان ثماني سنوات كاملات؟ لا .. لا.. أمريكا.. بريطانيا.. فرنسا.. الكل كان حريصاً على أن تستمر تلك الحرب أطول مدة ممكنة فتستنزف قوى الدولتين وتؤخذ أموالهما وعائدات نفطهما كلها ثمناً للسلاح وإعمار ما يخربه ذلك السلاح. أضف إلى ذلك إبعاد الخطر عن إسرائيل.. فالحرب هي التي أضعفت الدولتين وهي التي أتاحت الفرصة لإسرائيل لأن تضرب المفاعل النووي في العراق.. إذن.. الحرب.. مفيدة.. وانتهاؤها بصيغة لا غالب ولا مغلوب مضرة لنا..

"عجيبة أفكار هذا الرجل" يخيل إلي أنها سم في دسم.. لكن كيف؟ لا أعلم"، شرد أبو دياب عن حديث الرجل وهو يفكر بما سمع" الناس كلهم فرحون بانتهاء تلك الحرب القذرة المجنونة.. أنا نفسي فرحت كثيراً بانتهائها وهو يقول العكس بل يلوم من يفرح!؟ يا إلهي!! لو أفهم فقط كيف يفكر أولئك الناس"، ولفت انتباهه حديث الأستاذ وهو يقول:

-العالم.. نحن نتحرك على صعيد العالم.. نريد السيطرة عليه فلا تفلت من

قبضة يدنا شاردة ولا واردة..

-لكن كيف يا سيدي؟ سأله أحدهم ممن لم يكن باستطاعة أبي دياب تمييز صوته أو رؤيته فقد كانت تحجبه العضادة عنه.

-بالتنظيم!! نسيطر على العالم بالتنظيم.. لقد اكتشف أساتذتنا ذلك منذ زمن طويل.. فشرعوا يؤسسون نوادي، ينشئون جميعات، يقيمون منظمات.. وكلها تعمل لهدف واحد: السيطرة على العالم..

-وكيف؟ سأله أحدهم متلهفاً.

-الطريق واضح: بالسيطرة على ثلاثة ميادين: المال، الفكر، السياسة.. وتصاعدت همهمات إعجاب وإكبار للحكيم الأستاذ الذي يوضح لتلامذته ما غمض عليهم كثيراً. بعدئذ تابع: عبر التاريخ لم يكن جماعتنا يهتمون إلا بعلية القوم، بالنخبة، ومن النخبة؟ الفلاحون؟ العمال؟ الكادحون من أصحاب المهن والحرف؟ لا.. لا.. ما هؤلاء كلهم إلا رعاع لا يساوون شيئاً.

النخبة هم من يملكون المال والفكر والسياسة.. إننا بالمال نشتري العالم ونبيعه، بالفكر نوجه الناس كما نشاء، وبالسياسة نقودهم حيث نشاء.. "يا إلهي!! يعلمون المفاصل التي ينبغي وضع اليد عليها!! كم هم أذكياء كم هم أقوياء إذن!!" فكر أبو دياب وهو يشعر بالاندهاش أكثر وأكثر من ذلك الرجل الذي يبدو بريئاً بسيطاً ظاهراً لكن عميقاً خطيراً باطناً.. والتفت أبو دياب إلى ما وراء العضادة يصيخ السمع، فيما كان الرجل يتابع:

-أخيراً أوصيكم: ليخدم بعضكم بعضاً، لتجمعوا ما استطعتم من مال.. لتصعدوا معاً. يد بيداً فنكون نحن السادة والبقية العبيد..

-والنظم!؟ القوانين؟ استفسر أحدهم شبه هامس.

-لا. اطمئنوا.. النظم.. معنا... القوانين سنت لمصلحتنا.. يريدون تكوين طبقة رأسمالية فلنكن نحن هذه الطبقة.. إلغاء الطبقة الوسطى فلنعمل على إلغائها.. فلا تبقى إلا طبقتان: رأسمالية عليا وفقيرة دنيا والهوة بينهما واسعة، فلا يطمع واحد من أولئك الفقراء بالنظر إلى أعلى..

لحظة من الزمن توقف الشيخ الأستاذ ثم عاود حديثه بنبرة فيها كل الإطراء.. بالمناسبة، أبا عمرو، أنا فرح كثيراً بمشروعك هذا الذي تجمع فيه الأموال من الناس لاستثمارها.. أجل.. يجب أن نجرد الناس مما يملكون من مال.. يجب أن نحصره في أيدينا.. بأية وسيلة يجب أن نأخذه منهم كيلا يبقى في يدهم شيء ويكون في يدنا كل شيء.. فسر قدما.. أبا عمرو مباركة خطاك.

ومن جديد سرت همهمات بين الحضور، في بعضها مديح وفي البعض

الآخر حسد وغيرة.. لكن لهفة أبي دياب للقاء صاحبه، أبي عمرو، جعلته يستغل أول لحظة يغادر فيها الأستاذ الجليل المجلس لينقض على صاحبه..

-شوكة.. يا رجل.. تعال.. أسرع..

-ما.. ما.. ماذا هناك؟ رد شوكة وهو ينهض مصفر المحيا خائفاً، هل احترقت المؤسسة؟ هرب المحاسب؟ راح يسأل بلهفة شديدة وأخشى ما يخشاه أن يكون المحاسب الذي وظفه كي يستقبل الناس ويقبض منهم الأموال قد هرب بما قبض من أموال..

-لا.. لا.. ليس هنالك شيء من هذا.. فقط أنا بحاجة إليك. قال وقد ابتعد به عن البقية..

-نعم.. ما هي حاجتك؟ رد شوكة وقد اطمأنت نفسه..

-القصة نفسها.. أنت تعرفها.. سوزان ترفض إلا أن تكون زوجة شرعية.. فقل لي ما الحل؟

-أيها الأبله، الحل بسيط.. طلق أم دياب وتزوجها..

-أم دياب!! رد دون تفكير مستغرباً كل الاستغراب وكأن الاقتراح نوع من المستحيل.

-أجل.. أم دياب.. طالما أنك هجرتها منذ سنين.. وطالما أنها بلحومها وشحومها لم تعد صالحة كامرأة.. طلقها يصبح لديك شاغر لسوزان..

-لـــ.. لـــ.. كن.. أم.. دياب!؟ ردد بكثير من التعثر وكأنما عاد له العي الذي طالما عانى منه.. إنها.. رفيقة العمر..

-رفيقة العمر.. غير رفيقة العمر.. المسألة لا تعنيني.. تسألني عن الحل، هذا هو الحل.. ثم ابتعد مسرعاً، تاركاً أبا دياب في بحران من الحيرة. على مهل اجتاز أبو دياب البهو الكبير، على مهل سار الممر الطويل إلى الباب الخارجي، فالأفكار في رأسه أمواج تتلاطم "حقاً.. ما الفائدة من أم دياب وقد كبرت وهرمت"؟ كان صوت في داخله يقول بسخرية وامتعاض "الثوب إذا عتق خلعته، الحذاء إذا بلي ألقيته، فلماذا لا يصح ذلك على امرأة عتيقة بالية لم تعد تنفع في شيء؟"

كان الصوت يتساءل وأبو دياب يدير السيارة بنفسه ثم يقلع بها دون أن يحدد وجهته بعد".

لكنها شريكة حياتك، عاشت معك السراء والضراء، حملتك فقيراً محروماً معدماً.. أنجبت لك الأولاد فكيف ترمي بها إلى الشارع؟" ردد صوت آخر في

داخله بكثير من الغضب والاستياء "ما فات مات.. والمرء ابن حاضره.. هي كانت كذلك في الماضي.. لكن ماذا عنها الآن؟ هي شيءٍ بلا قيمة، بلا نفع، ولماذا يبقى لديك شيء بلا قيمة ولا نفع؟ لماذا تبقيها عبئاً على كاهلك؟ طلقها يا رجل.. طلقها". وأحس بيديه توجهان مقود السيارة نحو شقة الحواكير تلك التي عادت عليه من صفقة العمر الأولى: ليلة القدر.

عند الباب استقبلته أم دياب. بجرمها العظيم وابتسامتها الهادئة ثم قادته إلى غرفة الجلوس وفي عينيها لمعة استغراب.. لم يكن من عادته أن يأتي إليها في الليل أو دون اتصال هاتفي، فلماذا جاء؟

–اسمعي أم دياب، بدأ الزوج وقد جلس قبالة امرأته، وفي ذهنه أن يتوصل معها إلى نوع من الاتفاق، لا يموت فيه الذئب ولا يفنى الغنم..

–أنا أسمع.. ردت الزوجة وقد أحست برائحة الخطر، فانكمش شيء ما في داخلها.

–لأنك رفيقة عمري وشريكة حياتي.. ظللت طوال هذه المدة حريصاً عليك.. لكني الآن مضطر. أريد أن أتزوج من جديد..

–تتزوج؟ ألم تشبعك ثلاث نساء حتى الآن؟

–أم دياب.. أنا لا أتزوج من أجل نفسي.. صدقيني.. لا.. أنا الآن، بحمد الله، رجل غني، أملاكي كثيرة وأموالي طائلة لا بد لها من ذرية كبيرة.. أنا أريد المزيد من الأولاد أم دياب.. أريد عشيرة من الأولاد.. وأنت.. كما تعلمين، لم تعودي صالحة لذلك.. فلماذا لا أتزوج امرأة فتية أكثر بها ذريتي؟

–حسن.. تزوج.. من يمنعك؟

–يمنعني أنكن أربع على عصمتي.. فقلت.. وتلجلج أبو دياب في حال من العي منعته من المتابعة.

–ما.. ماذا قلت؟ ما المطلوب مني؟ أنجدته المرأة وقد أشفقت عليه.

–قلت.. نبقي كل شيء على حاله.. نبقي كل شيء، كرر الرجل.. فقط.. القضية شكلية.. يعني.. أم دياب تبقين أنت في بيتك.. سيدة بيتك.. كل شيء في خدمتك لكن، إسمياً.. شكلياً.. أطلقك!!

–تطلقني!؟ هتفت باستغراب وامتعاض شديدين: يا حيف عليك يا أبا دياب!! يا خسارة تخون عشرة العمر!! الخبز والملح!!

–أم دياب!! قلت لك لن يختلف عليك شيء.. بيتك.. نفقاتك.. عزك.. كل شيء سيبقى على حاله وأكثر.

-غلطان أبا دياب.. غلطان.. إن كنت تظن أنك قادر أن تضحك علي أنت غلطان.. صحيح.. أنا لم أتعلم في المدارس لكنني أعرف كل شيء..

-لا.. لا تنفعلي.. أم دياب!!! قاطعها مسرعاً أنا أريد أن أتفق معك بهدوء، بلا غضب.. ونبقيي ذلك سراً بيننا لا يدري به أحد..

-غلطان.. الطلاق لا يكون سراً.. بل يجب أن يعلن وأن يسجل.. والطالق يحرم عليها طعام مطلقها، فراشه، بيته، ماله، فكيف تريدني أن أرضى بذلك؟ أتظنني دون كرامة؟

-أسجل لك البيت باسمك.. أضع لك رصيداً في المصرف.. فقط وافقي أم دياب.. أنا لا أريد أن أخسرك..

-طبعاً!! لا تريد!! من يطبخ لك المجدرة بالعدس إذا اشتقت إليها؟ من ينظف لك الرؤوس والمقادم ويقدمها لك؟ من يصنع لك السجق؟ زوجاتك النايلون لا يعرفن ذلك كله.. أو ربما تشمئز منه نفوسهن.. فتتصل.. أم دياب.. أريد طبق سجق.. أنا مشتاق لأكلة رؤوس.. والآن تريد أن تطلقني.. ألا تخجل من نفسك يا رجل؟ ألا تستحيي؟

-أخفضي صوتك أم دياب.. اخفضي صوتك، قال الرجل وهو يتلفت خشية أن تكون الخادمة الفلبينية قد سمعت صوتها ذاك الذي راح يعلو ويعلو..

-لا، كل شيء إلا كرامتي.. عادت إلى الرد وقد خفضت صوتها قليلاً، تأكلني لحماً وترميني عظماً..؟ لا!! وألف لا!! أنا التي تحملت فقرك وجوعك، غلاظتك وحرمانك.. تطلقني حين تثري.. لا.. لا.. أنا لن أرضى وإذا رضيت لن يرضى أولادي.. سأحرضهم جميعاً ضدك.. سأجعلهم ينتقمون. "حقاً.. الأولاد.." فكر أبو دياب وهو يشيح بنظره عنها، حانيا رأسه، محاولاً أن يصم أذنيه عما كانت ترغي به وتزبد "أنا لم أفكر بهم؟! ترى أيرضون أن أطلق أمهم؟ ماذا سيفعل دياب؟ كم سيغضب فهد؟ لا.. لا.. ابعد عن الشر يا رجل.. فلا أحد يضمن أولاداً تحرضهم عليك أمهم.." ودون أن يرفع ناظريه إليها، دون أن يلتفت، خرج أبو دياب لا يلوي على شيء..

وابلاً من المطر انهمرت الدموع من عينيها وقد خرج الزوج. كل تلك القوة والتماسك انفرط عقدهما ما ان انطبق الباب خلفه "الغادر الخائن.. لم يكفه كل ما فعل بي.. لم تشبعه أولئك النساء كلهن.. يريد أن يتزوج.. يريد أيضاً أن يرميني في الشارع"، وأسرعت إلى الهاتف.. هي بحاجة لمن تحدثه.. لمن تنفث له عما في صدرها من براكين!!

-سلوى!! أين شاهة؟ سألت أم دياب وهي تكفكف دموعها.

-شاهة سافرت منذ الأمس.. ألم تقل لك؟ ردت الشريكة التي كانت تهم بإقفال المحل حين رن الهاتف.

-آ.. آ.. صحيح.. لعن الله النسيان.. قالت لسلوى وهي تدعي المعرفة درءاً للشماتة، أجل.. هي قالت لي.. لكن الكبر عبر يا بنتي.. لقد نسيت..

أغلقت الأم الهاتف، ثم راحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً "أي تفكك هذا؟ أي انحلال؟ أوصل بها الأمر أن تسافر دون أن تخبرني؟ ترحل دون كلمة وداع!؟" راحت الأفكار تتضارب في رأسها وقد زادتها قهراً على قهر.. كانت شاهة، مذ فتحت محل الملابس قد بدأت تسافر.. إلى لندن، باريس، روما.. تسافر وحيدة أحياناً وأحياناً مع شريكتها سلوى لكنها كانت تخبرها دائماً.. لكن مذ بدأت عملها الآخر: استيراد الخادمات بدأ سلوكها يتغير.. هي مشغولة دائماً.. تسافر دائماً، إلى عمان، بيروت، القاهرة وأحياناً إلى سيرلنكا، تايلاند، الفلبين، وكانت الأم تزداد دهشة واستغراباً.. من كان يظن أن يطلع من فتاة كشاهة شيء كهذا؟ من كان يحسب أن تلك القطة المغمضة ستصبح أبرع من الرجال، أقوى منهم في عالم المال والتجارة وأكثرهم حباً للمغامرة؟ بمن تتصل؟ كيف تتصل؟ لا أحد يدري.. لكنها تأتي بعشرات الخادمات كل شهر، بل ربما بالمئات.. شاهة كتوم، نادراً ما تتحدث عن أعمالها، لكن من الواضح أنها تربح، سلوى تحب التفاخر فتفلت منها كلمة هنا، كلمة هناك، وأم دياب تستنتج.. لكن ذلك كله لا يرضيها.. بل يزيد من قلقها..

"آه!! اللعنة على المال!! اللعنة على الطمع مشتت الشمل ومفرق الأحبة "هكذا كانت تردد وهي تطلق الزفرة تلو الزفرة فالمصيبة كبيرة. إن طلقها أبو دياب سيشمت بها الناس جميعاً، ستنزل أسفل السافلين ولن يكون لها وجه بعد ذاك تقابل به أحداً. لو كانت شاهة هنا لحدثتها.. لو كان دياب.. فهد.. أميرة.. لكنهم جميعاً مسافرون.. كل منهم في بلد.. شاهة في شرقي الأرض، أميرة في غربيها.. دياب وفهد لا تعلم أين أراضيهما.. هي وحيدة.. بيتها الكبير موحش.. لا ترى منه إلا جدراناً كالحة.. شقاء حط بكلكله على صدرها.. فلمن تنفث همومها؟ من يشاركها أحزانها؟

رنات الهاتف وحدها جعلتها تتوقف عن ذرع الغرفة والتساؤل..

-ألو.. من..؟ أميرة؟ وشهقت الأم شهقة الغريق الذي أمسك بيد منقذه.

-أجل!! أميرة.. كيف صحتك؟ كيف أحوالك؟ ردت أميرة من الطرف الآخر للخط وكأنما هي في عجلة من أمرها..

-أحوالي بالويل.. يا أميرة.. تعالي شوفي هذه المصيبة.. بدأت الأم وقد

وجدت المتنفس، نافذة لابنتها البعيدة، كل ما يثقل صدرها من هموم.

-معقول؟ أبي يفكر بهذه الطريقة؟

-بل قولي هو لا يفكر أبداً.. أعمته النساء.. لم تعد تشبعه أربع.. يريد خمسين وستين مثل هارون الرشيد، لكن ليأخذ ما يشاء، أنا لم أمنعه ولن أمنعه.. لا أريد منه إلا أن يحفظ ماء وجهي.. يبقي على البقية الباقية من كرامتي.. فلا يبهدلني آخر العمر..

-لا.. لا.. ماعاش من يبهدلك يا أمي. أنت في الحفظ والصون.. كلنا نفديك بأرواحنا..

-كلكم!؟ من كلكمٍ يا أميرة؟ بل أين أنتم.ِ. تعالي.. انظري إلي تجديني أهرب هنا وهناك بحثاً عن فلذات كبدي لكن عبثاً.. أضرب يدي على دياب فلا أجده.. على فهد فتطلع في الهواء.. شاهة غائبة.. أنت بعيدة.. وأنا هنا.. بين أربعة حيطان.. لا ولد ولا تلد.. لا زوج ولا أب.. أنا مسكينة.ِ. أميرة.. أنا تعيسة.. وحتى الموت حزينة.. ومن جديد انهمرت دموعها وابلاً من المطر، على البعد رِأته أميرة بعيني الابنة المشفقة فلم تملك إلا أن تغرورق عيناها بالدموع "حقاً ماذا جنت هذه الأم بعد أن جاءها المال وهبطت عليها الثروة"؟

-أماه.. اهدئي.. أرجوك.. كفكفي دموعك.. دعينا نتفاهم..

-على ماذا نتفاهم وأبوك راكب رأسه، يريد تطليقي؟

-لن أدعه يفعل ذلك.. سأتصل به الآن.. فقط اهدئي، ظلي قوية متماسكة كما عهدناك..

-قوية!! متماسكة!! كيف ومطرقة الخيانة تحطم كل قوة!؟ تدمر كل تماسك!؟

-لا عليك.. فقط عديني أن لا تتركي البيت مهما جرى.ِ. أن تظلي الصامدة مهما صار.. لكن الأم لم تع.. كانٍ الخوف قد انغرس عميقاً في قلبها، فالسوطِ الذي يِلوح به الرجل للمرأة دائماً، كان قد وقع على ظهرها.. وكان وقعاً موجعاً".. بعد هذا العمر، تريد طلاقي؟ أي خائن أنت يا سيفو؟ أي غادر يا حديث النعمة".

-أمي.. أنا أكلمك.. ردي علي أرجوكِ.. عديني كما قلت لك. هذا بيت العائلة.. هذا بيتك فلا تتركيه.. مهما حدث لا تتركيه.. من أجلي.. من أجل أولادك لا تتركيه..

-حسن.. أعدك.. قالت أخيراً وهي تزفر.

–وأنا سأتصل به الآن..

–لن تجديه..

–إذن.. أتصرف، أتصل بعمي مصباح.. أدعه هو يتولى المهمة..

حين أطبقت أميرة سماعة الهاتف أحست أن أعصابها أكثر انشداداً وتوتراً من جلد في ليلة قارسة. "كارثة!!" راحت تردد لنفسها وهي تسير نحو النافذة تفتحها لتشم بعض الهواء.. فأخبار الوطن خانقة "الفساد، الانحلال، التفكك" هكذا كان عمها مصباح قد بدأ رسالته لها آخر مرة.. وها هي ذي ترى الفساد المستشري يصل إلى عقر دارها، يهدد الرابطة الزوجية المقدسة التي كانت تربط أمها وأباها.

لحظات ظلت أميرة خارجة برأسها من النافذة ثم أسرعت من جديد إلى الهاتف. دقت الأرقام التي تعرفها كلها لكنها لم تجده.. النادي، المكتب، الملهى، المطعم، بيت المرأة الأولى، الثانية، الثالثة، لكن عبثاً، هو غائب فزفرت وهي تدق رقماً جديداً.

–ألو، عمي مصباح، هتفت أميرة فرحة وقد جاءها صوته صدى ينعش النفس.

–أميرة!؟ كيف صحتك؟ طمئنيني.. رد العم بفرح أكبر..فابنة أخيه، البرعم الذي كان صغيراً، تفتح وها هو على وشك أن يصبح ثمرة يانعة.

–أنا بخير.. لكن أمي ليست بخير.. أبي يهددها بالطلاق..

–شيء طبيعي أميرة.. فلماذا تستغربين؟ تلك المقدمات توصل لهذه النتائج..

–لكن معقول؟ بعد هذا العمر يرميها على الرصيف.. هذا ظلم يا عمي.. هذا بهتان..

–ومن قال غير ذلك؟ القوانين وضعت في يد الرجل سيفاً يسلطه على عنق المرأة.. الطلاق.. يطلق متى يشاء. الزواج يتزوج متى يشاء.. أليس الرجل هو الذي يسن القوانين؟! إذن.. كيف يسن قانوناً ليس في صالحه؟ لكن كيف فطن لها بعد هذه السنين؟

–يريد أن يتزوج امرأة خامسة.

–مسكين.. قال العم وهو يتنهد، بل كلهم مساكين هؤلاء الذين يعانون عقد الكبت والحرمان.. شيئان لا يشبعون منهما: المال والنساء.. إن صار لدى واحدهم مليون جرى لاهثاً وراء المليونين وإن صار عشرة طمع بالعشرين..

وهكذا.. النساء!! يريد أن يستحوذ على كل من يرى من النساء.. وهنّ لا ينتهين. تغيب سمراء فتظهر شقراء، تروح طويلة فتأتي قصيرة وكلهن يغرين المكبوت المحروم، يجعلنه يلهث وراءهن.. إنه جنون التملك.. تلك الرغبة المسعورة في أن يضعوا أيديهم على كل شيء.

–لكن.. علينا أن نتدخل.. يجب أن نمنعه من ذلك..

–كيف؟ ومن يستطيع..؟

–أنت.. أخوه الذي يسمع منه.. قالت وكأنما غاب عن ذهنها كل ما حدث من تطورات.

–أنا؟ قاطعها عمها عبر الهاتف هازاً رأسه متنهداً.. كان زمان، أميرة.. يسمع مني ويطيعني.. لكن، وقد أصبح الدكتور سيف الدين، كيف يسمع مني؟ تصوري.. لا يفك الحرف إلا بالكاد يصبح دكتوراً في الاقتصاد وإدارة الأعمال؟ ألا يطق عقله؟ رجل لم يكن يملك ثمن طعامه يصبح مليونيراً بل ربما ملياردير اً.. ألا يصاب بالبارانويا؟ صدقيني أميرة هؤلاء جميعاً مصابون بجنون العظمة.. طقت عقولهم.. لقد أعطاهم الواقع أكثر بكثير مما كانوا يحلمون.. فلم يعودوا يصدقون. هم في نظر أنفسهم عباقرة عصرهم.. النوابغ المتفردون الذين لا يجود الزمان بمثلهم. إنه جنون العظمة المطبق أميرة.. ومن كان مصاباً به لا تستطيعين أن تقنعيه بشيء.. بل يصبح مصمتاً حيالك كصخرة ملساء..

–مع ذلك، علينا أن نحاول.. قالت بنوع من التراجع وقد تذكرت كل شيء، أرجوك أن تحاول.. ليس من أجلي.. بل من أجل تلك الأم المسكينة التي خسرت كل شيء فهل تخسر ملاذها الأخير؟.. أرجوك.. عماه.. اتصل به.. اذهب إليه.. حاول على الأقل..

ولم تدعه أميرة إلا وقد وعدها بالمحاولة.. كانت أميرة تعلم أنه سيفي لكنها ليست على يقين من النتيجة.. لقد تذكرت جيداً أن أباها شق عصا الطاعة منذ زمن طويل.. ذلك الحمل المسكين الذي كان يلجأ في كل ملمة إلى أخيه لم يعد يعترف بأخيه.. ولماذا يعترف؟؟ هو لم يعد بحاجة إليه.. المال بات وافراً، الجاه، بل حتى شهادة الدكتوراه.. فلماذا يرى مصباح نفسه عليه؟" واأسفاه!! لقد عهروا حتى العلم!!" كتب لها عمها ذات يوم وقد سمع بنيل أخيه سيف الدين للدكتوراه" لم يوفروا حتى هذه القدس القدوس فلطخوه بأقذارهم، حولوه إلى سلعة تباع وتشرى!! واحسرتاه على عالم لم يبق فيه من المقدسات شيء!!"

كانت أميرة مذ جاءت باريس، قد حافظت على عادة المراسلة. فكلما ضاقت بها دوائر الغربة واشتد حنينها إلى الوطن أمسكت القلم والورق ودبجت

رسالة.. كانت تكتب لأخيها فهد، لابنة عمها نور، لابن عمها مأمون، لبعض صديقاتها من أيام الجامعة، لكن أكثر من كانت تكتب له هو عمها مصباح.. كانت تبثه أفكارها وهمومها، تصارحه بكل شيء يشغل بالها في باريس الحضارة، وكان يرد عليها برسائل هي منارات تهديها سواء السبيل، تعود إليها كلما أحست بالوحدة فتؤنسها، بالغربة، فتجد فيها الإلف..

جلست أميرة إلى طاولتها.. من الدرج الأول أخرجت رسالة.. يحدثها فيها عمها عن مسألة الإيمان وكيف تدرج الإنسان في إيمانه، حسب المراحل الحضارية للإنسانية من الإيمان بالطوطم وعبادته إلى الإيمان بالعقل..

"ذات يوم، "يقول العم في رسالته "عبد الإنسان الشجرة، لأنها تعطيه النار، الثور لأنه رمز القوة، النهر لأنه يعطيه الماء، سر الحياة، بل إن الهنود الحمر في أمريكا كانوا يعبدون الفاصولياء لأنها غذاؤهم الأساسي وسبب بقائهم، العرب صنعوا أوثانهم من تمر.. بعد ذاك ارتقى الإنسان بنظره إلى السماء فعبد الزهرة والقمر والشمس لأنه رأى فيها النور والدفء، والنور والدفء هما الحياة.. ثم جاءت مرحلة أخرى أدرك فيها الإنسان أنه بحاجة للقيم.. وأن من يجسد القيم ينبغي أن يكون إلها واحداً أحداً. فصنع عالماً من الميتافيزيك والغيب خارج المحسوس والمادة. أخيراً تعب الإنسان من التخبط في عالم الميتافيزيك والغيب.. جذبته المادة والمحسوس فهبط من السماء إلى الأرض، وهكذا، جاءت مرحلة العقل والعلم.. وظهر الإيمان بالعقل وحده والعلم وحده طريقاً سديداً للإنسان. امسحي الكرة الأرضية بنظرك الآن تجدي البشر يتوزعون على هذه المراحل الحضارية كلها وعلى أصناف الإيمان كلها.. والسؤال.. في أية مرحلة حضارية أنت؟ إذن يكون إيمانك"

حين جاءت تلك الرسالة حلت لغزاً كبيراً كان يحيرها.. اطمأنت نفسها بعد ذلك.. هي تعلم إلى أية مرحلة حضارية تنتمي.. وبالتالي إلى أي إيمان..

من درج آخر أخرجت رسالة أخرى، تحدثها عن الجبر والاختيار جواباً على سؤال وجهته إليه..

"أميرة، نحن في طبيعة عاقلة: الوردة، الشجرة، النملة، الفيل.. كل ما فيها عاقل، لأن كل ما في الطبيعة بنظام وكل شيء بقانون، وإلا كيف للوردة أن تنتظم بشكل معين، يكون لها عطر معين، وتعيش عمراً معيناً. هذا النظام، هذا القانون هو سر الأسرار، وكل ما في الطبيعة يخضع لذلك السر.. أجل.. أميرة.. نحن أسرى القوانين والنظم، لكن ثمة من يسأل: هل هناك مقّونن؟ منظم، أي: واضع لتلك القوانين والنظم، أم أنها وجدت بذاتها؟ وإذا كان المقونن المنظم موجوداً فكيف وجد؟ ومن أوجده؟ ذاك هو السؤال وكل سؤال مشروع..

ولعدم وجود جواب ظهر هناك من يقول ان كل نظام هو ذاتي المنشأ، داخلي المصدر لا يأتي من خارج ولا يفرض من غير.. الذرة الصغيرة لها نظامها الداخلي الخاص، اليكترونات، نيوترونات، كهرباء ومغناطيس، جاذبية ونابذية إلى درجة تصنع من نفسها عالماً قائماً بذاته، فكيف لا يكون كل ما في الطبيعة كذلك؟ الشوكة، النخلة، الطائر، الحصان، السمكة، الإنسان، بل الكون كله بمجراته وشموسه؟

أما الجبر والاختيار، فأنا أقول لك، إزاء كل قانون نحن في حالة جبر، ذلك أننا مجبرون أن نسير وفق ذلك القانون مرغمون على الخضوع له: الجاذبية، التغير، الزمان، قوانين الفيزياء، الكيمياء، السمع، البصر، كلها يخضع لها الإنسان ولا يستطيع الخروج عنها.. إذن.. هو مجمل هذه الحالة المقوننة.. كل يتألف من أجزاء مقوننة، لكن هل الكل هو مجموع أجزائه فقط أم فيه شيء آخر غير أجزائه..؟ هذا الشيء الآخر بالحقيقة، هو الحرية التي يتجاوز بها الإنسان قوانين الجبر والإكراه.. الحرية نفسها، أميرة، هو ذلك الفائض عن تلك الأجزاء كلها، الناتج عن اندماجها تماماً كما هي الحرارة والنور ناتج اندماج الهيدروجين أو انشطار الذرة.. هذه الحرية هي التي تعطي للإنسان إنسانيته، تهبه القدرة على الاختيار، تجعل منه كائناً خلاقاً مبدعاً".

"يا إلهي!! ما أفهم هذا الرجل؟" تمتمت لنفسها وهي تنهض من جديد إلى النافذة حيث كان باستطاعتها أن تستنشق هواء الخريف وهو يمر بنهر السين فيزداد رطوبة وبرودة.. إلى اليمين كاتدرائية نوتردام تقبع ساكنة في الليل، لا أجراس تدق ولا ازدحام مصلين.. إلى اليسار برج إيفل بأنواره المشعشعة لا ليكون منارة تهدي الضالين، بل نذيراً يبعد طائرات المسافرين.

رغم بعده كان عمها مصباح معها دائماً، طوال سنيها الأربع في باريس كان لا يغيب عنها، فهي تحدثه في الهاتف، تكتب له الرسائل، تستشيره في كل شاردة وواردة، حتى قصة جان أخبرته بها، طالبة رأيه.. فالرجل الذي جن استغراباً حين وجدها عذراء أصر على أن يتابع معها، يريد أن يعرف لغز الفتاة التي تدرس دكتوراه في علم الأدوية وهي تحمل عقلية بدوية ما تزال تعيش في الصحراء..

قال لها "أتزوجك، إن كانت تلك عقدتك" لكنها لم تجبه، رغم أنها كانت تعلم من قبل ما تريد ورغم قرارها بعدم الزواج من أجنبي، إلا أنها بدت مزعزعة قليلاً، أهو عرض الزواج الذي يزعزع كل فتاة؟ هي لا تدري، فكتبت إلى عمها تستشيره. "أنا لست واقعة في غرام جان وليس ما بيننا حباً كحب قيس وليلى، "كتبت له إذ ذاك، لكن عمها كان واضحاً كل الوضوح "أميرة، يا بنتي "أجابها"

الزواج التزام وهو بالنسبة للمرأة انسلاخ وتبعية.. تكون المرأة قبل الزواج شيئاً لكن بعده تصبح شيئاً آخر. هي تنسلخ عن بيتها وأهلها، تنفصل عنهم لتتبع زوجها الجديد وتلبس جلده، فهل أنت مستعدة للانسلاخ عن أهلك ووطنك؟ ماضيك وجذورك كلها.. لتتبعي جان؟ الرجل فرنسي وهذا يعني أنك ستلتزمين به وتتخلين عن كل ما تمتين له، فهل باستطاعتك ذلك؟ أولادك سيكونون فرنسيين.. وطنك فرنسا.. لغتك الفرنسية، فهل تريدين ذلك؟ أنا لا أنصحك به، خاصة وأنا أعلم أنك ذهبت إلى فرنسا لكي تكسبي المعرفة والعلم وتعودي بهما إلى الوطن تقدمين له الخير والفائدة وتضعين لبنة في مدماك حضارته وتقدمه.. ذلك كان هدفك.. فهل تغير؟ هل أصبح كل هدف لك في الحياة هو الرجل؟ هل صار الزواج بديلاً لكل ما كنت تحلمين به وتطمحين له؟".

يومذاك خجلت أميرة من نفسها، ابتعدت عن جان وكلها شعور أنه ما من شيء يمكن أن يكون بديلاً عن الأهل والوطن. ما من رجل يمكن أن يلغي أحلامها وطموحاتها.. كانت على ثقة بأن المرء بأهله ووطنه، يبتعد عنهما ويغترب فيفتقد المرتكز الذي يضع قدمه عليه باطمئنان ويلقى الراحة فيه والأمان. عمها على حق، الزواج بالنسبة للمرأة مختلف، زملاؤها من الشبان يتزوجون فرنسيات لكن ماذا يعني ذلك؟ الفرنسية تتبعه إلى الوطن، أما هي فينبغي أن تتبع الرجل وتبقى معه في غير الوطن. إذن، لم لا يكون رجلاً من قومها؟ إن أحبت عربياً تزوجته وعادا كلاهما إلى الوطن.. وذات يوم جاء.. عرفها إليه ابن عمها أمين، حنطياً مائلاً إلى السمرة، فاحم الشعر، أسود العينين، في محياه الكثير من الرومانسية والحب.. بل هو يحمل كل مواصفات الرجل الذي تحلم به المرأة، لكن قبل أن تقع في غرامه تماماً، اكتشفت أنه متزوج وله أربعة أولاد، ماذا تفعل به؟ علاقة عابرة؟ لا، هي لا تريد ذلك، تكون زوجة ثانية؟ أيضاً، مستحيل.. ومن جديد، ابتعدت بعد أن أصابها نوع من الإحباط "أين أجد الرجل المناسب؟" "في الوطن تجدينه" أجابها عمها في رسالة أفضت له فيها بكل شيء.." "فلا تتعجلي.. كل شيء يمكن أن يقوم على عجل.. إلا الزواج.. إنه أكثر ما في الدنيا حاجة إلى التريث والتفكير" أميرة مقتنعة بذلك دراستها تشغلها، عملها يستهلك منها وقتها كله فلماذا التفكير بالرجل والزواج؟ لا، لا، بإمكانهما الانتظار.. عشرين شهراً فقط يمكنها الانتظار.. تعود بعدها إلى الوطن وهي تحمل شهادة الدكتوراه" أوه يا رب!! أين شردت؟" قالت لنفسها وهي تسرع من جديد إلى الهاتف.. ينبغي أن أتصل بدياب.. بفهد.. ينبغي أن نحل مشكلة أبي وأمي قبل أن تتفاقم".

ستة، أربعة، ثمانية، صفر، ثلاثة، اثنان.. دقت أميرة رقم دياب في

دسلدورف وهي تأمل أن تجده.. لكن الهاتف رن طويلاً دون أن يرد أحد "لا شك أنه في مكان ما يسكر ويلهو.. آه.. منك.. أيها الرجل العابث.. أنا بأمس الحاجة إليك، فكيف أجدك؟ "كانت أميرة تمتم لنفسها وهي تضع السماعة ثم تطرق برأسها متفكرة مهمومة.

كان دياب أشد الألغاز غموضاً بالنسبة إليها وأكثرها إثارة للحيرة، فهو سندباد متنقل على بساط ريح لا يفتأ يغرب به ويشرق.. تبحث عنه في دمشق فتجده في لندن، تسأل عنه في صوفيا فتلقاه في فرانكفورت. كيف بنى لنفسه تلك الشبكة الواسعة من العلاقات؟ أميرة لا تدري. في كل بلاد له محطة إن لم يكن محطات. أصدقاء، رجال، نساء، وهو يبذخ ويبذر. المال لديه بات متاعاً تافهاً، يطأه بنعله كما يطأ الرمل، ينثره هنا وهناك كما ينثر ذرات الملح!! من أين يأتي به؟ لا أحد يدري.. هو يقول إنها تجارة السيارات.. لكن تجارة السيارات لا تدر تلك الأرباح كلها. لباسه الفاخر، سيارته المرسيدس –الشبح، حاشيته التي لا تفارقه وهو يبذر عليها ويسرف، الفنادق الفخمة التي ينزل فيها، الموائد العامرة التي يقيمها، كلها تدل على أن لديه معيناً لا ينضب من المال، بئر بترول غزير الدفق.. بل هو في كثير من الأحيان يبز أمراء البترول في إسرافه..

ذات ليلة دعاها إلى المولان روج وكان في طريقه من السويد إلى الوطن. ليلة واحدة كان سيقضي في باريس، وكان يريد رؤيتها. ذهبت معه بصحبة ابن عمها أمين وزوجته واثنين من حاشيته نفسها. ستة على المائدة، تعشوا، شربوا، شاهدوا البرنامج الفني.. لكن لم تأت الساعة الرابعة حتى كان على المائدة ستة عشر. لم تكن تمر فنانة إلا ويدعوها لكأس شمبانيا، لم يكن يعجب بامرأة على طاولة أخرى، إلا ويشير لها بالمجيء، وحين جاء الحساب فتحت أميرة عينيها دهشة: عشرون ألف فرنك فرنسي!؟ لكن ديبو ألقى بها على الطاولة كما يلقي بأوراق تالفة في سلة مهملات ثم نثر بضعة آلاف أخرى على الندل والفنانات اللواتي كن يعرفن جيداً من أين تؤكل أكتاف أمراء البترول.

ابن عمها أمين، مهندس الكومبيوتر، كان ينظر إليه وهو فاغر فمه دهشة، زوجته كانت كذلك ثم لم تستطع منع نفسها من التساؤل: "من أين كل هذا المال؟" لكن من تراه يستطيع إجابتها؟ دياب لغز محير، أميرة تحاول حله لكنها لا تستطيع.. فما ينفقه دياب شيء يفوق ما يتصوره العقل...

ذات مرة، روى لها، وهما في مطعم برج إيفل نفسه، وبكل زهو وتفاخر كيف دفع لامرأة ألمانية خمسين ألف مارك لكي ينالها.. "امرأة فارعة الطول بارعة الجمال تنظر للناس كلهم من عل فأردت أن أكسر رأسها، أمرغ أنفها في التراب.. وما الذي يفعل ذلك؟ المال.. "كان يحدثها منتفخ الصدر، منفوش

الريش كطاوس يستعرض جماله" إي، وماذا جرى؟" سألته باندهاش "انتصر المال، عرضت عليها في البداية عشرة آلاف مارك لكنها رفضت.. ثم ظللت أرفع السعر حتى الخمسين ألفاً فوافقت وأمضيت الليل بطوله معها أكسر رأسها وأمرغ أنفها في التراب".

أشهرا بعد ذلك ظلت أميرة تفكر بتلك القصة، بأخيها دياب الذي ينفق خمسين ألف مارك لقضاء ليلة مع امرأة "يا إلهي!! كم يتغير الناس!!" كانت تغمغم كلما تذكرت تلك القصة" أهذا هو أخي يا ترى؟ أهذا هو ديبو الذي لم يكن يجد ليرة واحدة في جيبه؟ ديبو الذي كان يقضي النهار بطوله يحفر ويعزق، يكد ويعرق تحت الشمس من أجل بضع ليرات"؟

مع ذلك كان عليها أن تجد ذلك اللغز المحير.. دقت من جديد إلى بون، لم يرد أحد، إلى فرانكفورت، أيضاً لا أحد، وحدها ميونيخ ردت عليه.. وكان على الطرف الآخر صاحبه سعد الله..

-أهلاً آنسة أميرة.. الله ما أسعدني بسماع صوتك.. بادرها حالماً قدمت نفسها من بعيد..

-أنا أيضاً سعيدة..

-لا، سعادتي أنا لا توصف، قاطعها من جديد وكأنما يريد اقتناص الفرصة بأسرع ما يستطيع، أتعلمين؟ مذ سهرنا معاً تلك الليلة في "المولان روج" وأنت لا تفارقين خيالي..

-لكن كان ذلك قبل أكثر من سنة.. حسبتك نسيت..

-وكيف ينسى أميرة من يراها مرة واحدة؟ لا.. لا.. عيناك الجميلتان أراهما أمامي باستمرار.. وجهك.. شفتاك..

-أستاذ سعد الله.. قاطعته أميرة وهي لا تعلم أتغضب أم تفرح لذلك الغزل الصريح الذي داهمها على حين غرة.. أرجوك..

-لا.. أنا الذي أرجوك، عاد يقاطعها من جديد، منذ زمن طويل وأنا أتمنى أن تجمعنا فرصة ما.. أن أراك.. أن أسمع صوتك.. وها هي ذي الأمنية تتحقق، فلماذا لا أبوح لك بما في نفسي؟ أميرة.. أنا أريد موعداً منك.. أطير إليك الليلة إن شئت.. غدا.. بعد غد.. المهم أن أراك.. ألتقي بك.. فماذا قلت؟

-قلت.. أنت رجل فارغ الأشغال، يريد أن يملأ فراغه..

-بالعكس، أنا كثير الأشغال ولا فراغ لدي أبداً.. وإن لم تصدقي اسألي أخاك.. لكنك تعجبينني.. كم في أوربا من نساء.. صدقيني.. أنت أجملهن جميعاً.. أجل.. أنا معجب بك، بل قولي أحبك. ولم تملك أميرة إلا أن تضحك

لكن دون أن ينقل الهاتف صوت ضحكتها إلى سعد الله.. "هذا المحتال الكذاب. الذي يتقن فن خداع المرأة واللعب على أوتار قلبها كيف أحبني ومتى؟" كانت قد رأته مرتين أو ثلاثاً، وكانت كل مرة تراه بصحبة أخيها ورفاقه، ابن عمها وزوجته، ولم تكن قد أعارته أي اهتمام، فكيف تأتى له أن يحبها؟

–اسمع.. سعد الله.. إن كنت تحسبني من أولئك النساء اللواتي تغويهن بكلامك فأنت مخطئ، لا وقت لدي لمثل هذه الترهات.. أريد فقط أن أسألك أين دياب.. أنا مضطرة لأن أتكلم معه فأين أجده؟

–في مونتي كارلو.. رد بنبرة مشحونة بالانكسار والاحباط.

–ماذا؟ هو هنا في فرنسا؟

–منذ البارحة، ذهب إلى مونتي كارلو.. وأظنه الآن على المائدة الخضراء..

–المائدة الخضراء! رددت أميرة في إثره دون أن يصل إليها المعنى تماماً.. لكن فجأة لمع المعنى في ذهنها فهتفت عبر السلك الطويل: وهل دياب يلعب القمار؟

–يلعب فقط؟ بل هو مدمن.. يذهب خصيصاً إلى كازينو هات لبنان لكي يلعب، إلى مونتي كارلو في فرنسا، بل طار إلى لاس فيجاس في أمريكا لكي يجرب حظه في رأس السنة.

–وهل يخسر أم يربح؟ سألته وقد همد صوتها كثيراً.

–يخسر ويربح.. مئات آلاف الدولارات تكون حصيلته في الليلة أحياناً.. لكن اطمئنك: حظه ممتاز وربحه دائماً أكثر من خسارته.

أغلقت أميرة السماعة وهي مثبطة العزيمة، خامدة الهمة، إذ كيف تجد دياباً إن كانت النساء تتقاذفه وطاولات القمار تتجاذبه؟ أجل، دياب ذلك الشاب البسيط الفقير شبه الأمي بات أميراً من أمراء المال، العالم ملكه يطير في أجوائه أنى يشاء ومتى يشاء فكيف تمسك به أميرة؟

"لأبحث عن فهد "تمتمت بعد لأي وهي تنهض من جديد إلى الهاتف، ومن جديد تدق رقماً في موسكو كان فهد قد تركه لها قبل أيام.

بعد رنتين فقط جاءها صوت دارينا.. تبع ذلك سلام وكلام تتقن فنه زوجة الأخ كل الاتقان.

أميرة تعجب من أين تأتي دارينا بذلك الكلام المعسول كله، إذا ما تحدثت معها؟ كانت لقاءاتهما قليلة، حين تأتي مع فهد إلى باريس أو يطلبان رؤيتها في

إيطاليا أوسويسرا.. لكن تلك اللقاءات كانت تكفيها لأن تفهم دارينا جيداً، أن تصبحا صديقتين وأن تدهش أكثر لذلاقة لسانها وعذوبة كلامها.

-أين فهد.؟ هل أستطيع التكلم معه؟

-معلوم أميرة، ردت بلهجتها اللبنانية ذات الرنة الخاصة، لحظة واحدة.

-أختي الحلوة.. جاء صوت فهد بعد لحظة واحدة فقط.. أمورتي.. يا أهلا وسهلا، بادرها بطلاقة وعذوبة كأنما أصيب بعدواهما من امرأته الحسناء، لكن سرعان ما دخلت صلب الموضوع.

-اسمع، فهد، العائلة في خطر، أبوك يريد أن يطلق أمك.. ثم توقفت بانتظار أن تسمع وقع الصاعقة على رأسه، لكنها صدمت وهي تسمعه يقهقه من غرفته في موسكو.

-كنت أظن أنه طلقها منذ زمن طويل.. عجباً.. لم يفعل ذلك حتى اليوم؟

-فهد، ماذا تقول؟ أنت سكران؟

-لا.. آخذ نشقة.. تابع ضحكه، مستخفاً بالأمر كله.. فما يعرفه أن أباه هجر أمه منذ سنين طويلة، وأن أمه هي التي بدأت الهجران رداً لاعتبارها وحفظاً لكرامتها وأن كل ما بينهما لا يتعدى علاقة الغرباء، كلام الغرباء.. وعلى نحو يموه الحقيقة ويخفيها عن أعين الناس، فماذا أن أعلنا الحقيقة الآن؟ وماذا ان انتهت لعبة التمويه؟

-المسألة خطيرة فهد، إن طلقت أمك تشردت، ألقيت في الشوارع وليس لها أحد.. هل تذهب إلى أرملة أخيها؟ أم إلى ابنة خالتها؟ لا.. لا.. يجب أن تمنع ذلك؟.. بأي شكل يجب أن تمنع الطلاق.

-كيف أمنعه وأنا هنا.. على بعد آلاف الكيلو مترات؟ رد فهد وهو يشعر بضيق مفاجئ.. ففي مخططه لا يوجد فراغ لقضايا كهذه.. كان على جدول أعماله لقاءات مع تجار ماس، سماسرة ذهب.. وسطاء أسلحة.. وكان أصحابه في الحقيقة قد مهدوا له الطريق وأجروا الاتصالات.. صفقة ماس كبيرة في طريقه إلى عقدها.. الذهب الذي جاءت به دارينا وتوليب حملته سيارة ذات حصانة دبلوماسية ومرقت به حيث لا أمن ولا جمارك.. أموره تسير على خير ما يرام.. بل إن توليب حدثته قبل قليل عن لقاء ستعقده في الغد مع جنرال كبير في وزارة الدفاع، ربما تبرم من خلاله عقداً بمئات ملايين الدولارات من الأسلحة..

لبنان ما يزال في حالة اقتتال، الميليشيات بحاجة للسلاح.. والكلاشينكوف، الآربي جي، الهاون، كلها تصدرها موسكو.. بأسعار رخيصة تصدرها.. فلماذا

لا تستفيد توليب من علاقات فهد مع السفارة ودبلوماسيي السفارة؟

الذهب والماس يعودان بأرباح طائلة، لكن أرباح السلاح أكثر طوْلاً.. صفقة واحدة تخرج منها بمائة مليون ومائتين. فلماذا لا يتصل فهد ويمهد الطريق لتوليب ذات الحسن والجمال، البارعة في المناورات والمراوغات.. الماهرة في عقد الصفقات؟

-فهد، أمنا في خطر، عادت أميرة إلى الكلام الذي كان يأتي أمواجاً ذات أصداء تتردد مختلطة بعضها في البعض الآخر. لو سمعتها وهي تشهق وتبكي لتركت كل شيء وذهبت إليها..

"أترك كل شيء؟" تساءل فهد في سره وهو يشرد عن الحديث الآتي من بعيد. "لو تعلمين الثروات التي تنتظرني غداً لما تحدثت هكذا!! ثمة ألماس يا أميرة، ثمة أسلحة نأخذها إلى الطوائف المتقاتلة في لبنان فنجني الأرباح الكثيرة.. دارينا هنا لهذه الغاية.. توليب أيضاً ترخي بكل ثقلها، تسخر كل جمالها لعقد صفقة العمر فهل أترك ذلك كله؟ بل كيف أتركه يا عالمة الصيدلة والكيمياء؟ هي فرصة العمر يا أختي الدكتورة.. غورباتشوف بدأ البريسترويكا.. إعادة البناء.. إعادة البناء تقتضي قبل كل شيء الهدم.. البناء المتداعي يحتاج لأن تهدميه حتى الأساس كي تعيدي بناءه؟ إنهم الآن يهدمون.. يخربون.. الكل يفسد.. يريد أن يرتشي.. يعبئ جيوبه مالاً.. تماماً مثلما هي الحال في عالمنا الثالث.. فكيف لا نقتنص الفرصة؟ كيف لا نأتي بالذهب ونأخذ الماس ونشتري الأسلحة التي يتعطش إليها المقاتلون في لبنان؟

-فهد، أنا أحدثك، فماذا قلت؟ ألا تسمعني؟ جاءته الأسئلة هذه المرة محتجة غاضبة فقد شط به ذهنه بعيداً وشرد إلى درجة كاد ينسى من معه على الخط..

-آ.. أجل.. أسمعك.. أجل.. أميرة.. أسمعك..

-إذن.. ستتصرف.. ستعود إلى دمشق..

-أجل.. سأعود.. سأفعل ما تشائين.. فقط.. كوني مطمئنة..

-كيف؟ أريد أن أعرف كيف؟

-أنا أتصرف.. سأتصل بوالدي.. سأسافر على الفور إن لم أقنعه على الهاتف.. لا تأكلي هماً.. اطمئني.. فقط.. اطمئني..

ثم أغلق السماعة وهو يغمز دارينا رداً على نظراتها المستغربة المستنكرة.. حاضنا إياها بذراعيه مستأنفاً:

-كذبة بيضاء نسكتها بها فقط.

-رجل وتكذب؟ يا عيب الشوم.. ردت مداعبة حاضنة إياه لا كزة..

-لا عليك دارينا.. الكذب ملح الرجال.. ثم ملأت قهقهاتهما الغرفة وهما يغادرانها إلى الحفلة التي كان يقيمها الصديق الدبلوماسي على شرف ملكة جمال الكون، توليب.

-11-

-الغزو، جاءكم الغزو يا قوم.. ارفعوا أيديكم، بادرت أميرة ابن عمها مأمون وهي تدخل ضاحكة، في إثرها الأم عظيمة الجرم، شديدة البدانة، وأختها شاهة التي كانت تسير على خطا أمها لكن بحذر.

-الأمان، الأمان.. نحن نرفع أيدينا.. نرفع الراية البيضة.. رد مأمون ضاحكاً بدوره وهو يسلم على ابنة عمه التي كانت قد عادت لتوها من باريس بدكتوراه في الصيدلة وعلم الأدوية. العم، امرأة العم، الكنة، نور، زوجها، كلهم كانوا في استقبال الغزاة القادمين.

-لكن لا أرى رجالا.. يا ترى صار الغزو للنسوان؟ سأل العم مصباح بمزيج من الجد والهزل وهو يصافح القادمات.

-أنت.. عارف.. بيت أخيك صار بغير رجال للأسف، ردت أم دياب وهي تلهث طلباً للهواء قبل أن تسرع للجلوس على أقرب كرسي.

ولم يكن مصباح بحاجة لشرح أكثر، فهو يعلم أن التفسخ الذي حل بذلك البيت، التفكك الذي أصابه هو النمط الذي كان يخلخل أركان المجتمع كله.

النساء تقبل واحدتهن الأخرى، لغط السلام والضحكات يملأ البيت هرجا ومرجا، ومصباح فرح بعودة ابنة أخيه، فرح بلقاء الأهل الذي افتقده منذ زمن طويل، فرح بذلك النوع من المزاح عن الغزو، فالغزو العراقي للكويت كان ابن أيام فقط وكان حديث الناس كلهم، شغلهم الشاغل.. بعضهم فرح به مصفق له وبعضهم الآخر منقبض متخوف مما قد يجره من عواقب.

-أرأيت كيف تسري العدوى؟ ضاحكها العم مصباح وهم يجلسون في غرفة الضيوف، أصابك العراقيون بالعدوى فجئت غازية؟

-لِمَ لا يا عم؟ ألا يقول المثل: من لا يهوش، أصله من الوحوش؟ ردت أميرة ضاحكة هي الأخرى وهي لا تخفي فرحها بما يجري على شاطئ الخليج العربي، هكذا فجأة وعلى غير توقع.

-لو يفعل كل بلد عربي كبير بما حوله من جيران صغار هكذا لانتهت هذه الدويلات المسخة من وطننا العربي!! قال مأمون ملوحاً برأسه، وقد التقى بأفكاره وفرحه مع ابنة عمه أميرة..

-والغاية؟ سأل العم مصباح وعيناه على ابنة عمه وابنة أخيه..

-الغاية نخلص من هذه التجزئة والتشرذم.. نصبح وطنا واحداً، دولة واحدة.. بادرت أميرة بالرد وفي نبرتها الكثير من الحماسة..

-الغاية نبيلة، لكن كما تعلمين، الوسيلة جزء أساسي من الغاية فهل الغزو هو الوسيلة النبيلة؟.

-أنا لا أناقش في الوسائل والغايات.. يا عم.. أنا أقول إنه عمل يستحق المغامرة.

-لكن هل يتركنا الاستعمار؟ الغرب الذي زرع هذه الدول وأقام هذه الدويلات هل يرضى بإزالتها؟ قال العم من جديد.

-يقولون المفاجأة نصف النصر.. وعمل كهذا ينبغي أن يحسمٍ بسرعة وعلىٍ نحو مفاجئ فلا يفتح الاستعمار عينيه إلا وقد أصبح أمراً واقعاً يسلم به رغماً عن أنفه..

-لا.. لا.. ما أظن ذلك يصح، أميرة.. اسمعي الأخبار، الغرب يكاد يجن، مارغريت تاتشر ترغي وتزبد.. "مارسمناه لا يمحوه أحد.. ما أوجدناه نحن لا يلغيه أحد.. هذه الدويلات وجدت لتبقى، فكيف تفكرون بإزالتها؟ الأمة العربية مزقناها كي تبقى ممزقة فكيف تجرؤون على توحيدها؟ كيف تخالفون إرادتنا؟ هذا ما تقوله مارغريت تاتشر.. فما تراها تفعل هي وجورج بوش لجعل ذلك القول فعلا؟ بصراحة أنا خائف.. خائف من العواقب..

لكن صوت الزوجة وهو ينادي من المطبخ قطع حديث الزوج. كان الغداء قد أصبح جاهزاً وكانت شاهة وابنة عمها وأمها ينقلن الأطباق إلى مائدة الطعام. مع الصوت هبت أميرة متصنعة العجالة والندامة.

-أوه!! كان علي أن أساعدكن في إعداد المائدة، بادرت امرأة عمها معتذرة.

-تساعديننا!؟ لا.. لا.. أنت ضيفة الشرف ولا يجوز أن تتعبي نفسك.. ردت امرأة العم وهي ترتب السكاكين والشوك فيما كان الركب يتحرك من غرف الضيوف.. مأمون، زوجته، نور ثم العم مصباح يمسك بذراع امرأة أخيه، أو بالأحرى طليقته، فقد خابت كل المساعي التي بذلتها أميرة وعمها لاقناع أبي دياب بالعدول عن قراره. أميرة اتصلت عدة مرات، أخوه مصباح كلمه عدة مرات، لكن الرجل ركب رأسه وطلقها.

على المائدة العامرة بشتى أصناف الطعام جلست الأسرة للمرة الأولى منذ زمن طويل. فغياب أميرة كان قد أفقد الأسرتين الرابط الذي يشدهما الواحدة إلى الأخرى ثم هناك البعد والشغل.. شاهة مشغولة بمشاريعها، وقلما تزور بيت

العم، نور في الساحل لا تأتي إلى دمشق إلا لماما، وأم دياب في منزلها لا تخرج ولا تدخل. مصباح يزورها مع زوجته أحياناً وبمفرده أكثر الأحيان، فمأساة امرأة أخيه تجسد في نظره مأساة المجتمع برمته، المجتمع الذي دخل المتاهة فلم يستطيع الخروج منها وهو يظن أنه حقق انجازاً عظيماً، صنع العجائب وهو بالحقيقة ضائع في متاهة، يلهث خلف السراب دون أن يعرف استقراراً أو طمأنينة.

-آه ما أروع جمع الشمل!! ما أسعدني بهذه اللمة!! هتفت أميرة فرحة فرح النشوة وهي تشير إلى الجميع..

-نحن السعداء!! قال العم، فغيابك أحدث شرخاً في بنيان العائلة نرجو أن نرممه الآن..

-وجودها وحده كافٍ لترميمه، علقت نور وهي تلكز ابنة عمها في جنبها.. يا لله!! أميرة، كم نحن سعداء بعودتك!!

-الحقيقة، تابع مأمون، كنا نخشى أن لا تعودي..

-لا، في هذا كن مطمئناً.. أنا روحي معلقة ببلدي.. وأنا هناك أشعر أني مشطورة شطرين، جسداً وروحاً الجسد هناك والروح هنا تركتها.. وهل للجسد إلا أن يتبع روحه!؟

-الله! الله!! ردت امرأة العم، أنت أصيلة يا أميرة، أصيلة بنت أصيلة، قالت وهي تميل على سلفتها رامقة إياها بنظرة خاصة كلها تشجيع وإعزاز..

-لكن بلا حظ، ومن ليس له حظ لايتعب ولايشقى عقبت أم دياب متنهدة وهي لا تستطيع أن تنسى لحظة واحدة غدر زوجها بها، تخليه عنها بعد ذلك العمر الطويل من سراء وضراء.. لا تغيب عن ذهنها أبداً نظرة المحضر وهو يسلمها ورقة لا تعرف ما بها.. "لمن"؟ سألته" لك، "أجاب المحضر" اقرأها لي يا بني فأنا لا أعرف القراءة والكتابة" هي ورقة طلاق يا خالة "وكادت تقع أرضاً.. عيناها غامتا، ركبتاها ارتختا، دوار راح يلف رأسها كزوبعة من غبار، ثم لم تحمل نفسها إلى أقرب مقعد إلا بشق النفس.. كان كل ظنها بعد ذلك اللقاء وتهديدها له بأولاده، ثم تدخل أخيه، أن الأمر انتهى.. وكانت قد اطمأنت تماماً. فقد مر أكثر من شهر على ذلك اللقاء. لكن ها هي ذي الصاعقة تنزل فجأة على أم رأسها، وليس حولها أحد من أولادها تستند عليه، ليس بجانبها أحد تشكو له. الخادمة الفلبينية وحدها في المنزل، لكن هل تشكو لخادمة فلبينية؟ وكبست الملح على الجرح، وحده مصباح ثم زوجته جاءا إليها وعرفا بالأمر.. مصباح أرغى وأزبد، هدد وتوعد لكن ما عساه يفعل برجل شق عليه عصا الطاعة؟.. بل هو

آخر مرة قال له صراحة "اسمع مصباح.. الزم حدودك بعد اليوم.. ولا تتطاول.. أنا أخوك الأكبر واسع الثراء، الدكتور في الاقتصاد، والزمك أن تحترمني.. أتسمع!؟ تحترمني كل الاحترام ولا تتجاوز حدودك أبداً.." وكان ذلك إيذاناً بفراق أقسم بعده مصباح أن لا يلتقي بأخيه ولا يحدثه مهما تكن الأسباب.

-الآن.. دعينا من النكد والمنغصات قالت السلفة لسلفتها مبتسمة.. هذه الكبة صنعتها خصيصاً.. طبعاً ليست ككبتك لكن..

-امرأة عمي.. لا تتواضعي كثيراً.. أنت سيدة من صنع الكبة!! قاطعتها أميرة ضاحكة محاولة أن تضفي بعض البهجة على الجلسة، خائفة أن تغرق أمها من جديد في ذكريات مأساتها وأحزانها فتنهمر دموعها وما أسرع ما تنهمر من عينيها الدموع!

-تعلمون؟! من زمان وأنا أحلم بأكله كبة عند حماتي، قال زوج نور، الطبيب الذي كان يتحين فرصة للمشاركة في الحديث.. فهو الغريب عن الوسط كله لم يكن واثقاً أن باستطاعته التكيف مع ذلك الوسط.

-الحق على نور إذن.. ردت الحماة بإشارة اتهام إلى ابنتها، لو نقلت لي حلمك هذا لجعلته حقيقة منذ زمن طويل.. وقهقهت ضاحكة فضحك الجميع وكلهم رغبة في أن يجعلوا من لقائهم لقاء بهجة وسرور.

كانت أصناف الكبة كثيرة وكانت كلها تغري أميرة، هي منذ زمن طويل لم تر مائدة شرقية كهذه.. ست سنوات كانت قد أمضتها في فرنسا.. الإجازات كانت تستغلها للتجوال في أوربا، للتعرف إلى ذلك العالم.. إجازة صيفية واحدة كانت قد جاءت فيها إلى الوطن، وكان ذلك قبل ثلاث سنوات، حين لم يكن بيت أبيها قد تصدع ذلك التصدع، وكانت خاطفة لا تكاد تذكر منها شيئاً.. ذاقت أميرة الكبة اللبنية، ثم انتقلت إلى المشوية، لكن المقلية كانت أكثر إغراء، فامرأة العم جعلتها تسيخ سمنة عربية أصيلة، ورغم أنها كانت حريصة على رشاقتها، وكانت متشددة كل التشدد في إبعاد شبح البداية عنها إلا أنها أرخت لنفسها العنان منقلة فؤادها حيث شاء من أصناف الكبة، حتى إذا ما نهضت عن المائدة أحست أن هناك ثقلاً في جوفها لم تعهده من قبل.

بعد الطعام، لاحظت أميرة نقص الحلويات.. عمها، كما عهدته، يحب الحلويات: مبرومة، بقلاوة، كل واشكر. هذه أشياء لا يخلو بيتهم منها أبداً، فكيف لم تر أثراً لها؟ قدمت امرأة العم البطيخ الأحمر والعنب، لكن دون أن يكون هناك مبرومة، تلك التي تحبها خصيصاً من أنواع الحلوى كلها.

تلفتت حولها المرة تلو الأخرى وكأنها تبحث عنها.. لاحظت نور تلفتها فتذكرت ما تحب:

-أماه!! أنسيت أن أميرة تحب الحلوى!؟ سألت نور بكثير من البراءة والعفوية..

-أوه!! الحقيقة نسيت!! ردت الأم بشيء من الحيرة والارتباك.

-لا.. لا.. الحقيقة أنا لم أنسَ.. عقب الأب وهو ينتقي حبات عنب من عنقود أمامه.. المشكلة أن الحلوى باتت غالية.. كيلو المبرومة بمائتي ليرة. تصوري، قال مخاطباً ابنة أخيه بنبرة الحسرة والحزن. هي، بالحقيقة أغلى من قدرتنا على شرائها.. فاستغنينا عنها.

-عمي.. معقول؟ سألت شبه مصدومة.

-بل لا أخفيك!! كثير من الأشياء بتنا نستغني عنها، نحذفها من لائحة مشترياتنا..

لأول مرة، تسمع أميرة عمها يتكلم بتلك النبرة ويشكو تلك الشكوى. لكن قبل أن تهم بالكلام. ردت أختها شاهة:

-لا، عماه! أنت تمزح؟

-أمزح؟ لا، شاهة... هي الحقيقة وعمك لا يخجل من قول الحقيقة...

هذا الغلاء لا تشعرون به أنتم، لكن نحن نشعر به... إنه يلتهم كل شيء جاعلاً الأسعار تلتهب والتضخم النقدي كأنه السرطان، حتى لم يعد لعملتنا قيمة تذكر....

-إلى هذه الدرجة عماه!؟ تابعت هذه المرة أميرة بكثير من الدهشة.

-صحيح أن الشكوى لغير الله مذلة، أجاب العم شبه ممازح، لكن نحن أهل نحكي بيننا كل شيء أميرة. والصراحة: الحياة الآن لم تعد تطاق، معيشة غالية ودخل محدود، إنفاق كبير ودخل محدود، بل قولي قليل ضئيل، فكيف يوازن المرء؟ يوم سافرت كان الدولار بأربع ليرات، أليس كذلك؟

-أجل.. والفرنك الفرنسي بتسعة وستين قرشاً...؟

-عظيم!! الآن، الدولار بخمسين ليرة والفرنك الفرنسي بتسع ليرات، وكل ما نشتريه بالدولار، أي انخفضت القيمة الشرائية لدينا عشر مرات...

-يالطيف!! ياستار!! كم التوازن اختل!!

-كل الاختلال، تابع العم وقد تحمس أكثر لبث شكواه، دخل الفرد قل عشر مرات، إذن، عليه أن يخفض مستواه المعيشي عشر مرات، فماذا يفعل! كيف

يتصرف؟

-الحق عليك، ردت شاهة على نحو غير متوقع، أنت، وبمكانتك في الجامعة، كان باستطاعتك أن تزيد دخلك. أن تضاعفه أكثر بكثير من عشر مرات...

-كيف؟ قاطعها وفي عينيه نظرة لوم، تريدين أن أرتشي، شاهة؟

-أريدك أن تكون مثل الناس، تعمل كما يعملون... بصراحة، عمي، موظفون أدنى مرتبة منك بكثير، صار لديهم أموال طائلة، ركبوا التيار وفعلوا ما يفعل سواهم...

-وهل ما يفعله سواهم صحيح؟ سأل العم بمزيج من التعجب والاستغراب.

-لا، هو ليس صحيحاً. تدخل مأمون قاطعاً الطريق على شاهة. لكن هذا خيارهم الوحيد أبي وأنا لا ألومهم...

-وأنا لا ألومهم أيضاً، تابعت شاهة فرحة بالدعم الذي جاءها من مأمون. الحق ليس عليهم بل على الحكومة....

-على الحكومة؟ سألت أميرة وكلها تعجب من فصاحة شاهة وفهمها الذي لم تعهده من قبل.

-طبعاً، وإلا كيف تفسرين أن تبقي الحكومة دخل الموظف لديها دون إنفاقه بعشر مرات؟ عاد مأمون من جديد للرد.. في بلدان العالم كلها هناك لجانٍ للموازنة بين دخل الفرد وإنفاقه، يزيد الإنفاق يزيد الدخل وبنسبة طردية تماماً، أما نحن فتزداد الأسعار عشر مرات وترتفع النفقات عشرين ليزداد الدخل نصف مرة أو ربع مرة، كيف هذا؟ ألا يدفع الموظف دفعاً للانحراف؟

السؤال مفحم، يدور في فضاء الغرفة ويدور دون جواب... الأب يعرف الحقيقة، قادر على الجواب لكنه يحرص على ألا يجيب...

كان، منذ صباه، قد عمل في سلك الدولة، وكان قد اعتاد احترام الدولة.. حين بدأ، كانت الوظيفة مبعث فخار ومصدر رزق محترم وكانت الدولة تعامل موظفيها كما يعامل الأب ابنه، تهتم به ترعى مصالحه، تسأل عن حاجاته، تقضيها، تحفظ ماء وجهه، تصون له كرامته.. البيت الذي يتقدم إليه الموظف ليخطب ابنته كان يرفع رأسه عالياً "صهري موظف في الدولة" لكن اليوم من يرضى لابنته موظفا؟ من لا يشفق على أولئك المساكين وقد تحولوا مرتشين أو متسولين أو فقراء يستحقون الإحسان؟ هو يعلم كم تردت حالة الموظف الشريف النزيه، ذلك التردي هو ما دفعه لأن يطلب احالته إلى التقاعد.. كان أمامه خياران: إما أن يفعل ما يفعله الآخرون، كما قالت شاهة، وإما أن يخرج خارج

الحلبة بما بقي له من ماء وجه.. وحين حانت أول فرصة خرج خارج الحلبة غير آسف. كان قد قضى أربعين عاماً في العمل وكان قد بلغ أعلى المراتب الوظيفية لكنه ما ان أحيل إلى التقاعد حتى نزل راتبه إلى النصف أو أقل قليلاً.. لم يفاجأ مصباح بذلك فهو يعلم قانون التقاعد ومهزلته، لكن لم يكن من ذلك بد.. لو طلب التمديد لضربوه بألف منة، ولاضطر لأن يغض النظر عن الكثير مما يراه من أخطاء، إذن لم لا يبتعد فلاعين ترى ولا قلب يوجع؟

–أنت الآن متقاعد؟ سألته أميرة باستغراب ودهشة شديدين، هذه مفاجأة، صدقني..

–قد بلغت الستين يا عماه!! فانظري ما فعلت الستون!! قال العم وهو يشير إلى شعره المبيض والأخاديد التي بدأت تتحفر عميقاً في الجبين..

–وما الستون؟ تدخلت الأم زافرة.. أخوك أكبر منك والبارحة تزوج.. بل لو يسمح له الشرع لكان كل يوم يتزوج..

وانفجرت في الغرفة الواسعة، عتيقة الأثاث ضحكات. كان الكل يعلمون كم تحمل أم دياب في صدرها من غل على الرجل الذي باعها بأبخس الأثمان، أزرى بها إلى درجة لم يكن بإمكان أموال الدنيا كلها أن ترد لها كرامتها.

–اللعنة على المال!! لكأنه إبليس يفسد كل شيء.. تدخلت امرأة العم بحسرة من حرم شيئاً ويرغب فيه كثيرا..

–لا، أنا أحتج.. ردت شاهة بنبرة ملؤها الحماسة.. المال شيء رائع.. يمهد لك الطريق، يذلل الصعوبات..

–لكن، قاطعها مأمون في الحال وقد بدا محروق القلب، المال يفسد الضمائر، يجعل الأبيض أسود، والأسود أبيض، الحق باطلا والباطل حقاً. خذيني أنا مثلاً.. قبل ثلاث عشر سنة بدأت العمل في المكتب وكنت آخذ تعهدات.. أشارك في مناقصات، والمناقصات بالظرف المختوم، من ترسُ عليه المناقصة يأخذها.. ولم أكن أعدم في العام أن ترسو علي مناقصتان أو ثلاث وكانت الأمور على خير ما يرام. لكن منذ ثلاث سنوات حتى اليوم لم ترسُ علي سوى مناقصة واحدة وبقيمة زهيدة..

–لماذا؟. تدخلت أميرة متلهفة للخبر الجديد المفاجئ أيضاً.

–لأن المناقصات صارت بالتراضي.. التلاعب على قدم وساق.. الرشوة، بيع الضمائر هو السائد، ومن لا يلجأ للرشوة وشراء الضمائر لا يفز بشيء..

–تقصد أنك أنت الآخر تعاني هذه الأيام؟

–كل الشرفاء يعانون، صدقيني، أنا المهندس الذي كان يأخذ التعهدات كل

عام ولا يجد ساعة فراغ واحدة بات عاطلاً عن العمل.. طوال هذه السنة لم أعمل أكثر من عشرة أيام.. تعهد طريق صغير ثم انتهى الأمر.. لماذا؟ لأنني لا أدفع فالمبدأ اليوم: ادفع تقبض، اعط تأخذ.. أطعم التسعة تأكل العشرة..

وخيل لأميرة أن مرارة شديدة تلون صوت ابن العم الذي كان ذات مرة الرجل الذي تعبد." مأمون يعاني.. عمي يشكو العوز!؟ الله كم تردت الحال إذن من بعدك؟"

-عمي.. أنا في حالة اندهاش.. مستغربة، لا أكاد أصدق..

-بل صدقي.. عمك الذي كان يجود بالأموال ويعيش في بحبوحة بات يخشى الفقر.. لأول مرة في حياتي أخشى الفقر.. صدقيني.. الغلاء شديد والدخل ضئيل.. هوة واسعة بينهما فكيف تسدينها؟

-لكنها حالة خطيرة، ألا يراها من هم فوق؟

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة.. وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم.

غمغم العم بين الهازل والجاد، فتبسم مأمون هازاً رأسه.. ثم أردف:

-هناك من يقول: السياسة العامة هكذا: سحق الطبقة الوسطى، فلا يبقى هناك من هم بين بين، أي: إما طبقة "هاي هاي" عالية جداً مشغولة برساميلها واستثماراتها، أو طبقة دنيا مسحوقة لا تتاح لها فرصة لأن تشم الهواء أو تتابع القضايا العامة.. طبقة لا يشغلها سوى البحث عن لقمة العيش واللهاث خلف كسرة الخبز..

-في هذه الحال، كان عليك أنت وعمي أن تعملا المستحيل كي لا تنزلا إلى الحضيض، تدخلت شاهة من جديد لكن بشيءٍ من حذر، كان عليكما أن ترتفعا إلى الأعلى.. تصبحا من طبقة الهاي بدلاً من النزول إلى الأسفل..

-كيف؟

-لا أدري.. لكن المرء لا يعدم وسيلة حين يفكر.. انظروا إلي.. أنا بدأت صغيرة.. لكن الآن.. صدقوني أنا امرأة أعمال ناجحة.. ألعب بالملايين..

وكاد مأمون ينفجر في وجهها "لكن أنت تعملين بتجارة الرقيق الأبيض" غير أنه كبح نفسه آخر لحظة.. رأت أميرة ذلك في عينيه، وتدخلت قاطعة أي احتمال للانفجار..

-شاهة، دعينا الآن منك.. قالت ثم التفتت إلى الجانب الآخر وقد لمعت في ذهنها فكرة، عمي.. ما رأيك في أن نعمل معاً؟

-نعمل ماذا؟ رد العم مبتسماً وهو يلمح قبس ضوء من بعيد.

-أنا من حقي أن أفتح صيدلية فلماذا لا نفتحها معاً طالما صرت فارغ الأشغال؟

-صيدلية!؟ أي والله، فكرة يا بنتي، باركت أم دياب في الحال، هي التي كان يسعدها كثيراً أن تفعل أي شيء ينفع أبا مأمون.. الرجل النبيل النزيه، المستقيم الذي لا يعرف غير الحق ولا يقف إلا إلى جانبه.

-أصير بائع أدوية في صيدلية؟ تساءل العم بين المحتج والمستنكر.

-وماذا في ذلك، أبي؟ تدخلت نور بحماسة مفاجئة.. فكرة ممتازة بالنسبة إليك.. أنت اختصاصي الكيمياء تعمل في الأدوية، يعني في اختصاصك..

وحصل بعد ذلك هرج ومرج شارك فيه الجميع، فقد بدت الفكرة فذة، تحل أكثر من مشكلة دفعة واحدة، وهكذا، لم تشرب الأسرتان الشاي حتى كان المشروع قد درس. كل منهم أدلى بدلوه فيه، ثم قر القرار على أن تبدأ أميرة إجراءات التنفيذ في الحال.

في رأس تلك الإجراءات كان عليها أن تجد محلاً صالحاً لافتتاح صيدلية، فوزارة الصحة لا تعطيها الترخيص إلا بعد معاينة المكان. "أين أجد المكان؟ أين أجد المكان؟" كانت تتمتم بصوت ظنته غير مسموع وهي تسير في صالة منزلهم الواسعة حين مرت بها الأم..

-اذهبي إلى أبيك!! اقترحت الأم وقد عرفت ما يشغل بال ابنتها، هو يشيد أبنية ويتعهد مشاريع بناء.. ولا بد أن يكون لديه محل لصيدلية.

-وجدتها يا أماه!! هتفت البنت فرحة وقد وقعت على الفكرة التي لم تخطر لها ببال.. "أجل.. أبي!! هو الذي سيحل لي المشكلة". لكن طوال الطريق إليه ظلت تفكر "لماذا لم يخطر ببالي؟" يومين وأنا أفكر بإيجاد مكان لكن دون أن أفكر بأبي.. أتراني ما زلت آراه ذلك الفلاح المسكين الذي لا يملك شروى نقير؟" وخيل إليها لحظة من الزمان أنها لا تصدق حتى اليوم ما حدث لأبيها..
هو أصبح ثريا كبيراً؟

يملك عقارات وأطياناً؟ يقيم مشاريع استثمار؟ ينشئ شركات ومؤسسات؟ لديه أموال لا تأكلها النيران؟ إنهم يحدثونها عن قفزة هائلة قفزها والدها خلال السنوات الست التي غابتها في باريس.. قفزة جعلته يطير في الهواء بأجنحة من ذهب وفضة، فكيف حدث ذلك؟

"هل يكنسون الأموال كنساً من الشوارع والأرصفة؟ أهي سنابل قمح في حقول خصبة حسبهم أن يحصدوها بالآلات؟ "لقد ارتفع أبي كثيرا.. ارتفع شوكة الداهوك.. لكن كم انخفض واحد مقابلهما؟ قانون الاقتصاد يقول، كلما رأيت

رجلاً يرتقي سلم الثراء اعلم أن هناك آلافاً ينحدرون على سلم الفقر.. أجل.. هو صحيح، وإلا كيف كان لعمي، ذلك الموظف المحترم الذي كان ذا مركز واعتبار أن يخشى المستقبل ويشكو الفقر؟".

بتلك الأفكار دخلت أميرة إلى مكتب أبيها في الطابق الثاني من الدائرة الكبيرة التي كانت مقرا لنشاطات عديدة منها الاستثمار، الزراعة، الصناعة، التعهدات وفيها شركاء خمسة لكن عمودها الفقري سيف الدين النايفة وشوكة الداهوك.

–أميرة، أهلاً.. أهلاً.. ما هذه الزيارة المفاجئة؟ استقبلها أبوها بنبرة الريبة وعين المتشكك وهو يصافحها ويقودها إلى أقرب كرسي. فموقفها، مذ أراد طلاق أمها واضح.. هي مع أمها ضده.. دياب، فهد كانا معه.. منذ البداية انضويا تحت جناحه وأعلنا: "لك ملء الحرية.. تفعل ما تشاء، تترك ما تشاء.". شاهة لم تكن معنية بالأمر كله، ليست معه وليست مع أمها. هي محايدة، لكن أميرة وقفت ضده.. اتصلت به عدة مرات، اشتبكت معه على الهاتف في نقاش حاد كاد يصل حد الشجار، بعدئذ ألبت عليه أخاه مصباح، حاولت أن تؤلب أخويها عليه لكنه مع ذلك لم يرد. نفذ ما أراد.. تزوج المرأة الفاتنة التي خلبت لبه.. وأم دياب طلقت.. ورقة تافهة من القاضي الشرعي حلت مشكلته.. ولم ير أم دياب منذ ذلك الحين.. صحيح أنه يفتقد المجدرة التي تطبخها، السجق والمقادم،.. لكن نسي ذلك.. المرء ينسى، يمحو.. بل يجب أن يتعلم كيف ينسى ويمحو.

–ليس للفتاة غير أبيها، قالت بنبرة دماثة أرادت أن تكون جسرها للمصالحة مع أب تعقد وضعه إلى درجة لا تعرف كيف تتعامل معه.

–الحمد لله. أنك.. عرفت.. ذلك.. رد وقد عاد إليه شيء من عيه القديم.. هه.. ما الأمر؟ لكن قبل أن تجيب، دخل شوكة الداهوك على عجل وفي يده دفتر ووثائق..

–أبا دياب.. بدأ من عتبة الباب لكنه لم يكمل فقد لفت نظره الفتاة الحنطية البيضاء، الرشيقة، الأنيقة، ذات النظارتين الشمسيتين اللتين تعمدت ألا ترفعهما رغم ستائر المكتب. لديك ضيوف؟ أنا آسف، تابع غامزاً وهو يتفحصها من فوق إلى تحت.

–لا.. لا.. هذه ابنتي الدكتورة أميرة..

–دكتورة بحق وحقيق؟ تساءل وهو ينحني باتجاهها ماداً يده. نهضت أميرة نصف واقفة مسلمة بأدب..

-طبعاً.. تابع الأب ضاحكاً، بحق وحقيق وليس كشهادتنا أنا وأنت.. أميرة، هذا شريكي شوكة الداهوك؟

-أعرفه.. أعرفه. أهلا وسهلا أستاذ شوكة.

-تعرفينني.. حقا؟ قال وهو يجلس في الجانب الآخر واضعاً الدفتر والوثائق جانباً على الطاولة.

-صحيح أنني كنت غائبة ونادراً ما أجيء إلى مكتب أبي لكنني رأيتك.. عدة مرات رأيتك أيام زمان..

-صحيح. تذكرت.. كنت صغيرة، لكن ما شاء الله، الآن، أنت كبيرة، حلوة ودكتورة ترفع الرأس..

-المهم.. تدخل الأب شبه مقاطع شريكه، مخاطباً ابنته.. لم تقولي لي ما الأمر؟.

-يا سيدي.. أريد أن أفتح صيدلية..

-تفتحين صيدلية!؟ قاطعها الأب ضاحكاً، تصبحين بياعة أدوية؟ إذن لماذا ذهبت إلى باريس؟ لماذا درست وتعذبت ست سنوات؟

-إي.. أنت تعلم الآن.. الوظيفة لا تطعم خبزاً.. ومعمل أدوية يحتاج إلى مال كثير.. قالت وفي نيتها ألا تكشف له هدفها الحقيقي من فتح الصيدلية .

-المال موجود، قاطعها شوكة بأريحية الحاتمي.. كل ما تطلبين تحت تصرفك.. فقط افتحي معملاً..

-لا.. لا.. ليس من أجل هذا جئت، قالت الفتاة بنبرة قاطعة.. هي التي كانت قد آلت على نفسها منذ البدء أن تنأى بنفسها عن المستنقع فلا يلوثها ما فيه من وحل.. أن لا تلمس مال والدها وهي تراه سبباً لكل ذلك الضياع.. كانت تريد النجاة بنفسها من وحش فاتك.. الخلاص من أقذار الجشع والمال، حتى لو كان خلاصاً فردياً ونجاة بالذات فقط. مذ تخرجت من الجامعة وصار لها راتب، كانت أميرة تحرص كل الحرص أن تنفق من مالها، أن تعيش من عرق جبينها، فكيف تقبل الآن مال شريكه؟ كيف تفتح معملا بأموال نصاب محتال؟

-من أجل ماذا جئت إذن؟ تدخل الأب من جديد وهو يرى شرودها!!

-كي تساعدني في إيجاد مكان أفتح فيه الصيدلية..

لم يجب الأب، بل رفع يده يحك رأسه، فيما راحت عيناه تتنقلان بين ابنته وشريكه.. وكأنما هو حائر لا يدري ما يقول..

-المكان موجود.. تدخل شوكة أخيراً وكأنما تخلص من صدمته الأولى، متنقلاً بناظريه بين الأب وابنته..

-حقاً؟ أين؟ كيف أراه؟ متى أراه؟ راحت أميرة تلقي أسئلتها رشاً على الرجل الذي بدا على النقيض من أبيها متحمساً كل الحماسة لمد يد المساعدة إليها.

-فقط أشيري باصبعك تجديه بين يديك.

-شوكة، قاطعه الأب من جديد وقد انقبضت أساريره للهجة التي سمع شريكه يتكلم بها. ما هذا الذي تقول؟ أين ذلك المحل؟

-غرب الحواكير.. في آخر بناية بنيناها.. المحل الذي لم نبعه حتى الآن.. هو واسع.. مناسب تماماً لصيدلية أم تراك نسيته؟

-آ.. صحيح.. ذلك المحل الوحيد الباقي..

-لنذهب نره.. اقترحت الفتاة وهي تنهض.

-الآن؟ سأل الأب محتجا

-لم لا؟ ألا يقولون خير البر عاجله؟ رد شوكة وهو ينهض أيضاً، أجل.. لنذهب..

في سيارة البي إم التي كانت حديقة من بنفسج داخلاً وخارجاً، جلس شوكة وراء المقود داعياً أميرة للجلوس إلى جانبه، لكنها دفعت بأبيها إلى المقعد الأمامي جالسة هي في المؤخرة -العين لاتعلو على الحاجب -ضاحكة. الشارع واسع تحف به أبنية جميلة حسنة التنظيم، أعدت كي يسكنها كبار القوم ممن تملأ جيوبهم أموال لا يعرفون كيف ينفقونها.. عدد كبير من تلك الأبنية كان الشريكان قد ساهما في بنائها.. الحي كله.. كان من صنع أيديهما.. ألم يبدأه شوكة الداهوك ذات يوم؟ صفقة طيبة رفعته إلى الأعلى ومعه زميل الدراسة القديم سيف الدين النايفة. هذه الكتل الاسمنتية كلها رآها شوكة بأم عينه ترتفع واحدة اثر الأخرى دافنة تحتها الأشجار والبساتين، الحقول والزروع لينتصب محلها أحدث أحياء دمشق، أفخمها وأرقاها.

أمام بناية من ستة طوابق، واجهتها كلها من البلور الدخاني الذي يرى ما أمامه ويحجب ما وراءه، وقفت سيارة البي إم ونزل الركاب الثلاثة.

-هه.. هذا هو المحل.. حي راق.. لا صيدلية فيه.. وقريباً من هنا مستشفى كبير وعيادات كثيرة.. قال شوكة وهو يفتح باب محل بجانب مدخل البناء..

–رائع.. موقعه رائع.. ردت أميرة وهي تتلفت حولها إلى اليمين واليسار في الشارع.. حي جديد وراق فعلاً.. ليس فيه صيدلية..

–وهو قريب من بيتك!! تدخل الأب بحذر، لن تحتاجي إلى سيارة أو مواصلات..

–وهو واسع أيضاً.. انظري، قال وقد انفتح الباب على مصراعيه ودخل شوكة مشيراً لشريكه وابنته بالدخول.

–عظيم.. في المحل المواصفات المطلوبة كلها.. سآخذه، كم تريد أجرته؟ كان السؤال موجهاً إلى أبيها لكن شوكة هو الذي رد بنبرة اللوم:

–أجرة.. ماذا يا آنسة؟

–ماذا إذن؟ تريد أن تبيعه؟ تريد فروغه؟ قالت بنبرة الاستقلالية التي تعلمتها مذ تخرجت، والرغبة في الخلاص مذ رأت كل من حولها يهلكون.

–بل هو منا لك.. حلال.. زلال.. هدية مني ومن أبيك.. رد شوكة بأريحية فائقة أحست بها أميرة تفيض نهرا انصبت عليه أغزر الأمطار.

–هـ.. هـ.. هدية!؟ تساءلت متلعثمة وقد فوجئت بفيض الأريحية الذي يهددها بالغرق.

–أ.. أ.. أجل.. هدية.. قال الأب بمزيج من تلجلج وامتعاض وقد وجد نفسه مضطراً لأن يقول شيئاً.

–وهذا هو المفتاح.. تابع شوكة معطياً زخماً آخر لنهر أريحيته.. يمكنك أن تبدئي منذ اللحظة.

–أوه!! لا، هدية لا أقبل.. بل بالأجرة..

–لا تقبلين هدية؟ الرسول الكريم كان يقبل الهدية.. علي الطلاق بالثلاث لا يأخذ هذا المحل غيرك ولا نأخذ منك حمراء ولا صفراء.. ولم تملك أميرة إزاء حماسة الرجل وانفعاله وحلف أيمان الطلاق إلا أن تهمهم..

–حسن.. أقبل لكن لا أدري كيف أشكركما، قالت وهي تنقل ناظريها بين الشريكين اللذين خيل إليها أنهما يخرجان من جلديهما لأول مرة.. فالأب لم تكن قد رأته سوى مرة واحدة مذ عادت من باريس وقد بدا لها حينذاك وكأنه غير معني بوجودها كله، هو رحى تدور حول نفسها، تطحن كل ما يقع تحتها، تصدر الكثير من الضجيج والصخب لكن دون أن ترى سوى ذاتها، دون أن تهتم بشيء خارج دائرتها، ولم تكن صورة شوكة في ذهنها بأحسن من صورة أبيها، فكيف انقلبا فجأة إلى متعاطفين متعاونين يقدمان لها المحل هدية؟

-تشكريننا بأن تقبلي دعوتنا على العشاءِ هذه الليلة، قال شوكة أخيراً وقد لاك الفكرة طويلاً. بعد لحظة استأنف متعجلاً، طبعاً بعد إذن أبيك.. نذهب معاً إلى نادي الذروة فأنت لم تزوريه قط..

صحيح، هي لم تزره.. بل لم يخطر ببالها ذلك. فتاة عازبة تذهب إلى ناد يملكه أبوها وشركاؤه!؟ ماذا تفعل فيه؟ لكن الآن الفرصة مواتية والدعوة في محلها، ستضرب فيها عصفورين بحجر واحد..

-حسن نذهب على العشاء. قالت وهي تتأبط ذراع أبيها ويخرجان إلى الفضاء الطلق، فيما كان شوكة نفسه يتولى إغلاق المحل الذي سيكون صيدلية قريبا..

فرحت الأم لنبأ الصيدلية ولكنها لم تفرح لنبأ الدعوة.

-أنا لا أريد أن ترتادي أمكنة كهذه!! أخشى عليك؟

-تخشين علي من أبي؟ لا.. لا.. أنا أريد أن أذهب علني أعرف عالمهم، أجواءهم.. ما يفعلون هناك، كيف يفكرون..

-لكن شوكة داهية.. رجل ملطخ بالقذارة.. هو الذي لطخ أباك وذهب بعقله.

وتبسمت أميرة.. من قال "المرأة بغريزتها تغلب الرجل بعقله؟ "أميرة لا تدري.. لكن يبدو أنه صحيح.. فتلك الغريزة العجيبة تصنع لديها حدساً متقدماً ربما يملك القدرة على خرق الحجب، كشف الستر والوصول دائماً إلى لب الأشياء.. أمها بغريزتها كانت تدرك أن شريك زوجها هو أسِ بلائه، صانع مشاكله كلها، فهل تصل يده إلى ابنتها الآن؟ هل يخبئ مكره شيئاً لها؟

أميرة مذ عادت من المحل، كانت تفكر بسر ذلك الكرم الذي تجلى فجأة في سلوك شوكة الداهوك، تلك الأريحية التي لم يعرفها أحد من قبل.. لكن ما عساه يكون وهي ابنة شريكه؟ ما تراه يريد ثمناً لأريحيته؟

-على كل حال اطمئني، قالت لأمها أخيراً، أنا أكره عالمهم مثلما تكرهينه أنت، لكنني أشعر بأمس الحاجة لأن أعرفه من الداخل.. ولن أفوت هذه الفرصة..

لكن قبل أن تعد نفسها للعشاء، اتصلت بشاهة:

-أختي.. أنا مدعوة للعشاء في نادي الذروة، ما رأيك، نذهب معاً؟

باستغراب وكثير من التساؤلات ردت شاهة، هي التي تعرف عقل أميرة، وتعرف الهوة التي تفصل أجواءها عن أجواء نادي الذروة. أخيراً اعتذرت متعللة..

-طائرتي ستقلع عند الفجر.. ولا بد من أن آخذ قسطاً من الراحة هذه الليلة..

-طائرتك؟ وأين تسافرين؟

-إلى سيريلانكا..

-الله!! الله!! وصل شرك إلى سيريلانكا؟ علقت أميرة ساخرة.

-وما سيريلانكا!؟ ها هي مرمى حجر.. لقد ذهبت إلى تايلاند والفلبين في أقصى الشرق.. أختي.. العمل يقتضي ذلك.. تذهبين بنفسك فتؤمنين بضاعتك..

-بضاعتك!؟ قاطعتها أميرة بمزيج من الاندهاش والضيق، ماذا؟ هل أصبح الناس مجرد بضاعة؟ الفتيات اللواتي تأتي بهن شيء يباع ويشترى فقط، سلعة لا أكثر ولا أقل..

-أميرة.. لا تدققي على كلامي.. كثيراً.. هذه مصطلحات نستخدمها بيننا.. أرجوك.. أنا لا أقصد الإساءة..

وبدا لأميرة لحظة من الزمن أنها يمكن أن تدعو ابنة عمها نور ثم عدلت آخر لحظة مقرعة نفسها على الجبن الذي أحست به.. "أين قوتك؟ أين بسالتك؟ اقتحمت باريس، أوروبا، أو تخافين نادي الذروة نادي أبيك وأخويك؟ "راحت تلوم نفسها واضعة آخر اللمسات على شعرها وهندامها.. وقد استيقظ فيها، ربما على استحياء، حس المرأة.

-ورطة.. هذا الرجل لا يفعل شيئاً غير أن يوقعني بالورطة بعد الورطة، لكن أرجو ألا تكون الدعوة ورطة لك.. بادرها والدها وهو يستقبلها عند باب النادي بعد أن ترجلت من سيارة البويك الطويلة الفارهة التي أرسلها أبوها لاحضارها من البيت.

-لا.. لا.. بالعكس.. يسعدني أن أراك أكثر.. أن نلتقي أكثر.. فربما نتفاهم أكثر.

كانت الساعة تقارب العاشرة، وكانت حياة الليل تبدأ بعد ذلك بكثير، لكن أميرة لم تكن تعرف شيئاً عن حياة الليل التي يعج بها دائماً النادي الفخم ذاك الذي دخلت بابه العريض للتو. الأثاث الفاخر، الأبهاء الواسعة، الثريات المشعشعة كلها تبهر الأنظار، لكن أنظار أميرة لا تبهر.. كانت قد رأت الكثير في عاصمة النور ومدن الحضارة، وكانت تعلم أن المقلد لا يطابق الأصل مهما كان بارعاً في التقليد.

في المطعم ذي الأضواء الخافتة، كان شوكة وبضعة رجال يجلسون إلى طاولة بجوار حلبة الرقص، وكانت ثمة جوقة موسيقية تعشش في أحد أركان

الحلبة تعزف موسيقى هادئة. وصل الأب وابنته فهب شوكة الداهوك مهللاً مرحبا:

-شريكنا العظيم أبو سامي، بدأ عملية التعارف مشيراً إلى الرجل الأول إلى يمينه.. سيدنا.. مجيب.. صاحب النجوع الكثيرة.. شريكنا الثالث عبد الفتاح الرأس الكبير في المحافظة، وبدا كأنه لم يكن بحاجة لأن يقدم الفتاة، فقد كانوا جميعاً يرددون تحية التعارف باسمها..

-أهلاً آنسة أميرة..

-شرفت دكتورة أميرة

-نورت النادي ست أميرة.

حين جلسوا، بدا الأب وكأنه في ورطة حقيقية، مرتبكاً، قلقاً، يتأتئ إن تكلم، ويتعثر إن نظر كأنما يقول لها "ليتك لم تقبلي هذه الدعوة" وتبسمت أميرة في سرها. "هل استيقظ في داخله الرجل الشرقي؟ "راحت تتساءل "أرأى هذه اللحظة فقط كيف يعرض ابنته فلذة كبده لأنياب الذئاب ومخالبهم؟" وقررت فجأة أن تريه بأم عينه أنها ليست النعجة التي يخشى عليها الذئاب، ولا هي الضلع القاصر الذي يحتاج إلى رعاية... أو الظعينة التي لا تمشي بغير حماية..

-فرصة طيبة أن ألتقي بشركاء أبي.. بدأت وفي عينيها تحدٍ رغم أن الأضواء الخافتة لم تكن تسمح برؤية الكثير، لكن كم كان بودي لو جئتم ببناتكم أيضاً، بزوجاتكم فنغتنم هذه الفرصة ونتعارف..

في الحال انتقل الارتباك الذي كان يتخبط فيه أبو دياب إلى شركائه.. ناظراً بعضهم إلى البعض الآخر. وبدا لأميرة أن أكثر من واحد منهم كان يهم بالكلام لكن دون أن يعلم ما يقول..

بالحقيقة، أنا قلت عمي شوكة دعاني لهذا الغرض.. استأنفت ملتفتة إليه مؤكدة علىكلمة عمي.. سمعت أن لديك ثلاث بنات وقلت هذه فرصة أتعرف فيها اليهن..

-صحيح.. لـــ.. لكن.. الحقيقة، بدأ شوكة الرد متلعثماً متعثراً، هن خارج البلد.. كل منهن مع زوجها..

وكان ذلك كافياً لأن تشعر أميرة بالرضى، فقد بدا والدها لأول مرة متماسكاً، قادراً على رفع رأسه، قانعاً أنه ليس في ورطة.

حين دخلت أميرة المطعم، لم تكن هناك غير طاولات قليلة يتوزع عليها الناس، لكن لم تبلغ الساعة الحادية عشرة إلا وقد امتلأت أكثر الطاولات.. رجال في أبهى الحلل، نساء كاسيات عاريات وكلهن مرصعات بالحلي

والجواهر.. أهذا هو المجتمع الماسي؟" تساءلت أميرة وهي تنقل ناظريها من نحر امرأة إلى أذني امرأة أخرى فذراعي ثالثة، متفحصة الماس الذي يشع من هذه وتلك.. ولم تملك إلا أن تلقي نظرة سريعة على ساعديها ونحرها، أصابعها الخالية من الذهب والماس ثم تبتسم "هذه السلاسل والقيود كم أكرهها حتى لو كانت من ذهب وماس!".

كانت الطاولة قد عمرت بأصناف الطعام والشراب، وكانت أميرة قد اكتفت بكأس من البيرة أراح الأب كثيراً وهو ينظر إليها ترشفه. بعضهم طلب ويسكي، شوكة طلب عرقاً، فالشراب المحلي حسب رأيه، هو الأفضل مفعولاً والأكثر نشوة، لكن لدهشتها، طلب والدها الفودكا.

-أبي.. منذ متى تشرب الفودكا؟ مالت عليه هامسة وقد شرب الكل نخب الدكتورة العائدة إلى الوطن.

-مذ علمتني فضائله زوجة أخيك دارينا..

وتبسمت في سرها.. من قال إن الصغير لا يعلم الكبير؟ ها هي دارينا تعلم أباها شرب الفودكا.. مع الشراب والطعام، تحللت الألسن وتشعبت الأحاديث.. سعر الدولار، المناقصات المطروحة، المشاريع القادمة، حركة الاستيراد والتصدير، أخبار الوزير الفلاني، مشاكل المدير العلاني.. كلها مادة دسمة، مرت على الطاولة ليتداولها الشركاء.. أبو سامي يتقن فن القيل والقال.. فلان قال هذا، علان قال ذاك، لكن صاحب النجوع الكثيرة يسمع أكثر مما يتكلم.. "هل علموهم ذلك في صفوف الإقطاع المنظم؟" أما الرأس الكبير في المحافظة فكان مهذاراً، ذلق اللسان، معجباً بذكائه إلى درجة الغرور، وكان لا يفتأ يسر لأميرة بهذا التعليق أو ذاك محاولاً لفت انتباهها إليه. لكن انتباه أميرة لم يلفته سوى حديث السياسة، حين علق أبو سامي ساخراً:

-هل سمعتم بالنبأ العجيب؟

-أي نبأ؟ جاء الجواب من أكثر من شريك..

-صدام اعتقل كل الأوربيين والأمريكان في العراق.. يريد أن يجعل منهم دريئة يحتمي بها .

-ما أعجبه من رجل!؟ من أين تأتيه مثل هذه الأفكار؟ علق الرأس الكبير في المحافظة.. يا رجل.. كل يوم يفاجئك بشيء لم تكن تتوقعه.

-ما أحسب إلا أنه يتخبط خوفاً وهلعاً.. علق شوكة..

-ولماذا الخوف والهلع؟ تعجب أبو دياب وكأنه غير فاهم أبداً، لقد وضع يده على الكويت وهو يرسخ أقدامه يوماً بعد يوم، فماذا يستطيعون فعله؟

–هه.. هه.. رد عبد الفتاح ضاحكاً، سترى ما يستطيعون فعله، بعدئذ غمغم متشدداً، وإن غداً لناظره قريب..

–لكن كيف ولا أرى أحداً يحرك ساكناً.؟

–أنا أقول لك كيف.. أتعلم كيف يصيدون طائر الحر؟

–طائر الحر؟ تدخل مجيب هذه المرة سائلا، لا. كيف؟

–يا عزيزي.. هم يلقون له حمامة على ظهرها شبكة، يراها الحر المشهور بحبه للحم الحمام، فينقض عليها، لكن ما إن ينشب مخالبه فيها حتى يعلق بالشبكة على ظهرها..

–ما قصدك؟ عاد صاحب النجوع يسأله.

–قصدي، الآن علق الرجل.

–أتظن ذلك؟ سألت هذه المرة أميرة وقد أثار الحديث اهتمامها.

–أظن؟ بل أنا متأكد.. بوش ألقى لصدام بالحمامة حين أرسل له القائمة بأعمال السفارة في العراق.

–ولماذا أرسلها له؟ سألت أميرة بفضول.

–لتقول له إن أي خلاف بين العراق والكويت لا يعني أمريكا بشيء بل ستنظر إليه على أنه خلاف داخلي محض لا شأن لها به، ولما كانت الحمامة الكويتية مغرية يشتهيها البازي العراقي فقد انقض عليها للتو.. وماذا حدث؟ الآن مخالبه في الشرك يريد أن يطير بالحمامة فلا يستطيع ويريد أن يطير بغير الحمامة فلا يستطيع.

–إذن، علينا أن نساعده، عقبت أميرة وهي ترى خطورة الموقف فعلا.

–نساعده؟ تدخل أبو سامي هازاً رأسه، بل علينا أن نقص جناحيه وننتف ريشه، حتى لا يستطيع الطيران بعد ذلك أبداً..

–علمي أنكم تؤمنون بالوحدة.. وما فعله لا يخرج عن نطاق ذلك المفهوم.. الرجل يريد أن يوحد أقطار الوطن العربي..

–عال.. وإذا ما مد يده إلى الأردن ثم بسط نفوذه على الخليج بعدئذ ضم السعودية.. ماذا يجري؟ سيصبح خطراً حقيقياً علينا هنا.. وعلى الوحدة..

–خطر؟ تساءلت أميرة باستنكار..

–بالطبع.. سيضمنا إلى دولته بالقوة حينذاك.. سيلغينا.. سيمسحنا عن وجه الأرض وأي خطر أشد من ذلك؟

-لا.. لا.. يجب أن يضرب.. صدام يجب أن يسحق.. أردف عبد الفتاح قائلاً بضيق مفاجئ.. هذا الخطر يجب أن يزال..

-لكن ألا ترون أنكم تلتقون بأفكاركم مع الأمريكان والانكليز والـــ..

-كيف؟ قاطعها مجيب منتفضا..

-مذ كنت في فرنسا سمعت أكثر من مسؤول إسرائيلي، يصرح: أن الجيش العراقي بات قوة تخل بالتوازن الاستراتيجي في الشرق الأوسط لهذا ينبغي إبادته..

-لا.. لا.. أنا لا أصدق..

-لكنني سمعته بأذني.. قرأته بعيني..

-لا يهم. لايهم

- كيف لايهم؟ معقول؟ ردت أميرة بنبرة الممازحة، أمريكا.. إسرائيل.. جادتان باقتناص البازي...

-وماذا نفعل إذا كان صدام يريد أن يكون بازياً يهددنا.. يشكل خطراً علينا؟

-لكن المسألة ليست مسألة صدام.. هي مسألة العراق.. والعراق جزء لا يتجزأ من شعبنا ووطننا؟

لوهلة لم يجب أحد، فقد بدا السؤال محيرا وبدا صاحب النجوع الكثيرة متردداً بالإجابة.. فاستأنفت أميرة:

-ألمانيا دفعت عشرة مليارات دولار للاتحاد السوفيتي كي يغادر شطرها الشرقي، عملت المستحيل كي تعيد وحدتها، أوروبا ذات الشعوب المختلفة عرقا، لغة، تاريخاً تبذل الغالي والرخيص لتوحيد نفسها، فلماذا نصر نحن على البقاء مجزئين مشرذمين؟

-لا.. لا.. أبا دياب.. تدخل أبو سامي ضاحكاً، الدكتورة أضلع منا جميعاً في السياسة والفهم.. الحقيقة أنا أهنئك عليها..

-إي والله.. نهنئه عليها!.. بل نهنئه على كل شيء.. تدخل هذه المرة شوكة بشيء من المكر والدهاء، ومن مثل أبي دياب؟ ثروة، عزجاه، دكاتره، قال وهو يشير إلى أميرة.. أبو دياب ملك..

-ملك. لكن بغير جنود، علق الرأس الكبير في المحافظة ضاحكاً فانفجر الكل ضاحكين.

-بل كلنا جنود لدى أبي دياب.. كأس أبي دياب، كأس الدكتورة أميرة، قال

صاحب النجوع الكثيرة ضاحكاً هو الآخر رافعاً كأس الويسكي المعتقة منذ أكثر من اثني عشر عاماً.

نظرت أميرة إلى أبيها فبدا كالطاوس نافشاً ريشه. كان يعب الشراب دون حساب، وكان وجهه المنتفخ محمرا، كما بدا كرشه وكأنما ازداد كبرا فيما ذهب عيه وتلعثمه لتحل محلهما ثقة بالنفس واعتداد..

-هه.. أبي.. كيف تشعر الآن؟ سألت أميرة هامسة وقد اقتربت بفمها من أذنه..

-أنا كما قال شوكة ملك.. قال الأب بنبرة أعلى من الهمس وقد أثر فيه الشراب، وما الذي ينقصني؟ لا.. لا.. نلت كل ما كنت أحلم به، بل أكثر مما كنت أحلم به بكثير.

وشردت أميرة بعيدا، راحلة إلى الماضي البعيد، ربما لتعرف ما كان أبوها، وهو فلاح في حاكورته، يحلم، غير أن حركة مفاجئة من شوكة قطعت عليها رحلتها تلك، فقد وقف، دار حول الطاولة، انحنى عند كتفها من خلف، ثم مد يده بأدب ولطف.

-دكتورتي الجميلة، أتسمحين لي بهذه الرقصة؟

الحركة المفاجئة جعلتها تحتار وتتلجلج. هي لم تكن مستعدة لمثل تلك الدعوة ولم يكن في ذهنها أن ترقص، لكن شوكة، البارع في اقتناص الفرص، لم يدع فرصة حيرتها تذهب هباء، بل أمسك بيدها، رافعاً إياها رفعاً عن الكرسي، قاطعاً عليها طريق الرفض، وبخطوة الواثق من نفسه سار بها إلى الحلبة..

كانت الجوقة، منذ حين، قد بدأت عزف موسيقى راقصة راحت تجذب الراقصين إلى الحلبة زوجا زوجا.. وسط أولئك الأزواج سحب شوكة شريكته، الرشيقة، الأنيقة، التي اصطبغت وجنتاها بالحمرة رغما عنها.. كانت أميرة، ككل فتاة، تعرف كيف تنثني بجسدها، وتحرك قدميها.. حتى ولو لم يكن لديها وقت للرقص.. ألا يقولون: في داخل كل امرأة جارية تتقن الرقص والغناء؟

-الله!! كم أنا سعيد!! غمغم شوكة قرب أذنها وقد دار بها على الحلبة بضع دورات، بل الحقيقة.. أنا أسعد خلق الله!!

-أسعد خلق الله؟ كررت وراءه وكل همها أن تعلم ما يفكر به وكيف يفكر..

-وكيف لا أكون كذلك وأنا أراقص أجمل فتاة، أروع بنات الدنيا..؟

-لا.. لا.. أبا عمرو.. ردت ضاحكة محتجة، من مدحك بما ليس فيك فقد

ذمك.. وأنا لست أجمل ولا أروع..

-لا.. أنت غلطانة أميرة.. قاطعها شوكة وعلى محياه سيماء الاستنكار.. ألست أعلاهن علماً ومعرفة؟ ألست تحملين أرقى الشهادات من باريس؟ إذن أنت الأجمل والأروع.. العلم وحده زينة الدنيا، أحلى الحلاوات..

-عن قناعة تقول ذلك أم أنت تجاملني أبا عمرو؟

-لا.. صدقيني أميرة.. كل عمري أحترم المتعلمة.. المثقفة.. أشعر أن فيها شيئاً مختلفاً.. تتثقف المرأة تصبح متميزة.. بل لا أكتمك سراً الأستاذة والدكتورة هي الوحيدة من بين النساء التي تحظى باحترامي وإعجابي..

-أنت تفاجئني أبا عمرو، قالت أميرة وكلها استغراب أن تسمع كلاماً كذاك من رجل لا يفكر إلا بالمال..

-ولسوف أفاجئك أكثر.. بدأ ثم توقف متردداً.. فشجعته أميرة:

-هه.. قل.. بماذا تفاجئني أكثر؟

-سأقول لكن لا تضحكي علي.. أنا.. منذ زمن طويل، أحلم بأن أتزوج امرأة رفيعة الشهادة.. عالية التعليم.. دكتورة مثلك..

وكانت مفاجأة فعلاً كادت تسمرها في مكانها.. لحظات راحت أميرة تتفرس في وجهه النظر، لكن دون أن تعرف ما تقول.

في الحال قادها شوكة إلى لجة الراقصين.. استغل حيرتها ومفاجأتها ثم تابع: بصراحة، أنا أنتهز هذه الفرصة لأطلب يدك دكتورة.. ليتك تتزوجينني؟

هذه المرة تسمرت قدماها تماماً متوقفتين عن الحركة عاصيتين الإيقاع الموسيقي الراقص "آ.. إذن.. هذا هو سر الكرم الحاتمي، المحل الذي قدمت مفاتيحه، دعوة العشاء، المجاملات، الإطراء،.. كلها لغاية في نفسك سيد يعقوب.."

-هه.. أميرة.. هل سمعتني؟ قطع عليها شوكة أفكارها وهي تحاول ربط الأحداث ببعضها.. دافعاً بها إلى متابعة الرقص..

-لا.. لا أدري.. إن كنت قد سمعتك.. قالت أميرة بكثير من التردد والتلعثم.

-أميرة.. اسمعي.. حلمي.. منذ زمن.. أن أتزوج دكتورة.. أشعر أنها ستعوضني الكثير، ستسد عندي ثغرات.. ستملأ داخلي فرحاً وسعادة..

"طبعاً هي عقدة النقص.. تريد أن تعوض نقص تعليمك.. تريدأن تنتقم لجهلك بأن تتزوج دكتورة" راحت تفكر شاردة عما كان يهمس في أذنها.. لكن

رقماً ذكره جعلها تنتبه إليه.

-مائة مليون أدفع لك مهراً.. مائتي مليون... أتسمعين؟ أفتح لك مصنع أدوية.. لا صيدلية تافهة كهذه.. بل مصنع أدوية مهما كانت تكلفته أفتحه لك لتكوني أنت صاحبته ومديرته.. أميرتي وأميرته..

-وهل لديك كل هذه الأموال؟ سألته وفي نيتها أن تعرف أكثر وأكثر..

-هذه الأموال؟ ردد ساخراً، إن هي إلا نقطة في بحر.. أنا ووالدك نملك أموالاً لا تأكلها النيران.. من شركة الاستثمار الزراعية دخلنا نحن الاثنين فقط ثلاثة آلاف مليون.. من ودائع الناس الذين يريدون استثمار أموالهم، لدينا أنا ووالدك ثمانية آلاف مليون.. وثروتي هذه كلها تصبح ملك يديك.

-لكنك متزوج.. أولادك كبار.. هم أنفسهم متزوجون..

-وماذا في ذلك؟ أبوك لديه أربع زوجات.. وأولاده كبار أيضاً.. متزوجون.. أنا على الأقل ليس لدي إلا زوجة واحدة..

-وماذا عن السن؟ يخيل إلي أنك كبير قليلا، قالت أميرة بكثير من السياسة.

-وأنت.. أميرة. أتحسبين نفسك صغيرة؟ أمك حين كانت في سنك كانت قد خلفت ثمانية بطون.. شيء من القشعريرة سرى في جسدها، فتور واشمئزاز أحست بهما يتكونان في داخلها تجاه ذلك الرجل الأكرش القصير الذي كانت يداه لا تصلان إلا بالكاد إلى كتفيها وقد وقف كرشه حاجزاً بينهما.. كيف يمكنه أن يفكر بالزواج منها؟ كيف ينسى فارق السن؟ فارق العلم، فارق كل شيء.. ألا يذكر سوى المال؟ هو ثري إذن يحسب كل شيء متاحاً مباحاً. كل شيء يجب أن يكون ملك يده.. وكادت تكور في فمها بصقة تلقيها في وجهه ذي العينين الثعلبيتين وهو يلفح وجهها بأنفاسه الحارة، حين تابع عرضه المغري، سأقدم لك فيلا في أرقى أحياء دمشق، سيارة رولزرايس، وأقيم لك عرساً لم تشهد دمشق له مثيلا.

مرة ثانية عادت البصقة تتكور، إلا أنها ردتها آخر لحظة كارهة أن تثير فضيحة، تكون فيها مضغة للأفواه، فاكتفت بالقول:

-أبا عمرو.. لقد فاجأتني..

-وأنا لا أريد منك جواباً الآن.. لا.. لا.. معنا وقت.. أسبوع.. أسبوعان.. لايهم.. المهم أن توافقي.. أرجوك أميرة أن توافقي.. وسأجعل منك أميرة حقيقية تتلألأ جواهر وألماس.

انتهت المعزوفة الموسيقية فتوقف الراقصون، بعضهم انسحب إلى الصالة،

وبعضهم ظل ينتظر المعزوفة الجديدة. أبو عمرو أراد أن ينتظر متشبثاً بأميرة، تتوسلها عيناه أن تبقى، لكن أميرة، وقد استنزفت المفاجأة قواها، تخلصت منه، متعجلة الخطا عائدة إلى الطاولة.

هناك فوجئت بوجهين نسائيين جميلين: دارينا وتوليب، فأسرعت إليهما حاضنة معانقة، كما أسرع إليها فهد من طرف الطاولة الآخر محيياً ضاحكاً..

-أوه!! فهد!! الحمد لله أن جئت، بادرته وقد صممت على شيء، أريدك أن توصلني إلى البيت.

-ماذا؟ صاحت توليب محتجة، جاءت الشياطين تهرب الملائكة.

-لا.. لا.. بل الحقيقة أنا متعبة.

-متعبة، وما زال الليل في أوله!؟ احتج أبو سامي مستغربا.

-الساعة تجاوزت منتصف الليل، وأنا لم أعتد السهر.. أتسمح لي يا أبي!؟ أتسمحون لي يا جماعة!؟

-لكن الآن بدأت السهرة.

-ما يزال باكراً أميرة.

-ستحرميننا أنسك.

راحت الاحتجاجات تترى، عرض شوكة كان بمثابة الضربة القاضية التي ألقتها خارج الحلبة..

-لا.. لا بد من أن أذهب.. وأنا آسفة دارينا.. آسفة توليب..

-إذن أنا أوصلك.. تبرع شوكة بحماسة واضحة.

-لا، لا، أخي فهد يوصلني، قاطعته أميرة وهي أشد رغبة في أن تنهي تدخله.. وللفور رفعت يدها محيية الجمع المندهش فيما رافقها فهد وهو يتلفت وراءه، كأنما يرافقها على مضض.

على الطريق الضيق المتعرج تعرج بردى، انطلق فهد بسيارته الكاديلاك الحمراء كلون الجلنار، ثم ما إن اطمأن على انطلاقته حتى بادرها، وفي نبرة صوته لوم شديد:

-فرصة ذهبية كان يجب أن تستغليها وتسهري، لا أن تغادري باكراً هكذا.

-فرصة ذهبية!؟ أستغلها؟ لم أفهم فهد..

-كنت ساهرة مع حيتان كبار.. فلماذا تفوتين مثل هذه السهرة؟

-حيتان كبار؟

-طبعاً، كلهم حيتان كبار.. أبو سامي لا يلعب القمار إلا بالدولار، لديه مزارع في استراليا، مصانع في إيطاليا..

-معقول؟

-طبعاً معقول.. صاحب النجوع الكثيرة لديه أسطول من السفن يمخر البحار من الفلبين، استراليا حتى الأرجنتين وكندا.. أما الرأس الكبير في المحافظة فحدثي عن ثروته ولا حرج.. آلاف الدونمات في الساحل، معامل، عقارات، أراض هنا.. أراض هناك.. وأرصدته في البنوك يقولون إنهم لو وضعوها أمامه لاحتاج إلى عشر سنوات لعدها فقط..

-لكن من أين لهم هذا؟ سألته بشيء من ضيق، هي التي تعلم علم اليقين أنهم كلهم من منبت كادح فقير.

-هه.. هه.. رد فهد ضاحكاً.. أيام الحساب والعقاب، من أين لك هذا؟ كل ذلك ولى، لم يعد هناك من يسأل أسئلة كهذه الآن.. هنا حارة كل من يده له.. والشاطر بشطارته..

-وأنت.. هل تقول انك شاطر؟

-بالتأكيد، لكنني لم أصبح حوتاً مثلهم بعد..

بعدئذ، راح يحدثها عن نجاحاته في سورية، في لبنان، علاقاته في فرنسا، صفقاته في روسيا، دول الشرق والغرب.. لقد مهدت توليب الطريق له.. هي التي تعرف الكثير منذ زواجها الأول من ذلك المناضل العتيد الذي كان يجعل من بيروت مقراً لنضاله، يأتي بالسلاح من دول المعسكر الاشتراكي وبالأموال من العالم كله. لكن قبل أن يصلا إلى المنزل فاجأها فهد بسؤال لم تكن تتوقعه:

-حين عاد شوكة من مراقصتك كان محمرا مزردا.. هل جرى بينكما شيء؟

-لا.. لا شيء.. فقط طلب يدي.. قالت بنبرة ساخرة..

-طلب يدك!؟ يريد أن يتزوجك؟ قال فرحاً وكأنه لم يلحظ نبرتها الساخرة.

-أجل.. ما رأيك؟

-وافقي.. هذه صفقة العمر.. أميرة.. تتزوجين رجلاً هرماً رجل في القبر ورجل خارجه.. سنة أو سنتين ويموت فترثين آلاف الملايين منه..

-هكذا ترى؟

-طبعاً.. بنات أرقى العائلات تعقد صفقات كهذه.. كل يوم واحدة من هذا النوع تتزوج ثريا كبيرا.. نهلة التي تزوجت ذلك الثري في باريس، ثم ورثت

عنه آلاف الملايين.. ألا تعرفينها؟

-وهل تريدني أن أكون نهلة أخرى؟

-لم لا إن كنت ستربحين؟.. صفقة ربحها كبير وكبير جدا، مضمون ومضمون جداً فلماذا لا توافقين؟

لا.. لا.. أميرة.. لا تترددي.. اسمعي مني.. لا تترددي..

ولم تملك أميرة إلا أن تضحك وهي تودعه عند باب المنزل.. المال.. ذلك الاله الذي يعبدونه.. كيف تراهم لا يركعون بين يديه أينما ظهر وحيثما لاح!!؟ لكن ما ان دخلت غرفتها حتى ألقت بالمسألة كلها في سلة المهملات.. وهي على ثقة أنها لا تستحق منها حتى التفكير..

عشرين يوماً ظلت غارقة في تجهيز المحل لتحويله إلى صيدلية. عمها مصباح دهش كل الدهشة حين نقلت إليه الخبر، ممسكة به من ذراعه كي يذهبا إلى أمانة العاصمة ثم الوزارة فيستخرجا الأوراق اللازمة للترخيص.. مهندس الديكور، الكهربائيون، الدهانون، كلهم يشاركون في الإعداد، وأميرة وعمها يتحركان من مكان إلى آخر كسباً للوقت.. المكاتب العلمية، شركات الأدوية، مؤسسة الصيدلة، كان لها هي الأخرى نصيب في تحركات أميرة وعمها.. فهما يريدان أن يؤسسا أكبر صيدلية في دمشق، لكن ما ان بدأ العمل والشراء حتى صدمت أميرة.. فالأسعار كاوية وما تملكه من مال لا يكفي لسد الحاجة..

-أظن أننا سنحتاج للمال.. قالت لعمها وهما يقدران تقديراً أولياً ما يحتاجانه ثمناً للأدوية..

-أميرة، أنا آسف.. رد عمها بنبرة الحزن وتقطيب في الحاجبين..

-آسف؟ على ماذا؟ ردت باستغراب. كانا حتى تلك اللحظة سعيدين، إذ وجد هو عملاً يملأ فراغه، ووجدت هي ما ينقذ عمها من براثن الفقر.

-أشعر كأنني أوقعتك في ورطة..

-لا.. لا ورطة ولا ما يحزنون، قالت بلهجة مطمئنة وهي تعلم شدة حساسيته..

-لكن ما معك من مال لا يكفي وأنا لا أملك شيئاً.. ما كنت أدخره لشيخوختي استهلكته هذه السنوات العجاف..

-لا عليك.. سأدبر نفسي..

-بل لدي اقتراح، قال وقد لمعت في ذهنه فكرة، ما رأيك: أبيع بيتي وأشتري بيتاً أصغر منه والفارق نضعه في الصيدلية؟

-تبيع بيتك!؟ لا.. لا.. لن أدعك تفعل ذلك..

-إذن، نأخذ قرضاً من المصرف!؟ اقترح عمها من جديد.

-أيضاً لا حاجة لذلك.. قطعت الطريق عليه ثم أكدت بنبرة خاصة تريد طمأنته.. قلت لك سأتدبر الأمر.. سآخذ المال من أبي..

-لا، لا من أبيك ولا من أخيك.. ثم حذار حذار أن تأخذي من شوكة.. ختم كلامه بنبرة متشددة، فقد روت له ذات صباح، وهما يشربان القهوة، قصة شوكة وعرضه السخي.. "يريد أن يشتريك بمصنع أدوية!؟ الوغد، الخسيس.." علق حينذاك هازاً رأسه وفي نبرة صوته كثير من الضيق "صحيح ناس لا تستحي!!" "لم يبق في واحدهم ذرة خجل" وندمت أميرة على إخباره بالأمر بعد أن رأت ما اعتراه من ضيق.

-لا.. بالتأكيد.. لن آخذ من أحد منهم. ردت بصرامة مفاجئة وقد تشنجت لذكر شوكة.. كان طوال الأيام العشرين تلك لا يفتأ يتصل بها، يريد أن يكلمها، يدعوها، لكن تعليماتها كانت واضحة "في أي زمان ومكان يتصل شوكة، أنا لست هنا.." ولم تسمع صوته منذ تلك الليلة. لكن أميرة لا تنكر أن طلبه أيقظ في نفسها شجوناً كانت نائمة، لم تستطع ذات ليلة إلا أن تبوح ببعضها لابنة عمها نور.

.. كانتا تجلسان معاً في حديقة المنزل، وكانت نور تداعبها كالعادة "إي.. اعترفي أميرة.. ألم يحرك هذا الغصن هواء باريس؟" وروت لها أميرة قصة جان والزملاء الآخرين الذين كانوا يتقربون منها، يتوددون إليها.. "لكن صدقيني.. لم أشعر بواحد منهم.. لم يحرك مشاعري رجل في الغرب "قالت في ختام روايتها "الرجل الوحيد الذي أحسست به.. فتح له قلبي.. كان من هنا.. من الشرق". ماذا"؟ ردت نور وملء عينيها الاستغراب والدهشة ." أحسست به ولا تتكلمين؟ قولي.. من هو؟ أين هو؟ كيف حدث ذلك؟

"قبل سنة أو أكثر التقيت به "ردت أميرة علها توقف سيل أسئلتها "مرتين التقيت به.. طبيب جراح كان في طريقه إلى لندن لحضور دورة في جراحة الكلى وزراعتها.."

"إي.. وماذا بعد؟ "لا شيء أبداً.. كان مجرد نيزك، لمع في سمائي ومضى.. "ألم تريه بعد؟ ألم يتصل؟ ألا تعرفين عنوانه؟" "لا، أبداً.. كنا كمسافرين تقاطع طريقاهما فالتقيا ساعة من الزمن ثم مضى كل في حال سبيله.."

لكن في الحقيقة كانت أميرة تستعيد في خيالها صورة ذلك الجراح، تتذكر

كلماته، تستحضر نظراته، فتشعر أنه هو الرجل الذي يمكن أن يسكن خيالها.. هو النموذج الذي يمكن أن يستقطب عواطفها.. لكن أين هو ذلك النيزك الآن؟ كيف يمكن الإمساك به وهو مجرد نيزك؟

نور نصحتها أن تسأل عنه، أن تتصل به "الرجل معروف وعيادته معروفة، فلماذا لا تحاولين رؤيته مرة ثانية؟" لكن في ذهن أميرة أن على الرجل أن يبادر.. هي ذي مهمته.. لا مهمة المرأة.. هنا، في الشرق.. تبادر المرأة فتحط من قيمتها.. يظن الرجل أنها سلعة بخسة.. ولا تريد أميرة أن تكون سلعة بخسة.. "على الرجل أن يبادر" قالت لابنة عمها أخيراً" وإذا لم يفعل؟ إن لم يكن قد أحس بك أصلاً؟" "حينذاك أقول عليه العوض ومنه العوض" ختمت حديثها ذاك بشيء من الحرقة والحسرة مضيفة شجناً جديداً على شجونها.

لكن إن كان لذلك الشجن أن ينتظر فشجن المال لا ينتظر. كانت الصيدلية قد أصبحت جاهزة.. فقط ينبغي شراء الأدوية. وكان لا بد لها من مليون ليرة ونصف كي تشتري تلك الأدوية.

-خذي، لدي بعض المال خبأته لليوم الأسود، قالت لها أمها وقد باحت لها بشجنها، ستمائة ألف، سبعمائة لا أدري كم!! لكن لدي أيضاً هذا الذهب، قالت وهي تشير إلى قدر كبير من الأساور والحلي.. كان أبو دياب قد اشتراها لها في سنوات ثرائه الأولى. خذيه أيضاً، بيعيه واقضي حاجتك..

-لا.. لا.. ذخيرتك هذه لن أمد يدي إليها.. ردت أميرة فرحة في سرها بأن أمها لم تنسَ نفسها خلال تلك السنين. سأستدين من فهد.. من دياب.. ديناً أرجعه لهم.. هم كلهم أثرياء.. وشعرة، كما تعلمين، مكسب، قالت غامزة ضاحكة ثم أسرعت إلى بيت فهد.

عند الباب الخارجي رأت سيارة دياب المرسيدس الكتيمة اللون.. فاستبشرت خيراً "سأضرب عصفورين بحجر واحد.. حظ يفلق الصخر "لكنها لم تصعد درجتين من سلم المبنى حتى التقت بدياب نازلاً الدرج على عجل في عينيه شرر في وجهه غضب.

-أميرة.. اسمعي.. بادرها دونما مقدمات.. أنت ذاهبة إلى هناك.. قولي لفهد أن يدفع المبلغ خلال أربع وعشرين ساعة أو فعلت فيه العجائب..

ومضى مسرعاً دون أن ينتظر حتى الجواب.. فاغرة الفم، جاحظة العينين، تسمرت أميرة على الدرج لحظات تتابع أخاها بنظرها إلى أن دخل سيارته، أدار المحرك ثم أقلع بسرعة صاروخية أجفل لصوتها الآتون والذاهبون.

في الطابق الأول وجدت منزل فهد منقلباً رأساً على عقب، دارينا تصرخ

غاضبة، فهد يرغي ويزيد، فلم تملك إلا أن تعجب:

-مالكم؟ دياب يهدد هناك، وأنت ترغي وتزبد هنا؟

-وغد.. سافل.. هذا الدياب.. لا يمسكني إلا من اليد التي توجعني..

-ما الأمر!؟ قل لي.. ماذا هناك؟

-يريد مني خمسمائة ألف دولار؟ أقول له لا أملك منها شيئاً الآن.. سآتيك بها من بيروت الأسبوع القادم فيرفض.. يريدها الليلة بالذات..

-لكن لماذا الخمسمائة ألف دولار؟ سألت أميرة وقد ازدادت تعجباً. "المبلغ كبير!! خمسة وعشرون مليون ليرة!! لماذا يريد دياب من فهد خمسة وعشرين مليون ليرة؟ وثمناً لماذا؟"

هذا حساب بيننا.. صحيح انني تأخرت عليه في الدفع.. لكن سأعطيه إياه.. صدقيني.. لو كنت أملك هنا مالا لأعطيته إياه.. أرصدتي كلها في الخارج.. ولا أملك هنا أي حساب..

حاولت أميرة أن تعرف نوعية ذلك الحساب، البضاعة التي يأخذها فهد من دياب، أسباب تأخر الدفع لكنها لم تستطع.. إذ ما إن هدأت سورته، هو وزوجته، حتى تنبها إلى ضرورة الكتمان فأعمالهما بأمس الحاجة إلى الكتمان..

الجنوح للكتمان. ظهر أول ما ظهر لدى دارينا.." امرأة قوية بالغة التحفظ والسرية "تلك هي الصورة التي كانت أميرة قد رسمتها لامرأة أخيها.. وهي فوق ذلك مسيطرة على زوجها، شديدة الغيرة، شديدة القسوة، الكل يعلم أن قلبها لا يعرف الرحمة.. إذا أرادت شيئاً تصل إليه. بأية وسيلة، تصل إليه.

شربت أميرة القهوة ثم استأذنت دون أن يخطر ببال فهد أو امرأته أن يسألاها لماذا جاءت. كانت قضية دياب شغلهما الشاغل، وكان فهد، بما يملك في داخله من خوف قديم، خوف الأخ الصغير من الأخ الكبير، الأخ الأقوى جسداً والأكثر شراسة، يخشى فعلاً تهديد دياب، فلم يخطر بباله أن يسأل أخته عن سبب ذلك المجيء.

حائرة، مترددة، خرجت أميرة إلى الشارع.. لا تدري أين تذهب ودون أن تدري وجدت نفسها في مكتب أبيها.. لكن كان شوكة من وجدت هناك.. حاولت الاعتذار، العودة، لكنه لم يقبل اعتذارها ولا عودتها..

-على الأقل نشرب فنجان قهوة..

مع فنجان القهوة انطلق لسانه الذلق يتحدث عن تلك الليلة الجميلة التي تمتع فيها بوجهها السمح وحديثها العذب، لكن لِمَ لم تتكرر تلك الليلة؟ لم لم يرها

ويسمع صوتها مذ ذاك؟ كانت أسئلة شوكة واضحة محددة، كلها تتجه إلى سؤال محدد آخر.. لماذا لم تجيبي على طلبي؟ لم تتهربين مني؟ لكن أميرة تجاهلت كل شيء، متذرعة بالعمل وإعداد الصيدلية..

–لكن ينقصك المال؟ تحتاجين لثمن الأدوية؟ سألها بكثير من الخبث كادت تنتفض له.

–كيف عرفت؟

–قالت لي العصفورة، رد ضاحكاً، أم نسيت أنني معني بك، مهتم بكل ما يهمك؟ قال ثم مضى إلى درج طاولته، أخرج شيكاً موقعاً بمليوني ليرة ثم استأنف، قد تحدثنا أنا ووالدك بالأمر وأعددت لك هذا الشيك.. ليس من حسابي.. انتبهي.. بل هو من حسابنا نحن الاثنين.. هدية منا لك.. وضحكت في سرها، "هو ذا الطعم.. تلتقطينه أم لا؟ تلك هي المسألة "راحت تتساءل وعيناها تتنقلان بين الشيك والسمسار الداهية" الخلاص.. أين الخلاص الذي كنت تتحدثين عنه؟ أين النجاة بالنفس؟ البعد عن المستنقع الموحل؟ "وفجأة وجدت نفسها تنطلق مسرعة لا تلوي على شيء، فيما كان الشيك يتهادى في فضاء المكتب وقد قذفت به عالياً.

بعد يومين كانت الأدوية تملأ رفوف الصيدلية، وكان الثمن حلي الأم ومدخراتها.. فقد كان ذاك أفضل الخيارات..

ليل نهار عمل العم لترتيب تلك الرفوف، ثم جاءت أكاليل الزهور وسبوتها على جانبي الباب إيذاناً بافتتاح "صيدلية أميرة".

ذلك المساء وقبل ساعة من الافتتاح كانت أميرة تحث أمها أن تلبس وتتزين كي تشاركها الحفل وكانت الأم ما تزال مترددة "لا أريد أن ألتقي في مكان واحد بذلك الغادر الذي خان عشرة العمر". رن الهاتف فأسرعت إليه أميرة:

–سلوى.. أهلاً.. ما بك؟ ألست آتية؟ سألتها وقد أحست بجرس انذار في اتصالها ونبرة صوتها.

–شاهة يا أميرة.. شاهة..

–ما بها شاهة؟

–كان من المفروض أن تأتي من سريلانكا منذ الأمس، ولم تأتِ..

–ربما هناك مانع أخرها..

–أجل.. هناك مانع.. ثم ترددت لحظة قبل أن تدفعها أميرة إلى الكلام.

-أي مانع قولي!؟

-عميلنا هناك يقول إنها خرجت قبل يومين من فندقها ولم تعد..

-كيف؟ ماذا يعني؟

-هو يقول كانت في طريقها إلى إحدى القرى لاستلام بعض الخادمات ثم فقدت..

-فقدت؟ كيف؟ ماذا تعنين؟ قالت بصوت عال أطلقته الصدمة المفاجأة فانفتحت إذن الأم وشفتاها وهي تندفع متثاقلة إلى ابنتها، صائحة:

-ماذا هناك يا بنتي؟

-خطفها نمور التاميل، جاءها جواب سلوى..

-نمور التاميل!؟ ردت مذهولة فزعة.. خطفها نمور التاميل!! ثم لم تكمل فقد علت صرخات الأم:

-ماذا؟ خطفوا ابنتي!؟ ضاعت شاهة؟ ويلاه؟ ويلي!؟ ولم تجد أميرة بداً من ترك السماعة تسقط وهي تندفع إلى أمها، علها تمسك بها قبل أن تقع أرضاً.

-12-

ليس غريباً أن تقرأ في الصحف من حين لآخر أخباراً مزعجة عن السياح "حافلة سياح تعرضت لوابل من اطلاق النار وهي في طريقها إلى الأقصر من القاهرة" "سياج في جبال سبأ اختطفهم رجال القبيلة المحلية وأخذوهم رهائن". "سائحان أمريكيان في أدغال افريقيا خرج لهما رجال بدائيون من أكلة لحوم البشر وأغلب الظن أنهما صارا لهم وجبة شواء لذيذة.."

أميرة تصادف مثل هذه الأخبار في الصحف، فالكل يعلم أن العالم بات بلا أمان.. عالم غاب.. ما يسوده هو شريعة الغاب، الكل يشرع مخالبه ويبرز أنيابه وإن حانت له الفرصة لا يتردد لحظة واحدة في غرسها في لحم أخيه الإنسان. الاضطراب، افتقاد الأمن، العنف الوحشي، القسوة.. كل هذا جاء من مفرزات الحضارة الجديدة التي تولى الأمريكان نشرها.. فأصبح العالم، الذي كان يفتح ذراعيه للغريب يحيطه بكل رعايته وحنانه، مفعماً بالحقد والكراهية للغريب، متوجساً شراً من كل أجنبي "ربما هو يحمل لي الأذى والضرر، لأحترس منه أو لأنتقم مسبقاً".

لكن، لم يكن باستطاعة أم دياب أن تصدق أن ابنتها شاهة صارت هدفاً لحقد الناس في سريلانكا إلى درجة يمكنهم أن يخططوا للانتقام منها. شاهة التي كانت ذات يوم قطة مغمضة لا تعرف شيئاً في الدنيا تصبح هدفاً للانتقام والثأر؟ شاهة التي كانت أقصى أحلامها أن تجد رجلاً تستظل سقفه، وتنعم بفتاته لا ترى أحداً ولا يراها أحد، تغدو وجبة شهية لنمور التاميل؟ ومن يعلم؟ ربما سلخوا جلدها ثم ملحوها، شووها على نار الحطب كما يفعلون بالخروف؟

شرحت لها أميرة أن أكلة لحوم البشر في افريقيا فقط، وأن التاميل ناس متحضرون مثلنا لا يأكلون بشراً ولا ما يحزنون. لكن عبثاً، فقلب الأم الحزين، لم يكن يهدأ له خفقان.. خيال الأم الرؤوم لم يكن يكف عن تصور الابنة التي حملتها ذات يوم وهنا على وهن وفطامها في عامين، إلا وهي شواء لأولئك النمور الذين يخطفون البشر، هكذا دون سبب.. تماماً كما تفعل نمور الغابات..

ذهب دياب في البداية يبحث عن أخته المفقودة، استعان بعملاء سلوى في كامبالا، فتش، بحث لكن عبثاً فقد عاد بخفي حنين. أعولت الأم أكثر وولولت أكثر، فمضى فهد إلى الشرق من جديد يدلي بدلوه، عل الأمل يبقي الأم أكثر

احتمالاً وصبرا.. عشرين.. خمسة وعشرين يوماً غاب فهد هناك، فتلك الجزيرة شبه الاستوائية جنة من جنات الله على أرضه، غابات، خضراء، أمطار غزيرة غزيرة.. وشعب بسيط مسالم، لم يكن يملك فهد وهو يراه فرادى وزرافات إلا أن يتعجب "كيف يخرج من هذا الشعب نمور مفترسة كنمور التاميل؟ هؤلاء الناس الطيبون المساكين كيف ينصب جام غضبهم على أختي فقط؟" لكن ما تجدي الأسئلة إن ظلت شاهة مفقودة؟" أمها تبكي عليها الدموع الغزار، تتخيلها وهي تشوى على النار فتظل الليل بطوله ساهرة، تبكي وتنوح.. حتى بدا لأميرة أن شحوم أمها ذاتها كانت تتحول إلى دموع تسيل ليل نهار.. "يا للحزن من نار يذوب عليها شحم البشر!!" أميرة حزينة على أختها، مشفقة على أمها، شفقتها تلك جعلتها تفكر أن تذهب بنفسها إلى سريلانكا تبحث هي الأخرى عنها، لكن أباها منعها "تكون بواحدة نصبح باثنتين، "قال لها فلم تقتنع لكن ما ان أعقب ذلك بإعلانه أنه سيذهب بنفسه حتى اقتنعت وسكتت. هذه المرة ذهبت سلوى نفسها، الشريكة العتيدة مع الأب، سلوى التي تعرف جيداً الجزيرة الخضراء المعزولة التي كان اسمها سرنديب والتي تقول الأساطير ان أبانا آدم نزل فيها أول ما نزل مطروداً من فردوس السماء.. وأنه فتح عينيه أول ما فتحها على الخوف والهلع وهو لا يرى شيئاً مما ألفه في ذلك الفردوس.. حتى حواء لم يجدها بجانبه، هي التي أغوته أن يأكل من تفاح المعرفة فتمزق شملهما شر ممزق.. وكما راح آدم يبحث عن حواء هناك بين الأدغال والغابات، كذلك راح أبو دياب يبحث. رغم مشاغله الكثيرة، رغم همومه الكثيرة، وجد نفسه مرغماً أن يعود أباً يبحث عن ابنته المفقودة.. شهرا كاملاً ظل هناك.. سلوى معه. معارفها في الجزيرة، أصدقاؤها، عملاؤها كلهم سخرهم أبو دياب للبحث. أموالاً كثيرة دفع، مبالغ طائلة، لكن أيضاً عبثا. فقد اختفى كل أثر للمرأة السمراء قصيرة القامة ممتلئة الجسم التي كانت تلبس فستاناً قصيراً كالشورت، وتركب مع عميلها من كامبالا سيارة رانج روفر قاصدة إحدى القرى القريبة من الغابات.

أعقب الخريف الشتاء والربيع الصيف، لكن دون أن يظهر أثر لشاهة. ما ظهر هو ذلك السؤال المحير: أيعتبرونها ميتة ويعلنون ذلك أم تظل في عداد المفقودين وحسب؟

لم يكن باستطاعة أحد أن يجيب، لكن سمير بك الأدهم كان يريد الجواب.. الزوج السابق كان بالمرصاد.. أم أولاده غنية، تملك أموالاً طائلة فمن يرثها إن ماتت؟ صحيح أنه هو نفسه كان قد أخذ حصته ويزيد، كان قد امتصها كما يمتص الاخطبوط فريسته لكن الصحيح أيضاً أن ما خلفته الفريسة مثير أيضاً للشهية، مغر إلى درجة تستحق حتى القتال..

فجأة ظهر مع أولاد شاهة الأربعة على باب البيت الكبير في حي الحواكير.. فتحت أم دياب الباب فدهشت. منذ سنوات لم تكن قد رأت أولاد شاهة،.. مذ طلقت أمهم منعتهم حماتها من أي اتصال معها أو مع أهلها." ناس فولجير!! رعاع!! لا أريدكم أن تختلطوا بهم!!" كانت تقول لهم كلما طالبوا أباهم برؤيتها وكان ثمة شرط اشترطه الأب وأمه على شاهة "طلاقك مقابل تخليك عن أولادك" الأولاد لنا ولا علاقة لك بهم" يومذاك وافقت شاهة فقط كي تتخلص من حماتها ومن ذاك الرجل الذي كرهته كراهية التحريم. لكن رغم الاتفاقات والتعهدات، فقد كانت الأم ترى أولادها من حين لآخر.. لقد أدركت شاهة بعد أشهر من الطلاق أن ما تعهدت به كان مستحيلاً، وأن مواثيق الدنيا كلها لا يمكنها أن تقف حائلاً بين أم وأولادها.. عاطفة الأم، حبها العظيم كان قادراً أن يقتحم الجدران، يحطم القيود ليفتح الطريق. بالسرقة، بالاحتيال، باللف، بالدوران، كانت الأم تدبر أمر اللقاء بهم. كما كانت بنتاها الكبريان تتدبران أمر ذلك اللقاء.. في المحل التجاري، عند باب المدرسة، في الحديقة، وأحياناً في بيت الأم ذاته كانت تتم اللقاءات، فتهدأ نار الأم ويطمئن قلبها.. لكن الجدة لم تكن قد رأت الأولاد منذ سنين..

–الله!! كم كبرت!! خاطبت الجدة حفيدتها الكبرى وهي تنظر إلى الصدر الذي بدأ ينهد، والجسم الذي بدأ يتكور على طريق الأنوثة والنضج..

–يموتون شوقاً لرؤيتك يا امرأة عمي!! خاصة هذا الشاب الصغير، قال سمير، الرجل الذي كان معبود ابنتها ذات يوم، وهو يشير إلى الابن الوحيد الذي تركته شاهة بين ثلاث أخوات..

–أيضاً.. كبرت. صرت شاباً!! ردت أم دياب التي ذاب نصف شحمها على نار الحزن، وهي تأخذ الصبي، الذي لما يبلغ الثامنة بعد، بين أحضانها، تقبله وقد ثارت عاصفة من حنان في قلبها المتيس كأرض عطشى..

–وأنت!! كم تشبهين شاهة وهي صغيرة!! قالت للبنت الثالثة وهي تحملها بين يديها مقبلة، لاثمة، لكن دون أن يزول من أمام عينيها سؤال كله تعجب: "ما هذه الزيارة المفاجئة؟ كيف حل على سمير كل ذلك الحب والحنان؟".

رغى سمير رغي النساء، حدثها بكلمات منمقة، ربما حفظها عن ظهر قلب، مواسياً بالمرأة التي ندم كثيراً على طلاقها.. المرأة –الجوهرة التي لم يعرف قيمتها إلا بعد افتقادها.. شرب القهوة وهو يتكلم، أكل الحلويات وهو يتكلم، وأم دياب لا يشغلها إلا ذلك السؤال المحير. أخيراً ذاب الثلج وظهر المرج.

-الأولاد فقدوا أمهم وحنان أمهم، فلماذا يفقدون ثروتها والنعم التي تركتها وراءها؟ جاء جواب سمير على سؤال الأم المتعجبة المتحيرة.

-سؤال وجيه!! ردت الجدة التي كان قلبها قد رق لمرأى أحفادها.. فاغرورقت عيناها بالدموع وفاض من ثدييها لبنا كالعسل وعسلا كاللبن. أجل هم أولادها وهم أحق الناس بما تركت..

-إذن، نحن متفقان!؟ سأل الصهر الطليق بخبث الثعلب..

-ولماذا نختلف يا بني؟

واكتفى من تلك الزيارة بذلك القدر من التقدم، فقد أحس أن الشوط الذي قطعه كافٍ هذه المرة فلا تحدث صدمة وصد.

-كلمة حق يراد بها باطل، علقت أميرة حالما روت أمها قصة الزيارة. هذا الأخطبوط القذر لم يشبع من لحم فريسته، يريد أن يمد أذرعه، وماصاته إلى هيكلها العظمي نفسه.

كانت أميرة قد اضطرت، منذ غياب أختها، أن تحل محلها بشكل من الأشكال. لقد تركت وراءها ثروة ينبغي أن تبقيها تحت إشرافها. إنه المال، والمال السائب يعلم الناس الحرام، فكيف إن كانوا متعلمين أصلاً، راضعين من أثداء أمهاتهم الحرام؟

المحل واسع كبير مليء ملابس وفساتين، معاطف وتنانير حتى ليبدو أشبه بمحل أزياء في باريس.. مكتب الخدمات السياحية يتوسط أبا رمانة وهو الآخر خلية نحل.. سلوى نشطة لا تتوقف، علاقاتها مع رجال الحل والربط تجعلها على ثقة دائمة من نفسها، ظهرها قوي فلماذا لا تتابع النشاط والعمل؟ وكان على أميرة أن تظل إلى جانبها بشكل ما. الإنسان طماع، نفسه أمارة بالسوء، ومن يدري؟ في البيت، وجدت أميرة أيضاً ثروة قائمة بذاتها من الحلي والذهب، فشاهة التي خرجت من قلب الحرمان والعدم، لم يكن يسعدها كفقوء الحصرم في عين الحرمان والعدم.. وهكذا، لم تكن تفوتها فرصة ولا تمضي مناسبة إلا وتأتي باسوارة من هنا، مخمسة من هناك، عقد ألماس، مرصعة من أحجار كريمة، حتى بدا لأميرة أن خزانة أختها أغنى بالمصوغات الذهبية من خزانة صائغ. كذلك وجدت دفاتر شيكات.. هذا الدفتر حسابها في مصرف سويسري، ذاك في مصرف انكليزي، ذلك في لبنان.. يا إلهي!! كم ربحت إذن من تجارتها تلك؟ كم تملك من أموال؟ "كانت أميرة تتساءل كلما قلبت دفاتر الشيكات بينٍ يديها دون أن تدري ما وراءها من أرصدة.. أرقام الأرصدة بحثت عنها طويلاً لكن دون أن تجد أثراً لها.. وحدها المصارف تعرف ذلك.. إن سألت لن

يجيبوها.. فأرقام الحسابات كلها سرية وليس من حق أحد الاطلاع عليها غير أصحابها.. لكن شاهة مفقودة فكيف تعرف أميرة حساباتها هناك؟

"آه من هذه الحسابات المصرفية!!" قالت لنفسها ذات مرة وهي تشعر بالحسرة بعد أن مرقت في ذهنها فكرة" ماذا إن ضاعت تلك الثروة؟ ماذا إن استولت عليها المصارف؟ ألا تكون شاهة قد قدمت لحمها ودمها، عرقها وتعبها إلى أصحابها اليهود؟ صيارفة العالم الصهاينة؟" تلك المسألة صارت شغلها الشاغل إلى أن خطرت ببالها فكرة:

–ماذا لو قلدت توقيعها وسحبت تلك الأموال؟ سألت عمها مصباح ذات ليلة قبل أن يغلق الصيدلية.

–وماذا إن اكتشفوا ذلك التزوير؟ ألا يودي بك إلى الهاوية؟ وارتجفت أميرة وهي تتصور نفسها مكبلة بالأغلال يسوقها ضابط الانتربول الدولي.

–إذن، ما الحل؟ هل نترك تلك الثروة تضيع من أيدينا؟

–الثروة لا تضيع.. إن لم تظهر صاحبتها لا بد أن يظهر ورثتها فيستردون تلك الثروة، أجابها بنبرة الواثق من أفكاره.

–إذن لا بد من إعلان موتها، تثبيت قيد الوفاة.

–هو ذاك، لكن الأم التي كانت ما تزال تعيش على الأمل لم ترض بإعلان الموت وتقييد الوفاة.. "ربما هي هناك ما تزال على قيد الحياة" واحترم الأب والأخوة تلك الربما، تلك البقية من أمل وأرجئ كل إجراء.

لكن ظهور سمير أوضح، وعلى نحو لا يقبل الجدل، أن ثمة مسائل لا يمكن إرجاؤها.. هو يريد لأولاده أن ينعموا بالثروة التي تركتها أمهم.. وهو يعلم أنها تركت الكثير.

أميرة تعلم أن أختها المفقودة أصبحت فريسة بلا قدرة على الدفاع فكيف تحول بين أذرع أخطبوط وفريسة بلا قدرة على الدفاع؟

يوماً بعد يوم، راح الأخطبوط يظهر أكثر فأكثر، مادا ذراعاً هنا، ذراعاً هناك.. بناته يزرن جدتهن، هو يذهب إلى المحل، هاتف يرن من همام الصغير طالباً خالته أميرة. التقرب غير المباشر بدا تكتيك سمير المفضل.. هو لديه هدف يريد الوصول إليه دون أن يجفل ذلك الهدف أو يفر منه. وذات ليلة بصق البحصة.

–اسمعي.. قال لها وقد جاء إلى المحل، أنا لم أعد أستطيع التحمل، يجب أن نضع حداً للأمر.

–أي أمر؟ قالت أميرة شبه متجاهلة وهي على علم تام بأن التقرب غير المباشر هو تكتيكه المفضل.

–أنت تعلمين جيداً ما هو فلماذا تتجاهلين؟

–سمير، بلا لف ولا دوران، قل ما الذي تريد؟ قالت وقد قررت حسم المسألة..

–أريد تركة أولادي.. قال وقد قرر هو الآخر حسم المسألة..

–وهل تظنني ضد ذلك.. لكن كيف؟

–ها!! أنا أقول لك كيف.. فقط.. دعينا نذهب.. نجلس في مكان هادئ قليلاً!! نتحدث بروية!! نتفاهم!!

وأعجبتها الفكرة..

–نتفاهم!! لم لا نتفاهم؟ ردت وهي تنهض مشيرة إلى عاملات المحل إشارة الوداع.. التفاهم ورقة عمل معقولة.. منذ زمن تود أن تجدها وتخلص من الورطة التي أوقعها فيها غياب أختها.. لقد كان عليها أن تعمل في مؤسسة الصيدلة.. مخابر الأدوية، معمل العقاقير، كما كان عليها أن تدرّس في الجامعة، تذهب إلى صيدليتها، تعاون عمها بعض الأحيان.. أعباء وهموم كثيرة، بل أكثر من قدرتها على التحمل .. أكثر من مرة فكرت أن تتخفف من تلك الأعباء، تسلمها لأخيها، لأبيها، لكن أحداً منهم لم يكن فارغاً لذلك.. بل ذات مرة خطرت ببالها أن تسلم كل شيء لسمير وباحت لأمها بذلك فأجفلت الأم للتو.." هذا المستغل القذر، العابث المقامر، ماذا لو أنفق كل شيء وأبقى الأولاد بلا ثروة ولا رصيد؟" وبدا الجواب مفحما.. هي تعلم أن سمير، المدلل، النرجسي، المغرم بذاته، كان قد تحول مع الزمن إلى ذكر نحل لا عمل له سوى استغلال جهد الآخرين، والعيش على ما يجنون.. المسابح، النوادي، المرابع الليلية، كل ذلك بات عالمه.. الفنانات، الطاولات الخضراء، الشراب والكحول، ذلك كل ما يعنيه. المال الذي ينفقه لم يتعب في كسبه فكيف يتعب في انفاقه؟ كل ما استطاع تحصيله من شاهة كان يبذره هنا وهناك دونما حساب أو تفكير.. فماذا يمنعه من أن يبذر كل ما يحصل عليه من جديد؟

في المقهى الأنيق القريب جلسا.. أراد أن يطلب بيرة فآثرت هي القهوة.. كان بإمكانها أن ترى من خلال لوح البلور الكبير، الذي يشكل جدران المقهى كله، الغادي والصادي وكان بإمكانها أن تطلق العنان لخيالها، يرسم مع الأشكال العابرة للناس صوراً وخيالات.. تسمعه إن شاءت أولاً تسمعه، تراه أو لا تراه.. الأمداء أمامها مفتوحة، وجلبة الأحاديث عالية وهي تأتي من طاولات مزدحمة

بالناس وناس مزدحمين بالهموم، مشحوذين بالعصبية والتوتر إلى درجة تخرج معها الهموم من الأفواه سحائب دخان تملأ فضاء المقهى كله.

كان سمير قد بدأ الحديث بنبرة الحسرة والندم على أخطائه بحق شاهة.. معبراً عن شعوره بالذنب، فلولاه لما حل بها ما حل. لو ظل إلى جانبها، ربما كانت على قيد الحياة الآن..

–لكن، ربما هي على قيد الحياة الآن فعلاً.. ردت أميرة محتجة وهي ترى أنه يريد، عامداً متعمداً تجريدها من تلك الورقة الرابحة التي تملكها..

–بل كلنا يعلم أنها ماتت وانتهى الأمر.. ثلاثة عشر شهراً مرت على فقدانها.. ولا أثر أو علم.. لو كانوا قد اختطفوها من أجل فدية، إذن، لكانوا قد طالبوا بالفدية منذ الأربع والعشرين ساعة الأولى.. لو كانوا..

–حسن، حسن، قاطعته أميرة وهي تشعر بالضيق ونفاد الصبر، ما الذي تريد؟

–لست أنا من يريد.. بل هم أولادها، من لهم حق في تركة أمهم..

–لا بأس.. أنا أعلم أنهم أولادها وأن لهم حقاً في تركة أمهم..
لكن هل هم بحاجة إلى المال؟

–بالتأكيد.. الحياة غالية والأسعار نار تشتعل كل يوم أكثر فأكثر، فماذا تريدين؟ أرى أولادي جياعاً ولا أتكلم؟ عراة وأسكت عن حقهم؟

–حسن، قالت هازة رأسها ضاغطة على أعصابها كيلا تفلت فجأة. هذه المقدمات أحفظها عن ظهر قلب.. هل تريد مبلغاً محدداً كل شهر ريثما تظهر الحقيقة؟..

لم يجب سمير، بل اكتفى بالتبسم تبسم المتفحص لفريسته المطمئن إلى أنها صارت بين يديه..

–أتريد نسبة من أرباح المحل؟ مبلغاً على الحساب!؟ قل لي ماذا تريد..

–أريد ما هو خير من ذلك كله!؟ قال ببريق في العينين وكأنما لمعت الفكرة فجأة في رأسه

–ماذا؟ قل، سمير، كاد صبري ينفد.

–نتزوج..

–ما.. ماذا؟ ردت أميرة متلعثمة وقد صعقتها المفاجأة..

–اسمعي.. أميرة.. رد وقد أحس أنه تسرع في طرح فكرته. قلت لك أكثر من مرة أنني أخطأت بحق شاهة، وأشعر بالذنب كل الذنب أنني حرمت الأولاد

من أمهم. ولا أخفيك أكثر من مرة حاولت أن أصلح ذلك الخطأ، أكفر عن شعوري بالذنب. لكن عبثاً... الآن وقد ذهبت شاهة، رحمها الله، أريد أن أصلح خطأي.. آتي للأولاد بأم.. ومن أجدر بذلك منك؟

-مني أنا؟ ردت السؤال وكأنما نزعت منها المفاجأة كل قدرة على التفكير..

-أجل.. أليس الأقربون أولى بالمعروف؟ أميرة.. أنت خالتهم ولسوف يجدون لديك الرحمة والعطف.. حنان الأم الذي افتقدوه.. فكرة عبقرية.. أميرة.. أليس كذلك؟

ولم تملك أميرة إلا أن تبتسم وقد ذهب هول المفاجأة ضاحكة في سرها من تلك اللفّة الطويلة التي قام بها ذلك الثعلب المراوغ لكي يصل إلى الدجاجة..

-أنت جئت تطلب تركة.. فكيف غيرت؟ ما شأن زواجنا هذا بتركة زوجتك؟ غمغمت أخيراً وهي غير واثقة كثيراً من الاتجاه الذي تريد أن تدفع فيه حديثها.

-ولو!! رد بمرح ظاهر وقد ظن أن السهم أصاب الدريئة، نصبح أنا وأنت واحداً، نشرف معاً على التركة، نستفيد منها، نقف معاً في وجه سلوى.. إي.. سلوى. عاد سمير يؤكد، وقد بدا على محيا أميرة شيء من الاستنكار، هذه المرأة خبيثة، ماكرة، تلتهم كل شيء وبطرق ذكية، لا يعلم إلا الله كم تربح من وراء ظهرك!! كم تلطش!! لكن حين نكون معاً سنعلم.. وسنوقفها عند حدها.. سمير، الأشقر ذو العينين الخضراوين، طويل القامة، عريض المنكبين، ذاك الذي جعل رأس شاهة يفتل ذات يوم، ساهرة الليالي مع فارس الأحلام، ما يزال رغم مرور السنين الرجل الذي يمكن أن يكون فارس أحلام يغري، الكثير من الفتيات، ويدوخ عقولهن. لكن أميرة التي كانت تعلم ما في داخله من بشع وقباحة يبطلان كل ما في ظاهره من جمال وبهاء، يلغيان كل ما في مظهره من فروسية ورجولة. كانت الوحيدة التي لا يستطيع سمير أن يحرك ذرة واحدة من العاطفة في نفسها.. "هذا الرخام الخارجي والسخام الداخلي، أو يظن أنه يخدعني؟" راحت تتساءل وهي تتفحصه من فوق إلى تحت ومن تحت إلى فوق فيما كان هو يفرك يديه فرحاً وقد ظن أن سكوتها إقرار.

-موافقة.. طبعاً.. أميرة.. موافقة، قال وهو يمد يده فوق الطاولة للإمساك بيدها

-اسمع، سمير، خِط بغير هذه المسلة.. ردت عليه أخيراً وهي تسحب يدها بعيداً..

–مـــ.. مـــ.. ما.. ذا؟ أخيط بغير هذه المسلة؟ لم أفهم.. قال متلعثماً فتابعت:

–سأفهمك.. المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، وقد لدغتنا أنت مرة لدغة.. كوبرا فهل نعطيك الفرصة لتلدغنا مرة أخرى؟

–ا.. أ.. نا.. لدغتكم..؟ أنا كوبرا؟

–طبعاً أنت.. لكن ليس هذا وقته.. اصرف النظر عن الأمر.

–أصرف النظر عنه؟ كيف وأنا أريدك؟ أتمناك؟ أحبك؟

–تحبني؟ لا.. لا.. أضحكتني.. سمير.. ومتى كنت تعرف الحب؟

–صدقيني.. أنا.. منذ زمن طويل أفكر فيك..

–دعنا من هذا سمير.. قاطعته أميرة بحزم.. أنا لا أريد أن أتزوج..

–لكنك.. بدأ سمير ثم كف للتو وهو متلجلج يتابع أم يتوقف.

–ماذا؟ قل.. لم توقفت؟

–أنت ...أميرة.. أقصد ...لم تعودي صغيرة.. تجاوزت الثلاثين.. فهل تريدين أن تبقي عانساً مدى العمر؟

–هذا شأني..

–لكني أعرض عليك الزواج وقد صرت كبيرة.. لا أحد يطلب يدها .

–ها.. ها.. إذن أنت تشفق على عنوستي؟ تريد أن تخلصني من بؤسي وتعاستي؟ عقبت أميرة وقد جاءتها السكينة والطمأنينة دفعة واحدة..

–نحن نضرب كذا عصفور بحجر واحد.. صدقيني.. زواجنا سيحل العديد من المشاكل.. الأولاد، التركة، أنا، أنت.. فهيا نضع جبناتك على خبزاتي وننطلق معاً.. فكرة عبقرية.. صدقيني..

–عبقرية جداً.. بالتأكيد.. ألم تتفتق عنها قريحة أمك؟

–لا.. أقسم لك. هي بنت الساعة.. تفتقت عنها قريحتي أنا.

ودون أن تجيب راحت بهدوء تتأمله.. تهم بالكلام المرة تلو المرة. والمرة تلو المرة تتوقف..

–لا تجيبي الآن.. أسرع سمير ينجدها وهو يظن أنها موافقة، لكنها خجلى.. فقط فكري.. عشرين يوماً فكري ثم اعطيني الجواب..

لكن أميرة لم تكن بحاجة للتفكير، لا عشرين يوماً ولا عشرين ثانية، مع ذلك لم تجبه.. يريد الأمر معلقاً؟ حسناً ليكن له ذلك. لقد علمتها الحياة أن الحكمة

خير علاج للحمقى.. نقاش الأبله لا يفعله إلا الأبله، فلماذا لا تلجأ للحكمة والحنكة؟

أمر آخر كان قد بات يقض مضجعها.. العنوسة.. هي تشعر أنها كبرت.. ذات صباح نظرت إلى نفسها في المرآة، فبدا لها وكأنها منذ سنوات لم تر وجهها هناك.. سنوات جرت فيها بسرعة دون أن تتطلع وراءها أو تلتقط أنفاسها. فجأة توقفت، التقطت أنفاسها، حدقت ملياً إلى وجهها.. أجل لقد مرت سنون.. والسنون التي تمر تترك آثارها على الوجه، البشرة، العيون.. فكيف نسيت ذلك؟ اثنان وثلاثون عاماً.. كيف تراها مرت تلك السنون؟ وأين هي من ذلك العمر كله؟ صحيح، هي تحمل دكتوراه، أستاذة، عالمة، ذات مركز رفيع ومقام كبير في المجتمع، لكن أين هي من نفسها؟ هي الأنثى.. هي الأم، هي المرأة. الكثير ممن حولها كانوا قد باتوا ينبهونها، يشيرون إلى تلك الثغرة في حياتها. هي العزباء الوحيدة، العزلاء بلا سلاح.. أتراه الرجل سلاح المرأة؟ بعض الأحيان تحس بحاجتها الماسة للرجل.. في فرنسا حيث المرأة والرجل صنوان متساويان، لم تكن تشعر بمثل تلك الحاجة، لكن هنا، في دمشق تشعر بها كثيراً. في مواقف كثيرة تود لو كان إلى جانبها رجل، إذن ستشعر أنها تحمل معها سيفاً تقاتل به.. عمها مصباح يسد تلك الثغرة بعض الأحيان. في الصيدلية هو كذلك ولا شك.. وطالما هما معاً، هو كذلك، لكنه ليس معها دائماً.. شعور العنوسة والعزلة بات يداهمها من حين إلى حين.. ترى.. أهذا هو السبب الذي بات يدفع الرجال جميعاً لأن يجربوا سهامهم في دريئتها؟ شوكة طلب منها الزواج، لاحقها، ضغط عليها، وبأعجوبة استطاعت أن تراوغه، تماطله، حتى جاء من يقنعه باللاجدوى. لم تكن أميرة تريد مجابهته، خاصة أنه صديق أبيها الحميم، فلماذا تصده صد الإذلال والتحقير؟ أشهراً ظلت تقبل دعواته إلى نادي الذروة، تسهر مع الشلة أحياناً، بل من أجله تلتقي بصدر الدين، أستاذه الجليل ذاته، تسمع آراءه وتوجيهاته كانت تريد أن تقيم بينها وبين شوكة روابط صداقة، تجعله يعود إلى واقعه فيعلم البون الشاسع بينهما ويكف من تلقاء ذاته، لكن عبثاً. هو سادر في غيه، مصمم على هدفه وكان لا بد لها من عون، وكان صدر الدين نفسه ذلك العون. هي تسمعه يتحدث بفرح عن: أمريكا، ضربها للعراق، تحطيمها لجيشه، تدميرها لاقتصاده، تمزيقها لشعبه، عودتها إلى الخليج.. وضع يدها على نفطه، إقامة القواعد العسكرية فيه، استعماراً مباشراً لا يحول ولا يزول.

فرحه يصدمها، مع ذلك كانت تلتزم الصمت مؤثرة أن تعرف ما يفكر به أولئك الناس على أن تقنعهم بالصواب.

ما يفرحه أكثر أن يتكلم عن تفكك الكتلة الاشتراكية، انحلال الاتحاد السوفيتي.. "شيء كالأحلام"، هكذا بدأ ذات ليلة والمريدون حوله في نادي الذروة". "من كان يصدق أن تلك القوة الهائلة التي تقف في وجهنا حاجزاً بغيضاً، تتفكك من تلقاء ذاتها، تنهار دون إطلاق رصاصة.. أوه!! الآن لا كتلة اشتراكية ولا اتحاد سوفيتي.. الكل صار هباء.. لنبقى وحدنا القوة المسيطرة على العالم نأمر وننهى".

"لكن من أنتم؟" عاجلته أميرة بالسؤال، وقد عجزت عن كبح ما في صدرها من غيظ.. لم يجبها الرجل المهيب الـــ وقور للتو، بل تفحصها ملياً ثم أردف" أقول لك من نحن بعد أن أنتهي" ثم تابع حديثه معدداً الانتصارات على الجبهات كافة، تلك الانتصارات التي جعلت العالم وحيد القطب، وحيد القوة، تتيه فيه أميركا هرقلا لا نظير له.

بقية تلك الليلة، أفردها صدر الدين للدكتورة أميرة التي يكن لها كل الإعجاب ويرى أن لها مستقبلاً زاهراً، فقط إن أطاعته وسارت على الدرب الذي يرسمه لها. شوكة حرضها على أن تطيعه وتسير على ذلك الدرب، فبدت، وطوال جلسات لاحقة عدة، حملاً مطيعاً فعلاً أقنع صدر الدين بإبعاد شوكة عنها حيث شكت إليه همها، طالبة إليه إبعاده..

لكن إن ابتعد شوكة هل انتهى الأمر؟ أبو سامي نفسه طامع بها" هه.. لا بد أنك حننت لفرنسا.. ما رأيك أن ترافقيني إلى هناك؟ أنا ذاهب غداً "عرض عليها وهما يرقصان معاً على حلبة النادي ذات ليلة. وحين تبسمت ضاحكة من ذلك العرض، ظن أنها راضية "سنذهب إلى الكوت دازور، "تابع بوشوشة أكثر حميمية، لدي قصر باذخ هناك، سنسهر في أحسن المرابع الليلية، نرى عروض الفن، الستربتيز، الرقص، نلعب، ونربح. هي تعلم أن أبا سامي لاعب مر، يذهب خصيصاً إلى نوادي القمار في أوربا وأمريكا ليلعب ويعود.. يربح!؟ يخسر!؟ لا يهم، المهم أن يلعب. لكن أميرة لم تكن تحب القمار ولا المقامرين وصدته بقدر غير يسير من القسوة جعله يبتعد عنها إلى غير رجعة.

بعد ذاك، بدأ الرأس الكبير في المحافظة عازماً هوالآخر على الادلاء بدلوه، لكأنه دور.. ولكأنها دريئة يجربون بها سهامهم. راح الرجل يدعوها، يتقرب إليها، وكانت العروض هذه المرة مختلفة" اسمعي، لدي يخت، ملكي الخاص، سأكون أنا أو ناسيس وأنت جاكلين كيندي.. فما رأيك بقضاء شهر عسل فيه؟" هي تعلم أن لديه أسطولاً من السفن، لا يختا وحسب، وأن أرصدته في المصارف تنتشر في العالم بدءاً من بيروت وحتى كاليفورنيا في الشاطئ الغربي من الولايات المتحدة." لكن لم يطمع بي أنا! لم صرت هدفا لهم جميعاً؟

دريئة يجربون سهامهم فيها؟" راحت أميرة تتساءل وقد خلا لها الجو للتساؤل. "شوكة كان يريد شهادتي كي يعوض نقصاً.. يحل عقدته.. لكن ما لأبي سامي وعبد الفتاح؟ أهي عقدة النقص ذاتها؟ أهو الطمع بأموالي؟ لكنهم أغنياء.. أموالهم لا تعد ولا تحصى".. ذلك السؤال بات يحيرها.. إلى أن اهتدت ذات ليلة للجواب "عنوستي.. أجل، خلو حياتي من الرجل يغري الرجال جميعاً بي.. يحسبون أنني هدف سهل لاغواءاتهم. عزلاء بلا سلاح.. ضعيفة لا قدرة لها على المقاومة" وحين فكرت أكثر بدا لها أولئك الرجال على حق: نعجة وحيدة في فلاة ، ألا يطمع بها كل ذئب؟ ألا ينقض لافتراسها كل ذي مخلب وناب؟ "العنوسة شيء فظيع" بدأت أميرة تفكر، وكأنما تشعر للمرة الأولى بها "حقاً، كيف أرضى أن أظل عانساً؟" باتت تتساءل، هي التي لم تشعر بتلك المشكلة قط.. قبل أن تسافر...

في فرنسا... وهي تدرس لم يكن ثمة مشكلة.. كانت تحصّل العلم، أمامها أهداف تجري وتجري لتحقيقها، لكن الآن وقد حصلت على كل ما تريد، "ماذا بقي لدي؟" ذلك السؤال راح يتكرر في ذهنها المرة تلو المرة.. الصيدلية تعمل بنجاح كبير.. عمها يريها كل أسبوع المبيعات الكبيرة والأرباح الأكبر، دين أمها أعادته لها وفوقه قبلة. عملها في المخابر يؤتي أكله، أنواعاً شتى من الأدوية باتت المؤسسة تدفع إلى السوق، في الجامعة، هي نجمة علم الأدوية، مثلما كانت فاتن حمامة نجمة السينما "إذن ماذا تريدين الآن؟ ما الذي تسعين لتحقيقه يا أميرة؟" كانت تتساءل هي نفسها فيما تضغط عليها أمها "يا بنتي.. يجب أن تلتفتي إلى نفسك الآن" "يا بنتي أنت تتقدمين في السن، وغداً يأتي يوم يفوتك فيه القطار، حتى طفل يؤنس شيخوختك، بنت تجدد لك شبابك لن تستطيعي الإتيان بهما". "أميرة اسمعي مني "فكري بنفسك، تخلصي من وحدتك، تزوجي وأنجبي أولاداً".

وإذا ما جادلتها عادت تذكرها بعنوستها أكثر "أنت مكشوفة للجميع، بلا رجل يعني بلا سقف طالما أنت عانس.. يطمع بك الطامعون ويتلمظ عليك المتلمظون.. أليس سمير الأدهم مثالاً على ذلك؟" وتشعر أميرة بقلبها يتقلص "لو كنت متزوجة لما فكر بك ذلك الخسيس القذر؟! يظن أنه يسدي لك معروفاً ان تزوجك أنت التي بارت وعنست!!" ويزداد التقلص أكثر فأكثر "العنوسة عبء على كاهلك فانزلي ذلك العبء.. العنوسة عقم وعجز فتخلصي من عقمك وعجزك!!" ويتملكها نوع من الرعب.. "عجز؟ عقم؟؟ لا، كل شيء إلا هذا" وبدا لأميرة أن قراراً ما اتخذ هناك في أعماق أعماقها حيث اللاوعي، ذاك الذي يتحكم بالقدر الأكبر من سلوك الإنسان.

لم تكن تعرف ذلك القرار، لكن ما ان عادت ذات مساء إلى البيت ورأت أمها تتوجع وتتلوى شاكية من ألم في خاصرتها حتى عرفت وجهة ذلك القرار..

-أنت تشكين من كليتيك، قالت الدكتورة الصيدلانية التي درست بعض أعراض الأمراض كي تعرف استخدامات الأدوية.

-أجل.. هنا.. وأشارت إلى خاصرتها من خلف، أنا أتألم كثيراً يا بنتي، شكت الأم التي كانت قد شعرت بالألم من قبل، لكنها كابرت حتى لم يعد باستطاعتها المكابرة.

-إذن آخذ لك موعداً من طبيب أخصائي.. قالت أميرة ثم مضت إلى دليل الهاتف.. إلى اسم بذاته تبحث عن رقمه، وكأن كل شيء كان محسوماً من قبل.. "الدكتور حسان.. الدكتور حسان "راحت تغمغم وهي تقلب صفحات الدليل.. أخيراً وجدته. رفعت السماعة ثم دقت الرقم.

-ألو.. دكتور حسان.. بادرته ما ان سمعت الصوت بشحنته المميزة التي تذكرتها للتو.. أنا أميرة النايفة، هل تتذكرني؟

-الدكتورة أميرة!؟ رد بفرح مفاجئ.. ومن يستطيع نسيانك إن رآك مرة واحدة؟

-شكراً لك دكتور.. هذا اطراء لن أنساه لك!!

-أبداً.. هذا ليس إطراء بل هو الحقيقة.. في طريق عودتي من لندن مررت بباريس خصيصاً، سألت عنك لكنهم قالوا انك أنهيت دراستك وعدت إلى بلدك.. وللأسف، لم أكن قد سألتك عن عنوانك هنا.

وأحست أميرة بدفقة من السعادة تنهمر عليها من عل.. موشية خيالاتها بنمنمات الذهب "هو مهتم بي إذن!! الله!! ما أجمل ما سمعت!!" بدأت تتمتم في سرها لكنها سرعان ما تنبهت إلى أنه كان يتكلم، ولكي لا يلحظ فرط سعادتها، كبحت قليلاً من جموح خيالاتها قاطعة شرودها ثم قالت:

-دكتور، أمي تعاني من كليتها.. أريدك أن تراها..

-على راسي وعيني.. هاتيها في الحال..

-لكن أخشى أن يكون الوقت قد تأخر.. ردت وهي تنظر إلى ساعة الحائط حيث كان العقربان يلتقيان عند التاسعة إلا ربعا..

-تريدين أن آتي إليك؟ قال بشهامة فرسان القرون الوسطى..

-لا.. لا حاجة لأن تزعج نفسك الآن.. يمكنني أن أتدبر الأمر الليلة..

-إذن. أنتظركما في الثامنة صباحاً.. رد الدكتور الذي بدا وكأنه يتعجل

اللقاء..

كانت أميرة تعلم أن الدكتور حسان المشهور لا يعطي مواعيده قبل شهر أو شهرين.. نور حدثتها عن شهرته وعيادته الملأى دائماً بالناس، عن سجل مواعيده الذي لا تلقى فيه شاغراً قبل زمن طويل.. "إذن.. أنا أعني شيئاً له؟ هاتيها في الحال.. آتي إليك.. انتظركما في الثامنة".. أي رجل رائع هو إذن؟ مربي في طريق عودته!؟ سأل عني في فرنسا!؟ لماذا لم أعطه عنواني في دمشق من قبل؟" راحت أميرة تتساءل وهي تعطي دواء مسكناً لأمها يجعلها تتحمل الألم حتى الصباح. "إذن ليس هو وحده من ترك أثراً في نفسك، أنت أيضاً تركت أثراً في نفسه" وبدا القرار وهي ترتمي على فراشها آخر الليل، أكثر وضوحاً "هو ذا الرجل المناسب فلماذا لا تتعرضين له..؟ إنه فارس الأحلام فلماذا لا تحاولين معه تحقيق الأحلام؟ "

في الصباح بدت سعيدة إلى درجة اضطرت أكثر من مرة لأن تكبح نفسها، تكبح تعابير السعادة على وجهها، فالأم تتألم وليس من المعقول أن تفرح الفتاة لوجع أمها، لكنها لم تستطع إلا أن تظهر سعادتها بلقائه.

كانت قد مضت ثلاث سنوات على لقائهما في باريس، وكان كلاهما يشعر أن التقاطع الذي حدث ذات مرة هناك، يعود الآن فيجعل طريقهيما يتقاطعان من جديد، فكيف لا يفرح قلبان يشكوان الوحدة والوحشة؟ كان الرجل قد حدثها في لقاءاتهما السابقة عن نفسه "لقد تزوجت وطلقت.. تجربة مرة كانت.. صحيح أنها تركت أطفالاً وراءها لكنها لم تترك إلا المرارة في نفسي "وبدا لها حينذاك وكأن امرأته عقدته من النساء إلى درجة جعلته ينفر من التفكير في الزواج..

-دكتورة أميرة!! كم أنا سعيد برؤيتك من جديد، بادرها مرحبا..

وكادت تحييه بمثل ما قال، لكن آهات أمها وتوجعاتها جعلتها تشير إليها راجية:

-دكتور!! أمي لم تنم طوال الليل!! أرجوك!! انظر ما لها.

شرع الطبيب ينظر، فاحصاً، مدققاً.. ثم خرج بنتيجة:

-علينا أن نجري لها تحليلاً وفحوصات، تصويرا وتنظيراً.

ثلاثة أيام استغرق التحليل والفحوص، التصوير والتنظير. وثلاثة أيام ظلت أميرة على اتصال بالطبيب النطاسي الذي يتقن اختصاصه جيدا، والذي لم تمض أشهر على عودته من الخارج حيث يرد العطاش موارد العلم لينهلوا من مياهها.

شخّص الطبيب داء الأم ووصف الدواء، فعادت الكلية إلى العمل بعد قصور. مضى الألم وكأنه لم يكن بالأمس، أعربت الأم عن شكرها لذلك الطبيب

البارع الذي أنقذها من براثن الألم وكان على البنت أن تنقل ذلك الشكر.

-لا، لا شكر على واجب.. رد الطبيب ثم تابع شبه مازح، أنا الذي يجب أن أشكر أمك على مرضها فقد أتاحت لي رؤيتك.. "ها هوذا خيط يمده فلماذا لاأمسك به؟" تساءلت أميرة وهي ترى الفرصة سانحة.

-أمي تدعوك إلى الغداء.. فقل ما تشتهي أن تأكل كي تطبخ لك.

-أمك ما تزال بحاجة للراحة.. ولا أريد أن أتعبها بالطبخ والنفخ.

-تعبك راحة دكتور، ردت ممازحة، ستزعل إن لم تلبّ الدعوة..

-أنا ألبي دعوتها لكن ليس الآن.. الآن أنا أدعوك.. إلى الغداء.. العشاء.. فقط أرجوك أن تقبلي. وقبلت أميرة الدعوة.. ثم قبل هو الدعوة..

كان كلا الكائنين، الذكر والأنثى، يعانيان الوحشة، وحدة الذات وعزلتها وكانا يتوقان إلى التوحد والاندماج. كل يوم بات يتصل بها، تتصل به. يزورها، تزوره يلتقيان على غداء في مطعم، عشاء في بيتها.. وبدا لأميرة أنهما يقتربان واحدهما من الآخر بخطا لا رجعة فيها. كانت تريد أن تدرسه عن كثب، أن تعرفه من الداخل.. عمها مصباح حذرها: الزواج أخطر عمل يقوم به الإنسان، فأحسني الاختيار، لا تتركي شيئاً للحظ والمصادفة.. أو عرضت نفسك لذلك الخطر الذي يدعونه الزواج الفاشل.. هو نفسه بدا أنه يدرسها، يريد أن يعرفها من الداخل، فلا يلدغ مرة ثانية من جحر الزواج.. فشله السابق كان قد علمه الحيطة والحذر، فبدا يقترب من هدفه على مهل.. لم يعلن لها عن حبه، لم يعدها بزواجٍ، لم يلوح بشيء.. فقط، كان يريد أن يقيم معها جسوراً.. أن يتعرف إليها جيداً، ومن يدري؟ قد تنتهي تلك الجسور إلى اللقاء.

لكن هناك دائماً من يقف لك بالمرصاد.. هناك دائماً الحواجز، هكذا هي الحياة، وهكذا هم الناس بلاء الناس، فهل تفلت أميرة من قانون القوانين هذا؟

سمير بك الأدهم لم يكن من النوع الذي يفقد الأمل بسهولة. كان قد ألقى الطعم في الماء، وكان ينتظر.. زيارة إلى البيت، هاتف إلى الصيدلية، بصبر ينتظر.. هو لم يعد يريد تركة شاهة وحسب، بل ما هو أكثر. العرض الذي قدمه لأميرة، العانس التي تجاوزت الثانية والثلاثين، كان يظنه أكثر إغراء من أن ترفضه، ها هي ذي تتمهل في الإجابة، تروغ منه.. تتهرب، لا بد أنه دلال الأنثى، أمه أكدت ذلك: "المرأة التي تقبل عرضا من رجل في الحال، تعرض نفسها للمهانة." "كلما تدللت المرأة على الرجل ازدادت قيمة لديه". الدلال سلاح المرأة القاطع، به وحده تجعل الرجل يخضع لها، يسلم لها بما تريد، وما أميرة إلا امرأة تتدلل.." بعدئذ راحت الأم تنفخ قربة ابنها معيدة إليه ما افتقده من

غطرسة وغرور" رجل بطولك وعرضك، بحسبك ونسبك، برجولتك وجمالك.. أتظن امرأة في العالم ترفضه؟ اطلب ابنة جورج بوش نفسها تأتي إليك زاحفة راكعة.." وشال سمير بيك برأسه، مزهواً كما لم يعرف الزهو من قبل. أميرة صفقة ممتازة. هو يعلم أنه سيربح من ورائها الكثير.. أموال شاهة، أموالها هي، أموال أبيها حين يودع، ستكون له كلها، لكن عليه أن ينتظر..

انتظاره ذاك، جعل أميرة تنسى الأمر كله.. هي مشغولة بحسان.. فكرها معه، فكيف تفكر بسمير الأدهم؟ طلبه يدها بدا أشبه بالنكتة.. تركته للزمن، والزمن حلال المشاكل.. طلب السلطان من جحا أن يعلم حماره القراءة والكتابة، وافق جحا وأخذ العربون.. عشر ليرات ذهبا، وحين سألوه: ويحك ماذا فعلت؟ كيف تورطت؟ أجاب جحا ضاحكاً لا عليكم. أخذت مهلة. عشر سنوات.. ألا تحل عشر سنوات المشكلة؟ "كيف" سألوه فأجاب ضاحكاً: "خلالها إما أن يموت الملك أو يموت الحمار أو أموت أنا".

لكن لا سمير بيك الأدهم مات ولا أميرة ماتت.. كان الرجل ينتظر.. رقيقا لطيفاً مجاملاً صار.. بل تشعر أميرة أحياناً أنه يقطر عسلا، جنتلماناً من الطراز الأول تدرب على أيدي أساتذة مهرة في قصر بكنغهام.. يتكلم حسب البروتوكول، يدخل إلى المحل بالبروتوكول، بل حتى زياراته إلى البيت وفق البروتوكول. أم دياب، رضاها مهم.. إن أخذ لها الأولاد، حدثها ولاطفها، قد تصبح إلى جانبه، تكلم أميرة كلمة حلوة لصالحه، إذن لم لا يكون لطيفاً معها؟ جنتلمانا؟ لم لا يأخذ لها الأولاد الذين يؤنسون وحشتها ويدخلون الراحة إلى قلبها.. حبل الود الذي كان قد انقطع يوماً كان عليه أن يصله.. وصلة متينة هذه المرة لا انفصال لها. فالرجل الذي كان فلاحاً فقيراً حقق من الثورة ما كان الخيال نفسه يعجز عن تصوره. آلاف الملايين، كما يقولون، صارت ملك أبي دياب.. أولاده أنفسهم صاروا أثرياء.. دياب.. فهد.. كلاهما أفلح في عالم الثروة والمال.. الأول لديه شركة استثمار. تأجير سيارات أرصدة في البنوك.. وهو في تقدم مطرد وثرواته في ازدياد..

الآخر مليء. بزواجه من دارينا، دخل عوالم جديدة، المال فيها ينهمر كالمطر، الناس كلهم يتكلمون حيث يذهب سمير يسمع الناس يتكلمون عن تلك الأسرة الفقيرة التي طلعت لها ليلة القدر فصعدت كالنيزك في عالم الثراء. إذن لم لا يبذل المستحيل لرأب ما انصدع ووصل ما انقطع؟ هو ينتظر.. الزمن لا يهم.. ما يهم أن ينجح.. أن يضحك أخيراً ومن يضحك أخيراً يضحك كثيرا..

حسبه أنه طلب يدها وحسبه أنها لم تبصق في وجهه للتو. ذلك وحده كان كافيا لأن يجعله يبني قصوراً في الأندلس.." هي بحاجة للتفكير.. إذن، دعها

تفكر سمير "وتركها تفكر.." أنا العانس الوحيدة العزلاء" كانت أميرة تفكر" إذن من حقه أن يجرب سهامه في دريئتي.. ألم يجرب سهامهم رجال آخرون؟ رجال أقل قيمة من سمير، أقل شباباً، جمالاً، حسباً، نسبا منه هو ابن الارستقراطية المتخمة غرورا!! ثم هو الزوج السابق لأخت باتت في عداد الموتى.. إذن هو من الأقربين والأقربون أولى بالمعروف، فلم لا يجرب حظه؟ "كانت أميرة تراه وهو يأتي بالأولاد إلى البيت، تراه وهو يأتي إلى المحل، ترد عليه وهو يطلبها بالهاتف، متجاهلة نظراته، متفادية تساؤلاته. كانت تتحمله بصبر وكلها أمل أن يحل الزمن المشكلة.

-أميرة؟ هل تقبلين بي زوجا؟ وجد الدكتور حسان نفسه أخيراً مدفوعاً دفعاً لأن يسألها، وبدا في ذلك حل للمشكلة. فرحها الشديد، لا حياؤها هو الذي منعها من أن تجيبه، فاطرقت لتبدو أشبه بفتاة صغيرة حيية لم تحصل على دكتوراه، ولم تسافر إلى العالم ولم تعرف شيئاً عن الحياة والرجال.

-إذن، غداً أطلب يدك، قال الطبيب الجراح وهو أشد فرحاً منها. الأم في غاية السعادة وقد طلب الطبيب يد ابنتها، لكن الأب متردد، "لعله طامع في مالنا"، كان يفكر تفحص الرجل طويلاً ثم غمغم طالباً مهلة من الزمن، لكن أميرة التي تعرف جيدا ما تريد، دافعت عما تريد بشجاعة وحماسة جعلتا الأب يوافق. سمع سمير النبأ فصعق.

-إذن كنت تسوفينني، أيتها المخادعة؟ قال محمر الوجه، منتفخ الأوداج وقد دخل إليها المكتب

-احفظ كلامك سمير، أنا لم أعدك بشيء ولم أخدعك.. ردت عليه من وراء مكتبها بكثير من تماسك الأعصاب.

-واستقبالاتك؟ أحاديثك على الهاتف؟ دعواتي إلى بيتك؟

-كنت أدعو أولاد أختي.. ألاطفك من أجلهم. أستقبلك من أجلهم..

-ومن أجلهم ستتزوجينني!! أنا أحق بك منه!!

-زواج بالإكراه، يعني؟

-بل واجب عليك.. من أجل أولاد أختك من واجبك أن تتزوجيني..

-لا.. فهيم.. عبقري.. زواج واجب!! أم صفقة تريد اتمامها!؟

-صفقة.. واجب.. لن تتزوجي سواي..

-سمير.. دعني وشأني.. اخرج من هنا.. لا أريد أن أرى وجهك بعد اليوم.

-إذن.. أريد تركة زوجتي

-اذهب فخذها.. ردت بقليل من الانفعال، هي التي كانت حريصة أن تبقى متماسكة الأعصاب..

-حسن.. الليلة تسلمينني البيت والمحل.

-أسلمك!؟ قالت وقد نهضت بسيما التهديد.. النجوم أقرب إليك..

-النجوم أقرب!؟ سترين إذن أيتها الماكرة المخادعة!! ورمقها بعينين تقدحان شرراً ثم خرج لا يلوي على شيء.

على الغداء روت لأمها ماحدث. فأجفلت الأم:

-هذا وحش.. احذري منه أم نسيت ما فعل بالمسكينة أختك؟ رأت الأم ابنتها مستخفة بالأمر فاتصلت بابنها دياب.

-الوغد!! رد دياب وقد سمع القصة. أيظن أنها مقطوعة من شجرة.. أنا سأريه. وفي المساء، حين اتصلت سلوى بالأم، تخبرها عن صهرها السابق الرابض في المحل منذ ساعتين، يريد أن يعرف الشاردة والواردة وأن يضع يده على الغلة، أسرعت أم دياب إلى ابنها تنقل له الخبر.

بدوره، أسرع دياب إلى الرجل يرافقه رجلان عتلان.. هو، مذ أصبح رجلا مهماً في المجتمع، يملك الثروة والجاه، بات لديه رجال رياضيو الأجسام، مفتولو العضلات، يسيرون إن سار، ويقفون إن وقف.. يسوقون له السيارات وينفذون المهمات.. سلطان يطعمهم خبزه ومن يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه..

خلف الصندوق، كان يجلس سمير باسطاً جناحيه على كل من هناك، ديكا منفوش الريش.

-ماذا تفعل هنا؟ سأله دياب الذي كان هو الآخر يتقن فن نفش الريش من شيلان الرأس ونفخ دخان الغليون من إحدى زاويتي فمه، والنظر شرزا كما يفعل حديث النعمة.

لم يكن سمير بيك الأدهم، الذي ربته أمه على الغنج والدلال حتى تقوقع داخل ذاته ولم يعد باستطاعته أن يرى سواها، قد تنبه إلى الرجلين العتلين اللذين دخلا المحل إثر دياب، ثم اتخذ كل منهما زاوية منه.

-أفعل ما يجب أن أفعله، أجاب سمير بيك الأدهم وهو ينظر من مكانه بازدراء إلى ذلك الحديث النعمة الذي لم يكن يشبع الخبز ثم وجد نفسه غنيا فجأة.. أسترد حق أولادي..

-بالقوة والقسر؟ قال وهو يقترب منه حتى صار بمحاذاته.. لكن فجأة انطلقت صرخة دوى لها المحل: انهض أيها الوقح!! حين يحدثك رجل مثلي تنهض، أتفهم أيها القذر!؟

-أنت القذر!! أنت الوقح!! رد سمير لكن بصوت مرتعش قليلاً، فقد خلخلت الصرخة المدوية مفاصله..

-ويحك!! ترد في وجهي!؟ صاح دياب من جديد وهو ينهال صفعا على الشاب الجميل الأشقر، المغنج المدلل الذي لم يكن يظن أن في العالم من يضربه. هول المفاجأة أخل بتوازنه فترنح يمينا ثم شمالا وحين بدأ باستعادة توازنه، رافعا يده لرد الصفعات، عاجلته لكمات لكن من نوعٍ جديدٍ، لكمات ذكرته للتو بمحمد علي كلاي وهو ينقض على منافسه حانقاً غاضباً: في البطن، في الصدر، الوجه الرأس، بين الفخذين، فوق الكتفين، إلى أن دارت به الدنيا وسقط أرضا.

صياح الزبائن، زعيق العاملات، صراخ سمير واستغاثته، كل ذلك جعل بعض الجوار يطيرون إلى الهاتف طلباً للنجدة، لكن قبل أن تصل النجدة، كان دياب ورجلاه العتلان يسرعون خارجاً وقد تلطخت أيديهم بالدماء، فيما كان الشاب الجميل الأشقر ينبطح أرضاً لا من يده ولا من رجله.

وصل دياب إلى الصيدلية ضاحكاً مقهقهاً ينقل لأخته أميرة ما فعله بسمير..

-مجنون!! تقتل رجلا من أجل بعض المال!؟ صاحت لائمة عاتبة ثم أسرعت إلى الهاتف تتصل بالمحل..

-الرجل يسبح في دمه.. ردت سلوى والفزع يرشح من صوتها، نقلته الشرطة قبل أن يستعيد وعيه. أخشى أن يكون قد مات..

وبدا الفزع على محيا أميرة..

-تبا لك.. الرجل قد يموت.. عادت تقرع أخاها لائمة..

-ماذا؟ يموت!؟ يا إلهي!؟ أنا لم أقل لهم أن يميتوه!! الوحوش!! ماذا أفعل إن مات؟

-اهرب.. الشرطة ستبحث عنك الآن..

وهكذا، قبل أن تسأل الشرطة المجني عليه وقبل أن تكتب المحضر كان دياب قد غادر الحدود السورية إلى بيروت..

-عجيب!! بادره فهد الذي كان ينتظر قدومه، لكن في اليوم التالي، كم أنت

متشوق للسفر إلى ألمانيا إذن!؟ تابع فهد وقد احتضن كل منهما الآخر احتضان الأخوة والمحبة، فالمشكلة التي فرقتهما حيناً من الزمن كانت قد حلت، والمال الذي كان يطالب به الأخ سدد.. وصافي يا لبن!! الشغل يتطلب الاستمرار أو كانت الخسائر أكبر بكثير من نصف مليون دولار.

روى دياب لفهد ما حدث في دمشق فقهقه ضاحكا:

–يستاهل ذلك الكلب.

–وإن مات؟

–كلب وفطس، فمن يحزن عليه!؟

ومضيا إلى الكازينو يكملان السهرة.

كانت بيروت قد استعادت بعض فرحها وأضوائها فالميليشيات حلت، وحرب العصابات انتهت، بل إن الحكومة استطاعت أن تجمع الأسلحة من الناس وترسخ الأمن والطمأنينة في معظم أنحاء لبنان.. هل تعب المحاربون؟ هل يئس المتقاتلون؟ أم أن من وراءهم تعبوا ويئسوا؟ أم تراها المهمة التي تحاربوا من أجلها وتقاتلوا قد انتهت؟ أسئلة كانت تدور في بيروت، جونيه، طرابلس، صيدا. لكن لم يكن باستطاعة أحد أن يجيب.. المناخ الجديد كان يبسط جناحيه على لبنان، مناخ المصالحة والاتفاق.. الطائف كان مبعثه، وبيروت مجراه ومرساه.. هل تلتزم الأطراف كلها بالاتفاق؟ هل سيظل ذلك المناخ سائداً؟ كان دياب يتساءل وهو يعبر شوارع بيروت نصف المظلمة، نصف المضاءة، نصف العامرة، نصف الخربة، وحين جلسوا إلى الطاولة العامرة في الكازينو لم يستطع منع نفسه من سؤال توليب، ملكة الجمال التي كانت على تلك الطاولة
ملكة للعري أيضاً.

–ما رأيك؟ هل سيستمر السلام في لبنان أم تعود الحرب؟

–لا.. لا.. حرب الدمار انتهت.. الآن حرب الإعمار.. وغمزت بعينها، مشيرة إلى أن فرصة جديدة تسنح لكل من يريد استغلالها: الأبنية، الشوارع، القصور، الجسور، الموانئ، المطارات، مرافق البلاد كلها بحاجة إلى الإعمار وهذه هي المعركة الجديدة التي ينبغي خوض معمعتها للخروج بأكبر الغنائم.

دياب معجب بتوليب، بوده لو يصبح عديل أخيه، لكن لتوليب حريتها التي تعيش بها الحياة بالطول والعرض. ارتباطاتها كثيرة، علاقاتها كثيرة.. هي حريصة على تلك الحرية.. ولا تتخلى أبداً عن تلك الارتباطات والعلاقات..

كان يجلس إلى الطاولة أربعة عشر مدعواً: أثرياء، مسؤولين جداً

متعهدين، نساء جميلات، لم يعد هناك صاحب ميليشيا أو وسيط أسلحة، كما كان عليه الأمر قبل سنة فقط، ترى هل سلخت الحية جلدها بهذه السرعة؟ هل غيرت الحرباء لونها مباشرة؟ دياب يشرب، يأكل، يرفع الأنخاب مع الساهرين لكن عقله في مكان آخر.." هل لدارين علاقات كأختها توليب؟ هل يعرف بها فهد ويغض النظر؟" كان دياب يتساءل وهو ينظر إلى الأختين شبه التؤمين، تقهقهان، تشربان، تهامسان جيرانهما، تراقصان الرجال على الحلبة.. فهد غير معني. هو يشرب ويضحك، يقصف ويعربد.. إلى جانبه فتاة بارعة الجمال، أصغر سناً من دارين وأكثر إغراء.. من حين إلى حين كان فهد يميل إليها، يهامسها، يتضاحكان، "هل عاد فهد زير نساء؟" دياب يتساءل وداريناً ترمقهما بنظرات عجلى أحياناً ونظرات شزراء متفحصة أحياناً أخرى. أكثر من امرأة دعت دياب إلى الرقص، لكنه لم يكن في مزاج مناسب. كان يشرب، يأكل، يتحدث وعقله شارد هناك.. في دمشق، حيث الرجل الذي لم يستطع أن يعرف عنه سوى أنه مهدد بالموت. أكسرت جمجمته؟ أأصابه ارتجاج دماغي؟ أفقد النطق أم أصيب بالشلل؟ هو لا يدري وبيروت ما تزال معزولة عن العالم، لا هواتف ولا اتصالات..

"ولماذا التفكير؟ إن كنت سأسافر غدا، فلماذا أفكر أو أهتم؟ "تمتم لنفسه وهو يرتمي على السرير، فيما كانت أشعة الشمس من الشرق ترسم لوحة مغبشة للفجر..

مع أذان العصر المنطلق من مآذن جامع هدمته الحرب نصف تهديم، أفاق دياب، فرك عينيه فوجد أخاه ينظر إليه مليا..

–ماذا حدث لك يا رجل؟ تنام كالقتيل؟ أنسيت أن عليك أن تسافر هذا المساء؟

–هل الشحنة جاهزة؟ سأل دياب أخاه وهو ما يزال يفرك عينيه.

–كل شيء جاهز.. ما عليك إلا أن تركب السيارة وتنطلق..

الحدود اللبنانية اجتازها، السورية عبرها، التركية لم يتوقف فيها لحظة.. فالسيارة الكاديلاك السوداء كانت تبعث الرعب في قلوب رجال الشرطة والجمارك، ينظرون إليها فلا يملكون إلا أن يرهبوا جانب صاحبها.

على الحدود البلغارية، دفع دياب بضع مئات من الدولارات، كذلك الحدود التشيكية، لكن ما ان وصل إلى الحدود الألمانية حتى ارتعش قلبه. كان شطرا ألمانيا قد اتحدا، وكان جدار برلين قد سقط، حجارته توزعت هنا وهناك في أنحاء العالم، وكان ذلك قد جاء إلى الحدود برجال جمارك وأمن لا يرتشون،

حاول أن يدفع لهم، لكن عبثاً. راحوا يفتشون، يدققون، يتفحصون، جاؤوا بأجهزة، بكلاب بوليسية وفؤاده داخل صدره يرتعش.. الشحنة مخبأة جيدا.. هو يعلم، لا تكشفها الأجهزة، لا تكشفها الكلاب البوليسية، مع ذلك كان يرتعش "اثبت دياب.. لا تخف دياب" راح الرجل يشجع نفسه ثم لم يصدق حين جاءت الإشارة بالتحرك.

أسرع إلى مقوده، أشعل المحرك وانطلق.. بسرعة البرق انطلق، وكأنما هو خائف أن يندموا فيعيدوه إلى الفحص والتفتيش.

الأوتوستراد عريض واسع، مستقيم، الأنوار تضيئه فتحيل الليل إلى نهار.. مرزوق وسعد الله ينتظرانه في ميونيخ، "إذن.. أسرع دياب إلى ميونيخ" وضغط على دواسة البنزين ضغطة جعلت الكاديلاك تنطلق بسرعة أغلقت العداد.. عشرات.. مئات الأميال.. ربما ظلت دعسته على دواسة البنزين، فرحا بالخلاص وسرورا بالنجاة.. الأوتوستراد عريض واسع يغري بالطيران.. فليطر.. صحبه بانتظاره.. أجمل حسان ألمانيا بانتظاره.. المتع الرائعة، الأرباح الكثيرة.. كلها بانتظاره.. فلماذا لا يطير؟

فجأة، ظهرت يمين الأوتوستراد سيارة جمارك، ثم حاجز من خشب ينتصب، وإشارة ضوئية تلوح له بالوقوف.." يا للعنة!! تفتيش من جديد؟" وبدلاً من أن يرفع قدمه عن دواسة البنزين.. زاد ضغطه عليها ربما خوفاً، ربما استهتاراً وربما أملاً بأن يرتفع الحاجز من تلقاء نفسه ويهرب رجال الجمارك أنفسهم أمامه.

بسرعة هائلة شبت السيارة، وبقوة كبيرة اندفعت إلى درجة لم تكتف معها بتحطيم الحاجز، بل ارتفعت عالياً حتى بدت وكأنها تطير في السماء.. لحظات، ثم بدأت تترنح ذات اليمين وذات الشمال، ودياب يترنح معها: في عينيه الرعب وفي أذنيه لعلعة الرصاص.

- 13 -

"من أنا"؟ "كان السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهن دياب وهو يفتح عينيه. يرى إلى نفسه فيعجب من نفسه: هو متمدد على سرير في غرفة بيضاء نظيفة،... كتلة من الجبس الأبيض والشاش... يداه، صدره، حوضه، رجلاه، بل حتى جمجمته شاش وضماد، جبس وجبائر" ما الذي حدث لي؟" "ماذا أفعل هنا"؟ أسئلة راحت تترى في جمجمته، فبدت ثقيلة مكبلة بقيود لا يدري كنهها وللتو شعر برعدة في داخله.. من هو..؟ ما اسمه..؟...

ما عمله؟ من أين؟.. إلى أين؟ كلها أسئلة بدت تتخبط في صحراء ذهنه على غير هدى.. حاول أن يحرك يديه، ورجليه، لكن عبثاً.. يداه، رجلاه في جبائر الجبس كل منها مشدودة بحبال معدنية إلى بكرة في أعلى السرير.. وحدهما عيناه بدتا قادرتين على الحركة... جال بهما في الغرفة.. لا أحد.. فقط.. النظافة، الهدوء، الترتيب.. "ماهذا المكان؟ أين أنا؟"، لكن، ذهنه سديم مطبق.. هيولى كتلك التي كانت قبل أن يتشكل الكون.. قبل أن يحدث ذلك الانفجار الأعظم "يا إلهي!! حتى اسمي نسيته!!".. راح يخاطب نفسه بحرقة ولوعة "لم أعد أعرف حتى نفسي!! لكن يجب أن أتذكر!! يجب أن أتذكر !! وجال بعينيه من جديد في الغرفة، أخذ نفساً عميقاً.. هو ذا يتنفس، يرى، "إذن أنا كائن حي... لي اسم وكنية، بلد وأهل... لكن من هم؟.. من أنا؟.."وكادت تطفر الدموع من عينيه، فالهيولى ماتزال ملء جمجمته، لم يتشكل بها شيء بعد..

ملاك أشقر الشعر، أزرق العينين، دخل ساحة رؤيته.. "هل هبط من السماء لمساعدتي؟.. هل انشقت عنه الأرض رحمة بي؟ "راح يتساءل وفي عينيه رجاء شديد أن يقترب ذلك الملاك، أن يخرجه مما فيه من جبس وجبائر.. يحرره من قيود لا يدري متى جاءت أو كيف.. الملاك يقترب...... تلتقي العينان بالعينين ثم ترتسّم ابتسامة واندهاشة على الوجه.. ترطن الشفتان بشيء لا يفهمه دياب، يتمتم دياب بشيء لا يفهمه الملاك،.. لكن في يده شيء اسطواني الشكل في رأسه إبرة تلمع.. ينكب الملاك على مكان ما في الجسم ليس فيه جبائر ويحس دياب بغرزة ألم مفاجئة تبدو وكأنها شرارة انفجارٍ أعظم... انقشع بعدها السديم وتشكلت الهيولى نجوماً وكواكب، شموساً ومجرات... "هذه ممرضة".. كان التشكل الأول. "أنا في المستشفى... مكسر..محطم".. كان التشكل الثاني.. ثم كرت التشكلات ليعود إليه اسمه، لقبه..

عمله، ذكريات طفولته، الحاكورة التي كان يعمل فيا..ليلة القدر التي طلعت لهم..."لكن ما الذي أصابني؟"، ما الذي جاء بي إلى هنا؟"، سأل نفسه أخيراً... وقبس من نور يضيء ساحة وعيه. مع تلك الإضاءة تذكر أضواء الإشارة التي لمحها عن بعد ثم قراره بالمتابعة كيلا يتعرض للتفتيش من جديد. بعد ئذ جاءه صوت الرصاص ثم التأرجح..."، إذن هو الحادث "قال لنفسه: وهو ينقل ناظريه بين الملاك الأبيض وجبائره الجبسية البيضاء....

"لكن هل حطم الحادث جسدي!.. هل فككه مفصلاً مفصلاً ويريد هؤلاء إعادة تركيبه"؟ لم يكن دياب يعرف لغة الملاك ولم يكن باستطاعته الاستفسار، كل ماكان يستطيعه هو أن يراقب وينظر. جمجمته خاوية كطبل كبير، نقرة واحدة وتدوي كما الطبل... لسانه لا يدور في حلقه. أذناه لا تفهمان شيئاً مما يقوله الملاك" "آه!! لو أعرف فقط ما تقول؟ لكنه لم يكن قد سعى يوماً لأن يعرف... كان يجيء إلى ألمانيا، يدور أوروبا كلها، دون أن يكلف نفسه عناء تعلم لغاتها.

.. لديه شركاء، مرافقون، مرتزقة، ببضعة دولارات في اليوم يعملون لديه مترجمين وسماسرة حتى مع الفتيات الشقراوات، فلماذا يكلف نفسه عناء التعلم؟.

لكن، وهو في سريره، يدفع كل مايملك مقابل أن يفهم لغتهم، يتواصل معهم، يكسر ذلك الصمت الخارجي المطبق وذلك الصمت الداخلي القاتل.. غرفته تشع بياضاً وأناقة، لكنه متمدد على السرير مشبوح اليدين، مشبوح الرجلين، "يا إلهي!! أية أصفاد تكبلني! أي حطام صرت!!"...

التواصل الأول تم بالعيون.. فقد بدا شيء من اشفاق في عيني الممرضة الزرقاوين، وهو ينظر إليها من الكوتين الوحيدتين اللتين تركتا لعينيه. رطنت بشيء لم يفهمه، رطن لها بشيء لكنها لم تفهم وذهبت المحاولة أدراج الرياح.

التواصل الثاني كان مع جملة من الأطباء جاؤوا يتفقدونه وكل في اختصاصه. العظمي، الصدري، العصبي.. تمتم أحدهم بشيء، لكن دياب لم يفهم وضاعت المحاولة سدى أيضاً.

في المرة الثالثة كان ضابط تحقيق وكان معه هذه المرة شاب أسود الشعر أسود العينين، لوحت الشمس بشرته فبدت أقرب إلى بشرة دياب واستبشر دياب خيراً، ثم شعر بموجة من الفرح تغمره وهو يسمع كلاماً عربياً يفهمه...

سؤال وجواب ثم سؤال وجواب وعلم دياب كل ماكان يتوق لمعرفته.. كان الحادث قد أصابه بارتجاج دماغي ألقاه في خضم الغيبوبة. خمسة أيام دامت غيبوبته تلك وحين خرج من غمارها تبين للأطباء أنه مصاب بفقدان الذاكرة..

عشرين يوماً أيضاً ظل يفتح عينيه ثم يغمضهما دون أن يحرك شفة أو يعطي إشارة.. سبات كسبات النبات وقد جاءه قرس الشتاء وكانت معظم عظامه قد تكسرت، جل أعضائه قد رضت... لكنهم طوال الخمسة والعشرين يوماً ظلوا يعملون في جسده اصلاحاً وترميماً..". والآن زالت آثار الارتجاج الدماغي وعادت لك ذاكرتك". أنهى الشاب أسود الشعر أسمر البشرة كلامه... والفرحة ماتزال تغمر دياب بموج كموج البحر وهو يصعد إلى رمل الشاطئ يغسله ثم ينسحب..

لكن ما إن شرع الضابط متجهم الوجه بالغ الجد بطرح أسئلته، حتى تمتم دياب في سره "ليته لم يذهب ذلك الارتجاج الدماغي.. ليتني ظللت فاقد الذاكرة".. فقد غاص ذلك الفرح وانسحبت بعيداً أمواجه.

كانوا يعرفون اسمه، بلده، كل مايقدمه. جواز السفر من معلومات. لكنهم كانوا يودون معرفة أشياء أخرى: من أين جاءت الحشيشة؟ الى أين يأخذها؟ من هم شركاؤه؟ عملاؤه؟ مركز شبكته؟ دائرة علاقاته؟ وتلجلج لسانه خوفاً وهلعاً... "إذن، قد أمسكوا بالحشيشة؟" سأل المترجم.. "السيارة التي تحطمت وهي تنقلب كالبهلوان، بطناً لظهر وظهراً لبطن، أفرغت كل مافي أحشائها... فلا فائدة من الإنكار.. قل كل مالديك"، شرح الضابط له، لكن أسئلته ظلت دون أجوبة. دياب يعلم أن من حقه ألا يتكلم بغير محامٍ... لكن المحامي لا يستطيع أن يحجب الشمس بغربال. صحيح أن القانون هناك يحميه من جلد السياط والتعذيب بالكهرباء لينتزعوا الاعترافات منه انتزاعاً لكن الصحيح أيضاً أن المحققين متطورون، لديهم أساليبهم النفسية والعقلية للوصول إلى الحقائق. أياماً وليالي ظل التحقيق لكن في النهاية اعترف دياب بكل شيء.فالضابط المحقق يعرف جيداً كيف يحاصر فريسته، كيف يستجرها إلى الموقع الذي يريد ثم يرمي سهامه..

ذهبت الشرطة إلى مرزوق وسعد الله لكنها لم تجدهما. "لابد أنهما سمعا بالحادث ففرا"، أجاب دياب على سؤال الضابط الذي شكك بأقواله متهماً إياه بتضليل العدالة. "اطلب لي هذا الرقم"، قال للمحقق الذي أمسك له السماعة واقترب من أذنه كي يسمع مايدور من حديث. بيت مرزوق خال، هاتف سعد الله لا يجيب... وتذكر المنجي سعيد التونسي الذي كان على صلة حميمة بالمرادي. طلب رقم الهاتف. هذه المرة رد المهندس بلهجته التونسية العذبة: "منذ أيام لم أرَ مرزوق...صديقته تقول انه سافر خارج ألمانيا.. لكن ماذا عنك أنت؟"، ولم يسمح المحقق لدياب بالإجابة على السؤال. للمحققين عقولهم العجيبة، لا تدري كيف تفكر تماماً.. لعله الحذر، المكر الخبيث، هذه كلها تجتمع

لمحاصرة فرائسهم والإيقاع بها. بعد ذاك أحس دياب بالضعف" لقد تخلوا عني.. أنا الآن وحيد في الساح "ولكي يكسر طوق وحدته ويقهر ضعفه.. فكر بأهله.. "هم وحدهم ملاذي وقوتي، فلماذا لا أطلبهم؟".. هم أن يعطيهم عنوان فهد في بيروت، لكنه تراجع آخر لحظة.. إن شكوا لحظة واحدة في علاقته بالحشيش ذهب في داهية.. وأعطاهم عنوان الأهل في دمشق.

سمعت أم دياب بالخبر فصعقت: قلبها توقف عن الخفقان، دمها تجمد في عروقها، أنفاسها هربت من صدرها، بعدئذٍ جاءت الولولة والعويل. "دياب ميت!؟.. لا أصدق إلا أنه ميت!! حادث سيارة رهيب!! آه!! من ينجو من حادث رهيب؟"..

في أول طائرة رحل الأب إلى ألمانيا. ثم لحقت به الأم والأخت. وقعت عينا الأم عليه، وهو كتلة من الجبس واللفائف، فبكت كما لم تبك من قبل لكن أبا دياب لم يبكِ.. كان الغضب يفور في صدره، والغيظ يخنقه.. "لماذا فعلت ذلك؟ ما الذي ينقصك؟.. مئات الملايين تحت تصرفك... شركة استثمارات، سيارات، محلات، ترى ماحاجتك لتهريب المخدرات؟.. ماحاجتك لمثل هذه التجارة؟" لكن ما نفع العذل وقد سبقه السيف؟..

سبعة أشهر ظل دياب في المستشفى، يرمم ويعالج، يصلح هنا ويضبط هناك إلى أن وقف على رجليه لكن بعكازتين، فالحوض الذي تهشم كان أضعف من أن يحمل الجسد والرجلان اللتان تكسرتا في أكثر من موضع كانتا أعجز من أن تحملا الأثقال وحدهما.. مع ذلك فرحت أم دياب وزغردت وهي تراه ينتقل من أول الغرفة إلى آخرها.. لكنها انكتمت حزناً وألماً وهي تراهم يسوقونه إلى السجن.. ثم وجمت وجوم الموت حين جاء موعد المحاكمة.. وما إن صدر الحكم بحبسه عشرين سنة حتى فغرت أميرة فاها ليس للحكم الذي صدر بحق أخيها بل للولولة التي أطلقتها أمها على حين غرة، ولولة لم تسمع محكمة في ألمانيا بمثلها من قبل. "حقاً!! عجيبةهي الأم!؟" ظلت أميرة تردد في نفسها حتى وهي في طائرة العودة إلى الوطن. "عظيم حبها، حتى ليعجز عن مضاهاته أي حب!! أهي تحبه لأنه موجود فقط؟ ألأنه ابنها وحسب؟ تشعربه فلذة من كبدها فلا تستطيع أن تتحمل أذى يصيبه أو مكروهاً يلحق به، لا تستطيع إلا أن تحبه حباً مطلقاً لا شائبة فيه.

أميرة حزينة على أخيها حزن أمها لكنها غاضبة عليه غضب أبيها. عقلها يتدخل فيغلب عاطفتها، رجل يتاجر بالسموم، يحمل أفتك الأوبئة لأخيه الإنسان.. هناك في أوروبا.. هنا في وطنه فكم هومجرم وكم هو بحاجة للقصاص!!"...

كانت أميرة، طوال فترة المعالجة تشد من أزره، تذهب إلى ألمانيا وتجيء، تزوره لكن هل كان باستطاعة الأم أن تفارقه؟.. لقد غدت ظله في المستشفى، تؤنس وحدته، تجفف أحزانه، وحين نقل إلى السجن، ظلت تذهب إليه كلما سمحوا لها بزيارته. لم تكن تريد شيئاً سوى أن تظل إلى جانب ابنها المحطم المهشم، تطبخ له، تصلي له، تدعو له... لكنها كانت تذوب ذلك الذوبان الذي بدأته إثر اختفاء شاهة... شحماً على نار كانت تذوب ويوماً تلو الآخر، حتى إذا ما عادت إلى دمشق كانت قد فقدت نصف وزنها الآخر ومضى ذلك الجرم من الشحم واللحم الذي كان يدعى أم دياب.

– أماه!! شهقت أميرة وهي تنظر إليها، ولا تصدق، بسنة واحدة خسرت كل ماكسبته بثلاثين سنة!! فكيف حدث هذا!؟..

– إنه الزمن يابنتي.. يأخذ منك مايعطيك... فلا يبقى لك في النهاية إلا التراب...

– لا لا أريد أن تتشاءمي هكذا؟ قالت وهي تجلس إلى جنبها، حاملة لها فنجان قهوة..

– وماذا ظل غير التشاؤم؟ لقد خسرت كل شيء، أميرة. زوجي ضاع مني، ابنتي فقدتها، ابني رهين الحبس.. والحبل على الجرار..

– ماذا؟ سنضيع نحن أيضاً؟ سألت أميرة وقد تسرب شيء من خوف إلى نفسها؟

– هذا ما أشعر به أميرة.. صدقيني. مذ بدأ أبوك طريقه الأعوج ذاك، علمت أنه سيأتي يوم نخسر فيه كل شيء...

– أعلم.. لطالما سمعتك تقولين ذلك..

– والآن تقولين إنني ذبت؟ لم أبق سوى جلد وعظم؟... هذا ما سيحدث لنا في كل شيء.. أم أنك لم تسمعي قصة ذلك الثعلب؟..

– أي ثعلب؟ سألت أميرة بشيء من تعجب، فبدأت أم دياب وهي تتنهد:

– يحكى أن ثعلباً جائعاً دخل كرم عنب من ثغرة صغيرة في سياج.. هناك وجد العناقيد وافرة والخير كثيراً.. أياماً وليالي ظل يأكل ويسمن، يأكل ويسمن حتى إذا ما أتخم وسئم العنب جاء إلى الثغرة كي يخرج، لكنه وجدها أضيق بكثير من أن تسمح له بالخروج. حاول القفز على السياج لكن السياج كان عالياً، حاول أن يجد مخرجاً لكنه لم يجد.. فقبع في الكرم حزيناً يذبل ويذوي إلى أن فقد كل ماجناه من الكرم وعاد أهزل مما كان... حينذاك فقط سمحت له الثغرة بالخروج.

– أنت على حق... ردت أميرة وهي تلوح برأسها ذات اليمين وذات الشمال، أعلم أن الثروة ضيعتنا، جرت علينا الويل، خاصة أنت، لم ينلك من الشهد إلا لسع النحل.. مع ذلك... تفاءلي.. فلكي نعيش يا أماه لابد لنا من بعض التفاؤل، بعض الأمل. وأحاطت بذراعها كتف الأم، وفي عينيها بريق توسل ورجاء.

– آه!!.. أجل.. أنت على حق.. لكي نعيش لابد لنا من بعض التفاؤل، بعض الأمل، وأنت أملي أميرة.. وحدك أملي يابنتي!!!

– إذن احمدي ربك واشكريه حتى لا يضيع هو الآخر. لا تيئسي.... نحن بحاجة لك أماه!؟..

–آه!! من يحتاج قلباً محطماً وكياناً ممزقاً!؟ لا.. أميرة لم يعد أحد بحاجة إلي، ولم يعد لي سوى البكاء والدموع..

– إذن، لن تفرحي لابنتك في عرسها؟

– ستقيمين عرساً؟ سألت الأم وفي عينيها لمعة لوم.

–لا.. ماهذا قصدت..لكننا سنتزوج.. أنا وحسان.. ثم توقفت وكأنما يمنعها الحياء...

– مسكينة!! هذه المصيبة أخرت زواجك.. لكن لابأس.. أسرعي الآن بالزواج فلا تضيعيه من يدك.

– يعني.. أنت لا تمانعين؟..

– أمانع؟ بالعكس.. لولا مصائبي هذه لأقمت لك أحسن عرس.. ولكنت أسعد أم في الوجود... أنت ابنتي وحبيبتي، أنت أغلى مالدي في هذا العالم..

أميرة تعلم أنها حبيبة أمها وأنها أغلى مالديها في هذا العالم، بل ربما كان ذلك هو السبب الذي جعلها تؤجل زواجها من حسان المرة تلو المرة. كان الطبيب الجراح قد ألبسها خاتم الخطبة في حفل عائلي ضيق الدائرة وكان على وشك تحديد موعد الزفاف حين حدث لدياب ماحدث وانشغلت الأسرة به ثم غابت الأم، فكيف تقيم أميرة عرساً أو تتم زواجاً؟

حسان كان يرى أن بالإمكان الزواج دون عرس ولم العرس أصلاً؟ عادات بالية وتقاليد عتيقة مهترئة فلماذا نتمسك بها؟ الناس في عصر السرعة، عصر الهمبرغر والكوكا كولا، وكل ما يقضي لك حاجتك دون تكلف أو تعقيد، وطالما الظروف غير مواتية، إذن لم لا أضع يدي بيدك ونذهب إلى قاضي الشرع وصلى الله وبارك؟"، قال لها ذات مرة وقد عادت لتوها من ألمانيا. أميرة ليس لديها مانع، بل بودها أن تفعل كل شيء على طريقة "رب يسر ولا تعسر"، لكن

أباها اعترض، أخاها فهد لم يوافق، أمها من ألمانيا راحت تولول "هل أنت مطلقة؟ أرملة؟ مقطوعة من شجرة حتى تذهبي بهذه الطريقة...لا... لا... أريد أن أفرح بك فانتظري حتى يلتم شمل العائلة...".

كانت خطبتها لحسان قد قطعت قول كل خطيب. لم تعد العانس المستهدفة من كل رجل. شوكة الداهوك، الرأس الكبير في المحافظة، أبو سامي، بل حتى سمير بيك الأدهم كان قد قطع كل أمل. "التأديبية" التي عملها له دياب كانت قد فعلت فعلها.ورغم أنه أبدى شماتته بحادث دياب وأعلن أمام العديد من الناس أن ذلك كان عقاباً له على ما فعل به وقصاصاً من عند الله، إلا أنّه لم يعد يفكر أفكاره القديمة تلك. لم يعد يحلم بالاستحواذ على كل شيء، وحين جلس مع أبي دياب وفهد، استطاعا بسهولة تسوية أمر التركة، ونقل ملكيتها لأبنائه، وليس له، شريطة أن تظل أميرة هي الوصية. ذلك أرضى أميرة كل الارضاء. جعلها تشعر أن أبناء أختها في أمان، وأن الأموال التي جمعتها شاهة، تعبت وشقيت في كسبها لن تذهب إلى من كانت تكرههم أشد الكراهية.

كانت أميرة حريصة كل الحرص على أن تولي رعايتها لأولئك الأطفال، رغم أنها لم تكن تملك الكثير من الوقت. فعملها في المؤسسة، ضرورة تواجدها في الصيدلية كانا يشغلان حيزاً كبيراً من وقتها لكن عمها مصباح كثيراً ماكان يدفعها دفعاً للخروج مع خطيبها والتفريج عن نفسها.. "لا تثقلي كاهلك بالأعباء، عيشي حياتك فالزمن يمضي يمضي يمضي ."كان العم مصباح لا يفتأ يكرر لها، وهو يراها خجلى من أن تعبر عن نفسها، تعيش شبابها كما ينبغي للشبان أن يعيشوا.. "الحياة هي الشباب. فلا تضيعي شبابك"..وكانت أميرة تصغي إليه معجبة بذلك العقل المتفتح المتقدم الذي تجاوز الكثير من عقد الشرق، أمراض التخلف ورواسب الجهل. كانت كثيراً ما تسأله وتناقشه فهو معين لا ينضب من أفكار رائعة تود أن تتلقفها تلقفاً." كثيراً ما سمعتهم ينادون بوضع الرجل المناسب في المكان المناسب لكن قلما سمعتهم ينادون بتنفيذ العمل المناسب في الوقت المناسب هكذا قال لها ذات مرة دافعاً بها للزواج باعتباره العمل المناسب في الوقت المناسب.. مع ذلك لم تستطع.. في مرة أخرى قال لها:"أولئك الذين ينفذون سياسة آخر لحظة فيستيقظون آخر لحظة ويعملون آخر لحظة وينتبهون آخر لحظة غالباً ما يسقطون في الهاوية آخر لحظة." وكانت أميرة تضحك متسائلة"، من أين يأتي بأفكاره تلك؟ كان تردي الحال يشغله كثيراً ويحزنه كثيراً، وكان غالباً مايردد: "حان موعد قيام الساعة". فتسأله أميرة: "لماذا؟" ماهي علائم ذلك؟"، فيقول: قديماً قالوا:"حين تلد العبدة سيدتها وترى الحفاة العراة ورعاة الشاة يتطاولون في البنيان ويُرفع العلم ويظهر الجهل ويسود كل

قبيلة منافقوها ويلي الأمر غير أهله فانتظر الساعة". كان عمها مصباح يرصد التغير الاجتماعي الخطير وهو يحدث أمام عينيه، تنقلب مفاهيم وتتغير مفاهيم، تختفي قيم وتظهر قيم، تهزل طبقات وتسمن طبقات، فلا يملك إلا أن يضحك وتدرك أميرة أنه ضحك البكاء، تصوري: حديثو النعمة الذين لا يعرفون مبدأ في الحياة غير جمع المال، ولا قيمة من القيم سوى تكديس الذهب والفضة، هم الذين يسرحون ويمرحون الآن، بلا موروث من ثقافة ولا صقل من حضارة ولا أساس من تربية، فكيف لا يعيثون فساداً في الأرض؟ وحين سألته تفسيراً أعمق قال:"لممارسة الفضيلة يحتاج الإنسان إلى الصبر لكنه لممارسة الرذيلة يحتاج إلى الوقاحة ولديهم منها الكثير"..

كان عمها مصباح غزير الثقافة ضالعاً في الآداب مثلما هو ضالع في العلوم يحلل ويركب، لكن أكثر ما كان يمتعها من حديثه نظرته إلى الحياة والروح. "ما الحياة إلا دورة من دورات الطبيعة، نمر بها لنعود إلى التراب، ثم ننتقل إلى دورة أخرى نتحول فيها إلى نبات أو حيوان..."كيف؟"... سألته أميرة:"يتحلل جسم الإنسان في التراب إلىعناصر ومعادن، تمتصها جذور النبات من جديد ثم يأتي حيوان، يأكلها فتتحول تلك العناصر إلى خلايا وعظام، وجلد وشعر"، هو شكل من أشكال التقمص إذن؟" لا... لا... التقمص يعني وجود الروح، "فما الذي يحرك الأجسام إذن؟".. هي تلك الحرارة التي تنتج عن عملية الاحتراق في الجسم، تلك الطاقة الكهرطيسية التي تتوالد عنها. ذلك أن المواد التي تدخل خلايا الجسم تتفاعل وفق معادلات كيماوية محددة، والناتج هو طاقة وحرارة تتحول إلى حركة وحياة... ألا يجري ذلك في القطار حين يحترق الفحم، لتتحول الحرارة إلى حركة للدواليب وحياة للقطار؟ ألا يحدث في المصباح، المكواة، الغسالة، العنفة، حين تأتيها الطاقة الكهربائية فتتحول إلى روح وحركة وحياة..؟"

أميرة لا تشبع من عمها مصباح وأفكاره، لكنه هو بات يشبع منها، يريدها أن لا تضيع وقتها مع عجوز يبيع الأدوية في الصيدلية، بل أن تذهب إلى خطيبها تستمتع بوقتها معه، تعيش لحظات العمر الجميل التي لا يعيشها الإنسان مرتين. "الحياة؟ جميلة، لكن أجمل ما فيها أيام الشباب والحب"..رأيه ذاك شجعها أن تسأله "ما الحب؟".. "إنه الجواب الوحيد المقنع على مشكلة الوجود الإنساني". "كيف" "الأساطير تقول إن الإنسان كان كلاً واحداً ثم انشطر نصفين: ذكراً وأنثى، لهذا لا يمكن للإنسان أن يعيش إلا إذا وجد نصفه الثاني، ولهذا تجدين الإنسان دائماً يبحث عن ذلك النصف..... تواقاً لملاقاته، للاتحاد معه... الحب، بالحقيقة هو ذلك التوق للاتحاد... والاتحاد هو مبعث كل متعة وسعادة...".

ذلك التفسير أفرحها كثيراً.. فقد أحست أنها للمرة الأولى تحل لغزاً كان مستعصياً على فهمها.

كانت قد قرأت من قبل فرويد ونظريته في الجنس، لكن تلك النظرية لم تكن ترضيها "كل شيء مبعثه الليبيدو" ."المشكلة هي الشحنة الجنسية التي لابد من تفريغها"، هي تفهم الآن أن الجنس هو مجرد تجلٍ من تجليات ذلك التوق الإنساني للتوحد مع النصف الآخر، وليس العكس، وانَّ السعادة الجنسية ليست إلا نتاج الحب نفسه وليس العكس، علاقتها مع حسان أكبر دليل على ذلك.. سنة أو أكثر وهما يلتقيان، يخرجان يتنزهان، يأتيها إلى بيتها، تذهب إلى بيته، وهما يعيشان سعادة ذلك التوق، سعادة ذلك الاتحاد دون أن يمارسا الجنس. "كيف؟" هو ذا السر. فالحب الذي نشأ على مهل وترسخ على مهل بات يبعث في نفسها الطمأنينة. يبث في قلبها الراحة والدفء. إن تره عيناها تغمرها السعادة، إن تلمس يدها يده تحس بالنشوة، إن يضمها وتضمه غاية النشوة والسعادة. كانت أميرة قد عرفت الحب من قبل، حبها لمأمون كان قد استغرقها سنين وسنين لكنه كان حباً من طرف واحد ولم يكن هناك توق متبادل للاتحاد... مع حسان تشعر أن كل شيء متبادل، أحاسيسه الدافقة، عواطفه الجياشة، كلها تحس بها حرارة في اليدين، بريقاً في العينين، توهجا في الوجنتين ودفئاً في الهمسات التي تشنف أذنها كلما سكب فيها شيئاً. "آه!! هو ذا الحب الجميل الذي تحدث عنه الشعراء، هو ذا الذي شغل البشر مذ كان هناك بشراً!! فكيف غاب عني حتى اليوم؟ "كانت أميرة تتساءل أحياناً وهي تستعيد في ذهنها مواقف مع حسان ملأت نفسها نشوة وسعادة. لكنها كانت تعلم أيضاً أن الحب لا يأتي هكذا بين كل رجل وامراة. "لا.. لابد أن هناك أنصافاً متكاملة لا يتم الحب إلا بلقائها.. بعضها مع البعض الآخر. أهي الذبذبات الكهرطيسية المتوافقة؟ أهي الموجات الحرارية، الإشعاعية؟ من يدري؟ ما تدريه أن المرأة قد تمضي عمرها بحثاً عن نصفها فلا تجده.

حسان هو النصف الحقيقي الذي كانت تنتظره أميرة. هو أطول منها بقليل. أكثر امتلاء منها بقليل، أسمر البشرة، يتحول في الصيف إلى شديد السمرة، فحبه للسباحة كان يجعله يرتاد المسابح كلما سنحت له الفرصة. أحياناً يأخذها معه، وفي المسبح: تمتع عينيها بجسده الممتلئ رجولة والمشع سمرة كأنه معجون بالحنطة. أحياناً يبقيان طوال الظهر، يسبحان، يلعبان، يشربان الكوكا كولا، ويدخنان.... لم تكن أميرة قد دخنت من قبل، لكن حبه للسيجار الهافاني، ورائحة ذلك السيجار الجميلة جعلاها تقبل سيجاراً من ذاك النوع المعسل المعطر الذي صنع خصيصاً للسيدات.. كانا يدخنان ويضحكان.. الحياة جميلة

هكذا:.. سباحة، تدخين، شرب بيرة، مزاح، مداعبة، ويلقي المرء بهمومه كلها جانباً...

أميرة تشعر أن من حقها أن تلقي همومها جانباً، لقد جدت ودأبت طويلاً، حصّلت ونجحت فلماذا لا تمرح الآن قليلاً؟ لماذا لا تلهو والحياة تصعب كل يوم أكثر، تزداد هموماً ومشاكل أكثر؟.. ومن يعلم؟ قد يأتي يوم لا تستطيع فيه أن تمرح وتلهو..

نروح ونغدو كل يوم وليلة..... وعما قليل لا نروح ولا نغدو

ذات يوم أنهيا السباحة ثم مضيا إلى المطعم، تناولا وجبة سريعة، أوصلها بسيارته إلى البيت وحين همت بالنزول أحست أنها تترك قلبها وراءها. "لم لا تنزل نشرب القهوة؟.."سألته فأجاب فعلاً لا قولاً، وكأنما كان بانتظار تلك الدعوة.

البيت قفر نفر، صاحبته في ألمانيا، خادمتها الفلبينية تمل الفراغ والوحدة فتذهب هنا، هناك، تملأ فراغها وتقضي على وحدتها. بسرعة أعدت القهوة، لكن حين صبتها في الفناجين شعرت بيديها ترتعشان، فتعجبت. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ينفردان بها.. بل كثيراً ماكانا ينفردان، في المكتب، العيادة، بل حتى بيته حين لا يكون هناك أولاده، مع ذلك قلما شعرت بتلك الرعشة، فلماذا هذه المرة؟...

الجواب جاءها مع يده وهي تمتد إليها، تجذبها إلى حضنه... ثم قبلة طويلة، شعرت معها أميرة أنها تذوب."يا إلهي!! أهو ذا انصهار الحواجز، الذوبان الذي تتحد معه العناصر جميعاً؟".. كان الجو حاراً، وكان جسداهما يشعان لهباً كلهب آب. مع ذلك أحست أميرة بشوق أشد لأن تهصره، يهصرها فلا يعودان جسدين بل جسداً واحداً، لا روحين بل روحاً واحدة، أهذا هو التوق الأزلي لقهر الانفصال؟.. أهذه هي رغبة النصف الذي انشطر للاندماج من جديد بنصفه الآخر؟ ربما. أميرة تتحرق لظى. من داخل، من خارج، كلها لظى... فجأة حملها بين ذراعيه وشفتاها ماتزالان بين شفتيه... هي مغمضة العينين، مسترخية الأعصاب، حتى ليخيل إليها أنها لا تريد شيئاً كالاستلقاء على السرير والغرق في بحيرة الحب... في المخدع تجد راحة الاستلقاء، فستانها صيفي خفيف، أزرار خمسة تمسك به على جسدها. يلامس ظهرها الفراش الطري فينحسر الفستان أكثر، لكن من يبالي؟ يداها تشدانه إليها، يداه تشدانها إليه، فيما تنزلق شفتاه إلى عنقها، "آه!! ياالقبلات العنق الحارة!!" تنزلقان إلى النهدين فيما تسرع اليدان تفكان الأزرار... أميرة تذوب أكثر فأكثر وهو يرضع، يتلمّس، يستلقي فوقها فتحس بدفء رجولته في كل خلية من خلاياها،

وتحس أكثر بلهب هناك في مكان ما من أحشائها، لهب لا يطفئه إلا اللهب.. ظمأ شديد يريد الارتواء، تشنجات هائلة ترفع بها وتنخفض تريد من يزيلها، "آه!!.. لماذا لاتزيلها يا حسان؟" تسأله في سرها عاتبة لكنه لا يسمع السؤال ويستمر مداعباً مقبلاً، فارس حسان، يصول ويجول، وأميرة تزداد تحرقاً واشتعالاً، تشعر بالنار في أحشائها، فلماذا لا يعطيها الماء الذي يطفئ النار؟ الحب عطاء.. فلماذا لا يعطيها حسان؟ القبل لا تكفي، هي بحاجة للاتحاد المطلق، أبوابها كلها مشرعة له فلماذا لايدخلها؟ لماذا لا يسعى لذلك الاتحاد المطلق؟

"ساقاي جميلتان؟ أليس كذلك؟ سألته ويداها تدفع برأسه نحو الأسفل، عله ينظر، عله يرى مواطن الاحتراق، دخان الاحتراق، فيعمل على إطفائها.

نظر إلى الأسفل، مد يده، داعب الساقين، "أجل، جميلتان، بل أجمل ساقين رأيتهما في حياتي"، قال: وهو يتلمس الساقين ثم الفخذين حيث كان الفستان قد انشمر "آه!! باللمسة الرائعة!! باللدفء الإلهي!! قالت في نفسها وكلها شوق لأن يصعد إلى أعلى فأعلى... لكنه لم يصعد، أنامله توقفت هناك حائرة مترددة، "لا.. تابع...تابع"، كادت تقول له، لكن شفتيها لم تنفرجا"، هو يعلم أنني عذراء، حافظت على عذريتي حتى في باريس"، راحت أميرة تقول في سرها وهي تبحث عن تفسير. أكثر من مرة أكدت له، "أريد أن أحافظ على عذريتي"، "عذريتي مقدسة..."، هكذا انغرس في ذهنها. وهكذا غرست في ذهنه، فهل ينسى مافي ذهنه؟ "كانت أميرة تتساءل وهي تتمنى للمرة الأولى في حياتها أن ينسى، أن يحطم ذلك الحاجز الذي مايزال يفصل بينهما... رغبة لا تطاق تدفعها لأن تلتحم به أكثر، تمص شفتيه أكثر، تحرك ساقيها بحركات انفتاح وانغلاق. تمعج وتموج أعادا الحياة إلى أنامله المتوقفة. حركة باتجاه الزر الأسفل، فكته، ثم الثاني فغدا الفستان مفتوحاً على مصراعيه، وغدا بطنها مكشوفاً أمام عينيه، مغرياً حتى الجنون. قطعة القماش المثلثية كانت ماتزال رابضة في مكانها، ينزعها فتغدو أمامه حواء بلا ورقة توت... اللهب المستعر في داخله جعله يمضي بشفتيه إلى بطنها، يلثم، يعض، وهي تتموج، تموج أفعى ملؤها الرغبة، ملؤها اللهب."أخيراً سيزول كل حاجز"، لكن ما إن مد يده إلى قطعة القماش المثلثية حتى أحست بتشنج هائل، تشنج مفاجئ جعل جسدها كله يتوتر ثم ينتفض، ينضغط ثم يندفع نابضاً تحرر من ثقل مفاجئ. بحركة مفاجئة أزاحته جانباً، بحركة مفاجئة هبت جالسة، وكأن أفعى لدغتها. "مابك؟ ماذا جرى؟"... سألها كالمذهول وقد توقف كل شيء: تلفازاً انقطع تياره الكهربائي....

منذئذ باتت أميرة حريصة كل الحرص ألا تصل في لقائها مع حسان إلى

النقطة الحرجة تلك. لقد أدركت أن الحاجزالنفسي الذي صنعته تربيتها الشرقية أقوى بكثير من كل شهوة، لكن حاجتها لحسان ملحة ورغبتها فيه تقض مضجعها، فتأرق في الليل، تتقلب على الفراش، وطيف حسان لايفارقها أبداً. "الزواج هو الحل"، وكانت عودة الأم منطلق ذلك الحل.

أبو دياب أراد أن يقيم لهاعرساً في الشيراتون، يليق بابنة الثري الكبير، لكن الأم الحزينة، التي لم تستطع نسيان ابنها في السجن، أميرة وعريسها، اللذين كانا يكرهان الأعراس، بل حتى فهد، الذي لم يستطع المشاركة فيما بعد، كلهم أقنعوه بالزواج على الطريقة العصرية: حفل منزلي صغير، ركب بعدها العروسان السيارة ومضيا إلى بلودان.

الأب متعب قليلاً، شارد قليلاً، رغم كل مابذل من محاولات في الحفل الصغير الذي أقاموه كي يبتسم ويضحك،إلا أنّه لم يستطع الابتسام والضحك. أم دياب ترى ذلك وهي تجلس في الطرف الآخر من المائدة باذلة كل جهد كيلا تنظر إليه هو الذي باعها بأبخس الأثمان. لم تكن عيناه قد رأتها مذ التقيا عند ابنهما في مستشفى ميونيخ. من زاويته البعيدة كان أبو دياب ينظر إليها، ولا يملك إلا أن يتعجب: أين ذهبت شحومها ولحومها؟ أيعقل أنه الغم والهم؟...

في الماضي، كانت بدانة زوجته أحد المنغصات الرئيسة في حياته..... أبو دياب يشعر معها بالدونية: هو النحيل ضعيف الجسم الأميل للقصر وهي السمينة رجراجة الكفل الأميل للطول فيبدو إلى جانبها الطرف الخاسر دائماً. صحيح أنه سمن بعد ذلك، ازداد بدانة وكبر كرشاً لكن الصحيح أيضاً أنه بات يلتقي بحسناوات دمشق، الرشيقات النحيلات، فتعاف نفسه أم دياب ويسعى المرة تلو المرة، لأولئك الحسناوات الرشيقات، والمرة تلو المرة يتورط في الزواج.

نساء أبي دياب الأربع جهات العالم الأربع، كل منهن نقيض الأخرى، وكل منهن عالم من المتطلبات: غادة الشقراء ذات العينين الخضراوين أنجبت له طفلة ثم توقفت. ولماذا الأولاد؟ كانت تجيبه كلما سألها:"فتاة أجد نفسي فيها، أستمر من خلالها، وكفى الله المؤمنين شر القتال". لكن أبا دياب غني، أمواله لا تأكلها النيران، والأولاد عزوة وزينة..."، تريد أن أحبل وألد، كي يتشوه جسمي وتشغلني عنك؟.. لا...لا... دع نساءك الأخريات يفعلن ذلك. "لكن نساءه الأخريات أشد عداء منها للإنجاب". مها السمراء اللاهبة تذهب إلى ملعب التنس، تسبح، تذهب إلى المدلك، كي يحافظ على رشاقة جسدها ويبقى تناسقه وجماله. نوال البيضاء صغيرة الحجم، حاولت أول مرة فجاءته بابنة "سبعة" ومع المخاض نزفت نزفاً زرع في قلبها الرعب، فأقسمت ألا تقاربه مرة ثانية. سوزان لغز محير لأبي دياب فهي التي تزوجت ثلاث مرات من قبل، لم تكن

ذات ولد. سألها فبررت ذلك بأسباب داخ لها رأس أبي دياب". لكن معي لا أسباب ولا موانع... أريدك أن تلدي لي دزينة من الأطفال". قال لها. وهما مايزالان في شهر العسل، لكن بعدئذٍ مرت أشهر وسنون وسوزان لم تحمل ولم تلد. "أهي عاقر؟" كان يتساءل في سره"، أم أنها نزعة العصر الحديث: اهتمام المرأة بجسدها وجسدها فقط؟. "سوزان لعوب بارعة، لا تراه عينها إلا وفي رأسها مشروع أو اقتراح يكلفه الكثير من المال. جشعها للمال لا يحد، أساليبها جديدة لا تتكرر، تحصل على المليون فتتلمظ على المليونين، تكسب المليونين فتطمح للخمسة، ماكرة داهية بل حجة في الابتزاز، ولكي يتجنب ابتزازها بات أبو دياب يغيب عن بيتها....

..... في الأسبوعين، الثلاثة، يذهب مرة إلى سوزان وأدركت المرأة الحاذقة البارعة أن اللعبة انكشفت وأنها إن أرادت الاستمرار عليها أن تلعب على المكشوف: "اسمع" قالت له ذات ليلة بعد أن استنزفته في الفراش" ما تقدمه لي من مصروف شهري لا يكفي... أريدك أن تزيده لي"، لكنك تأخذين مائتي ألف ليرة كل شهر". "وما المائتا ألف! الآن؟ أريد مليوناً كل شهر..."..."مليون!؟ معقول؟"، "لم لا وأنا زوجة أغنى أغنياء دمشق؟"، لكن أغنى الأغنياء كان قد شعر بالغثيان وهو يراها تستغل لحظة صفاء لابتزازه فأبى واستكبر، ثم بدأ ملاسنة ارتفعت فيها الأصوات عالياً وكال كل منهما للآخر رامياً إياه بأقذع السباب والشتائم إلى درجة غضب كل منهما من الآخر، ورمى عليه يمين الطلاق.

كان قد مضى على ذلك عشرون يوماً، ومنذ عشرين يوماً لم يرها ولم يسمع صوتها. كان قد صمم أن يدع الأمر سراً، امرأة طلقها لماذا يحدث الناس عنها؟، "سيشمتون....أم دياب بالتأكيد ستشمت فلأكتم السر.. هي نفسها لن تتكلم... إذن عبء ونزل عن ظهرك"...

أبو دياب منذ سنوات ثلاث بات يحس بالعبء. فالمرأة التي تتزوجها ليست كتلة من حجر تضعها في الزاوية، فلا تحتاج إلى شيء ولا تطالبك بشيء، بل هي كائن حي له مشاكله وهمومه، حاجاته ومتطلباته، ومها، السمراء اللاهبة، أكثر تلك الكائنات حاجات ومتطلبات.. لا على صعيد المال فحسب بل على صعيد الفراش أيضاً. هي امرأة من نار وهو في الستينات، ماذا يفعل لها؟ كيف يلبي حاجاتها؟ وتضغط عليه مها. المرة تلو المرة، تضغط عليه، تحرجه، تتحداه، والمرة تلو المرة يحاول، بدافع من رجولة، بدافع من كرامة، لكن مها لا تنفع معها رجولة شيخ هدمته النساء والمتطلبات. الشباب وحده ينفع معها وشبابه كان قد ولى... ذهب إلى الطبيب، رأى أكثر من صاحب صيدلية،

وصفوا له أدوية تدعم رجولته لكن ذلك كله لم يجد نفعاً. بات أبو دياب ينهزم على فراش مها، وأصعب هزائم الرجال هزائمهم على الفراش. وهكذا بات يخشى الذهاب إليها، يود من قلبه أن يهرب منها، ثلاث مرات جاء دورها في الأيام الأخيرة، وثلاث مرات تذرع بالسفر، ادعى الانشغال في مكان ما خارج المدينة، لكن الليلة دورها، ومامن حجة لديه للغياب. هي تعلم أنه موجود. الليلة زفاف ابنته فأين المفر؟..

امتطى أبو دياب سيارته المرسيدس البيضاء وأطلق لها العنان... سارحاً في الشوارع على غير هدى. كان زفاف أميرة، غياب دياب وشاهة، نحول أم دياب، الحزن على محياها، الانكسار في عينيها، اعتذار فهد عن المشاركة، كل ذلك قد شوش ذهنه، إلى درجة لم يعد معها واثقاً ان كان باستطاعته أن يفرح.

خبط عشواء ضرب في شوارع أبي رمانة، الصالحية، المزرعة، ليجد نفسه يدور من جديد باتجاه الروضة فالمالكي... "هاهي ذي سيارة شوكة... دعني أره إذن" قال لنفسه:"وهو يركن سيارته جانباً، متدحرجاً بكرشه الذي ازداد ضخامة أخيراً دون أن يعرف السبب..

– أبا دياب !! هتف شوكة فاغر الفم جاحظ العينين وهو يرفع عينيه عن أوراق أمامه، لكن سرعان مامضت يداه إلى الأوراق تلمها على عجل وكيفما اتفق حائراً مضطرباً.

– هه!! مالك شوكة؟ رد أبو دياب متسائلاً تساؤل المستغرب.

–لا... لا شيء.. فقط فاجأتني، أليس الليلة عرس ابنتك؟

– هو ليس عرساً كما تعلم.. قال وهو يجلس على أقرب كرسي فيماكان صاحبه قد سيطر على اضطرابه وحيرته، مسرعاً إلى الصندوق الحديدي يحشر فيه أوراقه. حفلة عائلية صغيرة فقط ثم ذهب العروسان إلى المصيف...

– خسارة!!... أميرة تقضي شهر عسلها هنا في المصيف وبغير عرس!!.. قال وهو يلوح برأسه. لو قبلت بي زوجاً لأقمت لها عرساً، ولا عرس الأميرة ديانا،

– شوكة، أنت كبير عليها، أم نسيت فارق السن.... لكن شوكة قاطعه مكشراً تكشيرة صفراء وبنبرة الهجوم والسخرية:

– أنت تتحدث عن فارق السن؟ عن الكبير والصغير؟ كيف إذن تزوجت ابنة الستة عشر؟

وأفحم أبو دياب... المتعب، المهزوم، الحزين، المطلق ابن الستينات الذي كانت تتحكم به عقدة اللوليتا.... "لكن ماله شوكة على غير عادته؟" تساءل أبو

دياب متحيراً، وهو يرقب شريكه يقفل الصندوق ويعود إلى طاولته. على محياه مسحة من غضب حلت شيئاً فشيئاً محل الحيرة والاضطراب. تفحصه أبودياب أكثر فوجده عصبي المزاج، قلقاً لا تستقر أصابعه في مكان.... في عينيه بريق حقد وعدوان...

– شوكة... لم تجبني؟... قل لي مالك؟ أنت لا تعجبني هذه الأيام... لكن الهاتف الذي رن أوقف أبا دياب عن المتابعة ومنع شوكة من الإجابة. بنبرة الهمس بدأ شوكة وكأنما ينوي أن لا يسمعه شريكه.

لم يستطع أبو دياب منع نفسه من التساؤل مرة أخرى "لماذا؟"، فليس بين الشريكين سر... أعمالهما كلها مشتركة. إذن لم الهمس؟"، وعاد أبو دياب إلى الوراء قليلاً.... منذ أشهر... تسعة... عشرة... بدأ شوكة يتغير... لم يعد يحب أن يقترب منه أحد. باتت له جلساته الخاصة، انزواءاته الخاصة، سهراته الخاصة وبدا كأن حاجزاً جديداً ينتصب بين الصديقين. في البداية فسر أبو دياب الأمر بأنه نتيجة خذلان أميرة له واختيارها ذلك الطبيب الجراح. فقال في سره: "إن هي إلا زوبعة في فنجان... أيام ويعود شوكة إلى حميميته وعفويته". لكن الأيام مرت وشوكة يبتعد... الحاجز بينهما يرتفع...

بل باتت تمضي أيام أحياناً لا يلتقيان فيها، وإذا التقيا فعلى عجل... الحسابات التي كانت تجري بينهما كل رأس شهر باتت تؤجل... "أنا مشغول اليوم" يحتج شوكة. "المحاسب في إجازة الليلة"، ويسوّف شوكة ويسوّف إلى أن يمر الشهران والثلاثة، وحين يجري الحساب يشعر أبو دياب أن هناك اضطراباً مايجعله غير مطمئن... يسأل شوكة.. لكن هذا لا يطمئنه. روغانه، لفه، دورانه، كل ذلك يجعله أكثر قلقاً وبلبلة...

– شوكة، ماذا كنت تعمل حتى هذا الوقت؟ ماتلك الأوراق؟

– مجرد سندات وكشوف حسابات.... رد شوكة وهو يتصنع اللا مبالاة، أموال مودعين...

– بالمناسبة، هناك بعض المودعين يشتكون من تأخير فوائدهم..

– لا تصدقهم، كل مودع يأخذ فوائد أمواله رأس كل شهر... بعضهم يضيف الفوائد إلى الحساب ولا يأخذ شيئاً... يستثمر المزيد من المال... ونحن نشجع على ذلك كما تعلم...

– رأيي.. شوكة.. أن لا نشجع على المزيد من الاستثمار.. المبلغ صار كبيراً... تسعة آلاف... عشرة آلف مليون... أرقام فلكية أخشى أن تضيعنا أبا عمرو...

-لا... لا... رد شوكة متضاحكاً، لا تخشَ شيئاً. أبو عمرو هنا.. آه!!... تصدق؟ أحلم أن يودع الناس لدي مائة مليار ونسبح نحن في بحار من الذهب.. أتسمع... بحار من الذهب.

- لكن هذا على حساب النادي... شركة الاستثمارات الزراعية... التعهدات... المشاريع الأخرى يا صديقي...

- مشاريعنا كلها بكفة ومشروع الاستثمار بكفة، ألم أقل لك من قبل: أرباحه خيالية ستوصل ثروتنا إلى المربع الرابع والستين في الشطرنج؟..

- أرباح!؟.. شطرنج؟! ماذا تقول؟! بل أين هي الأرباح إن كنت تأخذ الأموال من الناس دون أن تستطيع توظيفها؟...

لم تفتح مصنعاً حتى الآن، لم تعقد صفقة تجارية، لم تستثمر مالاً في زراعة، أين الربح بربك؟ الربح هم الذين يأخذونه: ثماني عشرة بالمائة كل شهر!! أبا عمرو.. صدقني أنا خائف... خائف أن يأتي يوم يطالبنا الناس بودائعهم نفسها فلا نجد ماندفعه لهم...

-لا تخف.. بل ضع يديك ورجليك في ماء بارد. وطالما أنا هنا، اطمئن، ألم أرفعك إلى أعلى عليين؟ ألم أكن أنا وراء ثروتك الطائلة هذه؟...

- أنا... لا.. أنكر. قال أبو دياب بشيء من ضيق بات يحس به كلما ذكّره بأصل ثروته وكأنما هي منة.

- إذن.. لا عليك.. من دهنه أسقيّ له.. هذه سياستي وهي سياسة ناجحة، والدليل على ذلك أن سيل المودعين مازال يتدفق. الناس كلهم يريدون أن يشغلوا أموالهم لدينا أم تراك لا ترى طوابير الناس كل يوم؟...

- أراه.. أراه.. لكن كما قلت، جاءتني عدة شكاوى في الأيام الأخيرة، والحسابات لم نجرها كعادتنا، كل شهرين و...

- إي أبا دياب..قاطعه بنزق مفاجئ... ولم العجلة؟.. اطمئن قلت لك... اطمئن...

ثم حمل حقيبته اليدوية وخرج مسرعاً. نبرة شوكة، نزقه، ثم خروجه السريع، كلها زادت في بلبال سيف الدين النايفة وقلقه". هذه كلها ليست من سلوك أبي عمرو، صديق العمر، فما الذي غيّره ياترى؟".. راح أبو دياب يردد السؤال، وهو يقود سيارته إلى البيت. هو يستطيع أن يتأخر عن الذهاب لكن إلى متى؟ الساعة الحادية عشرة والنصف، وقواه مهدودة، يريد أي فراش يلقي بجسده عليه فيريحه من تعب النهار، يغمض عينيه فيريحه من هموم الدنيا ومشاغل المال... "ياللمال!!" راح يناجي نفسه، "سفرجلة لذيذة الطعم، لكن كل

عضة بغصة... المال يوفر لك أسباب الرفاه والبذخ، يقضي لك ماتشاء من حاجات، لكن يحرمك من الراحة، ينتزع من نفسك الطمأنينة، يثقل عليك بالأعباء والهموم، آه منك أيها المال، يا أبا الأعباء والهموم!!".. مع آهته انتصب أمام عينيه قامة مها الفارعة وبشرتها السمراء اللاهبة بكل عريها ولهيبها، فبلع ريقه. هي متطلبة، بل كثيرة التطلب ولسوف تواجهه اللحظة بالمداعبات والغزل وهو أبعد مايكون عن المداعبات والغزل. مع ذلك لا بد مما ليس منه بد.

أوقف السيارة في المرآب، ألقى نظرة على المرآب الآخر... إنه مقفل. إذن سيارة مها في داخله، مشى متثاقل الخطا إلى الباب. فتحه، الظلمة في كل مكان. نائمة؟ أيعقل أن تنام الآن؟ مها طائر ليلي.. يحب السهر، التلفزيون، المحطات العالمية الكثيرة بكل مافيها من أفلام جنس ومسلسلات اغراء، تتابعها مها حتى مطلع الفجر، مما يجعلها في حالة هيجان دائم... أشعل أبو دياب الثريا فشعشعت كالشمس ذهباً وماساً، وغرق المنزل في بحيرة أنوار وألوان. سكينة البيت جعلت قلبه يخفق خفقاً سريعاً.. شعور من فرح تسلل إلى صدره فأفعمه.... إن كانت نائمة فلماذا لا أنسل انسلالاً فلا أوقظها، وأنجو من براثنها؟، "تساءل وهو يمشي على رؤوس أصابعه. أطفأ الثريا من مفتاحها الآخر ثم انسل إلى غرفة النوم.. غرفة النوم مظلمة..."لتظل مظلمة".. هو يعرف كيف ينزع ثيابه بلا ضوء، يلبس منامته أو لا يلبسها سواء، ثم ينسل إلى جانب امرأته في الفراش، على مهل وبكل هدوء ثم يسلم أجفانه لنوم سريع...

فعل أبو دياب ذلك، غير أن الهدوء العجيب والسكينة المطلقة جعلاه يمد يده إلى جانب الفراش يتلمسه، لكن لا أحد. مدها إلى طرف السرير أيضاً لاأحد... "الله!! مها ليست هنا.. ليست نائمة". ووثب عن السرير أدار مفتاح الضوء فصدمه خواء الغرفة وهو ينعب في وجهه كالبوم...

"لعلها نائمة في غرفة الجلوس، "فكر وهو يسرع بالخروج إلى هناك، بعدئذٍ مضى إلى الغرف الأخرى باحثاً مفتشاً، لكن لا أثر. وبهت أبو دياب...دقائق... وقف متسمراً فاغر الفم تأكل قلبه الحيرة والخوف.. قبل أن يأكله الظن والشك. "أين هي؟ أهناك رجل آخر؟ أهي تخدعني؟ "أسرع إلى الهاتف... صديقاتها، أهلها، معارفها كلهم يعرفون أبو دياب، وبدأ الهاتف يطلق نداء الاستغاثة "مها عندك؟"، "رأيت مها الليلية"، "هل اتصلت بك مها؟"، "هل تعرفين أخبارها؟" "راح يسأل. لكن الجميع يفاجؤون... منتصف ليل ورنين هاتف وسؤال زوج عن زوجته، كل ذلك كان أكثر من مقلق.. لكنه مضطر وللضرورة أحكام...

في اليوم التالي فقط، رأى سلوى فهمست في أذنه جواب تساؤلاته كلها:

- مها سافرت إلى بيروت..

- كيف؟ مع من؟

- مع رجل... أظنه عشيقها... قالت بعد كثير من التردد...

- عشـــ... ـيـــ...قـــــــ... مـــــ...مـــــ..ماذا؟ كرر وقد عاوده عيه البغيض.

- إي.. أبا دياب.. الماء يجري تحت رجليك وأنت لا تدري... منذ أشهر وأنا أراها معه... يلتقيان، يخرجان، يشتري لها الهدايا.... والبارحة، قال لي أحد أصحابنا، هناك على الحدود، إنه رآها مع صاحبها إياه مسافرين إلى بيروت...

-الغادرة!! الخائنة!! انفجر أبو دياب وقد احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ثم بدأ يدور على نفسه ثوراً هائجاً يريد من ينطحه.. سأذبحها من الوريد إلى الوريد.؟... بالسكين سأقطع رأسها. "ثم خرج، الزبد ملء شدقيه، وليس في ذهنه سوى أن يلحق بها إلى بيروت.. لكن ما إن وصل إلى المكتب ورأى الموظفين، الحجاب، الناس الذين جاؤوا بأموالهم كي يودعوها عنده حتى انطفأت النار المشتعلة في صدره... التحيات، الانحناءات، مهابة الناس له، انزياحهم السريع أمامه، وهو يدخل المكتب كالعاصفة، كل ذلك جعل العاصفة تثبط وأعصابه تسترخي. "بيروت كبيرة فأين تبحث عنها هناك؟"، راح يحدث نفسه وهو يشرب القهوة وينفث دخان السيجار منكباً على طاولته، "تريد أن تفضح نفسك!؟.. لا..لا... دعها بالقلب تجرح ولاتخرج فتفضح".

ولمعت في ذهنه فكرة:"دع فهداً يبحث عنها.. أجل.. فهد، هي ذي الفكرة العبقرية، ولا تدع أحداً يعرف سرك.. لا تدع حتى شوكة يعرف فيشمت بك"...

في الليل فقط وجد ابنه بعد أن ضاع النهار كله سدى. باقتضاب وكثير من المواربة سأله عن مها. هل رآها في بيروت؟ هل اتصلت به؟ ثم دخل لب الموضوع..

- أريدك أن تبحث لي عنها.. لقد تركت البيت ومضت بلا علم ولا خبر.. لم يستطع فهد إلا بالكاد أن يكتم ضحكه". لم يعد الطائر يطيق القفص حتى ولو كان من ذهب".. لكن صوت أبيه الملعلع من دمشق أعاده إلى الهاتف.

- اسمع.. بكل سرية وتكتم ابحث لي عنها، لا تدع أحداً يعرف شيئاً عن الأمر...

لكن المسألة بالنسبة إلى فهد لم تكن مسألة سرية أو تكتم، بل هي مسألة استغرب واستنكار.

رجل في الستينات يستحوذ على أربع نساء ويحبسهن في الأقفاص، ولا يحاولن الإفلات؟"، هو من تجربته يعلم أن الرجل لا يلبي حاجات امرأة واحدة إلا بالكاد، فكيف يلبي حاجات أربع؟. من تجربته يعلم أن المرأة التي يخفق زوجها في إشباع حاجاتها لابد من أن يأتي يوم تبحث فيه عن رجلٍ آخر يشبع لها تلك الحاجات، تلك سنة الطبيعة، ومن يملك لسنة الطبيعة تبديلاً؟..

لكن.. فهد رجل مهذب تعلم منذ الصغر أن يحترم أباه، يطيعه ويخفض له جناح الذل فكيف يناقشه في مسألة خاصة كهذه؟ وهكذا، قال لأبيه إنه سيبذل المستحيل لإيجاد مها وإنه حين يعود إلىدمشق سيحمل له الخبر اليقين. لكن ما إن أطبق فهد السماعة حتى نسي الأمر كله... "أأنا مجنون؟ أأجلب العار لنفسي بنفسي؟ من أسأل عن مها وكيف أسأل؟.. "الأمر مبتوت به، ثم هو مشغول. بعد ساعة فقط عليه أن يلتقي في الضاحية الجنوبية بمندوب حزب مسلح مازال يقاتل إسرائيل. هو يريد كاتيوشا، قذائف آر بي جي، بواريد كلاشينكوف... صفقة كبيرة، ربما سيعود منها بمليونين أو ثلاثة ملايين دولار.. وفي غد عليه أن يلتقي بمندوب آخر.. هناك في البقاع، حيث حزب كردستاني يدرب أنصاره ويقاتل تركيا... هو الآخر.. يريد أسلحة، وصفقة كبيرة أخرى لا تقل عائداتها عن تلك. هو وحده. هذه المرة لن يشاركه أحد في الأرباح... بأي ثمن سيعقد الصفقتين وسيبقي كل شيء سرياً... هو يتكفل بكل شيء.. يأتي لهم بالأسلحة من مصانعها في شرقي أوروبا فيحولون المال لحسابه في غربيها.

دارينا لن تعرف شيئاً عن الصفقتين، كذلك توليب، ولماذا تعرفان؟ لا، لا، الأفضل أن يعمل المرء لحسابه الخاص.. فالأرباح إن قسمت على اثنين صارت أضأل مرتين، أما إن قسمت على ثلاثة فإنها ستصير أضأل بثلاث مرات..

صحيح أن الأختين هما اللتان أدخلتاه هذا العالم، حيث الذهب والماس، المخدرات والأسلحة، لكن الصحيح أيضاً أن الجدي لا يظل جدياً، بل يأتي يوم يتحول فيه إلى تيس يقارع الخصوم. هو يشعر أنه صار تيساً وبإمكانه أن يقارع وحيداً فريداً. سيما وأنهما غائبتان... منذ عشرة أيام سافرتا... لم تدعواه هذه المرة للذهاب معهما، بل لم تطلعاه على الغاية من سفرهما ذاك. دارينا وتوليب توءمان سياميان لا ينفصلان، حاول أكثر من مرة أن يفصل زوجته عن أختها، أن ينفرد بزوجته شأن الأزواج في أنحاء الدنيا كلها، لكن مغناطيس توليب كان دائماً هو الأقوى، يجذب حديد دارينا إليه فلا يستطيع الانفكاك عنه. لو اتخذت توليب زوجاً لها، ربما كان باستطاعته تحقيق هذه الغاية، لكن توليب مصدومة...

مقتل زوجها أمام عينيها برصاص الإسرائيليين جعلها تنفر من كل ارتباط.

كانت توليب تحبه، بل كانت تهيم به حتى العبادة. أحلاماً بنت على ذلك الزواج. قصوراً شيدت في الأندلس، لكن زخة رصاص واحدة، انصبت على أبي الهمة أودت بتلك الأحلام وهدمت تلك القصور كلها...

بعد ذاك، آلت على نفسها ألا تحب وألا تهيم... هي بحاجة من الرجل للجنس، وللجنس فقط، إذن لم لا تقضي تلك الحاجة بلا ارتباط أو التزام؟ فرويد قال إن حاجة الأنثى للذكر حاجة تفريغ للشحنة، تخفف من توتر مؤلم يسببه الشوق للآخر، فلم لا تخفف من ذلك التوتر، ولم لا تروي ذلك الشوق من أي رجل يتاح لها؟..

وهكذا، كما تعيش المرأة السويدية العازبة عاشت توليب وكما تفعل فعلت. لم تكن تخجل من التعبير عن رغبتها في رجل يعجبها، ولم تكن تتردد في مبادرته أو قبول دعوته حين يعجبها. بل لم تكن تستحيي من تقبيله والارتماء في أحضانه، تتأبط ذراعه، وتسوقه إلى غرفة النوم أمامه وأمام أختها:

– سلوك حر مفتوح وقناعة مطلقة بأن على الإنسان أن يفعل مايهوى وكما يهوى. كانت توليب في مطلع شبابها قد قرأت جان بول سارتر، سيمون دي بوفور، الوجودية العبثية، لكنها أحبت أبا الهمة حبها عتم على ذلك الجانب من شخصيتها، بعد ذاك ذهب سبب التعتيم، فظهرت توليب طائراً لا يطيق الأقفاص، بل لا يهنأ له عيش إن لم ينتقل من غصن إلى غصن...

دارينا نسخة طبق الأصل عنها. فهد واثق من ذلك، فالتوءمان السياميان ينهلان الماء نفسه، ويتغذيان الغذاء نفسه، لكن كما كانت توليب ذات يوم متعلقة بأبي الهمة، متيمة به، كذلك دارينا اليوم، متعلقة به، حتى درجة التملك. توليب تسخرمنها أحياناً، لكن دارينا تردها على عقبيها بسخرية أشد مرارة وأدهى، هي التي كانت تعلم كل شيء عن ذلك الحب الكبير الذي جعل من ملكة الجمال ذات يوم جارية عند قدمي أبي الهمة.

المنقذ الوحيد كان البيزنس. وحاولت توليب إغراق أختها بالعمل، السفر، الصفقات، علها تخفف من غلواء الحب وشدة التعلق. ذات يوم صارحته توليب، "لا تدعها تتعلق بك كثيراً... تخنقك بقبضتيها "وبدت له الفكرة مثيرة للإعجاب". حقاً!! لماذا كل ذلك التعلق؟.. ستحكم قبضتها حول عنقي وتظل تشد وتشد إلى أن أختنق".

منذ ذلك الحين، قرر أن يترك هامشاً بينه وبين دارينا، أن يجد بديلاً.. يمكن أن يشغله قليلاً عنها. السفر مبرر لذلك. يسافر بمفرده، هي تسافر بمفردها، مع توليب، ويبقى فهد وحيداً أياماً وليالي، فلماذا لا يكون لديه

البديل؟..

هذه المرة الأختان مسافرتان إلى صقلية، مهمة شبه سرية آثرتا أن تحيطاها بالكتمان.. ولم يحنق فهد، فلديه في لبنان مهمات هو الآخر، يمكن أيضاً أن يحيطها بالكتمان ويكسب منها الملايين، كسباً لا يقسم على اثنين أو ثلاثة. هما هناك في عاصمة صقلية... حيث عصابات المافيا.. لكن ما شأنه؟ هو حريص أن يتظاهر باللامبالاة وإن ساورته الشكوك أبعدها في الحال، "فالبيزنس بيزنس"، علاوة على أنه بات يشعر بشيء من الملل، بشيء من حب التغيير... كانت قد مرت أكثر من أربع سنوات على زواجهما، دون أن تفكر دارينا بحمل أو إنجاب.."أشوه جمالي؟ أصبح كالبرميل؟ ازداد سمنة وبدانة؟ لا...لا.."وكانت توليب محرضاً رئيسياً على ذلك. هو لا يحب الأطفال كثيراً، لكن الصحيح أيضاً أنه يود أن يأتيه طفل فيعمق الصلات ويشد من روابط الزواج.

منذ سنة ونيف بدأ يشعر بدوافع قديمة نائمة في أعماقه تعود للاستيقاظ. "النساء لذيذات وألذ مافيهن تبديلهن" كان ذلك في دمه قبل أن تطلع لهم ليلة القدر، وبعد أن طلعت وعرف النساء والمال.. كان بوده أن يكون شهريار.. يبدل كل ليلة امرأة دون أن يبتلى بشهرزاد أبداً. "النساء فاكهة، لكل منهن طعم ورائحة ومذاق، هذه تفاحة، تلك دراقة، الثالثة كرز، الرابعة فريز، فلماذا لا تجرب كل فاكهة.؟ لماذا لا تأكل التفاح والدراق والكرز والفريز؟.. قبل دارينا كان ذلك ديدنه. في الملهى الذي يقبع علي طريق المطار، في نادي الذروة، في حله وترحاله كان دائماً يغير ويبدل، قاطفاً زهرة من هذا الحقل وزهرة من ذاك.

تعلقه بدارينا جعله ينكفئ حيناً من الزمن إلى حب أحادي البعد، جعله يشعر أن دارينا تختزل النساء كلهن. فلم يعد يرى سواها من النساء.

دارينا بدورها متعلقة به، ذلك التعلق بات عبئاً عليه، توليب حذرته، وسرعان ما باشر خطة معاكسة للتخفيف من ذلك العبء.

حين دقت الساعة الحاديةعشرة ليلاً، كان فهد قد التقى الشيخ عبد الحميد المرابط في الضاحية الجنوبية، حيث تتربص قيادات حزبه، في الملاجئ والسراديب السرية، وكان قد عقد الصفقة. الحزب بأمس الحاجة للسلاح، ثمة ضربة إسرائيلية جديدة للجنوب وعليهم أن يستعدوا. ألم يقل سبحانه:"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة".

عاد فهد إلى بيروت يكاد يطير فرحاً، هو وحده صاحب الصفقة، وهو وحده من سيأخذ الأرباح. هاهو ذا يتحرر من ربقة التبعية، يستقل بذاته ولسوف

يكسب أكثر وأكثر، يكدس المال أكثر وأكثر حتى يصبح أغنى حتى من أبيه. الملهى، نادى الذروة، المصالح الصغيرة المشتركة في دمشق وبيروت، كلها أهملها عله يتفرغ لصفقاته الكبيرة. الحشيشة نفسها تخلى عن الاتجار بها مذ ألقي القبض على أخيه دياب.. "مسكين دياب"، كان كثيراً ما يتذكر أخاه ويردد في سره." بسرعة وقع في الفخ، فخسر كل شيء." تجربة أخيه كانت قد علمته أن يبتعد عن مواطن الخطر وأن يكون أكثر من الثعلب حذراً ومراوغة.

شوارع بيروت، ماتزال معتمة.. الأنوار الخارجة من نوافذ البيوت وحدها تضيء الشوارع. الملاهي. لم تعد إلى غابر عهدها، الزيتونة لم تعد الزيتونة، السان جورج، الروشة، الكورنيش، كلها تستعيد عافيتها شيئاً فشيئاً، لكنها لم تستعدها تماماً. لو كانت بيروت كأيام زمان لذهب إلى ملاهي الحمراء وعاث هناك فساداً، شرب وسكر، قصف وعربد، حتى مطلع الفجر، فدارينا غائبة وهويكاد يطير فرحاً، وأية أجواء أصلح للفرح من أجواء الكازينوهات والملاهي؟.. كازينو القطط الثلاث عامر، فلماذا لا أذهب إليه؟!، سأل نفسه فرد صوت آخر باستغراب: "وحدك تذهب!؟"..إذن سيسخرون منك. "كانوا هناك يعرفونه، صهر الملكة المبجل، إذ لا يمر يومان أو ثلاثة، إلا ويذهبون إلى هناك يشاهدون العروض الفنية وينغمسون في موائد القمار.

"إميليا!!"، خطرت في باله فتبسم "أجل، أدعوها فنكمل السهرة معاً." كانت الساعة ماتزال الثانية عشرة، والثانية عشرة عند طيور الليل أول الليل. رفع سماعة الهاتف الخليوي، وهو في سيارة الكاديلاك البيضاء ثم دق الرقم:

– ألو... حياتي... ردت إميليا بكثير من الغنج، وقد عرفت صوته.

– مطلوبة حية أو ميتة كي نسهر في الكازينو، بادرها بنبرة الهجوم كيلا تستطيع الدفاع.

–أوه... حياتي.. عاد الصوت المغناج... أنا أكلمك من حوض الحمام... شعري مبلل... جسدي كله ماء وصابون فكيف تريدني أن أذهب إلى الكازينو؟...

– ماذا إذن؟ أنا وحيد.. أريد أن أسهر..

– تعال نسهر هنا.. اقترحت فأعجبه الاقتراح..

– بيدك حق... بيتك أقرب وطعامه أطيب، ثم لوى عنق فرسه البيضاء باتجاه الأشرفية.

كانت إميليا زوجة مغترب في سيراليون بالغ الثراء كبير السن وكانت تكره سيراليون وأفريقيا، لكنها تحب أموال زوجها وتحرص على استنزافها حتى آخر

درهم، ولكي تفعل ذلك، كانت قد أقنعته بتمتين الروابط مع الوطن. وكيف يتم ذلك؟ بشراء بيت، واشترت بيتاً في الأشرفية. ثم صارت إميليا تقضي شهراً في سيراليون وثلاثة في لبنان، وكان التاجر الكبير راضياً، يتصل بزوجته كل ليلة من سيراليون يجدها فيه فيبارك إخلاصها ووفاءها للوطن.

منذ أشهر فقط عرف واحدهما الآخر لكن سرعان ما توطدت أواصر علاقة قادتهما إلى الفراش. إميليا صديقة الأختين وعبر تلك الصداقة نفذت إلى فهد الوسيم الحنطي المائل للطول الذي ازدادت عظامه الرقيقة سماكة وامتلأ جسمه بعد نحول. ليالي حمراء كانا يقضيانها في غياب دارينا." إن غاب القط العب يافار.. ودارينا غائبة.. إذن، ليلعب الفار". إميليا حذرة كل الحذر، تعلم أن دارينا شرسة، إن حشرت في زاوية انشبت مخالبها فمزقت وفتكت... لهذا، لم تكن تقارب فهداً في حضور دارينا، أما وهي غائبة فلماذا لا تصنع معه الأعاجيب؟.. أعاجيب صنعا تلك الليلة، وفهد فرح منتش تثيره المرأة الشهية كفطيرة ساخنة، وقد خرجت من حمامها اللاهب فلم يرقد لهما جفن حتى مطلع الفجر..

مع أذان الظهر استيقظ كالمجنون:

– إميليا تأخرت... علي أن أذهب في الحال...

– أين تذهب وتتركني؟ لا... لا... رجلي على رجلك...

– حبذا إميليا... قال وهو يستر عري آدم، لكن لدي موعد الساعة الثانية في شتورا... ثم أنطلق من هناك إلى دمشق....

– وزوجتك؟ ألن تنتظرها هنا؟ سألته وهي تتمطى عارية عري حواء.

– وهل أعلم متى تأتي؟! هي دائماً تحب المفاجأة، تقول انها تريد كشفي على حقيقتي. "تكبسني" بغتة فترى إن كنت آتي بنساء إلى بيتي أم لا؟..

– ولا تخبرك بتحركاتها؟ لم تقل لك متى تعود هذه المرة؟

– أبداً .. ربما تجيء اليوم.. غداً.. بعد غد.. من يدري؟

– إذن أذهب معك إلى شتورا فدمشق.. نكمل شهر عسلنا هناك..

– هيئي نفسك... رد وقد أعجبته الفكرة.. هيا.. أسرعي.. ففي دمشق يمكنهما أن يستمتعا أكثر وأكثر. أسرعت إميليا تعد نفسها للرحيل فيما سبقها فهد إلى السيارة، لكن قبل أن تلحق به رن الهاتف. ترددت إميليا قليلاً ثم حسمت أمرها، رفعت السماعة فجاءها صوت دارينا...

– إميليا! كيف الصحة؟ الأخبار؟ بادرتها دارينا رشاً..

بارتعاش واضطراب بدأت إميليا، لكن قبل أن تجيبها على نصف أسئلتها قاطعتها:

- بحياتك إميليا، هل أخذت لي خبر فهد؟

- أوه... دارينا.. ردت بقدر أكبر من التلجلج والاضطراب. قبل خمسة أو ستة أيام رأيته في مقهى السان جورج... لكن علمي أنك مسافرة، متى جئت دارينا؟

- العاشرة ليلة أمس.. ومنذ العاشرة وأنا أبحث عنه، لكن دون أن أجد له أثراً..

لم تعلم إميليا كيف أنهت المكالمة، فهي تخشى الانزلاق.. والرجل في انتظارها يطلق بوق سيارته نفخة مدوية إثر أخرى.. على الطريق فكرت: "ماذا أقول له؟ أأخبره بما حصل؟ الرجل لديه موعد.. ساعة ونصف وعليه أن يصل.. لديه صفقة كبيرة يريد أن يتمها وإذا تأخر ضاعت الصفقة... ثم إن عرف بمجيء دارينا لم يتابع إلى دمشق، سيعود إلى أحضانها، وأخسر كل شيء، إذن، يجبٍ ألا اخبره." وهكذا، وصلت إلى السيارة، اعتذرت لتأخرها، ثم انطلقا وكأن هاتفاً لم يأتِ لأميليا قط.

الساعة الخامسة كانا يجلسان علٍى طاوٍلة في بارك أوتيل شتورا وقد عاد فهد من مفاوضات صعبة كلفته جهداً كبيراً لكن تكللت بالنجاح... "مليونا ليرة أرباحها..، لابأس إذن، "قال فيٍ سره وهو على الطاولة يحاول إخفاء مافي نفسه من فرح.. فلا تسأله إميليا شيئاً..

مع غروب الشمس كانا يدخلان دمشق دخول الفاتحين، هو المنجز لصفقتين عظيمتين يمكنه أن يعدهما صفقتي العمر، وهي المنتصرة بمكرها ودهائها على دارينا تلك القابعة في بيروت التي تبحث عن زوجها فلا تقع له على أثر. "أية بهجة أن أضحك عليك!! أية غبطة أن أتنعم بزوجك وأنت تتقلبين على جمر اللظى!!" إلى مٍخدع دارينا أسرعت المرأة ما إن دخلت البيت، وكل مافيها يريد أن يشفي غلاً من ملكات الجمال، ينتقم من أخواتهن وأمهاتهن، لكنٍ الرجلٍ كان يبتغي ليلة حمراء لم يعشها من قبل. أسرع إلى الهاتف. طلب طعاماً وشراباً وإلى المائدة جلسا يأكلان ويشربان... ويضحكان.. رقصت له.. غنى لها...وحين أوشك الليل على الانتصاف، كانت المرأة قد بلغت حد الجنون.. أمسكت به من يده وأسرعت إلى فراش دارينا حيث تكمل الانتقام. كانت إٍميليا ضامرة الخصر، طرية العظام، غضة البشرة، وكانت تشتعل شهوة وشوقاً لأن تكون فارسة الليل.

على الفراش راحت تتلوى وتتمعج،مثلما راح هو يتلوى ويتمعج، أفعوانين منتشيين يرقصان رقصة الربيع والدفء.

إميليا راهبة بارعة في معبد عشتار، تنثني، تنفتل، تصعد، تنزل، مؤدية طقوس عبادتها البابلية، عارفة جيداً كيف تمضي بشريكها إلى الذروة، كيف تستنزفه حتى آخر ذرة من المتعة والنشوة.

قبل لحظة واحدة من تلك الذروة فتح الباب، وكانت دارينا. رآها فهد ففغر فاه، رأته ففغرت فاها، قلبت ناظريها بينه وبين شريكته مرة واحدة، ثم انتفضت:

– هكذا إذن؟ تعقد صفقات سرية من وراء ظهري!؟ تأتي بالنساء من وراء ظهري!؟ وإلى أين؟ إلى فراشي ذاته!! انفجر صوتها فجأة، فيما كانت عيناها تقدحان شرراً ويداها تفتحان حقيبتها باحثتين عن شيء.. الفارسة متسمرة وكأنما سحبت منها آخر قطرة دم، الفرس متسمر أيضاً يشهق طلباً للكلام..

–... مهلاً... دارينا .. تروَّي دارينا.. غمغم أخيراً وهو مايزال ملقى على ظهره كأنما هو عاجز عن الحركة...

– لا.. لا مهل على الغدر ولا تروي مع الخيانة، صرخت دارينا، وهي تخرج مسدساً من حقيبتها، تصوبه عليه، وقبل أن تتاح له فرصة الحركة، تدوي رصاصة ثم ثانية فثالثة تتداح إثرها الدماء.

-14-

كان أبو دياب يقهقه عالياً إثرنكتة بذيئة رواها الرأس الكبير في المحافظة فضج لها الشركاء الآخرون.

نادل متجهم الوجه همس بشيء في إذنه.

– ماذا؟ رد الرجل شاهقاً مجفلاً وقد بان على محياه الفزع.

– آسف، معلمي.. يقولون إن ابنك قتل.. أسرع إليه..

كرر النادل بصوت واضح، وقد بدا على المعلم أنه لم يفهم من المرة الأولى. الصدمة سمرته لحظة، هب أبو دياب إثرها واقفاً ثم أسرع دون أن يرد على تساؤلات شركائه. دخل غرفة ابنه، فرآه مسجى على السرير، تغطيه ملاءة مضرجة بالدماء. حينذك أحس أن فقرة وسط ظهره تحطمت وأن ركبتيه أعجز من أن تحملاه. ودون أن يشعر ألقى بنفسه على ابنه منهار القوى منهمر الدموع.

كانت الشرطة في كل مكان وكان المحقق يأخذ صوراً وبصمات وعينات، وكان المنزل غارقاً في الصمت.. الكل ساكن كأنما على رأسه الطير.. فقط، صوت نشيج أبي دياب وصوت امرأة من غرفة أخرى تنشج أحياناً وتطلق أصواتاً هستيرية أحياناً أخرى، كانا يمزقان ذلك الصمت...

باقتضاب روى له ضابط الشرطة ملابسات الحادث، وباقتضاب وسرعة دوّن المحضر، خاصة أن الاعتراف كامل والأدلة موجودة حتى أداة القتل والقاتلة وضع عليهما اليد.

– لكن لماذا؟ كان ذلك كل ما استطاع الأب أن يسأله لدارينا، وقد بدت منفوشة الشعر، صفراء الوجه مزرقة الشفتين، متفجرة العينين، شائهة السيماء كمن أصابها مس من جنون.

– غادر..خائن.. لا يستحق غير القتل.. أجابته صارخة الصرخة نفسها التي أطلقتها في وجه زوجها وهي ترميه بالرصاص، الصرخة نفسها التي وجهتها إلى المرأة العارية في السرير بعد أن فرغت من زوجها وهي تلاحقها بالرصاص. لكن المرأة العارية كانت أسرع من فأر في التدحرج خارج السرير ثم تحته، زاعقة زعيقاً يصم الآذان. ذلك الزعيق، صوت الرصاص نبها الجيران. أسرعوا إلى بيت جارهم فاصطدموا بامرأته تخرج مولية الأدبار..

لكنهم قطعوا الطريق عليها، أمسكوا بها، استدعوا الشرطة وانهار مخطط دارينا وهي تجد نفسها مكبلة بالأغلال...

صباح اليوم التالي، كانت إجراءات الدفن قد أنجزت، وكانت الأم تولول وتعول، وأميرة التي قطع عليها شهر عسلها تعول وتولول أيضاً. كان أبو دياب أعجز من أن يحرك ساكناً وقد شلته الصدمة، فحل أخوه مصباح محله. ابنه مأمون معه وقد تحول إلى لولب متحرك، فإجراءات الجنازة أعقد بكثير من أن يقوم بها رجل بمفرده.

"ها أنت ذا تخسر أولادك واحداً واحداً"، كان أبو دياب يتمتم في سره وهم يسيرون بالجثمان إلى المقبرة.. حشد من الأصدقاء وغير الأصدقاء، الطفيليين والشامتين، كان يحمل الجثمان على الأكتاف إلى مثواه الأخير.."وحيداً بقيت يا أبا دياب!! شاهة، دياب، فهد... كلهم ذهبوا... فما أبأسك من أب!!".

كان الرجل يسير في مقدمة الحشد، كرشه متهدل، عنقه ملتو، وجهه مكمد، جبينه مخدد بالأحزان، والدموع تنحدر على وجنتيه. بضعفٍ وخور كان يسير... لأول مرة كان أبو دياب يشعر بالضعف والخور، ذهاب أولاده الواحد بعد الآخر، المصائب التي تتالت عليه الواحدة بعد الأخرى كلها كانت قد حفرت في نفسه هوة للضعف، لكن هاهي ذي تتحول إلى هاوية واسعة مظلمة، فيظلم في عينيه كل شيء ويتحول جسده كله إلى مسكن للخور والضعف. أخوه مصباح يرقبه بطرف عينه مشفقاً على الأخ الذي ضيعه المال في متاهات العتمة ودهاليز الظلام. كان مصباح أول من أضاعه أخوه، وكانت تمر الأيام والشهور لا يرى واحدهما الآخر، لكنه وهو في محنته، لم يملك مصباح إلا أن يسارع إليه يحمل عنه الوزر، ويخفف المصاب.

لكن من يخفف مصاب أم دياب؟ أم مأمون حاولت، أميرة، نور، سلوى، صديقاتها الأخريات، كلهن حاولن، لكن قلب الأم كان قد انفطر وانتهى، وكانت الدموع تسيل مختلطة بدماء ذلك الانفطار...

فهد ابنها الأصغر المدلل، ورغم البعد والجفاء، المشاغل والمشاكل، ظلت الأم تراه الابن الأصغر المدلل.. لكن هاهو ذا فجأة يذهب، فلذة كبدها يأخذونها أمام عينيها إلى القبر.. يدفنونها تحت التراب، فكيف لا ينفطر القلب؟.. وكيف لا تبكي بدل الدموع دماء؟..

لم يعد فهد زير النساء الذي يجري من امرأة إلى أخرى، متنقلاً من بلاد إلى أخرى، لا تدري مايفعل ولا يدري أحد مايعقد من صفقات أو يجمع من أموال، بل عاد الصبي الصغير الذي حملته في بطنها وهناً على وهن، أرضعته

من ثديها الحنان والحب وفطامه في عامين.. عاد فهد ذلك الفتى الناحل أبيض البشرة رقيق العظام الذي كان يعرف موضعه من أمه فيتدلل. وهي تراه أمام عينيها خروفاً أبيض يرقص في دفء الربيع. تراه يلهو تحت أشجار ذلك البيت الطيني العتيق في الحاكورة، تراه بمريلته الزرقاء وهو عائد من المدرسة، فتبكي وابل الدموع. في الصباح تزور قبره وتبكي، في الليل تعانق طيفه وتبكي، مستعيدة كل كلمة من كلماته، كل حركة من حركاته، كأنما لم يعد في ذاكرتها غير فهد. صحيح أنها لم تكن تراه إلا لماماً.. لكن الصحيح أنه ابنها، وحسبها أنه موجود.. أهكذا حب الأم؟.. يقولون كل نوعٍ من أنواع الحب أخذ وعطاء، ماعدا حب الأم فإنه عطاء محض لايريد مقابلاً ولا يبتغي جزاء ولا شكورا.

أربعين يوماً ظلت أم دياب لا يرقأ لها جفن ولا تهدأ لها دمعة.. لسانها يلهج بفهد وذاكرتها لا تستحضر سواه، تروي لأميرة قصص "شيطنته" وهو صغير، ماحدث معه في المناسبة الفلانية، في اليوم الفلاني.. الأكل علقم في فمها، لا تستسيغ له طعماً، لكن أميرة تطعمها رغماً عنها، تسليها.. رغم مشاغلها الكثيرة، رغم زواجها الجديد، وعريسها الذي ينتظرها على أحر من الجمر، كانت أميرة تحاول تسليتها، تخفف من آلامها وقد بدأت تهزل، كأنها عامدة متعمدة ترفض أن تعيش...

– أعيش بعد أولادي!؟.. لا..لا.. الأفضل لي الموت، كانت تقول لها كلما أرادت منها أن تأكل أو تشرب.

– لكن دياب يأكل ويشرب.. قالت لها أميرة آخر مرة وقد أبت أن تدخل لقمة واحدة في فمها...

صحيح أنه سجين، لكنه يأكل ويشرب...

– ومانفع أكله وشربه ان كان داخل سجن كالقبر..لا يدخل ولا يخرج...

ردت أميرة وهي فرحة بإخراجها من قمقم صمتها:

–أنت مخطئة. هناك في أوروبا، السجن مختلف وأنت تعلمين ذلك.. زرت دياب وتعرفين أنه يعيش حياته، يمارس الرياضة، يتصل بالهاتف، يقرأ جرائد، مجلات، كتباً، بل يتفرج على التلفزيون..

– مع ذلك هو سجين.. والسجين كالميت...

– دياب حي ولسوف يخرج قريباً...

– صحيح.. أميرة.. أم أنك تريدين التخفيف عني؟

– إن كنتِ لا تصدقين دعينا نذهب إليه. هناك تزورينه وتسمعين كلامه بنفسك...

الفكرة خطرت ببال العم قبل أيام، وقد رأى امرأة أخيه هزلت حتى بانت عظامها. "من يصدق؟ أم دياب ذلك الجرم الهائل من اللحوم والشحوم تصبح خيالاً؟".. قال مصباح لابنة أخيه وقد خرجا من البيت. شرحت الفتاة لعمها وضع أمها الصعب، وحزنها القاتل على فهدها المدلل، لكنها لم ترو له قصة الثعلب الذي دخل الكرم من ثغرة السياج ثم لم يستطع الخروج....

"معنى ذلك أن علينا إبعادها عن هذا الجو.. أو قتلت نفسها"، "قال وهما يتابعان مناقشة وضعها الصعب."، نبعدها؟ كيف؟ أين؟"، "اسمعي، "قال بعد تفكير.. "خذيها إلى ابنها دياب.. فلن ينسيها ابنها غير ابنها" أميرة احتجت بأنها تخشى أن تزداد طينتها بلة إذا ما رأت ابنها الآخر سجين الأغلال والقيود، إلا أن العم أقنعها "سجين... مريض، غائب، كله تقبله الأم إلا الموت لا تقبله، ودياب حي يرزق، وهو وحده سينسيها موت فهد..."

أبوها وافق على الفكرة، زوجها حسان تحمس لها، وهو يرى حماته المسكينة تذوي ذواء الموت. وهكذا، لم تمضِ أيام حتى كانت أميرة وأمها تزوران سجين ألمانيا هناك احتضنت الأم ابنها، لثمته لثم الظامئة العطشى، تريدأن ترشفه كله، ماء يروي ظمأها. جلسوا ساعة وبعض الساعة، تحدثوا بكل شيء ماعدا قصة فهد.. دياب لم يعد ذلك الجلف الغبي، الفظ الغليظ، بل بدا وكأن السجن صقله.. المرض غيّر كثيراً من نفسه. جعله أكثر تفهماً، أشد لطفاً وحمل ذلك الكثير من الراحة لنفس الأم والأخت." سبحان من يغير ولا يتغير، "تمتمت أميرة في سرها وهي ترقب أخاها الذي تحول حتى صار نقيض ذاك الذي كان خارج السجن: كلام جنتلمان، حديث موزون، مزاج رائق، بل قال لها إنه متعلق بهواية جديدة: عزف الموسيقى...

– معقول!؟.. دياب يعزف الموسيقى؟ سألته أخته وهي تكاد تطير فرحاً..

– كل شيء في هذا العالم معقول... رد دياب وقد زفر زفرة طويلة، تصدقين أميرة..؟.. الآن فقط أشعر أنني أبعث إلى الحياة من جديد.. أشعر وكأنني كنت هناك ضالاً ضلالة الموت– والآن أهتدي هداية الحياة؟!..

– أمي..أتسمعين؟ هو الآن يبعث إلى الحياة من جديد!!

– يا إلهي!! رحمتك يارب!! هتفت الأم وهي لا تجد شيئاً آخر تقوله.

– الله!! كم أشعر بالذنب!! تلك الحياة القذرة التي كنت أحياها، تلك الضلالات التي كنت أمارسها.. تلك المتاهة التي كنتُ أتخبط فيها، كلها كانت

أسوأ عليّ من الموت.. الآن.. أنا.. أقرأ، تصوروا.. إدارة السجن تأتي لي بالكتب العربية.. وأنا أقرأ.. أعزف على الأورغ... معلم الموسيقى هنا يعملني..وأنا سعيد...

– سعيد!؟.. هتفت الأم من جديد وكأنها لا تصدق أذنيها، حقاً!! دياب!! أنت سعيد؟..

– لم لا وأنا أجد نفسي بعد ضياع طويل؟ صدقيني أمي.. هنا فقط شعرت أنني أكسب نفسي... أستعيدها بعد أن خسرتها طويلاً.. المال الذي كنت ألهث وراءه، ما يساوي؟ بل، ماقيمة مال الدنيا كله، إن كنت أنا نفسي بلا قيمة؟..

– لكن عشرين سنة؟ ستسجن عشرين سنة، غمغمت الأم بحرقة شديدة..

– إنها الكفارة يا أمي.. قال وهو يتنهد، الكفارة التي تتوجب على كل آثم، وأنا آثم... صحيح.. هي طويلة.. لكنها تمضي.. أنا واثق أنها ستمضي.. وحين أخرج أكون قد كفرت عن ذنوبي كلها. خلصت من شوائبي كلها فأفتح صفحة جديدة وأبدأ حياة جديدة...

خمسة عشر يوماً ظلت الأم وابنتها في ميونيخ تزوران الأخ الذي بدا مصمماً أن يفتح صفحة جديدة. لم يكن يائساً، بل كله تفاؤل.. والعشرون سنة سيملؤها بكل ما يفيده إن خرج.. الأم تسمعه وفي حلقها غصة إلا أن رؤيتها للحي بدت وكأنما أنستها الميت. حديثها عن الحياة بدا وكأنما أنساها الحديث عن الموت. عادت أم دياب تأكل لكن قليلاً أيضاً. في الطائرة، وهما عائدتان إلى دمشق صمتت الأم شاردة بعيداً.. حاولت الابنة دفعها للكلام، لكنها لم تستطع.. وحين جاءت المضيفة بالطعام.. ظل قابعاً أمامها دون أن يمس..

– ستأكلين!؟ همست بأذنها أميرة، أنت وعدتني بل وعدت ابنك نفسه بذلك؟..

وأكلت الأم.. لقيمات قليلة أكلت لكنها كانت المخرج إلى فتح فمها ليس للطعام فقط بل للكلام...

– إي.. ماما.. لماذا عدت للصمت.؟.. ماذا يدور في رأسك؟..

– أقول، هل سأرى ابني من جديد؟ أفصحت أخيراً عن همها..

– ولم لا ترينه؟ كل شهر، شهرين، نستطيع أن نجيء..

– حقاً.. أميرة!؟.. سألت وقد لمعت عيناها بوميض فرح..

– بالتأكيد، فقط عليك أن تستعيدي صحتك، إرادتك في الحياة، ضحكتك وابتسامتك!؟...

– ضحكتي وابتسامتي!؟.. قاطعتها الأم وقد رفعت المضيفة صينية الطعام من أمامها. لا أميرة... مايذهب لا يعود.. والسعادة ذهبت من بيتنا يوم دخلت الثروة، وما أظنها تعود أبداً..

– ربما.. لا تعود هي نفسها..لكن المال الذي لديك يمكنه أن يصنع لك سعادة من نوع جديد..

– بعد فقداني أولادي لا أطمع بسعادة أبداً. أميرة، بالنسبة إلى الأم، الأولاد هم الحياة نفسها، لا السعادة فحسب.. فإذا ذهب الأولاد، ماذا يبقى؟! تساءلت الأم فلم تجب أميرة...

المال!؟.. استأنفت الأم وقد تحمست للكلام فجأة، ماذا جر علي المال سوى المصائب؟ الثروة ماذا جلبت لي غير الشقاء والعذاب؟ لا، أميرة.. هؤلاء الأثرياء لا يعرفون معنى السعادة... ثروتهم لا تعطيهم غير المظاهر والقشور، أما السعادة الحقيقية فلا يعرفونها أبداً.

ولم تجد أميرة ما تقوله.. ماتراها تضيف لأفكار أمها؟ تلك الأم التي لم تذهب إلى مدرسة، لم تقرأ ولم تكتب،. لكنها تعلمت في مدرسة الحياة أن السعادة لا تشترى بالمال، بل لعل المال ينقض صروحاً للسعادة راسخة البنيان... أميرة تنظر إلى أمها وتتألم.. هي تذكر جيداً.. قبل الثروة، وهم في بيت الحواكير، كم كانت أمها سعيدة مطمئنة؟! أولادها حولها، زوجها يتفانى في رعايتها، حقلها تزرع فيه كل ماتحتاج من خضار وفواكه وتعيش مايشبه الاكتفاء الذاتي، بيتها عامر بالحب والحنان، لكن حين جاءت الثروة.. ماذا حدث؟...

وكر شريط طويل في ذاكرة أميرة مذ ليلة القدر تلك، فلم تملك إلا أن تهتف "صحيح!! ماذا ينفعك أن تكسب الدنيا وتخسر نفسك؟".

لم يكن ذلك السؤال جديداً على أميرة، فكثيراً ما راود ذهنها من قبل، وكثيراً ماكان الدافع وراء سلوكها كله.. عمها مصباح كان له الدور الأساسي في فتح عينيها على الحقيقة الخالصة كلها، عزوفه هو عن المظاهر والقشور، تعلقه باللب وحده، هو الذي جعلها تعزف عن بهرجة الثروة وقشور المال... تمسكت بأهداب العلم، تابعت، درست، كدت، وكل همها أن تكسب نفسها فقط، أن تحافظ على توازنها وحسب. كانت ترى أباها، وهو يلقي بنفسه في متع الحياة، ولذائذ الثروة. تراه يبتعد عن كل ما يربطه بجادة الصواب.. كذلك رأت أختها، أخويها وهم يضيعون في متاهة المال، يتخبطون هنا وهناك خبط عشواء، دون أن تستطيع ردهم إلى جادة الصواب. أمام عينيها ضاعت شاهة..

تحت سمعها وبصرها تاه دياب، ضل فهد.. لكنها كانت مصممة على ألا تدع الثروة تضيعها. الحفاظ على الذات كان شعارها.. "إن لم تستطيعي الحفاظ على الآخرين، حافظي على نفسك على الأقل".

لم تكن أميرة قد فوجئت بما حدث.. أتراها كانت تراه بعين العقل؟ تتوقعه نتيجة المحاكمةالمنطقية؟ عمها مصباح ساهم في ذلك، ولاشك... هي تتذكر أحاديثهما معاً، تعليقاته أحياناً، "ماطار طير وارتفع إلا كما طار وقع"، "مامن شجرة وصلت إلى ربها"، "لا يصح إلا الصحيح والزيف طريقه مسدود". لهذا ربما لم تبك الدموع حين فقدت شاهة.. هي حزنت ولاشك لكنها لم تبك، فما يتوقعه المرء لا يفاجئه كثيراً وما ينتظره لايحزنه كثيراً، أتراه يكون قد اتخذ له الاستعدادات من قبل؟

سجن دياب، مقتل فهد، كل ماحدث بدا لأميرة وكأنها كانت تتوقعه. الآخرون خسروا أنفسهم، تاهوا في متاهة الدنيا... فما الذي لا يمكن أن يصيبهم؟..

حين حطت الطائرة في المطار استقبلهما حسان.. لم يعد هناك أخ أو أخت، ابن أو ابنة. أوصلا الأم إلى البيت، اطمأنا عليها، ثم مضيا إلى البيت.

هناك تفتحت أميرة عن شوق لم تكن تتوقعه، فانقضت عليه تلتهمه ضماً وشماً، لثماً وتقبيلاً... حسان مثلها، لكنه يريد أن يتملى وجهها، ينادمها الشراب، يسمع حديثها.. وباحت له أميرة بما كانت تفكر فيه..

– حسان، دعنا نحيا كأفضل ما نستطيع.. الحياة حلوة حلوة حلوة، قالت له وقد خلصت شفتيها من قبلة حارة احتجزهما فيها طويلاً..

– والحب أحلى أحلى أحلى.. رد حسان الذي افتقدها كثيراً خلال الأيام الخمسة عشر، وأنا مشوق لك كثيراً كثيراً كثيراً..

– ليس كشوقي، أتعلم لماذا؟..

– لماذا؟..

– لأنني أحبك أكثر.. قالت غامزة وهي تنكب على عينيه، وجنتيه ثم شفتيه تقبل وتقبل.

على الفراش لم تستطع أميرة إلا أن تصارح زوجها:

– حسان، سأقول لك سراً..

– قولي...

– أمومتي تستيقظ، قالت شبه هامسة، أشعر أنني أموت شوقاً كي أصبح

أماً..

– شعور عظيم رائع.. كل امرأة تريد أن تصبح أماً، كل أنثى ترغب في الاستمرار من خلال أمومتها فالطفل سر الحياة، أميرة.

– أجل، هو سر الحياة، يفنى الإنسان فرداً لكنه يخلد جنساً، يذهب كائناً مفرداً لكنه يبقى مجتمعاً ويستمر بشرية.

كانا قد اتفقا من قبل على تأجيل الإنجاب. هو لديه أولاد، وهي لا تشعر بحاجة للأولاد، لكن وقد رأت أمها، تلك الكينونة الرائعة بكل مافيها من حنان وحب، أحست أن أمومتها تستيقظ وأنّه لشيء رائع أن تنظر المرأة إلى كائن بشري، رجل طويل عريض وهي تحس أنه من صنعها هي... كل خلية من صنعها، هي التي وهبته الحياة، هي التي جعلته يمشي على الأرض..

– بيني وبينك، هذا أمر يشغل بال الإنسان منذ الأزل: كيف يستمر؟ كيف يحقق خلوده؟ وإذا كنت موافقة على الإنجاب.. أنا موافق...

– موافقة؟ قل أموت شوقاً لذلك.. أنجب طفلاً يشبهك، طفلة أحقق بها ذاتي.. تكون امتداداً لي واستمراراً...

– إذن، الليلة نصنع أجمل طفل، همس في أذنها مدغدغاً ضاحكاً ثم التحما جلداً لجلد، جسدين يتوقان لصنع الحياة.

– أميرة، أنت أميرة حقاً!! قال عمها مصباح وهو يستقبلها في الصيدلية آخذاً إياها بين ذراعيه، أراك لكأنك تجاوزت الحدث.

– الحياة ينبغي أن تستمر... أجابت عمها وهما يجلسان إلى الطاولة.. في ذلك الحيز الضيق من الصيدلية تعج بالعقاقير ومستحضرات التجميل.. استأنفت ضاحكة وقد مالت عليه: بالحب نقتل الأحزان..

– أنت تحبين حساناً!؟

– هو رجل يُحب.. صدقني عمي، كل يوم يفاجئني برجاحة عقله، سعة أفقه وحرارة عواطفه... لكن كيف حالك أنت؟ قل لي عماه!! أنا بشوق إليك!!.. إلى أخبارك!!..

– أخباري على أحسن مايرام.. أعمال الصيدلية ممتازة، صحتي ممتازة، عائلتي في وضع ممتاز، فماذا أريد غير ذلك؟..

– مأمون، كيف عمله؟...

– لابأس.. أنت تعلمين.. مأمون ليس من رجال هذا الزمان، زمان النفاق والخداع، الرشوة والرياء، لكن مع ذلك هو يعيش والأهم أنه قانع بعيشه...

– أجل، هو قانع.. أنا أعرف ذلك.. مرات كثيرة تناقشنا حول هذه النقطة!! أنا لا أريد أن أصبح مليونيراً.. أريد أن أعيش سعيداً...

– وهاهو ذا لم يصبح مليونيراً لكنه يعيش مع زوجته وأولاده الثلاثة... سعيداً كل السعادة...

"لو تزوجنا لكنت أنا أم أولئك الأطفال الثلاثة"، قالت في سرها بمسحة من حزن لكن سرعان مانفضت رأسها متخلصة من مسحة الحزن تلك، "زواج الأقارب خطأً، وخير مافعلناه أننا لم نقع في ذلك الخطأ".

– لكن.. هناك خبر سيفرحك.. قاطعها وهي ماتزال شاردة، فتنبهت لكلمة الفرح..

– صحيح!! أي خبر؟..

– أمين عائد إلى الوطن...

– يا إلهي!! أي خبر مفرح حقاً!؟ يعود ويلتم الشمل؟..

– أجل.. يلتم الشمل فقد اقتنعت زوجته بالعيش هنا...

– العجيب أنها اقتنعت..

– أمين رجل.. أنت تعرفينه.. هو مقتنع أنه لا وطن كالوطن.. وأن الغربة تضيع الرجال. بصراحة هو منذ أشهر يلمح أنه سيعود، لكنني مثلك، لم أكن أصدق أن امرأته توافق... وتوقف ضاحكاً قليلاً، لكن يبدو أن المسمار لم يجد غير ذلك الخيار.

– مسمار؟ خيار؟ ماذا تعني عمي؟ سألته أميرة بكثير من الاستغراب.

– قالوا للمسمار كيف تدخل الحائط وهو بتلك الصلابة، أجاب العم ضاحكاً، قال اسألوا المطرقة التي تدق رأسي. والظاهرأن مطرقة أمين شديدة الثقل، عظيمة التأثير..

–الحمد لله!! هتفت أميرة أخيراً بفرح حقيقي... عزائي أنت ياعم!!.. بيتك العامر، أولادك الناجحون، انسجامكم، محبتكم، كل ذلك عزائي...

– كم كان بودي أن تكون أسرة أخي كذلك!! كم كنتُ أتمنى ألا يبطرهم الغنى، أخوتك، أباك.. إذن كم كنا سنعيش سعداء. نحن وأنتم، عائلة، واحدة لا يفرقها شيء...

– وماذا ينفع التمني، عماه؟ تساءلت وهي تلوح برأسها ذات اليمين وذات الشمال.. قديماً قالوا من أبطره الغنى أذله الفقر.. وهانحن يذلنا الموت والسجن...

– والآتي أعظم ، أميرة..

– حقاً عماه!؟ أهناك أعظم مما نحن فيه؟

– أجل أميرة.. هناك دائماً ماهو أعظم، هذا مايحزنني. أبوك الآن في حالة يرثى لها، وهذا مايخيفني أيضاً.

– أعلم ذلك... ردت أميرة مطلقة تنهيدة طويلة، رأيته اليوم فأحزنني كثيراً...

كان أبو دياب يبدو وكأنه يهبط السفح الآخر بسرعة هائلة.. هو متجهم، شارد، صامت. النادي لا يرتاده البتة، في المكتب لا يتكلم.. أعماله لم يعد يوليها اهتماماً.. كان يشعر وكأنه طائر قص جناحاه فسقط على الأرض محطماً مهشماً. فهد، دياب، ألم يكونا الجناحين اللذين يطير بهما، ألم يقصا كلاهما؟ كيف إذن لايسقط على الأرض حطاماً مهمشاً!؟ هو خائف من كل ماحوله، كاره لكل من حوله.. مامن شيء يغريه..

"المال؟.. ولمن أكسب المال؟"، راح يتساءل، كلما خطرت بباله الفكرة... دياب في غياهب السجون، فهد في بطن الأرض، شاهة فص ملح وذاب، وأميرة ليست بحاجة إلي.. هي ترفض أن تأخذ شيئاً مني...

أموالي كلها لا تساوي لديها شروى نقير، إذن، لمن أشقى؟ لمَ أتعب؟ من أجل ابنة غادة؟ ابنة نوال؟ لديهما أموال كثيرة وليستا بحاجة إلى المزِيد".

تلك المشاعر جعلته يزهد، فأقلع عن ملاحقة الأعمال، أهمل شركاءه، أصدقاءه، بات يحس أن هوة تفصله عن أبي سامي، عن شوكة، عن كل ذلك العالم اللاهث خلف المال. هو يشعر أن جسمه نفسه يذوي، أتراه ذواء الروح ينعكس على الجسد؟ جسده لم يعد يقبل من الطعام إلا مايقيم الأود، نفسه عافت الشراب فلم يعد يستطيع الاقتراب من خمرة أوويسكي؟! حتى النساء لم يعد يشتهيهن، ذلك البريق الذي كان يسحره فيهن خبا، كأنما غطته طبقة من رماد.. غادة ونوال لم يعد يقاربهما، "لتذهبا إلى الجحيم"، كان يقول في نفسه كلما رأى واحدة منهما.. لقد بشم، ثعلباً أكل الكثير من العنب.

لم يعد ثمة مايثيره فيهما... "هما البالوعتان اللتان لا تشبعان أبداً.. ادفق فيهما الماء.. سيلاً جارفاً تبتلعانه.." الجنس؟ هو يشعر أنه كبر على الجنس.. أربع وستون سنة!! هل تُشيخ المرء أربع وستون سنة؟ هو لا يدري، مايدريه أنه بعد ذهاب فهد شعر بصدمة وقعت عليه كوقع الصاعقة ثبطت عزيمته، شلت إرادته، وهاهو ذا كل يوم يزداد تثبيطاً وشللاً. لهذا حين طلبت نوال أن يسمح لها بزيارة أخيها في كندا، وافق في الحال.

كان أخاها الوحيد. هاجر قبل سنوات، وليس باستطاعته أن يعود إلى بلده الآن. قالت: إنها مشتاقة إليه كثيراً وانه يطالب بها كثيراً، فلماذا لا يجعلها تسافر إليه؟ بل ماحاجته هو إليها؟ وهكذا، رحلت نوال دون أن يسألها كم ستبقى؟ متى تعود؟ بل حتى بيتها لم يذهب إليه، وما عساه يلقى هناك سوى الوحشة والفراغ؟ هو لم يعد يطيق البيوت.. مكتبه يجده كثيراً عليه، فلماذا يذهب إلى بيت نوال؟ الاتصال بها؟ لم يفكر به، إن شاءت أن تتصل فلتفعل، لكن.. هو يلاحقها إلى كندا؟ يسأل عنها!؟ لماذا؟ عبء أنزل عن ظهره، فلماذا يلاحقه؟ لكن لم تمض ثلاثة أسابيع حتى عاد العبء يلاحقه، فقد جاء من يهمس في أذنه" بيت نوال مفتوح، رأيت رجلاً يدخل إليه. "اتصل بالهاتف، هاتفه هو، فرد عليه رجل.

– من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ سأل الزوج الذي لم يعرف بعد أنه مخدوع...

– أنا في بيتي.. اشتريته منذ شهر وأكثر من السيدة نوال...

وأسقط في يد الرجل وهو يدرك أنه حقاً زوج مخدوع .. هو مثبط العزيمة، كاره، زاهد، مع ذلك لم يستطع إلا أن يذهب إلى البيت الذي اشتراه ذات يوم بحرِّ ماله، ثم سجله باسم نوال الجميلة، صغيرة الحجم، هدية زواج كما كانت عادته مع نسائه كلهن..

الأوراق صحيحة والوثائق مصدقة، كلها تثبت أن نوال سعد الدين باعت البيت بما فيه لفلان الفلاني بمبلغ اثنين وعشرين مليوناً قبضتها شيكاً يصرف من بنك مانهاتن في نيويورك.. بعدئذٍ اكتشف الزوج المخدوع أن السيارة بيعت هي الأخرى.. الأموال هربت من قبل وتبين بما لا يقبل الجدل أنه كان ضحية مكر امرأة هي حجة في المكر..

لكن ماذا يفعل الآن؟ البيت ذهب، السيارة ولت، الذهب والأموال التي أعطاها إياها ضاعت، وشعر بصدمة أخرى، صدمة جعلته يذهل، أكثر فأكثر، خاصة وقد جاءه من يسر في أذنه أن المرأة في الولايات المتحدة مع صاحبها المهندس، الذي كانت تحبه أيام الجامعة، والذي ربما كانت ابنتها "السباعية" منه.

ضحكت غادة، زوجته المتبقية، حين سمعت النبأ وقهقهت شامتة:

– أرأيت؟ زوجاتك كلهن غادرات خائنات سوزان، مها، نوال،،كلهن هجرنك وتخلين عنك.. أنا وحدي المخلصة الوفية...

– مخلصة وفية...؟! سأل بكثير من الشك والارتياب..

– بالتأكيد.. ومحبةٌ لك، لكن يالضياع ذلك الحب!!

– لماذا؟!

– لأنك لا تحبني ولا تثق بي...

– بل أنا أحبك، وأثق بك، قال دونما اقتناع..

– إن كنت كذلك، ائتني ببرهانك..

– وأي برهان تريدين؟..

– أنا الوحيدة الباقية لديك.. سجل أملاكك باسمي.. سجل عقاراتك، شركاتك، باسم ابنتي.. أليس خيراً من أن نعاني مر العذاب، إذا لا سمح الله...

وتوقفت بمزيج من الخبث والتظاهر بالندامة وهي تتفحصه من بين أجفانها شبه المطبقة..

– تريدين أن ترثيني قبل أن أموت؟ قال حانقاً مغيظاً..

– لكنني سأرثك على كل حال.. إن لم أكن أنا، فابنتك..

– ياللنساء!! لا يفكرن إلا بأنفسهن!! قاطعها باشمئزاز ثم أسرع بالخروج كيلا يتيح لها فرصة للنقاش..

هو لا يكره كنقاش المرأة.. يشبِّهه بمناطحة الصخر، إذ ما إن تضع المرأة شيئاً في ذهنها، حتى تعمى عيناها عن كل ماعداه. إذن، كيف له أن يجعلها ترى خطأها، تحيد عن هدفها، خاصة وقد بات يعاوده العي كلما تحدث في أمر مزعج..

الدنيا تضيق به، صدمة كهربائية بعد صدمة يتلقى ولا يدري متى تتوقف الصدمات. حيثما توجه يتلقى اللطمات ولا يدري أين يتوجه؟...

– أسمعت مافعلت نوال؟ قال لأميرة وقد وجدها ملاذه الأخير..

– سمعت.. ردت حزينة زافرة..

– الحقيرة!! تهرب إلى صاحبها.. بأموالي!! بدأ وقد عاوده عي شديد..

– وماذا كنتِ تنتظر يا أبي؟ أفضلِ من هذا؟ لكن أميرة توقفت فجأة نادمة على شماتتها بأبيها. كان الرجل مثقلاً بالأحزان والهموم إلى درجة بدا لها غصناً على وشك الانكسار. على كل حال، تابعت مغيرة نبرتها وأسلوبها، لا تبال بها.. باعتك بعها.. ذهبت، لا تأسف عليها يا أبي..

– لكنهم ينصحونني بأن ألاحقها..

– كيف؟..

– الانتربول الدولي يمكن أن يأتيني بها.. هكذا يقول شريكي، الرأس الكبير في المحافظة...

– وما الفائدة ؟ هي لن تعود لك زوجة، والبيت والسيارة ملكها.. أنت

قدمتهما لها بملء إرادتك، أليس كذلك؟...

– أجل كذلك، لكن هل يحق لها هجري وخيانتي!؟..

– أبي، يسقط الطير حيث ينتثر الحب... هكذا يقول الشاعر، فلماذا تلوم طائراً يبحث عن حبه؟!.. وأدرك أبو دياب، وهو يستعيد في ذهنه الأشهر الأخيرة التي زهد فيها الدنيا والمال والنساء، ان ابنته على حق.. أجل.. نوال تبحث عن الرجل الذي يقدم لها السعادة.

لكن صدمة جديدة جعلته يترنح من جديد، فقد جاء ذات صباح إلى المكتب ليجد حشداً من المودعين يتجمعون أمام المبنى.. رأوه فالتفوا حوله:

– نريد ودائعنا.. أعيدوا لنا أموالنا..

– لصوص! سراقون! راحت الهتافات تعلو والعجب في نفسه يشتد..

– ماذا هناك؟ ماذا تقولون؟..

لكن العجيج والضجيج عادا مرة ثانية ليمنعاه من قول أي شيء أوفهم أي شيء...

أخيراً أمسك بيد اثنين من الحشد وانسل انسلالاً إلى الداخل. هناك فهم أن شوكة الداهوك فر خارج البلاد بكل ما أودعه المودعون من أموال.

– مستحيل، قال أبو دياب للمودع الأشيب الذي بدا أقل حماسة وانفعالاً، شوكة مسافر وسيعود غداً أو بعد غد..

– لوكان سيعود، كما تقول، رد المودع الأكثر شباباً وانفعالاً، لماذا تلحق به امرأته وأولاده؟..

وشعر أبو دياب بلسانه يتلجلج والعي يعاوده كأشد مايكون.. صحيح، هو يعلم أن امرأته سافرت إثره بيومين، كذلك ابنته وابنه.. لكنه حينذاك لم يربط بين الأشياء ولم تخطر بباله فكرة الهروب...

شوكة سافر إلى إيطاليا، كما اتفقا كي يشتري معامل للتصنيع.. الأمر الذي فكرا به مذ بدأا مشروع جمع الأموال واستثمارها. صحيح أن شوكة ماطل في الشراء بعد ذلك، لكن الصحيح أيضاً أنه وافق أخيراً على إقامة ثلاثة معامل دفعة واحدة.. فالأموال التي أودعها المودعون كثيرة: أربعة عشر ألف مليون..وما الذي لا تفعله أربعة عشر ألف مليون؟...

– لحقت به أم لم تلحق!؟.. قال بنوع من المكابرة، هو مسافر إلى إيطاليا في عمل. يريد شراء مصانع، صدقوني.. أنا شريكه وأعرف كل شيء..

– إن كنت شريكه وتعرف كل شيء، لماذا لم يصرف لنا فوائد أموالنا منذ

أشهر؟.. سأله المودع الأكثر شباباً وانفعالاً...

– منذ أشهر؟. أجاب أبو دياب سائلاً وقد خالط تلجلجه السابق عجب ودهشة..

– بل هناك مودعون لم يستلموا فوائدهم منذ أكثر من عام، تابع الأشيب الذي بدا وكأن حماسة صاحبه أصابته بالعدوى...

– كيف؟

– بحجة أو بأخرى كانوا يقنعوننا: ضموا فوائدكم تزدد أموالكم. كثروا أموالكم بإبقاء فوائدكم... وهكذا، راح الكثيرون يتركون فوائدهم فلا يأخذونها، أنا نفسي لم آخذ فوائد منذ أحد عشر شهراً..

فجأة أحس أبو دياب بالشك يتسرب إلى تلافيف دماغه.. "ياللكاذب المخادع!"، راح يتمتم في سره وأعين الرجلين تتفحصه". يفعل ذلك دون علمي!! يقول كل شيء تمام... الفوائد تسدد، الحسابات تصفى كل شهر وهو يفعل العكس؟ إذن، وراء الأكمة ما وراءها..".

– هه.. ماذا قلت؟.. نريد أموالنا... أو قلبنا الدنيا على رؤوسكم، صاح الشاب المتحمس وقد أثاره من جديد صمته وإطراقه..

–لا.. لا.. لن تفعلوا شيئاً.. أموالكم ستعود إليكم... صدقوني.. فقط اعطوني مهلة يوم أو يومين.

– لن نعطيك ساعة واحدة، صاح الشاب المتحمس وقد أحس بضعف خصمه.. أموالنا نريدها الآن..

– الآن مستحيل..لابد من بعض الإجراءات...

– ونحن هنا قاعدون.. لن نتحرك قبل أن تدفعوا لنا...

عاد الشاب إلى تهديده وعيناه تقدحان شرراً..

– حسن... دعوني الآن قليلاً.. اعطوني بعض الوقت، قال وهو يدفع بالرجلين خارجاً، هدئا الناس فقط، ووعد مني لن يذهب لكم قرش واحد. قولا لهم.. شريكه سيف الدين النايفة مسؤول عن كل قرش.

حين خرج الرجلان، كان اللغط في الخارج مسموعاً والصيحات تتعالى حاملة التهديد والسباب.. شعر أبو دياب بنوع من الرعشة... رعشة خوف لا يعرف كيف تسلل إلى نفسه. أسرع إلى غرفة المحاسب فوجده هو الآخر يفرك يديه مرتعشاً..

– معاذ... ماهذا الذي أسمع؟ لماذا لم تصرفوا الفوائد للناس؟

-لا.. لا أدري، سيف الدين بيك... أوامر شوكة بيك هكذا: لا تصرف قرشاً قبل أن أعود...

- لكن الآن العاشر من الشهر.. والناس يشكون أننا نتلاعب بهم...

- أنا عبد مأمور ياسيدي.. مرني أنفذ...

- اذهب فائت لهم بالمال، اصرف الفوائد في الحال...

- اكتب لي شيكاً إذن.. وكتب سيف الدين النايفة الشيك...

لكن حين وصل المحاسب إلى المصرف وجد أنه بلا رصيد. كان حساب المودعين مشتركاً وكان بإمكان أي من الشريكين أن يسحب المال الذي يريد فرداً أو مثنى، وعاد المحاسب بالخبر الذي قصم ظهر أبي دياب، "لا رصيد في المصرف.. لم يدع شوكة الداهوك قرشاً واحداً من الحساب المشترك".

- لا، لا.. مستحيل.. راح أبو دياب يتمتم وهو يحس أن الأرض تميد تحت قدميه. حاول أن يدور على عقبيه لكنه لم يستطع فأسرع إلى الطاولة القريبة يستند عليها.

- شيك بلا رصيد.. عاد يتمتم.. وقعنا في ورطة.. سيلاحقنا المصرف...

- بالتأكيد ياسيدي رد المحاسب وهو يرتعش خوفاً ويتفصد عرقاً..

في الخارج كان الحشد قد ازداد عدداً وغضباً، وهو يرى المحاسب يعود خاوي الوفاض. كانت الصيحات تتعالى مطالبة الحرامية النصابين بإعادة الأموال إلى أصحابها.. وكان بضعة موظفين وأذنة يقفون في وجه الحشد يمنعونه من الدخول إلى المبنى...لكن ما جعل ركبتي أبي دياب تصطكان متراخيتين تحت جسده، هي الصيحات التي بدأت تتردد باسمه: سيف الدين يانصاب!! ياحرامي يا كذاب!! اطلع برا!! ادفع!! ادفع!!..

نظرة واحدة من الشباك إلى الحشد جعلته يرتد مسرعاً وقد تحول ذعره إلى هلع ورعشته إلى ارتجاف:

- ماذا أفعل؟ أين أذهب؟؟ الآن يريدون رأسي؟ كان يتمتم لنفسه فيما اجتمع عدد من الموظفين يرقبون الشريك الذي وجد نفسه وحده في الشرك بينما كان الآخر يحلق عالياً في السماء حيث لا يستطيع الإمساك به أحد.

- ادفع لهم أنت ياسيدي..

- اهرب من الباب الخلفي سيف الدين بيك..

- واجههم يامعلمي

- هدئهم... أقنعهم...

راح الموظفون يشيرون عليه.. لكن مشورة واحدة أعجبته، فأسرع إلى الباب الخلفي يولي منه الأدبار...

مزيج عجيب من المشاعر كان يعتمل في صدره: القهر، الغيظ، الخوف، الحيرة، الاضطراب. لم يكن أبو دياب يعرف أين يذهب أو ماذا يفعل... لم يكن يدري أيصدق مايسمع ويرى أم لا يصدق؟ أيصب جام غضبه على شوكة الداهوك، أم على نفسه؟ لأول مرة يشعر بالخوف من الناس، من المستقبل، وسؤال واحد يتردد في ذهنه: لماذا فعل ذلك شوكة الداهوك؟ لماذا وهو ملك متوج في مملكته؟ بكل المعايير كان الأمر عجيباً... المال لدى شوكة كثير بل أكثر مما يستطيع عده، فلماذا يهرب؟ أعماله ناجحة، مشاريعه مزدهرة، فلماذا يتخلى عن كل شيء؟ من أجل الأربعة عشر مليارا، لكنه يملك مثلها لنفسه"... راحت الأصوات المتضاربة تتحدث داخل جمجمته وهو يسوق السيارة على غير هدى...لا يدري أين يذهب... "حاصود.. شوكة حاصود.. زرع الناس فجاء هو يحصد مازرعوه..". "قاطع طريق جشع، ورجل عصابة لا يشبع.. إنه الطمع.. إنه الطمع..".

راح يردد وهو يستعيد في ذاكرته ماكان شوكة يحدثه به أحياناً، "مصلحتك، ثم مصلحتك، ثم مصلحتك"...

ذلك مبدأ شوكة، "اجمع من المال ما تستطيع، بأي وسيلة تستطيع، والغاية تبرر الوسيلة" لكن كلمات أخرى سمعها أبو دياب في نادي الذروة عادت ترن في أذنه..."، الناس ذوو الرساميل الصغيرة: ربع مليون، نصف مليون، مليون، كلهم يجب أن يجردوا من رساميلهم الصغيرة تلك فيهووا إلى القاع".

..هكذا كان يقول المعلم صدر الدين أبو رمحين، الذي يخشع له شوكة الداهوك ويعتبر أقواله تعاليم مقدسة ينبغي أن تطاع.. حينذاك، سأله شوكة "لكن كيف ياسيدي؟"، وكان جواب المعلم واضحاً، سيف الدين يذكره جيداً، "بالإغراء، بالأشراك، نفعل كل مافي وسعنا كي نسلبهم أموالهم تلك، فلا يصعد إلى السطح إلا القلة.. النخبة المصطفاة التي تستحق أن تكون الطبقة الرأسمالية الصحيحة المتماسكة، فلا تشوبها شائبة ولا يدخلها رعاع.. "هو يومذاك لم يولِ أهمية للحديث، ولم يرَ مافيه من خطورة.. لكنه اليوم يرى تلك الخطورة..."تجريد الناس من أموالهم لإفقارهم وإذلالهم.. لابد إذن أن هناك خطة... وأن هناك من يقف وراء الخطة، لكن لماذا تتركهم الدولة يفعلون ذلك؟ أبو دياب لا يدري.. فجمع الأموال يجري تحت سمع الدولة وبصرها، إذن لماذا لم تحرك ساكناً؟ لماذا لم تقل انه قد يقع خطأ؟ قد يحدث تلاعب أو تآمر؟

سلوك شوكة منذ زمن كان قد تغير، سيف الدين أحس بذلك من قبل،

علاقته بشريكه نفسه تغيرت.. هو لاحظ ذلك أكثر من مرة.. لكنه كان مشغولاً مهموماً، تائه الفكر.. كانت ثقته بشريكه كبيرة وكان قد أعطاه مطلق الحرية في التصرف... ليس في الحاضر فقط بل مذ بدأا العمل معاً: رفيقي دراسة ورفيقي عمر..

– أبا سامي، مصيبة يا أبا سامي!!.. هتف أبو دياب وهو يدخل مكتب شريكه الآخر، مدير المؤسسة الذي كان يظن أنه خير صاحب وملاذ. شوكة أوقعني في مصيبة.

– إذن، صحيح، أنه فر؟ سأله أبو سامي على الفور دون أن يتحرك من وراء طاولته.

– وهل سمعت بذلك؟!

– الشائعات ملء البلد، وكلها تؤكد أنه فر بأموال المودعين...

–لابد أن الأمر كذلك يا أبا سامي.. الماء كان يجري من تحتي وأنا لا أعلم... سلمته رقبتي فشد علي الحبل... قل لي أبا سامي، ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟..

لكن أبا سامي الذي كان بحاجة إلي وقت للتفكير والمشاورة، رأى أن يأتيا بشريكيهما الآخرين يبحثون الأمر معاً.. في الاجتماع ذاك، اكتشف أبو دياب حقائق جديدة أشد خطورة. كان شوكة الداهوك قد صفى أعماله الأخرى كلها. بصمت وحذر باع حصته في النادي لأبي سامي.. "أنا لم أعد أريد وجع راس... مشاغلي كثيرة وليس لدي وقت لنادي الذروة.... اشتر حصتي فيه". أبو سامي رأى العرض مغرياً جداً... فاشترى الحصة بأقل من ستين بالمائة من قيمتها الحقيقية وأحاطها بالكتمان كما طلب إليه شوكة الداهوك نفسه.

الرأس الكبير في المحافظة أخذ حصته الأخرى في شركة الاستثمارات الزراعية، صاحب النجوع الكثيرة اشترى مباني وممتلكات أخرى... وبدا وحده أبو دياب زوجاً مخدوعاً، آخر من يعلم..

– يا إلهي!؟ الأمر إذن أخطر مما تصورت.. مؤامرة!؟ مكيدة!؟ ضربة قاضية!؟ راح أبو دياب يصرخ وهو يحس أنه غاص في حمأة الطين حتى أنفه...

– لا.. لا تخف.. بدأ صاحب النجوع الكثيرة مطمئناً. فراره بالأموال جريمة احتيال ونصب، والاحتيال والنصب يطالهما القانون.. سنجند لك الانتربول الدولي كله فيأتي بشوكة الداهوك من تحت الأرض.

– كيف؟ رد الرأس الكبيرة في المحافظة، أتظن أن رجلاً كهذا مغفل؟...

يسلمك نفسه هكذا ببساطة؟

- وأين يذهب؟ هومعروف واسمه معروف..

-لابد أن لديه الآن عشرين جواز سفر بأسماء مستعارة وجنسيات مزيفة.. يتحرك بها حيث يشاء وأنى يشاء.

وأسقط في يدالرجل ذي النجوع الكثيرة فلم يحر جواباً.

- رأيي، تدخل أبو سامي في الحال، أمامك خياران.

- ماهما؟.. قل لي.. أرجوك... رد أبو دياب بلهفة شديدة وعي أشد جعله يعود أبا دياب، ذلك الفلاح المسكين الذي لا يحسن النطق.

- إما أن تدفع للمودعين من حر مالك أو تعمل كشريكك فتفر أنت أيضاً.

- أدفع من حر مالي؟ لكنني لا أملك أربعة عشر ملياراً!؟...

- فرّ إذن.. انج بنفسك سعد.. ردد أبو سامي بشيء من الحماسة المفاجئة، فالمأزق خطير.

- لكن أين المفر؟ أنا لم أهيء نفسي لذلك.. لم أفكر به من قبل...

- أبو سامي على حق، ثنى الرأس الكبير في المحافظة، صحيح أنهما خياران صعبان.. أمران أحلاهما مر..لكن بالتأكيد ليس أمامك سواهما..

وأمضى أبو دياب الليل بطوله وهو يذرع مكتبه جيئة وذهاباً، لا يرقد له جفن ولا تهدأ له ساكنة. كان قد آثر البقاء في المكتب كيلا يرى امرأته فتوجع رأسه بالأسئلة والتحقيقات، وهو يقلب الفكر:أفر؟ أم أتحمل أموال المودعين؟ وحده كان يقلب الفكر.. وحده كان عليه أن يتخذ ذلك القرار الخطير... لكنه لم يستطع أن يتخذ قراراً.. بل بدا مع شروق الشمس وكأن دماغه توقف عن التفكير.. بدت عيناه محمرتين.. يداه مرتعشتين، رجلاه متعبتين وقد أنهكه مشي الليل بطوله. "أميرة، ليس لي سوى أميرة" فكر أخيراً وهو يرى دماغه يخذله عاجزاً عن تقديم فكرة واحدة أو حل.

- أية كارثة!! علقت أميرة وقد ذهب إليها في الصيدلية طلباً للمشورة.. هذا الشوكة النذل... طوال عمري أكرهه... طوال عمري أشعر أنه يبيت لك شيئاً... راحت تندب لائمة...

- المهم، ماذا أفعل الآن؟ كيف أتصرف؟

لكن قبل أن تجيب دخل العم مصباح. أسرعت، تروي له القصة وتطلب بدورها الرأي..

- تدفع للناس طبعاً... كان جوابه الحاسم الجازم...

– لكن ما ذنبي أنا؟ هو الذي أخذ المال...

– أنتما شريكان متكافلان متضامنان.. واحدكما يتحمل أخطاء الآخر ويصحح عثراته...

– صحيح، أبي... عمي يقول الصحيح...

– الأمر الآخر والأهم.. هو أن تسأل نفسك: ماذنب أولئك المساكين المودعين.. أنا أعرف عشرات منهم.. صدقني.. كثيرون منهم باعوا بيوتهم لكي يحصلوا على ذلك المبلغ، يأخذون فائدته الشهرية كي يسددوا بها نفقاتهم.. يردوا وحش الغلاء.. نساء باعت حليها..رجال رهنوا رواتبهم، باعوا أراضيهم، تنازلوا عن كل احتياطيهم.. هؤلاء سيصابون بكارثة حقيقية إن ذهبت أموالهم.. سينزلون أسفل السافلين بل يصبحون فقراء مدقعين، لا تتوفر لهم لقمة العيش..

– وأكون أنا الضحية؟.. رد أبو دياب بكثير من الخوف..

– إن ذهب واحد ضحية خير من أن يذهب الآلاف.. قال الأخ الذي لم يكن يوماً راضياً عن سلوك أخيه، أجل، هناك آلاف المودعين سيذهبون ضحايا.. بل سمعت هذا الصباح أن اثنين من المودعين ذهبا: أحدهما له أربعمائة ألف.. أتسمع.. ماقيمة الأربعمائة ألف بالنسبة إليك؟ لكنها هي كل مايملك. سمع بفرار شوكة وذهاب ماله فأصيب بالسكتة الدماغية وشل نصفه الأيسر..الثاني له مليون ونصف.... سمع هو الآخر فأصابته ذبحة صدرية لم تشله وحسب بل قتلته...

– هذا ذنب شوكة وليس ذنبي... لا... لا علاقة لي بالأمر... هو المسؤول عن كل شيء. هو الذي نهب كل شيء...

– لكن لا تنسَ، أنت شريكه ولسوف يمسك بتلابيبك القانون...

– ماذا تقول؟

– ماسمعت..

– أميرة!!.. أتسمعين؟

– أجل.. أبي.. ردت أميرة يخالط نبرتها الحيرة والحزن، الدولة قد تمهل لكنها لا تهمل والقانونهو القانون...

– صحيح... تابع العم حانقاً.. المودعون سيشتكون عليك للدولة والدولة ستحصِّل أموال المودعين منك إن لم تستطع تحصيلها من شوكة...

– لكنني لا أملك ذلك المبلغ الضخم...

– تملك أو لا تملك.. لا بد من أن تعيد للناس حقوقهم...

– وأنت!! يسعدك ذلك؟ رد أبو دياب وقد استيقظ في نفسه فجأة حقده القديم، بل ربما لا يسعدك كأن أجرد من أموالي كلها، أبقى جلداً على عظم.. أعود فقيراً تتحكم بي وتشمت.. لم يرد مصباح، وقد أجفلته النبرة الجديدة في صوت أخيه، بل راح يتفحصه بشيء من تعجب.

– أبي، قاطعته أميرة للتو، ماهذا الذي تقول؟ أنت طلبت رأينا وعمي يقول رأيه..

– رأيه.. أن أتحمل وزر سواي!؟ أن أتخلى عن أموالي كلها؟ أن أعود فقيراً معوزاً أتسول في الشوارع؟..لا.. لا.. سأغادر هذا البلد كما فعل شوكة...

وأسرع أبودياب يغادر الصيدلية قبل أن تستطيع أميرة أو عمها تحريك ساكن.

لكن، ثمة أعمال كثيرة لابد من إنجازها: جواز السفر، التأشيرة، الأموال، البيت.... واتخذ من نادي الذورة ملاذاً، وكل ظنه أن نادي الذروة كبيت أبي سفيان"من دخله فهو آمن". لم يذهب إلى مكتبه، لم يدخل مبنى الشركة، لم يتردد على مصالحه الأخرى ومبانيه، وكله أمل أن ينتهي الأمر بسلام. غادة مسرورة بالمصاب الجديد، زوجها سيأخذها إلى أوروبا، هو بنفسه أسر لها، "هيئي نفسك... أسافر غداً وتلحقين بي بعد أسبوع. "أربع وعشرون ساعة وكل شيء يسير على مايرام: الجواز، التأشيرة، الأموال، لم يبق عليه إلا أن يركب الطائرة ثم يقلع إلى حيث الأمان والاطمئنان. حقيبته جاهزة والسائق يهم بحملها إلى السيارة، لكن قبل أن يفعل ذلك رن الهاتف فأجفل أبو دياب.

– ألو.. نعم.. !؟ رد بعيه القديم نفسه وقلبه يخفق كالمجنون..

– مرحباً أبا دياب.. جاءه صوت شريكه، الرأس الكبير في المحافظة، آسف أن أبلغك..لكن القرار وصلني للتو، ولابد من تبليغه لك...

– قرار!؟ أي قرار!؟. رد أبو دياب عيياً مرتعشاً متهدج الصوت..

– قرار يقضي بمصادرة أموالك وأملاكك المنقولة وغير المنقولة..

– مصادرة أموالي وأملاكي.. ليأخذوها!! لست بحاجة إليها!! أنا راحل!!..

– أخشى أيضاً أنك لن تستطيع... القرار يمنعك من المغادرة...

– ماذا؟ صرخ أبو دياب وقد جحظت عيناه.. يصادرون أملاكي ويمنعونني من المغادرة؟

– أجل.. وربما يأخذونك إلى السجن..

– السجن... السجن!! راح يتمتم فيما غشاوة من عتمة راحت تتسلل إلى عينيه فتحجب عنهما الرؤية شيئاً فشيئاً. بعدئذٍ أحس برخاوة شديدة في مفاصله جعلت المهتاف يسقط من يده، وجذعه يسقط على الكرسي، دون أن يريد ذلك. "مالها الدنيا؟ أكسفت الشمس؟ أحل الليل فجأة؟ "راح يتساءل وهو يفتح عينيه ويغمضهما فلا يجد فرقاً بين الحالتين.

– محمود!! صاح بالسائق.. أنا لم أعد أرى...

في المستشفى، استدعي أطباء على عجل، أجريت فحوص على عجل، فكان رأي الطب واضحاً: ارتفع السكر في الدم فجأة فضرب شبكتي العينين وفقد الرجل البصر.

– لكن من أين جاءني السكري؟

احتج الرجل الذي فقد البصر بغتة...

– هذه الحالة تأتي إثر صدمة، زعل شديد، مصاب مفاجئ فهل تعرضت لشيء كهذا؟ سأله الطبيب، واضطربت المواجع في نفسه وجاشت في صدره الشجون..

– صدمة!! زعل شديد!! مصاب مفاجئ، بل قل كلها معاً، دكتور!! قال العالم كله انقلب على رأسي دفعة واحدة...

– إذن، هو ذا السبب، إضافة إلى أن بدانتك... لحومك وشحومك هذه، قال الطبيب وهو يلمس كرشه، كتفيه، صدره المنتفخ بأثداء كأثداء النساء، تجعل لديك كامل الاستعداد للإصابة بالسكري... ستة وثلاثين يوماً ظل أبو دياب في المستشفى، لا لكي يعالج بصره ويعود نظره كما كان من قبل، بل لإنزال السكري المرتفع، ومنعه من الإجهاز عليه إجهازاً تاماً. كان الرجل يتخبط في لجة الحزن تخبطه في مهمه العمى، وكانت الدنيا التي اسودت في عينيه قد ضاقت حول عنقه أنشوطة توشك أن تخنقه.". "خسرت كل شيء"، كان يقول لنفسه كلما خلا بنفسه، "فقدت أولادك، نساءك، مالك، جنى عمرك كله، بل فقدت حتى بصرك، فماذا بقي لك؟ مت... أبا دياب، ذلك خير لك يارجل... مت، فما نفع حياة خسرت فيها كل شيء؟".

لكنه لم يمت، فالموت لا يأتيك عندما تشاء.. كان الرجل قد غدا رهين الظلمة والقهر ... لم يعد يسأل عن الأموال المصادرة والأملاك المحجوزة بل بات همه كله: نزل السكري، طلع السكري، ماذا سيفعل به السكري؟...

كان الطبيب قد حذره من أن ذلك الوحش الذي يدعونه السكري قد يلتهمه عضواً عضواً، ولكي لا يفعل ذلك، اتخذ الطب الإجراءات:

حقن أنسولين، نظام حمية، امتناع كامل عن الدسم والنشويات، راحة تامة، عزل كامل عن العالم الخارجي، علها تخفض نسبة السكري...

مع انخفاض تلك النسبة، كان جسمه ينحل وشحومه تذوب. لم يكن يرى شيئاً، لكنه كان يحس.. يتلمس وجهه، صدره، كرشه، كلها كانت تذبل، يشعر بها ذاوية تحت أصابعه، فتتمشى في غياهب عتمته أقدام اليأس وتسري سحائب القنوط.

– اسألي أميرة.. استفسري... يجب أن أعالج... يجب أن يعود ناظراي، قال لها: وقد جاءته بخبر إخراجه من المستشفى: أنا أدفع كل ما أملك، أدفع كل مالي على وجه الأرض... فقط كي يعود ناظراي...

– لكنك لم تعد تملك شيئاً يا أبي!!

– بل هناك... في مصارف سويسرا..فرنسا... لي أموال كثيرة..

لم ترد أميرة أن تزيد الطين بلة هي التي علمت أن الدولة طلبت مصادرة أمواله حتى في الخارج بتهمة الاحتيال والنصب...

– سأسأل، أبي، سأستفسر، غمغمت بكثير من الإشفاق، كاتمة ماتعلم، ولسوف نعالجك مهما كلفنا الأمر، فقط لا تيئس...

– كيف لا أيئس وكل ماحولي ظلام؟آه!! أميرة.. لم أكن أعرف قيمة النور حتى فقدت بصري.. لم أكن أعرف ما أنا فيه من نعم حتى حلت بي هذه المصيبة...

– لوكنت تعرف، لما حلت بك هذه المصيبة... قال أخوه مصباح، وهو يزفر زفرات الحسرة...

– مصباح.. أنت تؤنبني أم تشمت بي؟

– أنا أشمت بك!؟.. لا... سيف الدين.. لا... أنا على أتم استعداد لأن أعطيك في هذه اللحظة عيني اليمنى يزرعونها لك فتعود إلى عالم النور..

– آه!! مصباح!! أخي!! هتف وهو يتلمس أخاه عن قرب ثم يرتمي بين ذراعيه، كم أخطأت بحقك!! كم ظلمتك!!

– بل قل كم ظلمت نفسك...

– إذن، كم هو عقاب قاسٍ أنزله بي ربي!! كم هو عقاب فظيع!! لكن تبين بعد ذلك أن العقاب القاسي الفظيع لم يكنِ قد أنزله به ربه بعد. كانت غادة الزوجة المتبقية له قد زارته مرتين أو ثلاثاً، لكن دون أن تفصح عن شيء.

بكل رسمية، كانت تجلس إلى جانب السرير. بكل برود تسأله عن أحواله،

صحته، السكري، ثم تنسحب، فابنتها ستأتي من المدرسة، وينبغي أن تنام، أو أهلها سيأتون إليها، لم تكن تبحث معه في مستقبل، أو تسأله عن حاجة.. كانت تبدو مصدومة، منكمشة، متشنجة، وكان ذلك كله يخدع أميرة، لعلها المصيبة وقعت عليها فجعلتها متجلدة كالحجر... لا هي حزينة ولا فرحة، لا يبدو على سيماها غضب ولا رضى لكن لم يخطر ببال أميرة أنها تبيت أمراً.

حين سمح الطبيب بإخراجه، سألوه "أين تذهب؟"، إلى بيتي طبعاً، أجاب وهو يفكر بزوجته الوفية المخلصة غادة، الوحيدة التي لم تتخل عنه.. ركبوا السيارة، تحدثوا حديثاً متقطعاً، يخيم عليه الحزن، فأبو دياب لا يفتأ يسأل "أين نحن الآن"؟ في أي شارع؟، في أي ركن، كانت المرة الأولى التي يخرج فيها إلى الشارع أعمى، وكان يشغله كثيراً أن يعرف اتجاه الحركة والمكان.

عند الباب رنت أميرة الجرس وعمها مصباح يقف خلفها متأبطاً ذراع أخيه. دقيقة، دقيقتين، ثم طال الانتظار لكن الباب لم يفتح.. رنت مرة ثانية ومرة ثانية انتظروا... دقائق أطول دون أن يفتح الباب...لعلها ليست هنا... غائبة في مكان ما، قالت أميرة وكأنها تبحث عن مبرر لغيابها. كان الأفضل أن نتصل بها قبل أن نجيء..

– أليس لديك مفتاح؟ سأله الأخ وهو مايزال يتأبط ذراعه...

– بلى.. كان معي.. ربما هو هنا في حلقة المفاتيح.. رد أبو دياب الذاوي المنكمش الذي ذاب نصف شحمه ولحمه، وهو يتلمس جيب سترته اليمنى ثم اليسرى مخرجاً منها حلقة مفاتيح.

أخذت أميرة الحلقة تجرب مفاتيحها الواحد تلو الآخر لكن عبثاً. رنت الجرس من جديد لكن دون جدوى... الباب أصم أبكم.. والبيت قفر خال...

– لنذهب إلى بيتي، قالت أميرة وقد دب إلى قلبها اليأس. لكن قبل أن ينزلوا آخر درجة، فتح الباب بقوة لوت رقاب النازلين الثلاثة....

– أوه!! غادة!! أين كنت؟ مضى زمن طويل ونحن نرن الجرس، قالت أميرة وهي تعود باتجاه الباب الذي فتح.

– وماذا تريدون؟ سألت المرأة التي بدا الحقد والغضب على محياها.

– أبي خرج من المستشفى.. وقد جئنا به إلى بيته...

– بيته!؟ ردت مقهقهة قهقهة الفجور.. أبوك لم يعد له بيت...

– ماذا؟ رد الأب الأعمى وهو فاغر فاه..

– قلت لك... سجل أملاكك باسمي.. انقل أملاكك إلى اسم ابنتك... لكنك

لم تفعل.. تركتها حتى صادرتها الدولة، فأصبحنا نحن وأنت بلا أملاك ولا أموال...

– لكن مايزال البيت لنا...

– هذا البيت لي أنا... أما أنت فليس لك شيء...

– لكنك امرأتي...

– كنت امرأتك.. أما الآن فماذا أفعل بك؟! أعمى، فقير، مريض، رمة من عظام....لا....لا... العصمة بيدي... اذهب أنت طالق...

وصعق الثلاثة... وقد صفقت خلفها الباب.. حائرين، مذهولين، ظلوا هنيهة من الزمن لا يعرفون مايفعلون... أخيراً هتف أبو دياب:

– هو ذا العقاب الحقيقي.. أطرد من بيتي!؟ رباه!! كم أخطأت إذن!؟ كم هو ذنبي عظيم!؟

– لا عليك أبي، قالت أميرة تهون عليه، فيما كانت الدموع تنهمر على خديها، هلم نذهب إلى بيتي...

– بل اذهب إلى بيتي أنا، قال مصباح الذي كان يتفطر قلبه أسىً...

– لا... أخيِ.. لا.. أميرة.... رد أبو دياب أخيراً وهو يمسح عن خده دمعة نزلت رغماً عنه، لا هنا ولا هناك...

– أين إذن؟ سألته ابنته بتعجب وحيرة.

– هم يريدون أخذي إلى السجن.. قال وهو يشير إلى البعيد والأعلى، أنا أعلم ذلك... خذوني إليه منذ الآن....

– لكأننا نذهب إلى السجن بمشيئتنا!! رد مصباح وهو يلوح برأسه، لا... أبا دياب.... لا.... السجن كالموت، رغماً عنا نذهب إليه وليس بإرادتنا...

– آه!! تنهد الأعمى بحرقة شديدة، ليتنا نذهب إليه الآن! ولم تدر أميرة إن كان أبوها يقصد السجن أم الموت...

– لا.. أبي، لا تقل ذلك.. انتفضت مترجية... لا تقنط.. أرجوك..

– أجل، لاتقنط أبا دياب.. ثنى مصباح بنبرة من لوم...ولا تنسَ: علينا أن نظل رجالاً مهما اشتدت المصائب، فقل أين نأخذك؛ إلى بيتي أم إلى بيت أميرة؟

– بل إلى بيتي الأول، قال المهدد بالسجن، الخارج من المستشفى، الفاقد أمواله وأملاكه، بمزيج من ثقة وحزن عميق، ثم أردف بتوكيد أكثر: إلى أم دياب...

لحظة من الزمن تسمرت قدما الأخ من جهة والابنة من جهة ثانية، لكن أحداً منهما لم ينبس بحرف... كان واحدهما يقلب النظر بالآخر، ثم بالأعمى الذي ينتظر أن يقوداه إلى مأوى لا يلفظه كما لفظه هذا المأوى. كانت أم دياب قد زارت طليقها مرة واحدة في المستشفى، وكانت ابنتها قد رأتها تمسح دموعها أكثر من مرة..

– أجل.. ذلك هو الحل.. هتفت أميرة وقد وقع الاقتراح من نفسها موقعاً حسناً، ثم أسرعا به إلى السيارة، وفي رأس كل منهم رحى تدور وتدور، طاحنة أكداساً من الأسئلة والاستفسارات، الاحتجاجات و الاعتراضات..

رنت أميرة الجرس، وللتو فتحت الأم الباب.. لكأنما كانت بالانتظار. ذابلة كزوجها، مشفقة كسلفها، حزينة كابنتها.. تسمرت لحظة من الزمن، متنقلة بناظريها بين القادمين الثلاثة...

– أهلاً وسهلاً بك في بيتك!! نطقت أخيراً بلسان حائر لا يدري من أين جاءه النطق، فتنفس سيف الدين الصعداء.

– كنتُ أعلم أنك امرأة أصيلة لا تعمل إلا بأصلها، حرة كريمة لا يخيب رجاء فيها، غمغم الرجل وهو يمد عنقه ويده، بحثاً عن المرأة الحرة الكريمة، يريد الاقتراب منها والبحث عن يدها، ربما كي يلثمها شاكراً، لكن المرأة كانت قد تراجعت مفسحة لهم في الطريق، وعبارة واحدة تلف دماغها كزوبعة صيف. "ليتك عرفت قيمة هذه الحرة الكريمة".

– قولي شيئاً.. تكلمي.. بالله عليك.. ألح الأعمى وهو يرتعش من رأسه إلى أخمص قدميه...

– ليتنا لم نحظَ بليلة القدر!! أجابت المرأة الحزينة المشفقة...

– ليـــــ...تـــــ...نـــــــــــ...ـــــــــا.... تردد الصدى ملء الأبصار والأسماع موجة إثر أخرى وكأنها أصداء ترددها الجدران..

بخطا بطيئة صامتة، تقدمت الأم الركب، وبسيما متجهمة حزينة سار الكل إلى الغرفة القصية من البيت، حيث كان أبو دياب ينتبذ حين بدأ رحلة المال والنساء...

دونما كلمة، دونما التفاتة، فتحت الأم الباب مشيرة بالدخول.. ودونما كلمة، دونما التفاتة دخل الأخ بأخيه من جانب والابنة من جانب آخر، يحملان الجسد الضعيف وكأنما يحملان جثماناً إلى مثواه الأخير...

دمشق –ربيع 1998

❑❑❑

رقم الايداع في مكتبة الأسد الوطنية :

أفراح ليلة القدر : رواية / عبد الكريم ناصيف – دمشق؛
اتحاد الكتاب العرب ، 1999– 334؛ 24سم.

1– 813.03 ن ا ص أ 2– 813.009561 ن ا ص أ
3– العنوان 4– ناصيف

ع–1999/5/837 **مكتبة الأسد**

❑

هذا الكتاب

رواية اجتماعية سياسية اقتصادية تعالج قضايا التغيير الاقتصادي في سوريا وما جرَّ من ظهور طبقة طفيلية تعمل في السمسرة وسيطرتها على مقدرات الوطن وهبوط طبقة المثقفين وانهيارها.

امتلأت الرواية بحوادث وشخصيات شحنت الرواية بالحركة والانفعال والتنوع والحياة عبر بناء روائي متين ومشوق.

❑❑